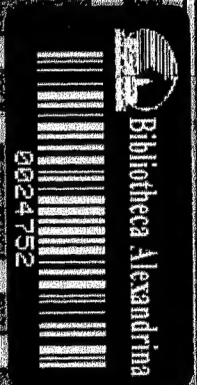
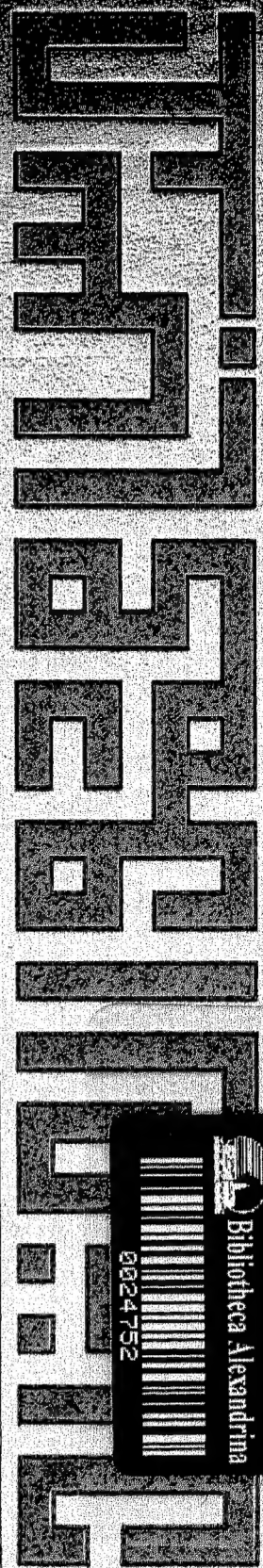


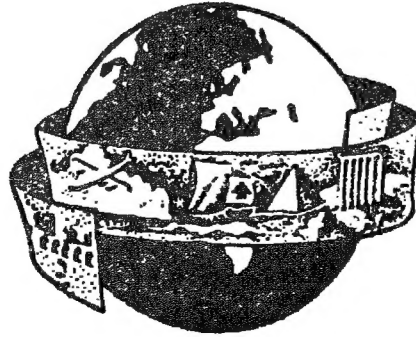


المجلد الرابع عشر
العقائد والمذاهب

④

دار الكتاب اللبناني



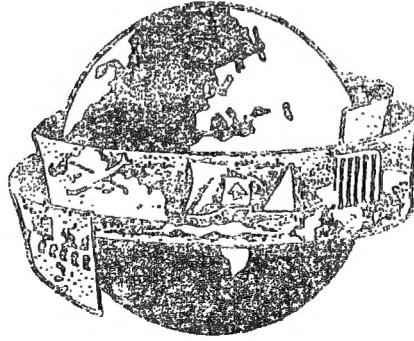


دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت: ٣٩٣٤٣٠١ / ٣٩٣٢١٦٨ - فاكس: ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - ب.ق.ك.م.ع

TELEX No. 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX: (202) 3924657 CAIRO - EGYPT



دار الكتاب اللبناني

طباعة - نشر - توزيع

شارع مدام كوريي - تجاه فندق بريستول

ت: ٨٦١٥٦٣ / ٨٦٠٧٩٢ - فاكسيلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١١)

صت: ٨٣٣٠ / ١١ أو ١٣٥٣٥٢ - برقيا: دالكبان - بيروت - لبنان

TELEX No: DKL 23715 LE - ATT: MISS MAY. H. EL - ZEIN

FAX (9611) 351433 BEIRUT - LEBANON



الحمد لله الذي

العَفَاءُ وَالْمُهَيِّبُ ٤

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقائد

المجلد الرابع عشر

العقائد والمعتقدات

يحتوي على

الحكم المطلق في القرن العشرين
الصهيونية العالمية
النازية والأديان
هتلر في الميزان
فلسفة الحكم في العصر الحديث

دار الكتاب اللبناني

القاهرة

بيروت

رقم الإيداع
١٩٩٠ / ٤٥٥٨
I.S.B.N. 977 - 238 - 097 - 8

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦١٥٦٣ - ٨٦٠٧٩٢ - فاكس: ٩٦١١١٣٥١٤٣٣
ص.ب. ١١/٨٣٣ أو ١٢٥٣٥٢ - بيروت - لبنان
TELEX: OKL 23715 LE
ATT: MISS MAY HASSAN EL - ZEIN
FAX: (9611) 351433

جميع
حقوق
الطبع
والنشر
محفوظة
للمنشرين

دار الكتاب المصري

٢٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.ع.
ت: ٢٩٢٢٢٠١ / ٢٩٢٢١٨٠ - فاكس: ١٢٤١٣٩٢٤١٥٧
ص.ب: ١٥١ - الرمز البريدي ١١٥١١ - بريقا كلاس
TELEX No: 23001 - 23001 - 22101
ATT: MML HASSAN EL - ZEIN
FAX: (202) 3924657

الطبعة الثانية

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

Second Edition

1991 A.D — H 1411

عَبَّاسُ مُحَمَّدٍ
العَقَّابُ

الحكم المطلق في القرن العشرين

دار الكتاب اللبناني - بيروت

هل فشلت الديمقراطية

كان الاستبداد المطلق مقدساً في زعم رجال الدين الذين كانوا يستعينون به على حفظ مكانتهم وقضاء مآربهم وكان هو يستعين بهم على تقرير نفوذه وشمول سيطرته على الضمائر والاجسام ، وكان لحق الحكم مصدر الهي يتلقاه الحاكم المستبد من السماء فلا يُسأل عنه ولا يكون للشعب الا أن يطيعه كما يطيع خالقه ويؤ من بحكمته التي تخفى عليه كما يؤ من بأسرار حكمة القدر . فالحكومة رسالة سماوية معصومة على هذه الارض الخاطئة ، والشك في الحكومة كالشك في العقيدة كلاهما كفر يعاقب عليه بالحرمان السرمدي من رحمة الله .

كان هذا هو مصدر الحكومة المستبدة الى ما قبل القرن الثامن عشر ، وكان الايمان به عاماً شائعاً لا يشك فيه الا أفراد معدودون من أحرار الفكر يخفون آراءهم كما يخفي المجرم جريمته والاثم وصمة عاره ، فلما انتقل سلطان الحكم من الملوك المستبدين الى مشيئة الشعوب انتقلت القداسة معه الى المصدر الجديد وأصبح حق الحكم مقدساً - مرة أخرى - من طريق الشعب لا من طريق الصوامع والكهان ، وتغير النظام القديم ولم يتغير قلبه الذي صنعت العادات المتأصلة والمصالح المتشعبة والعقائد الموروثة ، وربما بدأت هذه القداسة الشعبية

على سبيل المجاز في التعبير يلجأ اليه دعاة النظام الحديث للمقابلة بين أساس الحكومة الغابرة وأساس الحكومة الحاضرة ، ثم أضيفت الى هذا المجاز حساسة الفكرة الناشئة وروح الامل في المستقبل والنقمة على الماضي فاصبحت القداسة الحديثة عقيدة في الضمير يشوبها من الابهام كل ما يشوب العقائد التي تستعصى على تناول العقول .

أصبحت الديمقراطية عقيدة مقدسة في العرف الشائع فجاءها الخطر من هذه الناحية في عصر الشك والسخرية من جميع « المقدسات » . . . وسمع الشاكون والساخرون بهذه « المقدسة » الجديدة فعلموا ان هناك شيئاً طريفاً يظهر في براعة التنفيذ وقدره التصغير والتقييد ! فاسرعوا اليه في جد ووقار وأعتنوا أنفسهم كثيراً ليقولوا ان الديمقراطية شيء لم يهبط على الارض من السماء وان القداسة هنا مجاز لا حقيقة له في العلم والاستقراء . . . فكان الجاحدون لقداسة الديمقراطية والمؤمنون بتلك القداسة المنزهة عن الشوائب بمنزلة واحدة من الفهم والساد ، لان قداسة الديمقراطية لم تكن مسألة علمية يبحثها الناقدون المحصون على هذا الاعتبار من جانب القبول أو من جانب الانكار ، فانذين يضعونها هذا الوضع ينظرون اليها من أضيق حدودها التي يعرفها المجازيون والجهلاء ولا ينظرون اليها من أوسع الحدود التي يحيط بها من يعرف حقيقتها ويقيسها بمقياسها الصحيح . وإذا كان المتكلم الذي يقول ان الماء العذب شهد حلو المذاق مخطئاً في صيغة التعبير العلمي فأشد منه امعانا في الخطأ والغفلة عن الحقيقة من يحمل الماء العذب الى المعمل الكيماوي ليثبت ان الماء ماء وليس بشهد حلو المذاق كما يقولون في لغة المجاز .



في أواخر القرن التاسع عشر ظهرت « السيكولوجية » أو علم النفس وتفرعت فروعها وكثر الاشتغال بتطبيقه على الافراد والشعوب . ولعل أغرب ما استغربه الناس من قضايا هذا العلم وصفه لاطوار الجماعات والاساليب التي يجري عليها في تكوين عقائدها وتوجيه أهوائها وتسيير حركاتها واثارة خواطرها . فقد جاء هذا الوصف بعد شيوع الديمقراطية في العالم الحديث بأكثر من جيلين فلاح

لمعظم الناس كأنه غريب وكأنه مخالف للمقرر في الازدهان أو لما يجب ان يتقرر في الازدهان ! ولو أنه جاء قبل ذلك بمائتي سنة أو لو أنه تقدم في عصر الإصلاح مثلاً لما وقع من الافكار موقع الغرابة في شيء ولا أحاط به ذلك السحر الذي يحيط بكل هجمة مخالفة للمألوف ، ثم لجأت الديمقراطية حتماً في سياقها الطبيعي دون أن يخيل الى أحد أن حقائق علم النفس تعارض الحكم الديمقراطي أو تعارض حكم الشعوب . لان الديمقراطية كانت نتيجة لازمة لفساد حكم الاستبداد ولم تكن نتيجة لجهل الناس بالسيكولوجية وخطئهم في تفسير حركات الجماعات . فلو علم الناس في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر أن حركات الشعوب غير مقدسة ولا منزهة عن عيوب الطبيعة البشرية لما كان ذلك مانعاً لوقوع تلك الحركات في أوانها ولا واقياً للأنظمة العتيقة من التداعي والسقوط . ولكن « السيكولوجية » ظهرت بعد الديمقراطية فنشأة غرابتها من ثم وكان استغراب الناس إياها وهما متولداً من الوهم القديم الذي تطرق اليهم من تقديس الشعب بعد تقديس العواهل المستبدين . فلولا الخرافة الدائرة خرافة المستبدين الالهيين لما وجدت خرافة الشعوب الالهية ولا اتخذت أطوار الجماعات التي استعرضتها مباحث العلماء النفسيين دليلاً على بطلان الديمقراطية ، ولا قيل ان نظامها قائم على أساس واهن لانه قائم على مشيئة وهي مشيئة لا توصف بالعصمة . ا وقدما عرف الناس من أطوار الافراد أنهم يطمعون ويستأثرون وأنهم ينقادون للهوى ويخضعون للشهوات وأنهم عرضة للخطأ الكثير والضلال البعيد وأنهم غير معصومين بحال فلم يكن هذا العلم باطوار الافراد هو الذي قضى على حكومة الفرد ولم تنقوض النظم الاولى الا حين تعذر التوفيق بينها وبين أحوال الرعايا ومطالب الامم .

لم تنقض على الديمقراطية سنوات حتى خيبت آمال الخالمين فيها وخيبت آمال أولئك المظلومين الذين صوروا زمانها المترقب في صورة الفردوس الارضي أو العصر الذهبي الذي تغنى به الشعراء وتحدثت به الاساطير . فلا ظلم ولا اجحاف ولا تمييز بين القوي والضعيف أو القريب والبعيد : كأننا صوت الشعب المنطلق من غيايات الاسر نغمة ساحرة كنغيات « أورفيوس » يتجاور في سماعها

الليث والحمل والضاريات والنقاد ، ومتى كان كل هذا منتظراً من الديمقراطية فلا جرم يجيب فيها الظن ويحكم عليها الحاكمون بالفشل بعد أول صدمة مع وقائع الحياة وعثرات التجربة الأولى وهي لا تخلو من النقائص ولا تسلم من الاضطراب . فلم يكن أقصى علي الديمقراطية ولا أظلم لها من غلاة المؤمنين بها الذين كانوا يكلفونها ما ليس يكلفه نظام في هذه الدنيا أية كانت قواعده من الصحة ونيات القائمين به من الصلاح .

هذه كلها أسباب يصح أن تسمى بالاسباب المصطنعة للشك في حقيقة النظام الديمقراطي والاختذ فيه بالعرض دون الجوهر المقصود . على أنها ليست بجميع الاسباب المصطنعة التي يمكن أن تعدد في هذا المقام . فهناك أسباب مثلها دعت الى الشك في حكومة الشعب قلما تتجاوز العرضيات الى دخائل الامور . فمنها أن عيوب الحكومة الشعبية مكشوفة ذائعة لاستفاضة علاقاتها واشتراك المثات والالوف في دعواتها وأعمالها . فليس لها حجاب من الفخامة والروعة كذلك الحجاب الذي كانوا يسترون به عيوب الحكومات المستبدة ويتعاون فيه الكهان والمداح والبلاطيون على التمويه والتزيق ، وخلق بهذا الكشف أن يغض من فضائلها بعض الشيء ويرسل عليها ألسنة الثائرة والفضوليين ومن لا ينظرون الى عواقب الكلام .

ومن الاسباب المصطنعة ان نقد الديمقراطية يرضي غرور تلك الفئة التي تحب أن تتعالى عن « الشعبيات » لما في ذلك من الامتياز والادعاء ، ومنها ان المستبدين الطامعين في رجعة الحكم القديم يسعون سعيهم سرّاً وجهراً لتشويه كل نظام غير نظامهم وتآليب الناقمين على الحكم الحديث ولا بد في كل حكم من راضين وناقمين ، ومنها أننا في زمن تتوالى فيه المخترعات ويسألون فيه أبداً عن أحدث الآراء وأغرب الاخبار . فاذا مضت خمسون سنة على الناس وهم يمدحون الديمقراطية فالذي يفاجئهم بعد ذلك بنقدها لا يعدم له سامعين بين طلاب الزيّ الطريف في كل مجال .

فانت ترى ان نقد الديمقراطية يصادف من العناية أضعاف ما تستوجب الاسباب الحقيقية التي لا دخل فيها للوهم والغرض والفضول . وأما الاسباب المصطنعة

فما هي وما مبلغ ما تجيزه ؟ هي أشياء لا تجيز لاحد أن يحكم بفشل الديمقراطية ولا بأنها في طريق الفشل القريب .

لم تفشل الديمقراطية

لم تفشل الديمقراطية ولا ظهر الى الآن من آثارها وعلاماتها الا ما يدل على نجاحها وثباتها وانها ستكون أساساً للحكم في المستقبل تُبنى عليه قواعد الحكومات ويُرجع اليه في اصلاح كل ما يحتاج منها الى الاصلاح . أما تلك الاسباب المصطنعة التي ألمنا بها فأكثر من يتعلق بها ويعمل لترويجها هم أنصار الحكم المطلق والرجعة الى الاستبداد القديم وهم أقل الناس حقاً في تجريح الديمقراطية بعد ما تبين من فشل حكمهم في بلاد كثيرة وأحوال مختلفة . فاذا بطل ايمان الناس بقداسة الديمقراطية - مجازاً أو حقاً - فمن المقرر المقطوع به أنهم لا يرجعون الى الايمان بقداسة المستبدين وما يزيفونه من الدعاوى والجهالات ، واذا قيل ان الجماهير تنخدع للزعماء وتأخذ بالمظاهر وتستهال الى العقائد التي تبث فيها بالايحاء والتكرار فهذه الاطوار لم تكن ملغاة في العصور الماضية ولا كان شأنها ضعيفاً في تعريف الامم وقيادة الحكومات . وماذا كان يصنع المستبدون طوال العصور الماضية الا أن يستعينوا على خداع الجماهير تارة بالخرافات والالهام وتارة بالمظاهر والوجاهات والالقباب والاسماء وتارة اخرى بالعطايا والمواعيد الى سائر ما هو معروف من أساليبهم في تمويه الاعمال واخفاء الحقائق والتحيل على الغرائز

والشهوات . ولو أخصيت الحروب التي أريقَت فيها دماء الالوف من المحاربين
والمسلمين لخداع الشعوب وتمليقها ، أو لو أخصيت الارواح البريئة التي أزهقها
أعداء الحرية والمعرفة ، أو لو أخصيت الثورات والقلاقل التي شجرت بين
الحكام والرعايا من أجل المظاهر والاسماء والمنازعات الصيبانية والدعاوى
الفارغة ، أو لو أخصيت الدسائس والجرائم التي انغمس فيها طلاب الخطوة
وأعوان الطغيان لكان في بعض ذلك شاهد على حقيقة من تنفعهم غفلة الجماهير
ومن يضرهم انتباهها وأن تلك الغفلة لم تدم كما دامت في عهود المستبدين ولم
تفد أحدا كما أفادتهم ولم يحذروا شيئا قط كما حذروا يقظتها ولا رغبوا في شيء قط
كما رغبوا في بقائها واستطالتها . وإنما الفرق بين الاستبداد والديمقراطية أن المجال
يتسع في هذه لاقوال شتى تنكشف الحقيقة من بينها ولكنه لا يتسع في عهد
الاستبداد لكل قائل ولا يصعب فيه التواطؤ على الغش والكتمان

وان مجرد القول بان الشعوب لا تصلح للديمقراطية دليل على انها درجة عالية
يجب أن تتوجه اليها آمال المصلحين وطلاب الكمال ، في حين ان القول بجهل
الشعوب واضطرارها من اجل ذلك الى الحكم المطلق دليل على مصلحة الحكام
المطلقين في بقاء ذلك الجهل وتخليد هذه الحالة التي بها يخلدون .

ومما يضعف جانب الحكام المطلقين في دعوتهم هذه أنهم يعيرون على الجماهير
أطوارها ليتخلصوا من ذلك الى تركية الحكم الدكتاتوري أو الحكم المطلق مع أن
التجارب الكثيرة - والتجارب الحديثة منها على الخصوص - قد أظهرت ان
الدكتاتوريين الصالحين هم رجال الشعوب وثمره تلك الاطوار وأن الجماهير لا
تنقصها البديهة التي تفتن بها الى مقدرة القادة وتوليهم اعجابها وتخصم بثقتها
واقبالها وتسلمهم زمامها حتى حين يجترئون على عاداتها التي تغار عليها وتغضب
للمساس بها اذا مسها من ليست له تلك القدرة وذلك الاعجاب . فاذا احتاجت
الجماهير الى المصلح النافذ في اصلاحه فليس أقدر على هذا المطلب من زعيم
شعبي تبرزه البديهة الشعبية ولا أسرع منه في حث غريزة الامم ومغالبة ما فيها من
العيوب ، وكأن هذا المصلح هو الزوج المحبوب الذي يطاع لان طاعته سرور .
ويقاس مقدار حبه بمقدار المشقة التي تبذل في اطاعة أمره . وقد يكون الزوج

زوجا بالصيغة الرسمية ولكنه لا ينال هذه المكانة ولا ينمن الرياء والخيانة اذا تكفلت له الصيغة الرسمية بالطاعة الظاهرة .

وعيثٌ ولا ريب أن تعاب أطوار الجباهير وأن يقتصر الامر فيها على النقد والزراية وهي هي الاطوار التي لازمتها في كل ما تمخضت عنه الانسانية من الثقافات وفي كل من تمخضت عنهم من الدعاة والمصلحين ، فأصلح الطبائع لاحياء الشعوب هي الطبائع التي بينها وبين الشعوب مجاوبة في الشعور ومساجلة في عناصر الحياة . واذا كانت الشعوب تخطىء في عرف العلماء فليس عرف العلماء هنا هو المقياس الذي يرجع اليه في تقدير الدوافع والنتائج لان الطبيعة لا تستشير العلماء فيما تعمل وفيما تريد . بل ليس العلماء انفسهم بنجوة من الخطا على حسب مقياسهم لان أخطاءهم قديما وحديثا في تصور الحكومات النافعة أكثر وأكبر من أخطاء الشعوب كلها مجتمعات .

وللديمقراطية عيوبها ولكنها عيوب الطبيعة الانسانية التي لا فكاك منها . وقد يكون لهذه العيوب في مجموع الحضارات الانسانية فضل كفضل المحاسن المصطلح عليها ان لم يزد عليه ، ولا تقارن الديمقراطية بحكومة المثل الاعلى المنشودة في الخيال والموصوفة في الاحلام . اذ هذه الحكومة لا موضع لها في عالمنا ولن يكون لها موضع . ولكنها تقارن بالانظمة الاخرى في جملتها ويُنظر في عيوبها بصدق واخلاص وتقدير لجميع الظروف فلعل هذه العيوب بعض لوازم الحسنات التي لا يستغنى عنها أو لعلها طارئة يزيلها المزيد من الديمقراطية ، اذ كان من المحقق أن محاربة الديمقراطية لم تزها فيما مضى ولا يرجى أن تزليها فيما بعد . وكذلك لا يصح أن نقيس الديمقراطية بمقياس الاغراض التي أعلنها دعائها والأمال التي عقدوها عليها لان هؤلاء الدعاة لم يخترعوها ولا يتأتى لهم أن يحصروها ويسيطروا عليها - وانما تقاس مزاياها بالصرورات التي أدت اليها اولاً ثم بالفوائد التي نجمت عنها فعلاً ولا تزال تنجم : فهي بلا ريب قد أوجدت للعصبيات الحزبية مخرجا غير الفتن الدموية وأقنعت الشعوب بأن عليها تبعة في الحكم وأنها قادرة على تبديل الحكام فضعفت فيها نزع الثورة بقدر ثقتها من الاشتراك في الحكومة والقدرة على تبديلها ، وهي في مدى خمسين سنة قد

صاحبت في عالم الصناعة والعلم. تقدما لم تبلغه الانسانية في خمسين الف سنة ، وكلما ازداد هذا التقدم صعب على الناس أن يؤمنوا بتلك الخرافة التي كانت تهيبء لفرد واحد أن يملكهم له ولابنائه من بعده ملك السيد للعبيد .

يقول بعض الباحثين - (ومنهم الاستاذ ساروليا الذي ألقى محاضراته في هذا الموضوع على طلبة الجامعة المصرية) - ان الحكم النيابي تراث انجليزي غير قابل للتعميم في الامم الاخرى . ويضرب « ساروليا » المثل بالامة الفرنسية التي لا تستقر فيها الوزارات طويلا لاختلاف الاحزاب وصعوبة التوفيق بينها الى زمن طويل . ويعتبر ذلك الاختلاف من اعراض الحكم النيابي ومن الدلائل على أنه لا يصلح لكل امة ! ولو كان الحكم النيابي هو الذي خلق العصبيات الحزبية في فرنسا لكان قول الاستاذ وقول أمثاله صحيحا في هذا المعنى وكانت فيه حجة من بعض الوجوه على الحكومة النيابية ، ولكن الواقع ان العصبيات الحزبية لم تفتأ تمزق فرنسا كل ممزق في عهود حكامها المطلقين ولم يحل جيل واحد في تاريخها من فتنة على وراثة العرش أو فتنة على المذاهب الدينية أو فتنة على القحط والافلاس أو نزاع بين التاج والنبلاء أو حروب تثار لاختفاء هذه المنازعات ، حتى توطدت فيها الديمقراطية فانحصرت « العصبيات » في مناوشات الاحزاب وسكنت الثورات وبطلت المجاعات ولم يمنعها اختلاف الاحزاب أن تتناسك بعد الحرب العظمى وأن تستفيد من سمعة الديمقراطية أنصارا لا ينكر افادتهم لها منكر ، وأن توسع مستعمراتها وقد كانت تفقدها في عهد الملوك الشموس ، وأن تكون هي وزميلاتها المنتصرات عنوانا لانتصار الحرية الشعبية وآية على أن حكومات الشعوب تحتمل من الصدمات مالم تحتمله حكومات القياصرة والطغاة . فانكسرت روسيا والنمسا وألمانيا وكان نصيبهن من التماسك بعد الحرب على قدر نصيبهن من الحرية والمشاركة في الشؤون العامة بين الشعب والحكومة ، وخرجت الامم من تلك المحنة بعبرتها التي لا تضيع .

وقد فعل تراث الحكم النيابي فعله في انجلترا كما فعل فعله في الامة الفرنسية فوقهاها الثورات والخصومات الدامية وكانت وشيكة أن ترتطم فيها مرتين في القرن

التاسع عشر عند الخلاف على تقسيم الدوائر الانتخابية وتعديل شروط الانتخاب ، وهو في جوهره أشد من الخلاف الذي أفضى الى الثورة الجائحة في عهد الاستبداد .

ومن النظريات التي أذاعها بعض المؤرخين - وفي طليعتهم فلندرس بترى العالم المشهور في الاثریات المصرية - أن الحكومة الشعبية كانت هي الدور الاخير من ادوار الدول في التاريخ القديم ولا سيما تواريخ الدول المصرية : يبدأ الدور بفتح عظيم ثم يضعف الفاتح العظيم فينازعه الحكم أفراد القادة الغالبون ثم يضعف القادة ويستسلم أبناؤهم للترف والصغائر فتثور عليهم العامة وتتولى الامر الحكومة الشعبية ، ثم يسطو عليهم مغير جديد فيبدأ الدور الاول كرة أخرى وهكذا دواليك عصرًا بعد عصر في سجلات الفراعنة ومن جاورهم من المشاركة والمغاربة ، فاذا صح هذا فهو مختلف مما نحن فيه اليوم لان الحكومة الشعبية كانت في التاريخ القديم فترة منفردة تقع في احدى الدول ثم لا تكون الدول المحيطة بها مجارية لها في تلك الفترة بل ربما كانت في بداية الدور الاول - دور الفاتح العظيم - فتحدث الغارات من ثم وتتجدد الادوار . اما اليوم فالحكومة الشعبية حركة عامة ومبدأ مشترك وليس بالفترة المنفردة ولا بالدور المقصور على بعض الحكومات !

على أننا اذا قدرنا أن السنة القديمة تتكرر اليوم كما تكررت في دولات الفراعنة وجيرانهم فكل ما يستخرج من هذه النظرية أن الحكم قد تعذر على الطغاة والقادة لعجزهم واضمحلالهم فصار الامر الى الشعوب تحكم نفسها الى حين . ويبقى علينا أن نسأل أنفسنا متعجبين : هل يعقل اليوم أن هذه الحرية الشعبية التي وصلنا اليها ان هي الا فترة موقوتة جاء بها وباء عام أصاب الطغاة والنبلاء في مقدرتهم على الحكم دون الكافة والواسط ثم نعود بعد زوال هذا الوباء الى عهد يكون فيه لنا طغاة مقدسون وملوك مستبدون عصيانهم حرمان من ملكوت الله ؟ لقد كانت الديمقراطية بالامس حكومة الشعب وكان الشعب هو العامة . أما ديمقراطيتنا فليس نصيب العامة فيها الا جزءاً من سلطان الامة وهي كُُلُّ شامل يدخل فيه السوق والسراة والامراء .

تمثيل الشعب

في الحكومات النيابية يختلف تمثيل الشعب على حسب اختلاف القوانين الانتخابية . فقد ينتهي الانتخاب على طريقة من طرقه الكثيرة الى تمثيل طبقة واحدة دون طبقات الشعب كله أو تمثيلها جميعاً ما عدا طبقة واحدة هي الطبقة الفقيرة التي لا يتيسر لها شروط الكفاءة المالية . وقد ينتهي الانتخاب الى تمثيل جميع العناصر على نسبة متوازنة يشعر كل عنصر فيها باشتراكه الصحيح في تكوين الحكومة وقدرته الصحيحة على تبديلها بالوسائل الدستورية . وهذه هي الحكومة الديمقراطية في أحسن أشكالها وأوفاهها بالغرض من هذه الحكومة .

لم تثبت التجربة قط أي فرق في نوع النواب وكفاءتهم العامة بين المجالس النيابية التي انتخبت من درجة واحدة والمجالس النيابية التي انتخبت من درجات متعددة ، فنتيجة الانتخاب على درجة واحدة كنتيجة الانتخاب على درجتين أو أكثر من حيث الكفاءة العامة للنواب الذين يقع عليهم الاختيار في النهاية ، وكل ما هنالك من فرق بين الطريقتين ان تعديد الدرجات يسهل الغش والاكراه وشراء الاصوات وأن الانتخاب من درجة واحدة يمنع ذلك جهد المستطاع .

كذلك لم تثبت التجربة أن حصر الاصوات او تضيق حقوق الانتخاب أصلح لتسيير الحكومة ومراقبتها من التوسيع والتعميم ، بل قد ثبت على نقض ذلك ان الرشوة والاكراه وعامة الوسائل الشائنة تروج مع حصر الاصوات وتقل مع اطلاقها وتوزيعها بين أكبر عدد من الناخبين . فكان الانتخاب في انجلترا قبل قانون سنة ١٨٣٢ أشبه بسوق علنية لشراء الاصوات ومساومة الناخبين ، وما برحت عيوبه القديمة فاشية في تلك البلاد حتى اتسعت حقوق الانتخاب في سنة ١٨٨٥ فأخذت تقضي شيئاً فشيئاً على تلك العيوب ، ومن عجائب المشاهدات ان توسيع الحقوق الانتخابية لم يؤد الى تحكيم السلطة التشريعية في الحكومة كما أُنذر بعض المحافظين المتخوفين من تفاقم الحركة الشعبية وتقييد التاج ومجلس النبلاء ، بل هو قد أدى الى تقوية الوزارة واقامة الموازنة بينها وبين مجلس النواب على غط يدعو الى الحكمة والتؤدة في تدبير الامور . ويعلمون ذلك بخوف النواب - ولا سيما بعد ان أصبحت لهم مرتبات - من حل المجلس ومواجهة الحرب الانتخابية في كل وقت ، فان كان هذا هو السبب أو كان السبب شيئاً آخر غير هذا الذي يقوله المحافظون والمعارضون في توسيع الحركة الشعبية فينبغي أن نذكر أن مزية الديمقراطية المحققة هي ايجاد هذه الموازنة بين المصالح المتباينة لا تطهير القلوب البشرية من التفكير في مصالحها أو انشاء نواب لسياسة الامم زهاد وقديسين . وحسن - وليس بقبيح من وجهة المصلحة العامة - الا يكون اسقاط الوزارات سهلاً هيناً بحيث يندفع فيه النواب مع أول خاطر يخطر على البال . وهناك من الجانب الآخر ضمان الرأي العام والخوف على السمعة السياسية يحول بين النائب وبين التماهي في مجارة الوزارة الى حد التفريط المذموم ، فمتى توازنت جميع العوامل الديمقراطية توازناً يمنع بعض المصالح ان تطفئ على جميع المصالح الاخرى فهذه هي مزية الديمقراطية على الاستبداد . واذا قيل ان الديمقراطية تجعل النواب والوزراء ورجال السياسة على العموم ملائكة أبراراً لا يؤخذون يوماً بضعف النفوس البشرية فذلك هراء لا يصدقه أحد ولا يصادف عند الناس الا ما يصادفه كل ادعاء كاذب من الشك والحذر والاستياء ، ولكننا اذا وطننا العقول على أن الديمقراطية هي المصالح المتوازنة بين العوامل المشتركة في الحكومة فقد وطنها على الحق المعقول وهو في ذاته غاية تستحق كل ما يبذل في سبيل

الديمقراطية من الجهود .

وهذا التوازن الذي لا غنى عنه هو الذي يقضي بالآئستنى من الانتخاب طبقة او يصد عنه عدد كبير من أبناء الامة . فحسب الاغنياء وأصحاب المصالح الكبيرة والمفكرين وذوي النفوذ أنهم اصحاب قوة فعالة في الحياة الاجتماعية والسياسية قد تربي على قوة الاصوات العديدة التي يخولها أفراد الجماهير . والاشتراكيون المتطرفون يهزأون بالحكومة النيابية ويقولون عنها انها حكومة طبقات أو حكومة مالين لان أصوات الناخبين لا تقاوم النفوذ الذي يناله المليون بالتواطؤ مع السواس وتسخير الصحف والكتاب والخطباء . فكيف اذا أصبح الالوف والملايين الفقراء - وهم يطالبون بالموت في الدفاع عن أوطانهم - ولا أصوات لهم في الانتخاب ولا رأي لهم على الاطلاق الى جانب آراء الاغنياء والملاك وذوي النفوذ ؟ ومن المغالطة أن يقال ان الديمقراطية تسوي بين العالم والجاهل والغني والفقير لانها تعطي كلا منهم صوتاً واحداً في الانتخاب ، فان الديمقراطية لن تسوي بين رجل له نفوذ شعبي ورجل لا نفوذ له على غير نفسه أو لعله لا يملك النفوذ على نفسه الا لينقاد به لسلطان الآخرين . اما اذا تجرد العالم أو الغني من النفوذ الشعبي فذلك على الاعم الارجح دليل على أنه لا يصلح للاعمال الشعبية وأن مجال صلاحه في ناحية أخرى بعيدة عن أصوات الناخبين ، ان باستور لم يمنعه أن يكون باستور وان يملأ الارض بعلمه أنه صاحب صوت واحد في الانتخاب . فاذا فرضنا أن شهرته لم توله كلمة مسموعة في سياسة قومه وأنه لم يتسع له الوقت لقيادة الجماهير فلا خسارة عليه ولا خسارة على الجماهير في التفريق بين كفاءته الشعبية وكفاءته في دائرة العلم والتفكير .

أهم ما في الديمقراطية أن يشعر كل فرد وكل فريق بانه صاحب رأي في حكومة بلاده . وبغير ذلك لا تتحقق لها مزية ولا يطمئن المحكومون الى المجالس النيابية ، فالحكم النيابي الارلندي الذي تقرر الغاؤه سنة ١٨٠١ لم يفلح في اختلاس ثقة الشعب ولم يمنع ثورته الدموية والحاحه في طلب الانفصال عن الدولة البريطانية ، والبرلمان الذي انتخبه الملكيون في فرنسا بعد هزيمة نابليون لم يفلح في شيء قط حتى خدمة الملكية التي انتخبته !! فحلته الوزارة على الاثر

وأعادت الانتخاب بطريقة أقرب الى الحرية والتخير . فالديمقراطية اما أن تكون ثقة شعبية أو لا تكون شيئاً ، لأنها حين تزيف أو تحصر لا يطول عليها تعويل الشعب ولا تعويل المستبدين .

وقد تعززت مبادئ التوسع في حقوق الانتخاب عملاً قبيل الحرب وبعدها فاختدت بها أكثر الأمم في انتخاب مجالس النواب ، ففي نحو مائة دستور يلخصها كتاب الاحصاءات السياسية لم تشذ غير انجلترا التي ينص قانونها على شروط مالية غاية في السهولة ، والارومانيا التي تشترط في الناخب ان يؤدي ضريبة ما من الضرائب العامة ، والاجهورية العبيد التي تشترط الملكية ، والا بضع ولايات وجمهوريات في أمريكا تشترط اداء ضريبة الرؤوس . وقليل جداً من الدساتير يشترط القراءة والكتابة في الناخبين لان الاميين بينهم من جنس آخر وهم على الاغلب حمر أو سوداً

^١ (أمريكا الوسطى والجنوبية للاستاذ وليام شبرد

بلاد الدكتاتورية

(١) اسبانيا

لما وقعت حوادث الانقلاب في تركيا وايطاليا واسبانيا ومصر جمعها بعضهم باسم الدكتاتورية في بلاد البحر الابيض وحاول آخرون ان يجعلوا من هذه التسمية رابطة تسوغ شيوع الدكتاتورية في تلك البلاد . كأن كلمة البحر الابيض كافية لالقاء الشبه بين بلاد لا يشبه بعضها بعضاً في الجنس ولا في الاحوال السياسية أو الاقتصادية . فالفرق بين تركيا واسبانيا كالفرق بين أبعد أمتين على ظهر الكرة الارضية وكذلك الفرق بين مصر وايطاليا من وجوه كثيرة وان كانت جميعها وافعة على سواحل بحر واحد .

وهذه البلاد على اختلافها في كثير من الشؤن تختلف كذلك في الاسباب التي أدت الى الانقلاب والعوامل التي تمكّن فيها الحكومة الانقلابية . وأشد هذه البلاد اختلافا هي اسبانيا التي لا تضارعها في أحوالها المتناقضة أمة أخرى من أمم الحضارة .

مصطفى كمال وموسليني كلاهما بطل الانقلاب في بلاده ومحور الحركة القومية

التي اشتهرت باسمه . اما بريمودي ريفيرا (او مجولتو) كما يعرفونه في وطنه فلم يكن بطل الانقلاب ولا كان هو المختار لتمثيل دوره ، وانما انصرف اختيار الرجعية أولا الى الجنرال « أجوليرا » لتنفيذ الخطة المرسومة وانعقدت النية على ابراز هذا الجنرال لقيادة الحركة وأوشك ذلك أن ينفذ لولا أنه وقف مرة في مجلس الشيوخ يقول ان شرف العسكري مقدم على شرف « غير العسكري » فتصدى له رئيس الوزارة السابق « سانثي جوير » وصفعه صفعتين ففضى على مستقبله في الدكتاتورية بهذا الحادث الذي كثر حوله اللغظ واشتد من جرائه اللجاج في البيئات العسكرية والاجتماعية .

عندئذ تحولت العناية الى بريمودي ريفيرا وهو رجل ارتقى الى رتبة القيادة قبل الثلاثين وشمله الطالع السعيد لانه ابن أخي الجنرال بريمودي ريفيرا الذي خذل الحكومة الثورية في سنة ١٨٧٤ ورد العرش الى ملوك البربون ، ولم يكن لذلك الجنرال ولد من نسله فكوفيء على عمله بترقية ابن أخيه حامل اسمه ووارث سمعة بيته !

والحركة كلها معتمدة على قوة الضباط الذين يكرهون الحكومة الدستورية الحرة لانها تريد أن تحد من عددهم ومرتباتهم وتنفق هذا المورد الكبير فيما ينفع الامة ويصلح مراقفها المهجورة . اما الرجعية فهي تأبى ذلك وتستبقي هذه القوة الكبيرة لقمع كل حركة تتوجس منها . وما الضباط في اسبانيا ؟ هم قوة لا نسبة بينها وبين حاجة الامة ولا عدد الجنود . « فقد قيل انه كان في اسبانيا عند نهاية الحرب مع الولايات المتحدة ٤٩٩ جنراً و ٥٧٨ كرنيلاً و ٢٣٠٠ ضابط . وبعبارة أخرى انه كان لاسبان ٣٦ ضابطاً حيث يكفي ضابط واحد للجيش الفرنسي في هذه الفترة ، وقد كانت علة الجيش الاسباني سنة ١٩٠٦ ثمانين الفا ثلثهم ضباط ، وكان ستون في المائة من موارد الدولة تنفق على الجيش في أوائل هذا القرن وثلاثة أخماس هذا المبلغ تنفق على الضباط . . والقواد يتدخلون في السياسة كلما عنت لهم مناسبة . ففي سنة ١٩٠٥ نشرت احدى الصحف

(١) كتاب الفونس الثالث عشر مكشوف القناع للكاتب الاسباني الكبير بلاسكو ابايز .

القطلانية مقالات اغضبت العسكريين فهجمت ثلثة من الضباط على مكتب الصحيفة ودمرته تدميراً . ولو حدثت هذه الحادثة في غير اسبانيا لعدت تمرداً على النظام ولكنها لا تعتبر كذلك في اسبانيا على ما يظهر ، فان الضباط لم يعاقبوا . . لا بل ذهب القواد الى أبعد من ذلك فطلبوا أن يسلم كل من يتعرض للجيش او للمملكة الى لجنة عسكرية تفصل في أمر ادانته بدلا من تسليمه الى المحاكم القضائية ، فجعل الوزراء يستقيلون واحداً بعد واحد في مواجهة هذا الطلب ثم اقترح « جارشيا بريتو » وزير الحقانية يومئذ أن يحل المشكل بزيادة العقوبة على هذه الحملات مع بقاء المحاكمة موكولة الى القضاء . فتوعد الجنرال لوك - وزير الحربية - بالاستقالة من منصبه وأمهل « جارشيا بريتو » حتى يتدبر في الامر ويأتي باقتراح آخر قبل يتسنى للجنرال ان يقول هل الجيش راض بالاقتراح الجديد او غير راض ! وكان مغزى الكلام واضحاً فلم يسع جارشيا بريتو الا أن يستقيل لانه لم يقبل الازعان . ومن ثم اتفقوا على التوسط في نظام المحاكمة فتركوا قضايا الحملات على الضباط للمحاكم العسكرية وأبقوا القضايا التي تتعلق بالمملكة والراية للمحاكم القضائية^١

ومما يزيد الارتباك في سياسة الجيش ان صغار الضباط من فرق المشاة مخالفون لرؤسائهم في الميول والمطالب لاتهامهم اياهم بالمحاباة في الترقيات ، فهم يريدون الاصلاح ويشايعون خصوم القواد المكروهين بعض المشايعة . وليس من شأن هذا الاختلاف أن يهون علاج الحالة لمن يريد العلاج الحاسم لاصل الداء .

فهذه الحركة العسكرية تؤيدها الرجعية الممثلة في النبلاء والكنيسة ومن يكمنون وراءهم هي سر الانقلاب المدبر المرسوم بمعزل عن الحياة القومية على مثال غير الذي عرف في تركيا وايطاليا ، وما النبلاء أيضا في اسبانيا ؟ وما الكنيسة فيها ؟ أما النبلاء فهم الطبقة المسيطرة على الامة بين طبقات الاسبان . اذ ليس هناك الا سادة غنية وجماهير فقيرة وليس بينهما موضع للطبقة المتوسطة التي تظهر

(١) الاستاذ شارل شبان في المجلد السادس والعشرين من تاريخ المؤرخين .

في الامم بظهور المشروعات الاقتصادية ورواج الصناعة والتجارة والتناسب في توزيع الارض الزراعية . يقول الاستاذ شارل شبيان : « ان بين النبلاء والجهال فجوة واسعة لان الطبقة الوسطى ضئيلة الشأن بالقياس الى ما ينبغي أن تكون . والجهال على الغالب عنصر طيب محب للحرية ميال الى الديمقراطية ولكنهم مرهقون بسوء الحال وقلة فرص الاعمال . فينزح الطامعون منهم الى الهجرة وارتداد الرزق في الأرجنتين والمكسيك وغيرها من أصقاع امريكا الاسبانية ، ويربح اسبانيا في كل سنة مائة الف او أكثر من خيرة العناصر المطلوبة للبلاد ، ويبقى الذين يتخلفون في حالة من الضنك بالغة في السوء والضعف » .

اما الكنيسة أو رهبان الاديرة فقد كان لهم في القرون الوسطى نصف الارض ومعظم الثروة ، ولا تزال لهم في اسبانيا قوة لا تغالب لانها كانت مباء رجال الدين ومحكمة التفتيش بعد اجلاء العرب واشتداد الدعوة الصليبية . فتواطأ سلطان الاستبداد وسلطان الكنيسة على قتل التعليم ومحاربة العلوم والفنون التي لا بد منها لحياء الصناعة وتثمين موارد الثروة . حتى حظروا دخول الكتب الاجنبية وحرموا كل معرفة لا يباركها أنصار العصبية الدينية . ونجم عن ذلك « ان اسبانيا فيها الآن الفا الف هكتار من الارض لا تزرع وستة وعشرون الف الف هكتار من الارض الصالحة للزرع لا تروى والفا الف فقط من الارض المروية المزروعة . . . وأنهار البلاد تتدفق الى البحر فتجري في أقاليم جرداء ظامئة وتطم في الشتاء لاجتراف كل ما يعترضها في طريقها لا لخصاب الاقاليم واصلاحها للزراعة . ففي اسبانيا صخور كثيرة لبناء الكنائس والاديرة ولا صخور فيها لبناء السدود والخزانات »^١

وجاءت المستعمرات فافسدت ولم تصلح وضاعفت البلاء ولم تخففه . نزع اليها نخبة الشباب وخلفوا الديار خاوية على عروشها للنبلاء والرهبان والكسالى من السكان ، ثم تهورت المملكة في حرب مع الولايات المتحدة من أجل تلك المستعمرات فكان كل ما أصاب الحكومة منها أنها خرجت بدين أهلي قدره مائتان

(١) في ظل الكنيسة للكاتب الكبير بلاسكو اباينز

وسبعون مليون جنيه بفائدة سنوية أربعة في المائة وستون مليوناً بفائدة سنوية خمسة في المائة . وهذا فضلاً عن الديون الأجنبية وأثمان الأرض المبيعة مما أدى إلى متاجرة الحكومة بورق النسيب ونقص المرتبات^١ واختلال الوظائف وشيوع الفساد في دواوين الحكومة ، حتى أصبح الموظف يقبض ما يقبض من مرتبه ولا يذهب إلى ديوانه لاشتغاله بحرفة أو حرف أخرى ، وروي عن موظف إسباني قبل سنوات قليلة أنه كان يشتغل بخمس عشرة حرفة غير الوظيفة^٢ .

في وسط هذه الفوضى الفاشية في كل مكان ، وفي وسط هذا الاستبداد الذي يتعاون عليه الرجعيون جميعاً ويستمسكون به كلما أذرتهم بوادر التداعي والزوال ، في هذا الغمار المضطرب المتقلقل حبطت مساعي الأحرار وشاعت البطالة والتسول والفقر المدقع وسرت روح التذمر بين العمال وتفرقت البلاد شيعاً وأقاليم يطلب كل منها الاستقلال لبلده ويعن بعضها في ذلك حتى يعلن الثورة وينادي بالانفصال كما حدث في قطالونية . إذ يجب أن نذكر أن إسبانيا كلمة واحدة ولكنها في الواقع أمم شتى لم يندمج بعضها في بعض ولم يزل كل فريق منها يكره كل فريق غيره ويعيره أصله وقومه . ففيها ملل كثيرة تزيد على العشرة وفيها أقاليم منعزلة تلح في طلب « اللامركزية » ولا يعنى ابنائها بالوطن كما يعنون بمصلحة الأقاليم .

هذا إلى جانب الدعاية الجمهورية والدسائس المتشعبة بين أجزاء الأمة المفككة الاوصال ، وإلى جانب المكائد الخفية التي تعرقل كل إصلاح يرجى أن يقتلع أصول الحكومة السيئة ، فلما وقعت كارثة « النورال » - وهي الكارثة التي قتل فيها عشرة آلاف جندي والقائد سلفستر ومئات من الضباط واستأسر بقية الجيش كله للمراكشيين - جرى التحقيق على أيدي لجنة النواب واشترك فيه المملوكيون والجمهوريون فظهر من أقوال الشهود ومن أوراق ضبطت في أمتعة القائد القتل أن خطة القتال التي أودت بذلك العدد الكبير من أبناء البلاد قد وضعت بغير علم

(١) إسبانيا الحديثة من ١٨١٥ إلى ١٨٩٨ للاستاذ بتلر كلارك .

(٢) الاستاذ شبنان في تاريخ المؤرخين .

وزير الحربية الذي نبزه واضع تلك الخطة المشؤومة بلقب « الخمار » . . فهاجت
الخواطر هياجاً عظيماً وأوشك أن يقع الحادث المتظر وأن يسقط معه المسؤ ولون
عن هذا الفساد ولكنهم عجلوا بالانقلاب - وقد طال تحفرهم له - ودفعوا الاتهم
للتنفيذ فمضوا فيه وكان أول ما اهتموا له مهاجمة البرلمان والاستيلاء على محاضر
لجنة التحقيق !

هذه حالة لا تشبه لها في غير اسبانيا من بلاد العالم أجمع وذلك انقلاب يراد به
اطالة أسباب الفساد لا اصلاح تلك الاسباب التي لن يرجى مع بقائها صلاح .

تركيا

إذا كانت اسبانيا مخالفة جداً لتركيا وإيطاليا في انقلابها فالشبه من الجهة الأخرى غير قريب بين أسباب الانقلاب الذي حدث في هذين البلدين ومظاهره وأشخاص القائمين به . غير أنها قد يتشابهان في أمر واحد وهو أن بطل الانقلاب في كليهما هو محركه ومحوره وإن تباينت البواعث والأغراض .

لما عقدت الهدنة بعد الحرب العظمى كان قد مضى على تركيا سبع عشرة سنة في حروب متلاحقة من حرب طرابلس الغرب إلى حرب البلقان إلى الحرب العظمى إلى ما تقدم ذلك وتحلله من مناوشات في اليمن وأرمينية والباليا وغيرها ، بحيث انقضى على معظم الجنود في الجيش العثماني خمس عشرة سنة لم يلقوا السلاح ولم يزالوا طوال ذلك الزمن بين هزيمة فادحة أو ظفر لا غنم فيه . هذا إلى شظف العيش وادمان الهجرة وقنوط النفس من عواقب الجهاد المتتابع في غير طائل . ثم كانت الطامة الكبرى بعد الحرب العظمى فسقطت تركيا متهالكة من الأعياء لا رمت فيها ولا رجاء : خراب فوق خراب ويأس مطبق لا منفذ فيه للرحمة ، جيش مشتمت مفلول وأمة منهوكة يرهقها ذل الهزيمة وعاصمة محتلة وحكومة منحوبة القلب يعبث بلبها الوعد والوعيد وخليفة يخيّر نفسه بين حماية إنجلترا أو حماية

الولايات المتحدة ، والحلفاء من وراء ذلك ظافرون مختالون قد حكموا على عدوهم الواقع في قبضة يدهم بالمحو والفناء وقسموه بضعة بضعة وأطلقوا على كل بضعة منه خصما متعطشا للنقمة يقتل وينهب ويهتك الاعراض ويدمر العمار .

من هذا الخراب المطبق انشأ مصطفى كمال دولة جديدة تنفض عنها ضعف القنوط ويبرم لها أعداؤها قيوداً جديدة فتخرج هي من محتها وقد حطمت قيوداً لأولئك الاعداء كانت ترسف فيها قبل الحرب وأبطلت كل ما كان لهم في بلادها من الامتيازات وكل ما كان لهم في دواوينها من الجاه المطاع .

لم يكن مصطفى كمال حكيماً مثلاً بل ريب حين صحت عزيمته على أن يحارب الحلفاء ويحارب اليونان ويحارب حكومته ويحارب الحائنين من أبناء وطنه ، لم يكن حكيماً مثلاً حين صحت عزيمته على أن يحارب هؤلاء جميعاً بطائفة من أمته الصغيرة مثخنة بجراح الهزيمة والافلاس معودة أن يتورط بها القادة فيما لا يفيد ولا يعود منه فخر ولا عزاء . وانما كانت الحكمة كلها والاتداد كله عند اناس آخرين من الترك كانوا يجلسون في الاستانة في هيئة وسكينة ينتظرون الحاقمة التي ما كان عنها حميد ، وكانوا يعلمون ما لا فضل في علمه لاحد على أحد : كانوا يعلمون أن الحلفاء أقوياء ظافرون وأن مصطفى كمالاً ضعيف مخذول ، وأن الحماقة كلها حيث يعمل مصطفى كمال والحكمة كلها حيث يعملون هم مع الحلفاء أو بعبارة أخرى مع الانجليز . وصدقوا - لانهم حكماء مثلدون - أن الانجليز لا يتمرون لتركيا ولا يشتطون عليها في شروط الصلح الا لأن فيها حركة وطنية وانسانا يسمى مصطفى كمالاً يقود تلك الحركة الوطنية ! فبعثوا اليه البعث تقاتله ونصبوا المحاكم تدينه في غيبته وقضوا عليه هو وصحبه بالموت لانهم عصاة يقلقون سلام الدولة ويفسدون بطيشهم سياسة الدهاء المحنكين ! قال مصطفى كمال : « كانوا يقولون للامة من جهة والحكومة الاستانة من جهة أخرى لا تعترفوا بـ مصطفى كمال ولا تثقوا به لان الحلفاء لم يشتدوا على تركيا الا من جراء فعله . كانوا يقولون ذلك ويزعمون انه اذا قضي عليّ نالت البلاد عند الدول الاجنبية كل صداقة وهواة » .

كان دهاة الاستانة المحنكون هم الحكماء المتثلون لانهم صدقوا هذا الكلام المقنع الجميل . أما مصطفى كمال فلم يكن الا رجلا وطنيا غيوراً يحس احساس الوطني الغيور . رجلا يشعر بعاطفة الحب لبلاده فلا يصدق أنها تموت كما لا يصدق الوالد المشفق ان وليده مائت بين يديه وإن أهدقت به أعراض المنية ولم يبق فيه الا قليل ذماء ، ولم يكن بعيداً عن مصطفى كمال أولئك الذين يوسوسون له بان أمته أمة هالكة لا تستحق حبه ولا ينفعها ولاؤه . فقد كان في أوائل الحرب يشكو الى الرؤساء إشراف الالمان على جيش بلاده وتسليم الهيئة الالمانية جميع اسراره ومعداته فلم يأبه له أحد ولم يظفر منهم بخبر ، الا صديق له من أصحاب المناصب الكبيرة في وزارة الحربية قال له وهو يتلطف اليه : « اننا أكثر منك تجربة أيها الاخ ! لا أنكر ان ما يستجيشك الى هذه الاخيلة وهذا الشعور انما هو حب وطنك وإيثارك مصلحة قومك . ولكن أتري ان هذا الوطن وهؤلاء القوم يستحقون منك هذه المحبة المستحرة ؟ »^١

فاكبر انتصار يؤثر لمصطفى كمال هو لا مرأ هذا الانتصار الاول على اليأس والرهبة وسوء الظن بالامة . ولو انه يشس لما ليم على رأسه ، أو رهب لما كانت رهبته لغير سبب ، أو أساء الظن بالامة لسوغت ظنه السيء خيانة الخائنين وجهل الجهلاء وخطل السواس وقلة جزاء العاملين ، ولكنه قهر هذه الوسواس في نفسه وأدال منها للعزيمة والرجاء وعلم أنه زعيم ليجعل الامة تستحق لا لأن الامم تستحق كل شيء بغيره ، فكان انتصاره على وسواس الضعف هو البطولة الصادقة وهو الغلبة التي لا تذكر معها غلبته على خصومه في ميدان الحرب والسياسة .

ويحق لنا أن نسمي مصطفى كمالاً « دكتاتوراً » اذا عنيانا أنه صاحب الفضل الاكبر في انقاذ أمته وتفريج أزمات بلاده ، ولكنه ليس بالدكتاتور اذا نظرنا الى نظام حكومته وقواعد دستوره واتصاله الحميم بشعبه .

فانه لم يحكم قط لا في الحرب ولا في السلم بغير هيئة نيابية ، ولم يدع الى انتخاب المجلس الوطني الكبير الا بعد أن صدر امر « وحيد الدين » بحل مجلس

(١) راجع مذكرات الغازي مصطفى كمال التي نشرتها الصحف التركية وترجمت نبد منها الى العربية

المبعوثين ولحقت بانقراض جماعة النواب المؤيدين له في الحركة الوطنية . فاجتمع من هؤلاء ومن النواب الذين نقاهم الانجليز الى مالطة ومن النواب المنتخبين في الاناضول ثلثة وخمسون نائباً هم قوام الحكومة الكمالية وهم أصحاب السلطان الأعلى في التشريع والتنفيذ وإدارة أعمال الحكومة كافة ، فالأمة هي صاحبة السيادة الكاملة والمجلس الوطني الكبير هو ممثل الأمة وهو الذي يوكل عنه الوزراء والولاة بل هو الذي انتدب مصطفى كمالاً للقيادة وجدها له فترة بعد فترة ، وكانت مدة المجلس سنتين في إبان الحرب لمتابعة الحوادث ، وتمثيل الأمة فيه أثناء التطورات الحربية أصبح تمثيل . ثم استقرت الأمور وتعذر الدستور في العشرين من أبريل سنة ١٩٢٤ فزيدت مدة المجلس الى أربع سنوات ونصت المادة السابعة على ان « المجلس يباشر سلطته التنفيذية بواسطة رئيس الجمهورية الذين ينتخبه المجلس وبواسطة الوزراء الذين يختارهم رئيس الجمهورية » ولكن ليس لهذا الرئيس ان يحل المجلس الوطني الكبير ولا أن يرفض القوانين التي أقرها النواب وليس من حقه أن يشترك في المناقشات وإن كان يجوز له في حالات خاصة أن يحضر جلسات الوزراء ويجوز للمجلس ان يسقط الوزارة متى شاء .

قالت الكاتبة الانجليزية جراس اليسون في كتابها الحديث « تركيا اليوم » : « ان القدر قد ارتفع به الى أعلى ذروة في بلاده ولكنك لا تلمح عليه انه صاحب مطمع شخصية او خاضع لاية رغبة في المال او الاسرة او المنصب ، ولو تسنى بقاء السلطان لبقى على عرشه . فقد رجاه هو مرة ان يتقدم بنفسه ليتسلم أزمة الامور ، ولما لقي اليه الشعب الشاكر مقاليد السلطنة والخلافة رفضها بتاتا على اخلاص الشعب وجده في اقتراحه » .

وقد جهر مصطفى كمال بامتناعه من سياسة أحمد زوجو ملك ألبانيا الجديد وأبي أن يعترف به لئلا يكون في اعترافه تشجيع للذين يستخدمون ثقة الأمة لمثل هذه الأغراض . فليس لأمة من الحقوق الدستورية مثل ما للأمة التركية في حكومة مصطفى كمال ، واذا أقدم هذا الرجل العظيم اقدام الجبور في اصلاح

قومه فانما يفعل ذلك بشفاعة عن حبه اياه واعجابهم به ورغبتهم في ارضائه وتسهيل عمله ، وطوبى لامة تجتمع لها حقوق الدستور ونخوة الاعجاب وترزقها العناية رئيسا تثق به ويثق هو بأنها جديرة بين الامم باعلى مقام .

ومصطفى كمال بعد عالم في فنه مطلع واسع الاطلاع على سير القواد والعظماء ، خطيب فصيح وكاتب اديب وسائس موفق السياسة ومصلح بصير بدخائل النفوس ومواقع الاصلاح ورجل اجتماع مستظرف الكياسة وانسان تشرف به الانسانية ويعد في الذروة العليا بين الرجال العاملين .

الى مثل هذه الزعامة تحتاج الامم ، لان الامم لا تطلب الزعماء الا لينهضوا بها فوق ضعف الحرص والضرورة وفوق ضعف الشهوات الباطلة والعروض الزائلة ، ولو كان عمل الزعماء فيها أن يجنبوها كبار الآمال ويوصوها بالحرص على الشهوات القريبة والعروض الميسرة لاستغنت عنهم أيما استغناء ولكن لها الكفاية فوق الكفاية من ذلك الجشع المركب في دخائل النفوس والذي ما وجدت القوانين والاخلاق والاديان والزعامات الا لانه محمود الزوال والخفاء وليس بمحمود البقاء والنماء .

ايطاليا

تنبيه

كتبت عن « الفاشزم » في اوربا وأمريكا عشرات من الكتب ومئات من الرسائل والمقالات أكثرها لا يمكن التعويل عليه لما هو معلوم من سعة الدعوة التي يقوم بها الفاشيون في كل مكان وكثرة الاغراض التي تدور حول الدفاع عن هذا المذهب بين أصحاب أموال يحبون أن تشيع القوانين الصارمة في معاملة الصناع أو محافظين يكرهون الديمقراطية والاشتراكية أو خصوم سياسيين لخصوم موسليني يساعدونه للنكاية ببناء وطنه الآخرين . ويجب الحذر على الاخض مما يكتب عن الفاشية في بلاد الانجليز لان السياسة البريطانية تماليء موسليني لأسباب متنوعة يتعلق بعضها بالتفاهم السري على الشرق واوربا الشرقية - والقراء في مصر لا ينسون مسألة جغوب - ويرجع بعضها الى ما يأتي وهو :

(أولا) ان موسليني كان داعية الحرب في صفوف الحلفاء حين وقف الساسة الايطاليون موقف الحياد أو المحاباة السلمية لدولتي اوربا الوسطى عملا بالاتفاق القديم . فمن مصلحة السياسة البريطانية أن تؤيده في ايطاليا وتخذل خصومه بكل ما تستطيع .

(ثانيا) ان موسليني انشق على الاشتراكيين وأفرط في محاربة الشيوعية وهي

عدو لدود للسياسة البريطانية فيهما أن تؤلب عليه الانتصار .

(ثالثا) انه ينافس فرنسا في البحر الابيض فهو قرين موافق للسياسة البريطانية .

(رابعا) ان السياسة البريطانية احتاجت بعد الحرب العظمى الى رد فعل للمبادئ الولسنية والافكار العامة التي اطلقت آمال الشعوب ودفعت بها في وجهة الحرية والديمقراطية ، فهي تجد في الفاشيين حاجتها لكبح تلك الآمال ومحاربة تلك الافكار حيث يرونها أن تحاربها في البلاد الشرقية . ولا سيما وهي تستطيع أن تعمل ذلك دون أن تغضب الامة الانجليزية بل هي تعمل لتملق هذه الامة وتعتبر الحكم الديمقراطي مزية خاصة لها لا تشاركها فيها الامم الاوربية ولا شعوب الشرق من باب أولى .

(خامسا) ان في انجلترا حزبا من المحافظين الجامدين وبعض رجال الدين - لسان حاله صحيفة المورننج بوست - يكره الديمقراطية كراهة شديدة ويدعو الى سياسة الدم والحديد لانها خير سياسة للامم قاطبة والامم المستعبدة منها على الخصوص . ويقول ان حركات الشعوب كانت دسيسة يهودية لتدمير اوربا وتقويض الحضارة المسيحية واضعاف سلطان الكنيسة الكبرى ! ويعتمد في هذا الكلام على حركات ايطاليا نفسها لانها وجدت العضد الاكبر بين جماعات الماسون وكان اليهود فيها غير قليلين . وأشياع هذا الحزب هم الذين اكتسبوا بمبلغ من المال اشتروا به سيفاً في قراب ذهبي أهذوه الى القائد داير صاحب مذبحه امرتسار في الهند .

فالذي يكتب عن الفاشية في الصحف الانجليزية وفي بعض الكتب مشوب باغراض كثيرة لا يسهل استخلاص الحقيقة من بينها ، وقد يخدع به القارئ اذا لم يتخذ لنفسه الحيلة فيبنى عليه حكما بعيداً عن الصواب . وكاتب هذه الرسالة قد عالج مصداق ذلك في نفسه من قراءاته السابقة واللاحقة في هذا الموضوع .

الفاشية والديمقراطية

بعد هذا التنبيه الذي لا بد منه نقول ان الفاشية هي المذهب الوحيد في بلاد الدكتاتورية الذي يدعي أنصاره أنهم يصدرون في حكومتهم عن مبادئ عامة تقابل مبادئ الديمقراطية ، وقد أعلنوا هذه المبادئ في مؤتمر عقده في شهر سبتمبر سنة ١٩٢١ وتتلخص في أساس واحد وهو « أن الامة ليست هي مجموعة الافراد الاحياء فحسب ولا هي آلة للأحزاب ولكنها بنية تدخل فيها سلسلة الاجيال التي لا نهاية لها ولا يعد الافراد الا أجزاء عارضة منها ، وهي بعبارة أخرى جملة جميع العناصر المادية وغير المادية التي تنطوي عليها القومية » .

وإدراك الامة على هذا النحو ليس بالرأي الجديد ولكن الرأي الجديد فيه هو ما استخرجه « الفاشيون » من هذه الحقيقة وهو أن الحكومة هي كل شيء ولا يصح أن تتألف في الامة هيئة مجتمعة خارجة عن السلطة الحاكمة حزبا كانت هذه الهيئة أو نقابة عمال أو جماعة تتولى العمل للمصلحة العامة ، وواضح أن هذه النتيجة الغريبة مناقضة لإدراك الامة على النحو المتقدم لان القول بان الامة « بنية تدخل فيها سلسلة الاجيال التي لا نهاية لها وأنها جملة العناصر المادية وغير المادية التي تنطوي عليها القومية » أخرى ألا يجعل مقاديرها الحاضرة والمستقبل لعبة في أيدي بضعة أفراد يحكمونها في جيل واحد بغير مناقشة أو تعقيب ، وقد شاع أن الفاشية عدو الشيوعية المبالغ في مطاردتها واستئصالها وهو صحيح من حيث الظواهر والعناوين وصحيح مثله أن بعض طوائف الاشتراكيين تحارب الشيوعية كهذه الحرب بل أشد منها تقمة وبغضاء ، ولكن الواقع أن « الفاشية » أخت الشيوعية في الجوهر والاساس وهو محور « الفرد » واستغراق حريته وحقوقه في سلطة الحكومة . فما جهد « كارل ماركس » لشيء جهده لإثبات هذه الفكرة التي يقوم عليها بناء الاشتراكية كله ، فالمنافسة الفردية لا يصح بحال من الاحوال أن تقف في طريق الشيوع الاجتماعي ما دام أن الفرد عنصر عارض لا قيمة له في حوادث التاريخ ، وعلى هذا يجب أن تستولي الامة على كل شيء ولا يستأثر الفرد بشيء . ! بيد أن الشيوعيين يقولون ذلك ولا يقطعون الامل على الفرد في المستقبل كما يقطعه عليه الفاشيون ، فهم يمنونه بالحرية التامة في توجيه حياته وتكميل خصائصه متى خف عنه ضغط الفاقة وجهاد المعيشة بمنع الملك

والاستئثار واعفاء المجتمع من حروب الطبقات . اما الفاشيون فلا يفتحون له باب هذا الأمل ولا يبرح الفرد عند حكومتهم مستغرقا في المجتمع الذي لاحق لانسان فيه خارجا عن حق الحكومة الخالدة ! ومن ثم يبدو لنا موضع الخطر الدفين ويتبين لنا أن المسافة بين الشيوعية والفاشية ليست من البعد بحيث توهمنا الخصومة الظاهرة والعداوة العنيفة . تلك الخصومة التي ينشب ما هو أعنف منها بين الاشتراكيين والاشتراكيين والتي قد نشب ما هو أعنف منها فعلا بين البلشفيين والمنشفيين .

هل كان الفاشيون على هذه العقيدة منذ البداية ؟ لا . قال السنيور نيتي في رسالته التاريخية في المجلد الخامس والعشرين من تاريخ المؤرخين : « كان من مقاصد الفاشية في بدايتها انشاء الجمعية الايطالية الدستورية على أن تكون فرعا لجمعية الشعوب الدولية التي ترمي الى تغيير قواعد المجتمع سياسة واقتصادا والوصول - يغير تدرج - الى تطور الحضارة وعلان الجمهورية الايطالية مع الحكم الذاتي للاقاليم وسيادة الشعب تتولى تنفيذها هيئات مختصة والغاء مجلس الشيوخ وكل هيئة مصطنعة تحد من اطلاق السيادة الشعبية ، والغاء الرتب المميزة للطبقات والغاء الجندية الاجبارية ونزع السلاح وانشاء معاهد شعبية كبيرة للتسليف الخ الخ مما جعل للفاشية بين سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ نزعة ثورية ونم على أصلها الاشتراكي . الا أن النزاع بينها وبين الاشتراكية - وكلاهما له أصل واحد - قد صبغها بالصبغة الوطنية ثم بالصبغة المحافظة خلافا لبدايتها الاولى . وقد ساعد على ذلك انتظام كثير من جنود الحرب في صفوفها فلم يبق ذكر لمقاصدها الاولى » .

كذلك نشأت الفاشية في بدايتها ، ثم صارت في سنة ١٩٢١ الى ما رأينا ! فلما جاء دور الحكم كانت تحية موسليني لمجلس الشيوخ كلمة طيبة وتحية لمجلس النواب انذاراً يشبه انذار كرمويل للبرلمان الانجليزي في اللهجة والزراية ، وأصبح مفروضاً على كل فاشي أن يقسم بين الولاء للملك كما يفعل الجنود في الجيش .

وليس هذا أول تحول في آراء موسليني أو تناقض بين مبدئه وعمله ، فانه كان ينكر الحرب عامة وكان أحد الذين قبض عليهم وحوكموا لاثارتهم الشغب والهياج في أيام الغارة الطرابلسية . ثم كان شديد المعارضة لاشتراك ايطاليا في الحرب فكتب في « افانتي » صحيفة الاشتراكيين بتاريخ ١٣ سبتمبر سنة ١٩١٤ يرد على صحيفة

« الايديانسونالي » أي الفكرة الوطنية التي كانت تحت على دخول الحرب : « آه ! لقد ظهرتم اخيراً . ان الحرب تدبر لتعزيز جاه البيت المالك والجيش والحكومة . . حسن ! ولكنكم لا تقولون لنا جديداً أيها السادة . فلهذه الاسباب عينها نحن لا نبغي حرباً . لان الغاية التي تقصد اليها معكوسة على خط مستقيم ، نحن نقصد الى هدم جاه البيت المالك وجاه الجيش وجاه الحكومة » وكتب في « افانتي » أيضاً يقول : « ان المعاونة على حصر الحرب وتضييقها هي واجب ايطاليا المجيد الذي عليها أن تقوم به ما دام منع الحرب غير مستطاع ، وليس في وسعنا أن نكون خداما ولا ممالئين لالمانيا والنمسا »^١ .

كتب موسليني ذلك لان الجانب الذي كان ينتظر ان تنحاز اليه ايطاليا هو جانب المانيا والنمسا على حسب الاتفاق القديم بين الدول الثلاث، ولم يكن هناك محل للمعارضة في انحياز ايطاليا الى الحلفاء لانها لم ترتبط بعهد يوجب عليها الانحياز اليهم . ومن هنا جاء قوله « ليس في وسعنا أن نكون خداما ولا ممالئين لالمانيا والنمسا » ولم يقل « ليس في وسعنا أن نكون خداماً لانجلترا وفرنسا » اذ أن شيئاً من ذلك لم يقع في الحساب . ولكن ما هي إلا أسابيع بعد شوب الحرب حتى كان موسليني يدعو الى التأهب للقتال ثم الى مشاركة الحلفاء واذا به ينشق على الاشتراكيين فينشئ - مع فقره - صحيفة مستقلة لترويج هذه الدعوة ثم يتقدم الى الحرب فيخرج فيها ويعفى بعد ذلك من القتال لمواصلة الدعوة بالقلم واللسان .

ولا جرم يستجيز موسليني كثيراً من هذا فانه يتخذ مكيافلي اماماً وقائداً ويقول : « انني أريد أن أحتفظ بالصلة اللازمة بين مبدأ مكيافلي وحياتي أنا كما عشتها وبين آرائه وآرائني في الناس والحوادث وبين مزاولته ومزاولتي للحكومة »^٢ وهو ينظر الى مواطنه الآخر العظيم يوسف ماتسيني نظرة هازئة ويسميه القديس يوسف أو قديس جنوه على سبيل السخرية . وما كان ماتسيني في الحق الا قديساً كرمماً من قديسي الانسانية ومثلاً فاضلاً في الاخلاص والثبات والفداء .

(١) كتاب رجل القدر لفتوريدي فيوري صديق موسليني .

(١) عدد اكتوبر ١٩٢٤ من « فورتييتي ريفو »

ولو أجاب الملك الوزارة الى اعلان الاحكام العرفية حين أراد الفاشيون إجبارها على الاستقالة لتغيرت الاحوال في ايطاليا وجاز ألا يظفر الفاشيون بالحكم كما ظفروا به الآن . ولكن الملك لم يعلن الاحكام العرفية لان الجيش كان يعطف على الفاشية عدو الاشتراكيين الذين كانوا يستخفون بالعسكرية وافرطوا في ذلك بعد خروج ايطاليا من الحرب العظمى بغير عوض يذكر ، ولان الفاشية كانت قد أدت كل ما عليها للملك من الطاعة والولاء وهجر مبادئها الاولى التي كانت تعوقها عن ولاية الحكومة .

وبعد فهل كان للفاشية موجب ؟ وهل كانت هي العلاج الوحيد لما كانت عليه ايطاليا في تلك الايام ؟

اما الفاشيون فيقولون بالبداية نعم ويتعللون لذلك بكثرة الاضراب والاضطراب في الشؤون الايطالية بعد الحرب العظمى . ويقول توماسوسيلاني احد كتاب موسليني في الرد الرسمي الذي رد به على مقال ولز الكاتب الانجليزي المعروف : « في سنة ١٩١٩ لم تعد لايطاليا مسحة البلاد المتمدنة . فقد اجترف بغض الجماهير واستشارتهم فئة من المهيجين بغير ضمير فاستسلموا لشر ضروب العدوان وأصبح مشايخ الحرب الموقرون يهانون ويضربون والمحاصيل تحرق في الحقول وتركت الماشية تموت وكثرت حوادث الاعتداء على أرواح أصحاب الارض ووكلائهم الامناء ومديري المصانع الذين حاولوا أن يصدوا العمال الشيوعيين عن التخريب . وبلغت الاضرابات لاسباب اقتصادية بحت في تلك السنة ١٦٦٣ اضرابا اشترك فيها ٤٣٣، ١٠٤٩ مضربا وتعطل في أثنائها ١٨، ٨٨٧، ٩١٧ يوما من أيام العمل . وتوقفت - لاسباب سياسية - حركة الحياة في شبه الجزيرة كلها وشلت الاعمال العامة والسكك الحديدية والترامات والبريد والتلغراف والتليفون وظلت البواخر بلا حراك في الموانئ . وحدث في أحوال كثيرة أن قُصر توزيع الخبز على أعضاء الجماعات الثورية وبات وجود الشرطي في القطار كافياً لوقفه تَوّاً ولو اتفق ذلك في العراء فلا يسير حتى يطرد الشرطي الذي يعد مجرد حضوره استفزازاً . فتعاظم سخط الايطاليين الصالحين واشمئزازهم ولا سيما المشايخ الاجلاء والطائفة الناشئة بين المستنيرين واهل الجدد من العمال

وكان استيائهم من الحكومة التي عجزت عن معالجة الحالة على أشده^١

هذا مجمل الاسباب الموجبة لقيام الفاشية في رأي ذلك الكاتب الذي هو أحد أعوان بطلها وحمله اقلامه . وقد أتى فتوريو دي فيوري صديق موسلينى على أسباب كهذه في كتابه الحديث « رجل القدر » مع بعض التفصيل وطابقها كتاب آخرون معدون في اوربا وامريكا لنشر الدعوة وكلهم يقولون ان الفاشية قامت لتدفع القوة بالقوة وترد الثورة بالثورة وتريح الامة من تلك الفوضى الطارئة التي عجزت عن مكافحتها الحكومة .

أما خصوم الفاشية فيقولون ان أخبار الفوضى الايطالية كانت اشاعات مبالغاً فيها جدا في الصحف الاجنبية . بالغ فيها الفاشيون لتسويغ عملهم ووافقت هلع القوم في اوربا يومئذ من خطر الشيوعية فوقعت عندهم ايضا موقع المبالغة والتهويل . والحقيقة أن الايطاليين ما كانوا قط في تاريخهم جادين في الثورة على النظام الاجتماعي ولا كان منظورا لتلك القلاقل التي أعقبت الحرب الا أن تهدأ بعد التجربة الفاشلة وأن يقلع عنها أصحابها عن اقتناع يدوم أثره ويفلح علاجه وليس كعلاج العدوان والعنف الذي يغري بالمقاومة ويضرى بالكراهية ويلقي في روع المقموعين المضطهدين أنهم غلبوا قهرا الى أن تتاح لهم معاودة الكرة واستئناف التجربة .

ويكفي ان تكون في ايطاليا طبقات كثيرة تغضبها الاشتراكية كما يقول الكاتب الفاشي ليدل ذلك على أن الخطر عارض قريب الغور وليس ببعيد القرار في طبيعة الامة بل يكفي ان يكون في البلاد الحزب الكاثوليكي - وهو يضم اليه سواد الفلاحين - والحزب الاخرى التي تؤمن بالتطور ولا تؤمن بالثورة ليكون ذلك عاصما من عموم الفتنة ودوام الفوضى . وقد عرف العمال خطأهم بعد الاستيلاء على المصانع فتحلوا عنها بانفسهم وثابوا الى العمل طائعين في سنة ١٩٢٠ ، وسهلت الحكومة لغلاة الشيوعيين أن يحجوا الى روسيا غير معارضين ليشهدوا بأعينهم حقيقة الحال فقفلوا من رحلتهم وهم شاكون مترددون بعد الايمان

١ عدد مايو سنة ١٩٢٧ من مجلة التاريخ السائر

الاعمى والرغبة الجاححة في تحقيق أحلام الثورة الاجتماعية وتطبيق مبادئها النظرية . . « ودع عنك أن إيطاليا ليست بالبيئة الملائمة للثورة وإن الشوار المنظرين لا طاقة لهم بأكثر من التحدث ببركات الشيوعية ولا علم لزعيم من زعمائهم بدخائل التدابير الروسية . فليس في إيطاليا أناس لهم كفاءة الفهم والقدرة الفنية اللازمة للثورة الناجعة غير اتباع توراتي الملقب بابي الاشتراكية الإيطالية وهو رجل قد دأب ثلاثين سنة ولاء على التحذير من العنف والثورة وعمل ما في وسعه بعد الحرب لكبح جماح المتطرفين . وقد ظهرت استحالة القيام بأية ثورة جدية في إيطاليا ظهوراً لا يقبل المراء في خريف سنة ١٩٢٠ حين تنحى العمال عن المصانع ورجعوا الى أعمالهم مؤمنين بعجزهم عن ادارة عن المصانع ورجعوا الى أعمالهم مؤمنين بعجزهم عن ادارة دولاب الصناعة بغير المال والخبرة الفنية . وقد أذن لهم جيوليتي ببعد نظره الساخر أن يجربوا هذه التجربة العظيمة مؤثراً إياها على اقصائهم بحد السيف والاقبال على مجازفة الحرب الأهلية ، وضربت الاحزاب الثائرة ضربة أخرى حين وافق أتباع توراتي على اقتراحه الانفصال التام من أنصار الاشتراكية المسكوفية المعروفين بالكسمليين وتقرر ذلك في مؤتمر الاشتراكيين في شهر يناير سنة ١٩٢١ . . على ان المنقذين الحقيقيين لايطاليا هم بلا ريب الشعب نفسه بما بادر من العودة الى العمل منذ تبدد السراب الروسي ورجع وفد الاشتراكيين الايطاليين من رحلة الاستطلاع والمعاناة غير مزودين بوسائق القمح من عند الزميل لينين . وبرهان محسوس على نشاط الشعب وعلى أن الحكومة لم تكن تلك الحكومة العاجزة التي يصورونها أن الدين الاهلي - وكان مقداره ثلاثة وعشرين ملياراً بعد الحرب - قد هبط الى ثلاثة مليارات قبل أن يتولى السنيور موسليني الوزارة »^١ .

ولقد أطنب الفاشيون في منافع حكومتهم ونسبوا اليها كل فضل في احياء الصناعة الوطنية وروجوا دعوتهم في أوروبا وفي مصر فقرأنا لبعض كتابنا كلاماً يريدون منه أن يفهم الناس أن الفاشية هي التي استخدمت قوة مساقط الماء

(١) بقلم لنا واترفيلد في عدد نوفمبر سنة ١٩٢٤ عن مجلة الفورتنلي .

وأصلحت الزراعة والصناعة ، وهو زعم باطل ممّوه والاحصاءات الرسمية تنبئ عن بطلانه وتدل على أن الصناعة الإيطالية في جملتها ولدت وثمرت وقطعت شوطها الأبعد في عهد الديمقراطية أو في عهد الحكومة الشعبية التي يسخر منها موسليني وبطانته ومريدوه . ففي الاحصاء الرسمي الذي كتب باسم البحارة الإيطاليين وأهدي الى زملائهم في الاسطول الأمريكي بيان واف عن تطور الصناعة ننقله هنا بحرفه وهذه ترجمته « في سنة ١٨٧١ استعملت إيطاليا نحو ٨٠٠،٠٠٠ طن من الفحم فزاد ما استعملته في سنة ١٩١٤ على عشرة ملايين لا يدخل في حسابها الترقى العظيم في استخدام القوة المائية التي يقدر ما استخدم منها بقوة تسعمائة ألف حصان يدار بها لا أقل من سبعة آلاف عمل . وكان العمال الصناعيون في السنة الاولى بعد سنة ١٨٧٠ أقل من ثلثائة ألف فقاربوا في السنة السابقة للحرب مليوني رجل . . أما من حيث الانتاج فهناك صناعتان تفوقتا على الصناعات الأخرى وهما صناعة التعدين وقد ارتقت من ستة وثلاثين مليون ليرة في سنة ١٨٧١ الى نصف مليار في سنة ١٩١١ ، وصناعة الكيميات التي أنتجت في سنة ١٩١٣ أكثر من مائة وأربعين مليون ليرة وكانت في حكم المعدومة في سنة ١٨٧١ ، وتستحق صناعة النسيج التفاتا خاصا فان إيطاليا قد أنتجت قبل الحرب خمسة آلاف طن أرسل جزء منها خاما الى الخارج ونسج جزء كبير في الأنوال الوطنية التي يبلغ عددها نحو عشرين ألفا نصفها على التقريب ميكانيكي . ويشغل نحو مائتي ألف عامل بصناعة القطن الذي لا يزرع الا بمقدار قليل في صقلية لحرارة جوها والذي يستورد منه نحو مائتي ألف طن من امريكا تغزل وتنسج في إيطاليا على أنوال تبلغ ١٣٠،٠٠٠ معظمها ميكانيكي كما ظهر من احصاء سنة ١٩١٢ ، والصناعة الصوفية التي اشتهرت بها إيطاليا في القرون الوسطى قد سرت فيها روح حياة جديدة فكان لها في سنة ١٩١٣ خمسة عشر ألف نول معظمها ميكانيكي واشتغل بها نحو خمسين ألف عامل . . ويجب ألا ننسى في صدد المنسوجات صناعات القنب والكتان والجوت لان إيطاليا في مقدمة الأمم المنتجة للقنب وهي تصدر جزءاً كبيراً منه خاما وان كانت تستورد كل الجوت على وجه التقريب من الخارج . وقد بلغ عدد المشتغلين بالغزل والنسيج في هذه الصناعات نحو أربعة وأربعين ألف عامل في سنة ١٩١٧ وقدر عدد المشتغلين

بصناعات النسيج كلها بنصف مليون ومقدار المال الموظف فيها بنصف مليار ليرة . وصناعات المعادن والآلات لا تقل في القيمة ولا في التطور عن المنسوجات . . فقد بلغ ما أنتجته إيطاليا فيها قبيل الحرب مليون طن من الصلب أي عشرة أمثال نتاجها في سنة ١٩١٠ ، ويضاف الى ذلك تلك الاعمال الكبيرة التي أسست لاجراء أصناف خاصة من الصلب تضارع أحسن مثيلاتها في بلاد العالم ، وأنشئت في ليجوريا وفي ترني باومبريا وعلى مقربة من نابلي مؤسسات رائجة تصنع جميع أصناف الآلات للسفن الحربية وتستخدم مائة وخمسين ألف عامل زاد عددهم الآن زيادة كبيرة فأضيف اليهم مائتان وخمسون ألفاً يعملون في الصناعات الميكانيكية ومنها صناعة السيارات . وقد كانت قيمة ما صدر من دواليب السيارات في سنة ١٩٠٧ مائتي ألف ليرة فوصلت بعد خمس سنوات الى ٥٢ مليوناً لا يدخل في حسابها ما يشتري داخل البلاد . وهناك أعمال النقل الكهربائي التي تنقل الفحم من سافونا الى قمة جبال « الابنين » وخط الكهرباء على سكك جبال سنيس وسمبلون وجيو في وكلها من مبدعات المثابرة والعبقريّة الإيطاليين ومما يشر بالتقدم المنتظر في صناعة إيطاليا ريثما يتيسر بعد الحرب المال والعمال ، أما الصناعات التي أنتجت عشرة ملايين قنطار من السباد الكيمي وخمسين ألف طن من الكربون المعدن ونحو عشرة ملايين طن من محضولات أخرى فهي تكاد تكون مخلوقة خلقاً من حيث لم يكن لها وجود . وكذلك صناعات الاطعمة وبخاصة السكر والجلود والجبن والمحفوظات قد خطت كلها خطوات محسوسة في خلال العشرين السنة الأخيرة .»

ويقول السنيور نيتي في رسالة نشرت في المجلد الخامس والعشرين من تاريخ المؤرخين : « تستطيع إيطاليا أن تزيد قوتها المائية الى خمسة أضعافها وأن تنشئ في سنوات قليلة مصانع تعطيها تسعة ملايين أو عشرة ملايين « كيلوات » . . والذي يعني إيطاليا بصفة خاصة هو توزيع مائها لأنها محاطة في الشمال بسلسلة الجبال الالبية وتتخللها على طولها سلسلة الابنين ، وهي لاحتاطة البحر بها من جميع الجوانب ما عدا الشمال كثيرة مساقط الماء في مساحة صغيرة ، وفضلاً عن هذا بينما تكون أنهارها الشمالية على أعلاها صيفاً لذوبان الثلج والجليد في جبال

الالب تكون انهار الابنين على أعلاها في الشتاء . فبناء الخزانات التي تسهل اقامتها على طول شبه الجزيرة يساعد على الانتفاع بقوة الماء وعلى تنظيم استعمالها في الصناعة وفي تسيير القطر الكهربائية .»

ولم نذكر السفن ولا خطوط الملاحة ولا المصنوعات الكثيرة التي ابتدعتها إيطاليا الحرة في عهد حكوماتها الشعبية ، لان شرحها يطول في غير جدوى . أما الزراعة فإحصاء البحارة الذي أشرنا اليه آنفا يقول انه « من سنة ١٨٦٢ الى سنة ١٩٠٦ مُهد للزراعة ما يقرب من ستة ملايين هكتار كانت مهجورة قبل ذاك وتضاعفت هذه المساحة تقريبا في العشر السنوات الاخيرة . . . وقد أنشئت وسائل فعالة في بوجليا التي يقل فيها الماء لجلبه اليها خلال قمم الجبال العالية . . . ويضاف الى هذه الاعمال الجليلة التي ستمتد وتكبر بعد الحرب اصلاح أساليب الزراعة باستعمال الادوات الميكانيكية في جميع الاقاليم بفضل المدارس العديدة والارشادات النافعة والنقابات الزراعية . . . فالمحصولات التي لم تتجاوز قيمتها مليارين من الليرات في سنة ١٨٦٠ قد أصبحت اليوم ثمانية مليارات ويوشك أن تبلغ العشرة في زمن قريب . وسنت القوانين الضرورية لتجديد غرس الغابات في الجبال التي جنت عليها شدة الطمع في الربح فحرمتها الاشجار .»

هذا ما صنعتته الديمقراطية في بلاد كإيطاليا لا حديد فيها ولا فحم الا النزر القليل ، وليس من السهل اختراق جبالها بالمواصلات البخارية ولا من المتيسر انتاج الخامات اللازمة للصناعة في أرضها . معجزة خارقة صنعتها الديمقراطية في جيل واحد من إيطاليا المفككة المتنازع عليها بين البابوية ودول أربع تحكمها لغير مصلحة أهلها . ولا ننس صعوباتها الجغرافية التي جعلت توزيع الخصوبة والاعمال الصناعية فيها مضطرب التناسب بين الشمال والجنوب ، ولا ننس انها كانت الى زمن قريب عدة ممالك لا وحدة بينها في السياسة ولا في الادارة ولا في المصلحة ولا في الاحوال الاجتماعية ، ولا ننس تزايد سكانها من سبعة وعشرين مليوناً عند استقلالها الى أربعين مليوناً في هذه الايام ، ولا ننس مع تزايد السكان الاضطراب الى الهجرة المتوالية حتى ناهز عدد الايطاليين في الخارج سبعة

ملايين وأحصى المهاجرون في السنوات الخمس السابقة للحرب بأكثر من مليونين ونصف ميون ، ولا ننس غير ذلك من العوامل المربكة والمؤثرات المشتبكة التي تحيط بأمة تنتقل هذا الانتقال وتعالج هذه المتناقضات . فكل ما في ايطاليا من تلك الخيرات هو ثمرة الديمقراطية وعلى أساسه يقوم كل أمل في مستقبل الطليان .

وما يقال عن الدعوى التي يدعيها الفاشيون في مسألة الصناعة يقال عن دعواهم في مسألة البطالة . فمرتبات الموظفين تنقص فترة بعد فترة لمداواة الميزانية والبطالة تزداد يوما بعد يوم والاحصاء الذي قدمته الحكومة الفاشية لعصبة الامم يقدر عدد العاطلين في ديسمبر سنة ١٩٢٦ ب ١٩١،٧٠٩ يقابلهم في فرنسا ١٧،١٧٨ وهي لا تعالج معضلة البطالة بغير الوسائل الدستورية ولا تلجأ الى القمع والارهاب كما يلجأ الفاشيون . أما الآن فربما كان عدد العاطلين ضعف ما كان عليه قبل عامين ، وقد حرم على الصحف تحريما باتا ان تشير الى مسألة البطالة وفرض على كل عامل ان يشترك في نقابات الحكومة وان يبرز شهادة بذلك للمصنع الذي يعمل فيه والا حرم على المصنع قبوله ، وزيدت ساعات العمل ونقصت الاجور وصار الاشتغال في المصانع ضربا من العسكرية الاجبارية لا حيلة فيه للعامل ولا منفذ له الى الشكوى . فهذه هي العلاجات الفاشية لمعضلة البطالة وهي علاجات طبيب يستر الاعراض ويكم فم المريض ويزعم انه استأصل الداء .

وقل مثل ذلك في مسألة الديون وهي مسألة لم يبق لنا مع تكتم المصادر الفاشية الا أن نرجع فيها الى مقال السنيور نيتي الذي يتكلم بالارقام في هذا الموضوع . قال « ان الحالة الصناعية وحالة الديون قد ساءت في عهد الفاشية وان كانت صحفهم تردد كل يوم ان الطوالع تبشر بالتحسين ولعل بعض الفاشيين جهلهم يصدقون ما يقولون . فهناك ٢١،٠٠٠،٠٠٠ ليرة من قراطيس الخزانة تستحق السداد في أوقات مختلفة حولتها الحكومة الى دين موحد بخسارة كبيرة لاصحابها وللجمهور وللمصارف . ولما كانت الحكومة تحتاج الى المال ولا يمكنها الرجوع الى قراطيس الخزانة بعد التقصير في السداد فقد عمدت

الى دين موحد جديد . وكانت خطتها في هذا الدين من أهزل المهازل في تاريخ المعاملات المالية لانها اضطرت الجمهور الى ان يشتري بسعر ٨٧،٥ قرصا موحداً كان يمكنه شراؤه في سوق المصارف بأقل من ثمانين ! فاختبلت أسعار الاسواق وهُدد رجال المصارف بالموت وأذيع بصفة رسمية ان أسماء البائعين ستُنشر . . . ! وكانت هذه التجربة كما يقول الاقدمون تجربة الصليب التي كشفت عما في نفوس الجمهور الايطالي من قلة الثقة بهذه التصرفات . فقد اتخذت كل وسيلة لارغام الجمهور على الاكتتاب وأكره جميع التجار على اعطاء ضمان من قراطيس الخزانة وامر الموظفون وعمال السكك الحديدية بل أمر الصناع بشراء أوراق القرض الجديد . . ولكن اي فشل ! فان الحكومة لم تجمع بعد كل هذا الاكراه والارغام الا ثلاثة مليارات ! قارن هذا بالقرض الذي عقد بعد كارثة « كابريو » العسكرية في أشد الظروف حرجا وجمع فيه ستة مليارات يوم كانت قيمة الدولار ٦،٣٤ ليرات . وقد جمع في القرض التالي الذي عقد لمعالجة تضخم العملة ٢١ مليارات بذلها الناس أحراراً غير مكرهين ولا مأمورين . فالجمهور الايطالي المستنزف اليوم يضم أسوأ الظن بالحكومة الفاشية ، اذ الحكومة التي تسيطر على كل شيء لا تضمن شيئاً . ومن المستحيل على أي انسان ان يستطلع الحقيقة عن الميزانية الآن فاني مع خبرتي الطويلة بالماليات الايطالية لا أقدر على فهمها . فهي مخوفة بأوامر خفية كالامر الذي صدر في ٥ يونية سنة ١٩٢٦ لايجاد ميزانية مصطنعة ولم يدون لنا لا المصروفات العسكرية الحقيقية ولا بيان الحالة المالية الصحيحة»^١

مع هذه الاساليب الغريبة بل مع شعار الفاشيين الذي يعلنونه وينادون به وهو ان « الامة قاطبة للفاشية قاطبة Tutte il paese a tutte il fascismo لا يجوز لاحد ان يتلقى بالتسليم كل ما يذاع من المصادر الفاشية عن هذه الامور كما أننا نقف موقف الحيدة فلا نتلقى كل ما يقوله خصومها بالتسليم .

على أن الامر الذي يجب أن نلاحظه هنا هو أن الفاشية لا تريد الآن أن تقاس

(١) عدد أغسطس سنة ١٩٢٧ من مجلة التاريخ السائر .

بمقياس التحولات الموقوتة التي تلجئ اليها الطوارئ والضرورات كما قد تلجئ الى الاحكام العرفية المحسوب حسابها في كل حكومة ديمقراطية ، ولكنها تريد ان تجعل نفسها مذهباً في الحكم يقابل مذهب الديمقراطية الحرة ويحل في محلها . فعلى هذا الاعتبار لا تكون فوائدها - على فرض صحتها - شيئاً يقام له وزن في جانب اضرارها أو في جانب النكسة التي تُعفى على كل ما كسبته الامم من تجارب العصور المديدة ومحن المظالم والثورات . فلم يكن عبثاً هذا الذي كسبته الانسانية في ألوف السنين من تقرير حرية الفرد واطلاق الحياة البريئة بين أرض الله وسماؤه بغير حد من ارادة انسان آخر يدعى لنفسه عليها السلطان والرقابة والامثال لفكره وهواه . لم يكن عبثاً هذا الذي كسبته الانسانية بل لا يصح أن يقال انها كسبت شيئاً قط ان كان هذا المكسب الجليل عرضة للرجعة والنزاع ، ولم يكن عبثاً هذا الذي كسبته الامم من تبديل الحكم القديم الذي كان يضطرها الى عمل عنيف كلياً اضطرت الى تغيير حكومة ، والذي كان الاحكام فيه لا يسقطون الا اذا أوقعوا بآمتهم قصارى الشر الذي يطيقه صبر الانسان حتى ليؤثر خراب الثورات على احتمال المزيد منه ، والذي كانت الامم فيه كأنما تعيش في ميدان حرب يتعاوره بالارهاب كل فاتح جديد في كل دولة جديدة . كلا لم يكن عبثاً هذا الذي كسبته الانسانية من ضروب المحن في طوال العصور . فلو ان الفاشية حكمت كما تحكم الاحزاب الغالبة في الامم الديمقراطية لما كان عليها غبار ولوجب لها الشكر على ما منعت من ضرر وجلبت من خير ، ولكنها أبقت الا ان تستأصل كل حزب غيرها بقوة السلاح والارهاب ، فهي ديمقراطية ناقصة مشوهة أو هي استبداد ناقص مشوه لانها ليست من الديمقراطية وليست من الاستبداد القديم . وحسبك ان تعلم ان السنيور موسليني يتولى في الوقت الحاضر ست وزارات عدا رئاسة الوزارة لتعلم ان الفاشية نظام لا يمكن أن يقوم مقام الديمقراطية لانه محصور في فئة واحدة لا يجد رئيسها ستة رجال يطمئن الى كفاءتهم أو يطمئن الى اخلاصهم ، فهو يتولى وزارة الداخلية ووزارة الخارجية ووزارة الحربية ووزارة البحرية ووزارة الطيران ووزارة النقابات ولا يعقل أن يفعل ذلك لو كانت له ثقة في رجال حزبه من حيث الكفاءة والاخلاص أو لو كانت الاعمال تسير في تلك الوزارات على

خطة الدقة والنظام ، فالارهاب وحده هو الذي يداري ما هنالك من الخلل والاحجاف والشكاوى والسيئات ، وما كانت حكومة من حكومات الاستبداد يعوزها مثل ذلك الارهاب الذي هو اصلح أداة للمدارة وان كان اسوأ أداة لعلاج العيوب .

ولقد شعر موسليني بقرب الانتخابات التي ستجري في سنة ١٩٢٩ فعدل طريقة الانتخاب للمرة الثالثة في عهد وزارته وقرر ان تجري الانتخابات المقبلة على طريقة لا مثيل لها في بلاد العالم . فالمجالس الوطنية (وهي مجالس يعين أعضاؤها تعيينا) ستختار تسعمائة اسم تعرضها على مجلس الفاشية الاعلى فيختار منها - أو من غيرها اذا شاء - اربعمائة اسم ويسأل الناخبين عنهم فلا يكون لهم الا أن يجيبوا بالموافقة على جميع الاسماء أو رفض جميع الاسماء ، فان جاءت الكثرة بالموافقة فذاك والا تجدد اختيار الاسماء مرة اخرى وتجدد سؤال الناخبين . . والوزارة باقية سواء اكان الجواب بالرفض ام بالقبول . . !

يقول خصوم الفاشيين ان هؤلاء لم يثبوا وثبتهم الى الحكم الا لانهم أنسوا أن الحركة الشيوعية تضمحل وتحمد ويوشك أن تدخل في دور الاستقرار - فاشفقوا أن تفلت من أيديهم حجة الوثوب وأن تضع عليهم فرصة استغلال الخوف من الشيوعية في ايطاليا وفي خارجها فتألبوا مع أنصارهم على احداث ذلك الحدث الخطير في الحياة الايطالية . ويقول خصوم الفاشيين ان هؤلاء ما كانوا يفلحون في وثبتهم لولا أنهم استغلوا - الى جانب الشيوعية - عاطفة الوطنية الثائرة في تلك الايام واتخذوا من مسألة فيومي وتوسيع الحدود الايطالية ذريعة لتأليب جميع الاحزاب ، والواقع أن خطر الشيوعية - سواء أكان عظيما كما يقول الفاشيون أم كان موهوما كما يقول خصومهم - لا يسوِّغ القضاء على النظام الديمقراطي الصحيح واستمرار الحكم عدة سنين على الاسلوب الذي يحكم به الفاشيون . فان هذا النظام لم يعجز عن مكافحة الخطر الشيوعي العظيم في المانيا وهي صريعة الحرب ولم يعجز عن مكافحته في فرنسا وهي أيضا صريعة الحرب بين المنتصرين . وكل حسنة للفاشية أو كل ضرورة لها تصغر وتتبدد اذا كانت لا تُنال الا بمثل ذلك الثمن الباهظ الثقيل ، فقد حرمت الحياة في ايطاليا على كل

انسان لا يدين بمذهب الفاشية ولا ينتمي الى لجانه ونقاباته ، وحظر على الجامعات أن تدرس فلسفة التاريخ والسياسة إلا على النمط الذي يرضاه الفاشيون وإلا كان نصيب الاساتذة العزل والتقي والارهاق ، والصحف محظور عليها أن تكتب الا ما يروق الوزارة ومحظور على أصحابها أن يختاروا الكتاب إلا من يتدبهم لها الفاشيون ، ورؤساء الفاشية هناك يصنعون ما بدا لهم غير عابئين بالعرف أو القانون . فمن أمثلة ذلك ما رواه روبرت سنكورت في مجلة التاريخ السائر عن الجنرال بتشيو وزوجته الامريكية وهي واقعة من عدة وقائع تجري على شريعتهم الجديدة : شريعة القوة وقلة المبالاة . قال سنكورت وهو من غير خصوم الفاشية : « تزوج الجنرال بتشيو من أمريكية وولدت له ابنا وقصت شعرها في باريس فضربها الجنرال جهاراً في بعض المطاعم العامة . ثم ذهبت الى إيطاليا في شهر يونيو سنة ١٩٢٤ فحاول أن يتزعم منها ومن وصيفتها الارلندية الطفل الذي حكم القضاء الفرنسي بتسليمه اليها . فلما أرادت الزوجة السفر من إيطاليا أصدر الجنرال أمره بضبط جواز سفرها فهربت الى سردينية لتركب منها البحر الى قورسيقة الفرنسية ، ولكنه علم بذلك فتعقبها بطيارات الحكومة وردها الى روما هي والطفل والوصيفة . ثم أخذ الطفل وسجن الوصيفة في ثكنة وأمر الزوجة بترك البلاد الايطالية ، فرفضت أن تطيع أمره ولاذت بالسفارة الانجليزية فقطعت جهيذة قول كل خطيب « وقس على هذا ما يمكن أن يستبيحه كل فاشي من الكبار أو الصغار الذين يلقنون هذه المبادئ في طفولتهم ويشبون على العنف وقلة المبالاة بالقوانين الى غير ذلك مما تخشى عاقبته على السلم في ايطاليا وفي الامم التي تتصل بسياستها اذا اطردت الاحوال على هذا المنوال ، قال الاستاذ جاجيليمو سلفادوري : « اتفق لموسليني - من المصادفة أو الدهاء - أن يقيم نفوذه على الذرية التي نشأت جاعحة سريعة الانفعال متبذلة في سنوات الحرب أيام كان آباء الصبية في الخنادق وكان أمهاتهم الجازعات مشغولات باعمال الرجال بعيدات من البيوت ، وكانت المدارس والمصانع فوضى وطوارئ الحرب غذاؤهم كل يوم ولديهم قدوة ماثلة من غارة دانزيو على فيومي يتعلمون منها الاعتساف - فهؤلاء الصبية كانوا في مدارج الطفولة يوم نشأت الفاشية وفتحت لهم منفذاً لما ركب فيهم من القلق

والجراح ، وجاء موسليني فأرضى فيهم ولع الطقولة بالمظاهر والغرائب والبسهم القمصان الزرق على صدورها صور الجماجم أو الشارات الرومانية على الجيوب .»

ان هذه الصرامة في خطط الفاشية وجنودها قد تدل على أي شيء إلا على الضبط والنظام ، فلو أن هناك ضبطا ونظاما على ما يرام لما خفيت المؤامرة التي دبرت لاغتيال ملك البلاد ولما أفلت الجناة بعد انفاذ مؤامرتهم فلم يقف حراس الأمن ولا المحققون لهم على أثر .

موسليني

قال الكاتب الانجليزي الكبير ج . هـ . ويلز . « حسب المرء أن يدرس قليلا من صور موسليني التي بعثت في انحاء الارض ليدرك أنه محدث مصنوع وليس بأصيل مبتكر ، فهذا الوجه الممتزج فيه الضعف والقوة هو وجه الممثل بجميع أوصافه ، فهو دائب يحملق من وراء كساء يتشبه فيه بالابطال الاقدمين وخوذة منتقاة بعينين خلو من الفكر والذكاء توحيان اليك معنى التحدي الفارغ كأنما يقول : حسن ! ماذا عسى أن تقول عني ؟ انني أنكره . ! هو وجه رجل مغرور أغلظ الغرور يحفل اجفال الخوف من أقل هسيس . وليس ما به خوف الجسد أو الخوف من القاتل الكامن في الظلام ، ولكنه الخوف أقتل الخوف من الحق الذي يمشي في وضوح النهار . . ألا فليذهب هؤلاء جميعا . ليذهب نيتي وامندولا وفورني وميسوري وماتوتي وسالفيني واستورزو وتوراتي . ليذهب جميع هؤلاء الرجال الذين يرقبون وينقدون وينظرون . فماذا تراهم ينتظرون ؟ ما من اسم من أسماء هؤلاء الرجال الذين ضربوا ونفوا أو قتلوا القتل الدنيء الا وهو اسم رجل خير من هذا الممثل الذي يستأثر بالمرح اليوم في ايطاليا . وأكبر خطيئة تعد لواحد من هؤلاء هي قدرته على كشف المخبأ ونظرته المصممة المثلجة . والحق أن موسليني لم يصنع شيئا لايطاليا وانه هو نفسه صنعة من صنائعها : صنعة مشوهة مخدجة . فاذا سأل الايطاليون : ما العمل بغير موسليني ؟ فالجواب : انكم تجدون غيره . فان هذا الذي يدرب

اليوم وينظم باسم الفاشية كان موجوداً قبله وسيبقى موجوداً بعده - فإذا هو قضى نحبه فلن تعاني الفاشية أقل صعوبة في اخلافه من موارد ايطاليا المخصصة ببديل يضارعه في التمثيل والفعقة الخطابية ، وانما صعوبتها أنها ربما وجدت خلفاء كثيرين بعده .»

وأيا كان مبلغ الصواب في تقدير ولز لموسليني فالحقيقة التي لا مراء فيها هي أنك لا تقرأ لهذا الرجل كلاماً يدل على فكر ثاقب أو درس حصيف أو اطلاع واسع . وهو في كلامه عن نفسه يزري بالدرس والاطلاع ويقول انه اطلع على كتب أشتات ولكنه لم يعول على غير كتاب واحد هو كتاب الحياة وعلى أستاذ واحد هو أستاذ الاختبار ، ويعجبه كتاب جوستاف لويون عن أطوار الجماعات وهو الكتاب الوحيد الذي ذكر اسمه من بين قراءاته للآداب الالمانية والانجليزية والاطالية التي تحدث بها في ترجمته المكتوبة بقلمه في مجلة بريطانيا الحديثة . على أنك لا تتبين من كتاباته أثراً للدرس العميق حتى في أصول الاشتراكية التي كان يبشر بها ويتفانى في الدعوة اليها ، فهي عنده مذهب مزاج لا مذهب معرفة واختبار . ورثها عن أبيه وتلقاها في بيته ووجد فيها منزعا لخليقة الهجوم والتحدي والظهور التي فطر عليها وعرف بها من صباه ، وهو يذكر أباه ويصفه بالبطء والاخلاص ولكنه يخص أمه بأحسن اعجابه وحبه ويقول انه استفاد من خلقها أجل الفوائد وأدومها في حياته ، ونظرة الى صورتها وصورته تريك انه قد أخذ منها الخلاقة كما أخذ منها الاخلاق فجاء أشبه وأقرب اليها في ملامحه ومزاجه .

كانت أمه معلمة في الزمن الذي كان التعليم فيه قليل العائلة وضع المقام . وكان أبوه حداداً فقيراً يتشبع الى الاشتراكية والثورة فسماه بنيتو على اسم الثائر المكسيكي بنيتو جوريز المسؤل عن اعدام الامبراطور مكسميليان^٢ فهو اشتراكي المولد لا اشتراكي الرأي والعقيدة ، وما كانت العقيدة قط عند موسليني

(١) راجع الاعداد الخمسة الاولى في مجلة بريطانيا الصادرة في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ وما يليه (٢) كتاب رجل القدر لفتوريو دي فيوري .

الا القالب الذي يفرغ فيه طبيعة الهجوم والغضب والظهور ، فهي تأتي تالية ويأتي قبلها الغضب والعراك على حسب الدواعي والظروف ، وما وقفت العقيدة قط في طريق موسليني ولا كانت هي صاحبة وحيه ومسدد خطاه . فموسليني الذي انحنى على المسيحية وألقى عليها تبعة سقوط الدولة الرومانية يوم كان اشتراكيا غاليا يجوب الأفاق في البلاد السويسرية هو موسليني الذي افتتح وزارته بالصلاة الجامعة يوم نجحت غارته على العاصمة الإيطالية ، وموسليني الذي أبى الحرب أشد الأباء هو موسليني الذي دعا إليها أشد الدعاء بعد ذلك بأسابيع معدودات ، وموسليني الذي كان يصب النار على أصحاب الأموال هو موسليني الذي أصبح يصب النار على العمال ، وهو في كل أولئك رجل يريد أن يهجم ويشارك وليأت سبب العراك حيث أتى فلا عبرة عنده بالأسباب وإنما العبرة بالواقع الراهن وبما يشاء أن يقوله اليوم لا بما كان يقوله قبل أيام :

وحيثما تجد المتعة العقلية والفكر الراجح والذكاء والالمية في كتابات نيتي وأصحابه الذين ذكرهم ولز لا تجد في كتابات موسليني الا التبطيل والتهويل والارعاد والابراق . فأنت تفقده اذا بحثت عنه في مجالهم الواسع ولا تعرف مكانه الا اذا بحثت عنه في مجال الحركة والنشاط والمفاجآت ، فليس هو بالسائس المدبر ولكنه هو القامع المرهب الذي لا يبعد بنظره عما هو فيه . وسكينة ايطاليا في الوقت الحاضر ليست بالآية النادرة ولا بالبرهان الصادق على حسن السياسة وصلاح الحكومة . فان السكينة شاملة للروسيا في عهد الشيوعيين وكانت شاملة لمصر في ابان الحرب العظمى فهبت بعدها الثورة بين ليلة ونهار . فما كانت السكينة يوما بالبرهان الصادق على صلاح الحكومة أو رضی المحكومين أو صحة المبادئ التي تدار بها الامور أو ملاءمتها للحالة التي تكون فيها الامة . وإنما القدرة السياسية الصادقة هي أن تسود السكينة وتسود الحرية وتسود القوانين ، ولهذا كانت ملكة الحكم قدرة خاصة في الساسة والزعماء لا لأن الغرض الأكبر هو ابتغاء السكينة بأي ثمن وعلى أية حال ، وهذا الذي اراده نيتي وجيوليتي وأصحابها بالمصابرة والانتظار وأوشكوا أن يصلوا اليه على ما يقول العارفون .

ان كان لموسليني فضل على ايطاليا فانها لم تنعم بفضله لان الحكومات التي سبقتها كانت تسلك مسلكه وتضطهد خصومها اضطهاده ، كلا ، والا لما بقي موسليني في ايطاليا او لما بقي في قيد الحياة ، ولكن ايطاليا ظفرت بموسليني لان الحكومات التي سبقتها كانت تطلق الحرية لاصحاب المذاهب والافكار ينقحونها بالتجارب ويهتدون الى الرأي الامثل كما اهتدى موسليني من الشيوعية الى الوطنية ومن الفوضى الى النظام .

ولقد احسن موسليني اغتنام الفرصة من سحق الايطاليين الشديد على الشيوعيين وموت عاطفتهم القومية واستخفافهم علانية بالنصر الذي كلف أمتهم ألوف الارواح وملايين الاموال واجترائهم في قوارع الطرقات على الاعلام الوطنية وأنواط الشرف التي كان يلبسها الجنود العائدون من ميدان القتال ، وبلغت الحماسة الوطنية أعلاها حين تحفزت الامة بقيادة الشاعر دانزيو لرد المدن الايطالية التي بقيت في قبضة الدول المجاورة فقامت الفاشية في تلك الايام باسم روما الخالدة تترجم بشعارها وتتشبه بتحياتها وتترنم بانغامها ، وطفق موسليني يرفع لابناء وطنه ذلك المثل الاعلى ويستخر من الساسة الذين يغفلون عن حياة هذه العاطفة الكريمة ويشغلون الامم بأحاديث المنافع والدرهم . يقول مؤرخه وزميله فتوريو دي فيوري في الفصل الاخير من كتابه رجل القدر : « وبينما تتلوى روما الصيارفة تحت ضربات لومه وتقريعه يعيش هو في روما الماضي وروما المستقبل : يعيش في روما الخالدة التي لا تتبدل » ويقول في الفصل الثامن : « وعشنا كان جيوليتي يوجه خطابه الى أخس غرائز الجماهير وأسفلها ، الى الخوف من الحرب والموت ، الى الرغبة في المنافع المادية . فان روح ايطاليا التي كانت تنطق بلسان الشاعر والخطيب أبت كل مساومة وعقدت عزميتها على النضال » .

الخلاصة

والخلاصة أن تاريخ ايطاليا الحديث هو تاريخ نجاح الديمقراطية وليس تاريخ الفشل والافلاس لحكومات الشعوب ، وأن ما يحدث في ايطاليا منذ بضع

سنوات لا ينفي ارادة الشعب وانما هو حالة تعرض لكل حكومة ويحسب حسابها في كل ديمقراطية ، أو هو كما قلنا ديمقراطية ناقصة مشوهة لانها تعترف بارادة الشعب ولا تعترف بحرية أفرادها كما يجري احيانا في البلاد الخاضعة للاحكام العسكرية ، والفاشية لم تنكر ارادة الشعب ، لكنها استخدمت ارادة الكثرة الغالبة لارهاق القلة الصغيرة .

اما الذين يترسمون الفاشية في مصرفهم أخرى ألا تنفعهم في كثير ولا قليل ، اذ عليهم ان يذكروا ان الفاشية قوة وطنية وليست بقوة أجنبية وأنها قامت سخطا على المتساهلين للاجانب في المطالب القومية ولم تقم حبا للتساهل في تلك المطالب على الكره من ابناء البلاد ، وأنها تتغذى بحماسة الشباب ولا تتغذى بفضلات فتور الشيوخ ، وأنها تقود الشعب بالمثل الاعلى والنخوة النبيلة ولا تقوده بالتزلف الى اخس غرائز الجماهير ، وأنها لا تفصل في قضية الشعب الكبرى وآماله الباقية وانما تفصل في عروض تتولاها الوزارات ، وعليهم ان يذكروا غير ذلك أن الفاشية نشأت في بلاد كانت مقسمة الى أربع ممالك وست امارات ، وأنها نشأت في بلاد لا تزال مقسمة في أوضاعها الجغرافية الى اقسام تتوزع فيها الصناعة والزراعة توزعا يباعد التفاوت في الاحوال الاقتصادية بين جميع الاقاليم ، وأنها نشأت في بلاد يهجرها عشرات الالوف من ابنائها كل عام ، وأنها نشأت في بلاد تعطلت فيها المصانع فجأة بعد الحرب العظمى وقلت المكاسب وغلت الاسعار ، وأنها نشأت في بلاد هي مقر الرجعية الدينية التي تجدد الى اليوم لاسترجاع سلطانها المضاع ، وعليهم أن يسألوا انفسهم ماذا كانت تكون خواطر العمال والمعوذين في مصر بعد الحرب العظمى لولا الحماسة الوطنية التي استغرقت فيهم كل عاطفة وصرفتهم عن الشيوعية وحرب الطبقات ، والتي يحمدون اليوم ما استطاعوا لتركوا مكانها خلوا لوسواس المصلحة واغواء الدعاة !

بسمارك

ظهرت الدكتاتورية - أو ما يسمونه الدكتاتورية - في أمم أخرى غير تركيا وإيطاليا وإسبانيا وفي أصقاع أخرى غير شواطئ البحر الأبيض المتوسط . ظهرت في المجر وبولونيا ورومانيا ولكنها لم تتأصل في واحدة من هذه الأمم ولم تكن نظاماً من أنظمة الحكم أو مذهباً من مذاهب السياسة ، ويقال على الأجمال انها حيث ظهرت كان ظهورها لقلة الديمقراطية لا لكثرتها وكانت تظهر في البلاد التي ابتليت بالتقسيم واختلاف الاجناس قبل الحرب العظمى وبعدها ، فكانت من عقابيل الحكم المطلق وبقايا فساد وسوء تصرفه ولم تكن من جرائم الديمقراطية التي هي ترياق تلك الآفات .

بدأ النزاع الحديث بين الديمقراطية والدكتاتورية (أو الاستبداد) في القرن الماضي يوم كان الإيمان بحكم المستبدين ضرباً من الدين وضرباً من الوطنية في وقت واحد : ضرباً من الدين لان المستبدين كانوا يرتفعون بدعواهم الى مشيئة الله ويزكون أفعالهم بشهادة القساوسة والاحبار ، وضرباً من الوطنية لان مبادئ الحكم الديمقراطي كانت مبادئ الفرنسيين الغاليين وكانت محاربة فرنسا فرضاً قومياً على أعدائها المغلوبين ، ومع هذا - أي مع مناصرة الدين والوطنية

والعادات والقوة - فشل الاستبداد وظفرت الديمقراطية وصار أكبر المستبدين في القرن الغابر هم عبرة هذا النزاع الذي يضرب به المثل وتعرف منه العواقب . ولهذا أردنا أن نتخذ هذه العبرة من تاريخ رجلين هما بغير خلاف أكبر المستبدين في عصرهما ان لم يكونا أكبرهم في جميع العصور . ولد أحدهما يوم أن دالت دولة الآخر وهما بسمارك ونبليون .

كان بسمارك مستبداً بفطرته لانه ولد في أسرة من أسر الريف في الضياع البروسية ، فكان من طفولته معتدا بنسبه متعصبا لطبقته فخورا بأوضاع وطنه ، وكان مدار الخلاف بينه وبين الاحرار أنه يقيم وحدة المانيا على القوة والحرب وكانوا يريدون أن يقيموها على الحرية الشعبية والسلم ؛ وفي هذا الخلاف يطول الاخذ والرد واستعراض الحوادث والاسانيد ، ولكن الامر الذي يتفق عليه الاجماع هو ان الحروب التي اقتحمها بسمارك لتوحيد الممالك الالمانية قد أفردت المانيا بين الدول وجعلتها مخشية محذورة لا يؤمن جانبها ولا يستبعد عليها أن تعتدي على أحد أو تنقض عهداً بينها وبين حليف ، ومصاب المانيا بهذه العقيدة التي ذاعت عنها وانتفع خصومها بترويجها هو المصاب الاكبر في الحرب العظمى وفي المساجلات السياسية التي سبقتها وأفضت اليها .

وفي تاريخ بسمارك حادثة لها أوثق ارتباط بالحرب العظمى ومعقاتها يتبين منها كيف يتغلب الشعور الشخصي على سياسة المستبدين حتى في المسائل التي تتوقف عليها مصائر الامم وجلال الخطوب . تلك هي حادثة المحالفة الروسية التي تقلبت أدوارها على حسب التقلب في الميول الشخصية بين ساسة الروس وساسة الالمان . فقد كان بسمارك نصيراً لمحالفة روسيا وكان متفقاً مع القيصر على تأييد السياسة الروسية في مؤتمر برلين . ولكن جرشاكوف المندوب الروسي في المؤتمر علم أن بسمارك يسعى لتعيين شوفالوف صديقه وزيرا للقيصر بدلا منه (أي بدلا من جرشاكوف) وحصل على وعد بذلك في مقابلة التأييد الذي اتفق عليه بسمارك مع القيصر . فلما اتصل هذا النبأ بجرشاكوف تعمد الاقلال من المطالب الروسية في المؤتمر فتعذر على بسمارك أن يساعد روسيا لانه كما قال لا يسعه أن يطلب لها أكثر مما تطلب لنفسها . فانفض المؤتمر وروسيا ناقمة متدمرة

واستطاع جرشاكوف أن يقنع مولاه بان بسمارك قد لعب به واخلف معه وعده ولم يساعده المساعدة التي كان ينتظرها منه . فقال له مولاه : اذن تبقى أنت في مركزك . . ! وكان هذا هو الغرض الذي عبث هذا الرجل من أجله بمصالح بلاده في عالم السياسة الدولية . فلما خاب أمل بسمارك في تعيين صديقه شوفالوف انقلب على الروميا وحسن للامبراطور ولهم الاول أن يعرض عنها ويحالف النمسا مناظرتها . . وراح يتمحل لذلك أعذارا ما كان يعبأ بها من قبل : كقوله ان الروسية همجية أو توقراطية والنمسا جرمانية على شيء من حكم الدستور ! مع أنه كان يبغض الدستور والامم الدستورية ! أو كقوله ان الروسية مستغنية عن المانيا ولكن النمسا محتاجة اليها ، أو كقوله ان مطامع الروسية كبيرة لا تطاق وان النمسا تقنع من حلفائها بالقليل ، فلم يوافقهم ولهم الاول على رأيه وتشبث بمعارضته على خلاف عادته . لماذا ؟ لاسباب لعل أهمها القرابة بين البلاطين الروسي والبروسي . . أو لعل المنافسة الشخصية بين فينا وبرلين اللتين تقاسمتا العظمة والظهور في أمم الجرمان هي أيضا سبب من أهم هذه الاسباب ، ثم انقضى هذا الدور وجاء ولهم الثاني واستحكم الشقاق بينه وبين بسمارك ووافق ذلك اوان تجديد المعاهدة الروسية واضطر بسمارك الى الاستقالة قبل تجديدها فاهملت المعاهدة وتغيرت وجهة السياسة الالمانية والسياسة الدولية تبعا لذلك . . فلماذا هذا التغير ؟ لان ولهم الثاني اطلع على وثيقة سرية يصفه فيها قيصر روسيا بالخرق والخبل ! ولان هو لشتين عدو بسمارك كان يومئذ هو صاحب القول الفصل في السياسة الخارجية ، وهكذا تتقلب مصالح الامم بين أهواء المستبدين حتى حين يكون المستبد رجلا كبسمارك عظيم الوطنية عظيم اللب عظيم الدهاء .

ومن العبر النواطق بالمغزى البعيد أن تسمع رأي ولهم الثاني في عواقب استبداد بسمارك ! وولهم الثاني كما تعلم هو خليفة بسمارك في الاستبداد على سياسة الالمان . فهو يعزو هزيمة المانيا الى تقصير سياستها الخارجية ويعزو هذا التقصير الى كراهة بسمارك للمستقلين من مرؤ وسيه وانفراده وحده بتدبير كل شيء بغير مشاورة الوزراء والمرؤ وسين « فخلت الوزارة والسفارات من الناشئة المدربة وامتلات بالذين تعودوا الطاعة العمياء والعمل بوحى الرؤساء . فما

كان مكتب الشؤون الخارجية الا مكتبا خاصا للمستشار العظيم يجري فيه العمل بارشاده وأمره . فلا تدريب ولا تخريج هناك للقادرين المستقلين في الآراء ، بخلاف ما كان عليه مكتب القيادة العامة برئاسة مولتكي حيث كان الضباط الحديثون يتربون ويتدربون على التفكير الحر والعمل المستقل على حسب الاصول المصححة ورعاية للتقاليد مع العناية بما تهدي اليه المستحدثات ، فلم يكن في مكتب الشؤون الخارجية الا ادوات منفذة لرأي واحد لا يؤذن لها ان تطلع على دخائل الامور التي تعمل فيها ولا قدرة لها من أجل ذلك على الاستقلال بعمل ، فكان البرنس ثمة كالصخرة العظيمة في البطحاء اذا ترحح من مكانه لم تكذ ترى فيه الا زواحف الديدان وميت الجذور^١

وأعجب من هذه العبرة أن يعود بسمارك بعد أن كافح الريشستاج جيلا كاملا فيقول وقد رأى عواقب فصل الشعب عن الحكومة وأوجس من المستقبل القريب : « ربما كانت خطتي التي قمت فيها بواجبي هي سبب خلو المانيا من عمود فقرها وكثرة طلاب المناصب وخدام الفرص فيها . فاجدر الامور بالاهتمام هو تقوية الريشستاج ولا سبيل الى ذلك الا بانتخاب النواب المستقلين . . واذا دام الريشستاج على حالة الضعف الراهنة فالحق ان المستقبل لمظلم . . واعتقادي أن الازمة كلما تأجلت كانت أدهى وأخطر . . وربما خبا غيب الله لمانيا عصر ذبول آخر يتلوه عصر مجد جديد - ذلك ولا ريب سوف يكون على أساس الحكومة الجمهورية^٢ .

(١) مذكرات ولهم الثاني من سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٩١٨
(٢) صفحة ٦٣٠ من حياة بسمارك لاميل للفيج .

نابليون بونابرت

تعبت فرنسا من الثورات والفتن والحروب وشعرت باعدائها يناوئونها
ويتربصون بها فسهل عليها أن تنقاد لنابليون الذي عودها النصر وحسن
البلاء .

وشغلها نابليون بالمجد والاعجاب وأحاديث الاخطار والجهاد فنسيت الحرية
قليلا ولكنها لم تنسها طويلا ، فرأى آخر الامر أنه لا بد له طوعا أو كرها من
الديمقراطية وأنه حين أخذ الحرية وأعطى المجد قد دخل في صفقة لا دوام لها ،
لان المجد يغري الشعب بطلب الحرية وهو غير مستطيع أن يعطي الشعب مجدا
في كل حين .

ولما عاد من ألبا ومثل بين يديه الوزير الديمقراطي كونستان قال له :

« قل لي ما هي أفكارك ؟ حرية الكلام وحرية الانتخاب ووزراء مسؤولون
وصحافة حرة ؟ انني موافق على كل ذلك وبخاصة حرية الصحافة . فان محاولة
سحقها بعد الآن لسخف . . انني انا رجل الشعب . فاذا كان الشعب يريد
الحرية حقا فلا بد لي من اعطائه الحرية . . لست بالفاتح ولا طاقة لي أن أكونه

بعد اليوم . انني أعرف ما يمكن وما لا يمكن وكل قصدي الآن أن أقيم فرنسا مرة أخرى على قدميها وأمنحها دستوراً يلائم مزاج شعبها . . انني لا أكره الحرية وإن كنت قد بسطت لها مرقداً واسعاً حين وجدتتها في طريقي ، وانني لأفهم الحرية وهذا الطعام اغتذيت . لقد ضاعت جهود خمس عشرة سنة فلو أردت البدء من جديد للزمتني عشرون سنة واحتجت أن أضحي بمليون رجل . . فانا أريد السلم ولكني لن أناله الا بنصر ولن أنال النصر الا بتأييد من الشعب . وسيطلب الشعب الحرية ثمناً لتأييده . حسن جداً . سيأخذ الشعب الحرية . . ان موقفني لموقف جديد . فاني أشيخ ، وفي الخامسة والاربعين لا يكون الرجل كما كان في الثلاثين . فسلام الملك الدستوري يلائمني جد الملاءمة ، ويقيني أن هذه الحالة ستلقى الرضى والقبول من ولدي . »

فنايليون بقوانينه واصلاحياته وأكالييل المجد التي على تاجه لم يستطع أن يظل حاكماً بأمره في أوائل القرن التاسع عشر ولم يرج النصر الذي يسبغ السلام على مملكته الا برضوان شعبه . وقد شاءت المقادير ان تجزيه واحدة بواحدة فخلع برلماناً وخلعه برلمان ، ولولا أن نواب الشعب دعوه الى اعتزال الملك لما جسرت الدول على طرده لان ملوكها المطلقين كانوا قد عرفوا معنى الحرب التي تقودها ارادة الشعوب

نعم ان فرنسا عادت الى الاستبداد باسم نابليون جديد هو نابليون الثالث ابن أخي نابليون الكبير ، ولكنها عادت اليه للدفاع عن حقوق الشعب لا لاهتضام تلك الحقوق ، فقد كان الرجعيون في البرلمان هم الذين ضيقوا على الشعب وحرموا العمال حق الانتخاب وعطلوا حرية الصحافة وحرية الاجتماع وأسرفوا في الحجر على جميع الحريات في قانونهم المعروف بقانون مارس سنة ١٨٥٠ . فجاء لويس نابليون يلغي ذلك القانون ويعيد الى الشعب جميع تلك الحقوق ، ثم آل أمره الى اعلان الديمقراطية التامة في سنة ١٨٦٩ وتجديد الحكومة النيابية في أوسع نطاق . الا أن دسائس الحكم المطلق بقيت مع جرائم السنين الماضية لتقضي عليه آخر قضاء . فلما شجر الخلاف على وراثة العرش الاسباني تصدت له الامبراطورة اوجيني - وكانت اسبانية لها مطامع خاصة في بلادها ومن رأيها ان

الحرب توطد دعائم عرشها . فعرفت كيف تستميل اليها المعجيين بها من القواد
الظرفاء والساسة المتأنقين ، وعرفت كيف تصم مسامع الامبراطور المتردد عن
نصائح تيير وأصحابه الاحرار الذين كانوا يذادون عن البلاط ولا يقبلون فيه الا
على جفوة وغضاضة . فكانت الحرب مع بروسيا وكانت الهزيمة العاجلة وكانت
نكبة فرنسا التي لم ينقذها منها الا تيير وأصحابه الاحرار .

خاتمة

كما تقدم نعلم أن كلمة « بلاد البحر الابيض » كلمة لا معنى لها اذا أريد بها تسويغ الحكم المطلق في البلاد الواقعة على ذلك البحر . لان الحكم المطلق أو الحكم الدكتاتوري ظهر في بلاد كثيرة غير تلك البلاد ، ولان الاسباب التي أفضت الى قيام الدكتاتورية - أو ما يسمونه الدكتاتورية - في تركيا وايطاليا واسبانيا ليست خاصة بالبحر الابيض ولا بطبيعته الاقليمية أو الجنسية ، اذ هي أسباب يمكن ان توجد في اي بلد وفي ظل أية حكومة ، وواحدة من تلك الامم - وهي تركيا - أجدر بأن يقال ان الذي حدث فيها هو انشاء الديمقراطية لا انشاء الدكتاتورية ، وان القوانين الحازمة التي يسنونها هناك انما هي القوانين اللازمة لحماية ديمقراطية جديدة لا تزال في دور النشأة والتكوين وفي خطر من نكسة النظام القديم وعوامل التقهقر . فليست هي استبداداً ولا الغرض منها توطيد حكم الاستبداد ، وفي كلام مصطفى كمال مع الكاتبة الانجليزية جراس اليسون عن تحرير المرأة يقول : « كيف يتاح لنا أن نبني ديمقراطية تامة ونصف الأمة في الاصفاد ؟ » ويقول مرة أخرى : « ان الرجال الذين يُطلبون في عهد الديمقراطية لا بد لهم من منزل يتربون فيه . والآن وقد خلصنا من الاجنبي في

وسعنا ان نبدأ بتنفيذ الاصلاح « ومصطفى كمال هو الذي جعل شعاره في تحرير الشعب كله : « خير وسيلة لتعليم قوم قيمة الحرية هي أن تطلقهم احراراً » وهو رئيس حزب الشعب ورافع السيادة الشعبية الى حيث لم يرتفع بها دستور في وطن من الاوطان . فمن الظلم والخطأ ان تسمى حركة الرجل العظيم بالحركة الدكتاتورية الا بمعنى واحد فيه الفخر كل الفخر لمصطفى كمال وللشعب التركي على السواء ، وهو أن ذلك الشعب قد أحب مصطفى كمالاً واعجب به لانه يستحق حبه واعجابه فأولى حكومته كل ما تحتاج اليه من السلطان لتحريره والنهوض به وترقية شؤونه . وقد علم مصطفى كمال أن شعبه مفتقر الى الاصلاح فلم ينظر اليه نظرة المحتقر ولم يمزل نفسه عنه هو وصحبه ولم يتذرع بذلك الى حرمانه حقاً من حقوقه . لان هناك طريقتين لادراك أدواء الشعوب : احدهما طريقة الوارث الذي يسمع بمرض مورثه فيرتاح الى تصديقه وينقبض لعلامات الصحة التي تبدو على مريضه ويود أن يؤكد كل نذير من نذر العلة ويدحض كل خبر من اخبار الشفاء ، والاخرى طريقة الأب العطوف الذي يسمع بمرض ولده فلا يرتاح الى تصديقه ويستبشر بكل ما يخلف ظنه ويؤمن جد الايمان بحياته ويبدل ما في وسعه لتعجيل شفائه ، وكانت هذه هي طريقة مصطفى كمال في ادراك أدواء الشعب التركي - وهي الطريقة الفذة لعلاج الشعوب - ولم تكن طريقته أن يبحث عن علامات الخطر بحثاً لانه يريد لها ويفرح بها ويعلق آماله جميعاً على الوفاة .

ان العدو الاجنبي ليستطيع أن يرى عيوب الامة التي ييغضها ويستعبد لها ولكننا لا نحتاج منه الى هذه النظرة وليست حاجتنا الا الى نظرة الوطني المشفق الغيور الذي يستفز في أمته كل ما يستفزه الكائن الحي في بنيتة من كامن قووق يغالب بها الداء .

أما ايطاليا واسبانيا فقد غلبت فيهما الديمقراطية ولم تفشل . وفرق بين أن يغلب على أمره وبين أن يتداعى من صميم بنيانه ، فما من نظام حكومة في التاريخ الا وقد غلبته القوة في بعض أزمائه ، ولكن الفشل شيء غير هذا وهو أن يثبت بالتجارب الطبيعية في المواطن المختلفة أن هذا النظام غير صالح للقيام .

ولم يثبت قط أن الديمقراطية كانت فشلا في إيطاليا أو في اسبانيا بل ثبت نقيض ذلك أن آفة إيطاليا واسبانيا معاً هي حكم المستبدين لا حكم الشعوب وأن الذي تشكوان منه هو الموانع التي تمنع شعبيهما أن يكون لهما الرأي النافذ في سياسة البلاد .

ولسنا نريد أن نعرض هنا لخفايا الاسباب التي أحاطت بقيام الدكتاتورية في إيطاليا واسبانيا ، بيد أننا نقرر مالا خلاف فيه وهو أن الدكتاتورية قامت في الأمتين على قوة وطنية معتزة بالشعور الوطني والآمال القومية ولم تقم على قوة أجنبية ولا قامت لاخلاء روح الأمة من كل نخوة حية ومن كل اعجاب سام ومن كل شيء غير التهافت على المنافع المكذوبة والصغائر التي لا تنهض بها همم الشعوب . ولقد عز على نابليون بونابرت أن يحكم اسبانيا قبل مائة سنة ولم يعز ذلك على بريمودي ريفيرا ومن وراءه في هذا العصر وهم أقل جنداً وأقل شأنًا وأقل اصلاحا من نابليون ، وهم يحكمون أمة أعلم وأرقى وأكبر من التي أراد أن يحكمها نابليون . وما استعصى زمام اسبانيا على ذلك الجبار القدير وأسلس لبريمودي ريفيرا ومن معه الا لفرق واحد تتضاءل فيه جميع الفروق ، ذلك هو الفرق بين الحكومة الاجنبية والحكومة الوطنية وان عجزت هذه أسوأ العجز واقتدرت تلك أحسن الاقتدار .

وسواء صحت الضرورات التي انتحلت للحكم الدكتاتوري في اسبانيا وإيطاليا أو لم تصح فالحقيقة الواضحة أنها ضرورات لا مثيل لها في غير هاتين الامتين من أمم البحر الابيض المتوسط . وأين في غير اسبانيا وإيطاليا تلك الملايين المعطلة والحروب التي تقتل فيها عشرات الألوف والقلاقل التي تذهب بالارواح على قوارع الطرقات والديار التي يهجرها مئات الألوف في كل عام والاقاليم التي تهم بالانفصال والسطوة التي يملكها رجال الدين في السر والعلانية والمذاهب الاجتماعية والسياسية التي تضرب في قرار الاساس ؟ أين في غير اسبانيا وإيطاليا من أمم البحر المتوسط هذه الاسباب أو هذه الضرورات صحت كلها على علاقتها أو كان منها المبالغ فيه وغير الصحيح ؟

على أن الحكومة النيابية في أمم الديمقراطية لم تعيَ قط بمراس أسباب كتلك

الاسباب وضرورات كتلك الضرورات ، بل لم تعي حكومات الديمقراطية حتى في الزمن القديم بعلاجها والاحتياط لها وهي بالقياس الى حكومات اليوم ناقصة النظام ناقصة التمثيل ناقصة الاداة . ففي روما القديمة كان مجلس الشيوخ في أوقات الخطر على الوطن - لاحظ في أوقات الخطر على الوطن - ينتدب من زعماء الامة « دكتاتوراً » يساعده قائد حربي ويطلق يده في الشؤن العامة زمناً أقصاه في العادة ستة أشهر ، وكثيراً ما كان الدكتاتور يعتزل وظيفته باختياره اذا أنجز ما انتدب له قبل الموعد المضروب ، وكان مجلس الشيوخ على كل حال يحتفظ بحقوقه التامة في أثناء ذلك ويشرف يوماً يوماً على أعمال الدكتاتور وأعوانه الحربيين ، ولم يحدث قط - الا عنوة واقتساراً - أن يجيء الدكتاتور والسكينة مستقرة والحقوق العامة مصونة فيستبد بالناس وينتهك الحق المصون ويفرق وحدة الامة المتفقة . . هذا وهو لا يكون دكتاتورا الا بنوع من البطولة المهية المحبوبة يغني النفوس بعض الغنى عن الحرية بعزة الوطنية ونخوة الاعجاب ولن يكون دكتاتورا وهو سخيف هزيل لا مظهر له ولا مخبر ولا يصدق أحد من الناس أنه مالك أمره وصاحب القوة التي بها يصول على أبناء وطنه .

ان أحق المستبدين هو ذاك الذي يهدم الديمقراطية في هذا العصر لينسي على أساسها صرح الاستبداد العتيق . فان الديمقراطية اذا هدمت لم يخلفها في مكانها الا أحد مذهبين : فاما الفوضوية واما الشيوعية على نظام من أنظمتها الكثيرة . ذلك أن الفوضيين والشيوعيين يشككون الناس في كل نظام معهود ويقولون ان الحكومة بطبيعتها قائمة على الغضب والاعتداء لخدمة طائفة من الامة هي الطائفة التي تقبض على الزمام . لا فرق في هذه الخللة بين حكومات المستبدين والحكومات النيابية التي يقال انها حكومات الشعوب ، فاذا ساء ظن الناس بالتمثيل النيابي بعد ما جربوا ضروب الحكومات الغابرة ساء ظنهم بادعاء كل حكومة وتهايات الازدهان لقبول تلك الدعاوى التي يلهج بها الفوضيون والشيوعيون ، وبطل يقينهم بالحكم وثقتهم بالطبيعة البشرية فباتوا في حياة خاوية عميقة لا اخلاص فيها ولا أريحية ولا يقين . فكل مستبد يحارب الديمقراطية اليوم انما يخدم الشيوعية أو الفوضوية من حيث يخيل اليه أنه يخدم نفسه ويعود بالناس الى زمن دابر لن يعود .

فليحذر المستبدون من عزل الشعوب عن الحكم أو من شكها في الحكومة الشعبية لأنها في هذه الحالة لن تؤمن إلا بالحكومة الطائفية ولن يكون من وراء ذلك إلا انتصار محقق للشيوعيين ، وليحذر الكتاب الذين يسرفون في نقد الديمقراطية لأنها إنما تقبل الإصلاح على مبادئها القوية ولا تقبله على مبادئ أخرى ، أما إذا انقلبت أو بطل الإيمان بها فلن يرجى من ذلك خير ولن يخلفها نظام أصلح منها يُظن به أن يدوم أو يطول .

على انني لا أحب أن اغفل في ختام هذه الرسالة اعتراضاً يصوب إلى الديمقراطية ويلوح عليه بعض الرجحان في باب غير باب الحكومة والسياسة ، ذلك ان الديمقراطية ترجع الامر في الفنون والآداب والمعارف الشائعة الى أذواق الجماهير فيقل الابداع والتفوق ويكثر البهرج والتلفيق ، ورجحان هذا الاعتراض ظاهر ولكنه عرضة للمبالغة وخطأ التقدير . فينبغي أن نذكر أولاً ان عهد الديمقراطية الحديثة لم يتجاوز خمسين سنة فلا نطالب هذه السنين الخمسين بان تخرج لنا من مبدعاتها ما يوازن مبدعات العبقريّة في جميع العهود ، وإنما يحق لنا أن نقابل الخمسين بخمسين مثلها في أي زمان وفي أية حال ، وعندئذ نرى أن الديمقراطية لا تحيي في هذا الميدان متأخرة ان لم نقل انها تحيي متقدمة بين الصفوف .

وينبغي أن نذكر بعد هذا ان اساليب التعبير عن العواطف الانسانية قد تنوعت في أيام الصحافة والصور المتحركة والصور الشمسية فكان لذلك أثر موقوت لا بد أن يحسب حسابه الى أن تزول مفاجأته وتطرّد الاذواق الفنية في سياقها الاصيل ، وان الفنان الذي يرزق العبقريّة العالية لا يسف بها الى المباراة في سوق التصنع والغرور ، وانه حتى اذا كانت الجماهير تغوي المستضعفين من رجال الفنون باسفاف ذوقها وكثرة تقلبها فليس دواء ذلك أن نقول للجماهير قفي ولا تتعلمي ولا تطليبي الفنون الآداب أو ان نضرب عليها حجراً كذلك الحجر الذي ضربه الهنود على الطبقات فحقت بهم اللعنة أجمعين . كلا ! وإنما دواؤه ان تتعلم

الجاهل وتتعلم وتتعلم حتى تسمو الى مقربة من الذوق السليم ، وأن يتهدب شره المال الذي نخشى غوايته على العبقريين في سوق المنافسة والزحام ، وأن يوكل التهذيب والتنقيح الى اختيار الزمن الذي يضع كل شيء في نصابه حسب ما يحتويه من جرائم البقاء ، وما دام لنا في الانسانية أمل فهذا المطلب ميسور مطمأن اليه موثوق بفلاحه . أما اذا ضاع الامل في مستقبل الانسانية قاطبة فأهون بضياح الامل في الديمقراطية حينذاك .

عَبَّاسُ مُحَمَّدٍ
العَقَّاسِيُّ

الصَّهْبُونِيَّةُ الْعَالَمِيَّةُ

دار الكتاب اللبناني - بيروت

بداءة العقاد والصهيونية بقلم محمد خليفة التونسي

معظم فصول هذه الرسالة أحاديث أذاعها أدينا الكبير الأستاذ عباس العقاد بعنوان « الصهيونية العالمية » فكان لها صدى قوي بين مستمعيها ، أوجب تقييدها ، ليتمكن من سماعها - ومن لم يسمعها أيضاً - من الرجوع الى مباحثها القيمة ، حتى يزداد النفع بها بدءاً وعوداً .

وليس من همنا هنا تلخيصها ، إذ لا حاجة به ولا جدوى منه ، وهي - كسائر ما يكتب الأستاذ - مستعصية على التلخيص لايجازها وإجمالها ، ولكننا نوميء إلى موضوعها وبعض مضامينها والفكرة الجامعة بينها ومنزع كاتبها فيها ، فالفصول كلها بيئة سوية متكاملة يشد بعضها بعضاً .

هذه الدراسة العلمية الموجزة لنشاط « الصهيونية العالمية » في كثير من اتجاهاتها ومجالاتها - تشتمل على معلومات وثيقة المصادر مدعمة بالأسانيد ، ونتائج وطيدة تقوم على أسس منها عميقة الجذور ، حتى إن الأذهان المبرأة من الأهواء المريضة - لتأدى من مقدماتها الى نتائجها في ثقة ويسر ، للصلوات الوثقى التي تربط بين شتى هذه الأطراف .

هي ليست تاريخاً للصهيونية وإن كانت تبدأ بإلمامة شاملة لنشوء فكرة الصهيونية وأطوارها السياسية المختلفة حتى الآن ، مع البراهين الحاسمة على أنها لم تكن في شتى عصورها الا حركة سياسية البواعث والغايات ، لا سند لها في المراجع التوراتية ، وإن زيفت لها أصول دينية رغبة في رواجها

وتعزیزها فی نفوس اليهود وغيرهم ، فانطلت خدعها علی الجمهرة بین الفريقین . وهذه الإمامة كافية کي تمهد لموضوعها ، وحسبنا من جديدها أنها تهتك الحجب عن أصول الصهيونية الزائف وتنسفه من أساسه .

وتمضي الفصول فی الكشف عن ماهية الصهيونية وخفاياها ، وتزييف أكاذيبها ودعاواها ، ومن أشيعها أكذوبة النبوغ اليهودي ودعوى اضطهاد اليهود بسببه ، فتفصح الرسالة هذه الأكذوبة فی التاريخ القديم والحديث بالحجة البينة وتشير إلى معظم أسباب الاضطهاد ، وكلها تنبع من العزلة التي يفرضونها علی أنفسهم وموقفهم العدائي من كل أمة يواطنونها أو يجاورونها لما طبعوا علیه من سوء وزعارة وحماقة ، فهم وحدهم المسؤولون عن كل ما يحيق بهم من بلاء ، وهنا تبين الرسالة الأسس النفسية والاجتماعية للصهيونية وعلاقتها بأخلاق اليهود ونزعاتهم المأثورة ، وقيام الصهيونية أخيراً متحالفة مع قوتين : هما قوة المصالح الاستعمارية وقوة التعصب ضد الاسلام ، ولولاهما لانهارت أو قنعت كدأبها بالذلة والخمول .

ثم تكشف الرسالة عن مكاييد الصهيونية التي تنفذها علی أيدي طوايرها الخامسة بین الأمم فی الميادين الاقتصادية والثقافية والسياسية ، وتبين أساليبها قديماً وحديثاً ، واستباحتها أبغض الوسائل لتحقيق أغراضها ، فهي حركة جنونية هدامة تسعى جهدها لحرب الأديان والأوطان والأسر ، لتنفرد بسلطان المال علی مصاير المجتمع ، وهي لا تخلق حركة اجتماعية ولا قدرة لها علی خلقها ، ولكن لا تكاد حركة تنبع فی ناحية حتى تسارع هي إلى استغلالها وتوجيهها إلى ما يخدم مصالحها ، ولا سيما الحركات الهدامة وآخرها الشيوعية اليوم ، وهنا الخطر الحق للصهيونية ، ومن أمضى أساليبها الغش والغدر واستطلاع الأسرار المحلية والعالمية وتسخير المال والنساء وتوطيد الصلات بأصحاب النفوذ فی كل أمة ، استغلال كل ذلك لمصلحتها ، ولا منفذ لها بغير هذه الوسائل السرية وما يشبهها خفاء وخبثاً ، إذ لا يناسب طبيعتها غير تلك الوسائل ، ولا نجاح لها إلا بها ، لأنها حركة هدم لا تعمير .

وثلت الرسالة الأخير يوضح مستقبل الصهيونية ووليدتها إسرائيل ، ويبين

منابع قوتها ومكان ضعفها ، وما ينتظرها من سوء المصير ، ويعين أسباب فشلها لضعف ذاعي بقائها أمام عوامل فنائها ، ومرجعها جميعاً إلى تبدل الأحوال العالمية والمحلية ، وكلها تنذر الصهيونية بالتفكك ، وتهدد إسرائيل بالزوال ، فالدسائس الصهيونية متعسرة أو متعذرة مع وضوح العلاقات الدولية اليوم وتشابكها . وتوزع السيطرة السياسية والاقتصادية بين قوى عالمية مختلفة المصالح والنزعات والمطامع ، وإسرائيل دولة مريضة متناقضة البنية والأسس والمشكلات ، وهناك مقاطعة العرب واقفة لها بالمرصاد ، فلا راحة لها مما قاطعوها ، ولا بقاء لها إذا طالبت الإقطعة وستطول . هذا إلى قيامها بين دول ناهضة تفوقها عدداً وثروة ، وكلها تمتعتها وتربص بها الدوائر ، جزاء ما أسلفت من عدوان عليها ، ولأن قيامها يهدد أرزاقها بل حياتها بالبورار .

هذه إحياءات إلى بعض مضامين « الرسالة » وهي قليل مما كتب الأستاذ العقاد في موضوعها ، فنحن لا نجد بين شيوخ أدبائنا وشيبتهم من هو ألهج منه بالكشف عن خفايا الصهيونية وتزييف مزاعمها والانحاء عليها فيما يكتب ويذيع ويتحدث . وموقفه منها غير مستغرب على من عرف حياته أو آثاره وهي صورة حياته ، ومن يقرأ كتبه ولا سيما عبقرياته وحملاته ضد الحكم المطلق والمبادئ الهدامة - يعرف أنه يدين بالقيم العليا ، ويقيس عظمة الرجال والأعمال بالمقاييس الأخلاقية ، والصهيونية دعوة جنونية بهيمية ضارية ، وحركة هدامة خبيثة الوسائل والأهداف ، فلا جرم تخف في ميزانه وتستحق عنده الجفاء ، إنها عدو البشر تنزع منذ قامت حتى اليوم إلى حرب المجتمع بأخس الوسائل ، وتعمل وسعها على إفساد أخلاقه وتمزيق أوأصره وهدم قيمه ومقوماته لكي تتسلط عليه فتسخره في مصالحها وتستأثر بخير العالم دونه ، والعقاد لا تنقصه الغيرة ولا الإيمان بالمبادئ الإنسانية وهو مطبوع عليهما ، فلا يستغرب منه الغضب على الصهيونية التي تهدرها ، ولا تنقصه الشجاعة فيما يراه حقاً وهو مطبوع على الشهادة ، وإن كان يعلم عين اليقين أخطار عداوة الصهيونية ولا يسلم من جرائمها ، ولا يثقل ضميره ولا عقله هوى مريض يقعه عن التصدي لها وإن خطبت رضاه ، فما قلناه الجبار بأضعف من الأقلام الهزيلة التي تحرص الصهيونية على رضاها بكل

ثمن في كل أمة ، ولا تنقصه المعرفة الواسعة العميقة لما ظهر وبطن من وسائلها وغاياتها الحقيقية والمزعومة ، بل قل بين أكثر الساسة والمفكرين من عنده علم قديمها وحديثها مثله ، وهذه هي بواعث العقاد حين يجفوها ، فهو يعافها عن نزعة انسانية رفيعة لا عن ترة شخصية ولا طائفية ، ولا عن تعصب ديني ولا وطني .

وليس من الضروري أن ينحو الانسان نحو أستاذنا العقاد في شعوره وتفكيره ومنزعه ليعاف الصهيونية ويجفوها مثله ، فكل من يحب الخير للناس - مهما يكن دينه أو وطنه - يجد نفسه مضطراً إلى الاشتراز منها وجفوتها مثله ولولم تنله بسوء ، ومكافحتها كما يكافح كل وباء ولولم يتهدده بضرر ، فما كانت الصهيونية في جميع العصور إلا وباء يهدد سلامة المجتمع وأمنه وأواصره بالفساد ، أولئك قطاع الطرق حيث كانوا منذ كانوا ، ولن يصممهم أعدى أعدائهم بشر مما وصمتهم به كتبهم المقدسة وهي القدوة والسند ، او مما يصمون به أنفسهم طائعين بل مفاخرين .

أخي القارئ ، ليست هذه مقدمة ، فما أنا بأهل لتقديم العقاد ، ولا حاجة بأحد لذلك ، ولكنها توطئة مما يناجي به الأخ أخاه في البدء ولهذا أود أن تحظى منك هذه « الرسالة » بما تحظى به « الرسائل الأخوية » ولولا ذلك لأمسكت ، أو لكانت التوطئة هي الختام .

محمد خليفة التونسي

١ - الصهيونية قبل الميلاد

يغلب على ظن الكثيرين أن الصهيونية حركة دينية قديمة ، وأنها مرتبطة بما ورد من الوعود للخليل إبراهيم عليه السلام .

والواقع أنها ليست بالحركة الدينية ، وليست بالحركة القديمة في بني إسرائيل أنفسهم ، ولكنها حركة سياسية تابعة لقيام الدولة وسقوطها في بيت داود .

فغاية ما بلعه إبراهيم عليه السلام تحت قمة صهيون أنه اشترى قبراً هناك بالمال كما جاء في الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين في العهد القديم .

ومضت القرون بعد إبراهيم إلى عهد موسى عليه السلام . ثم مضت القرون بعد موسى والحال على ما كانت عليه ، وبقيت مدينة بيت المقدس في أيدي البابليين ، وجاء في سفر القضاة من العهد القديم أن بني بنيامين كانوا يسكنون مع البابليين ، ولا يدعون معهم حقاً في المدينة ، ثم أغار بنو يهودا عليها فدمروها وأحرقوها ، ولم يخطر لهم أن يتخذوا فيها مقاماً ذا قداسة عندهم أو غير ذي قداسة . وعاد إليها البابليون فجددوها وأقاموا فيها إلى أن تولاها داود ، وخلفه سليمان فبنى فيها الهيكل المشهور . ولم يتفق اليهود أنفسهم على قداستها بعد قيام الهيكل فيها . فإن الملك « يهوآش » ملك إسرائيل أغار عليها ، واستباح هيكلها ، وغنم ما فيه من التحف والآنية ، ثم قفل إلى السامرة ، وجاء في العهد القديم خبر وفاته على الصيغة المرضية فقل عنه إنه اضطجع مع آبائه ، أي قضى على الأقل غير مغضوب عليه .

وإذا رجعنا إلى كلمة « صهيون » نفسها لم نجد لها أصلاً متفقاً عليه في اللغة العبرية . وأكثر الشراح يرجحون أنها عربية الأصل لها نظير في اللغة الحبشية ، وأنها من مادة الصون والتحصين . وكانت فعلاً من حصون الروابي العالية . والمقصود بالعربية هنا لغة الأصلاء من أبناء الجزيرة الذين سكنوا أرض فلسطين قبل هجرة العبرانيين بمئات السنين . وهم الذين أطلقوا على الأرض اسم أرض كنعان بمعنى الأرض الواطئة ، ولا تزال مادة كنع وقنع وخنع بهذا المعنى في لغتنا العربية الحاضرة .

والكلمة تكتب في العبرية تارة بالسين وتارة بالزاي ، ولم يحرص عليها اليهود بعد دخولها في حوزتهم . بل جاء في سفر صمويل الثاني أن داود غير اسمها باسم بيت داود ولم يشأ أن ينقل تابوت الرب إليه بل مال به إلى بيت عوبية . كذلك كان شأن صهيون قبل سبي بابل . فلما حمل اليهود إلى الأسر أصبح الحنين إلى صهيون رمزاً للحنين إلى عودة المملكة الغابرة . وتحولت الوعود الالهية في كتبهم تحولا جديداً مع مصالح السياسة ، فانحصرت في ذرية داود - عليه السلام - ليخرج منها غير ذي الذرية من اليهود .

وليس هذا بالتحول الأول عندهم في هذه الوعود على حسب المصالح السياسية . فقد كان الوعد لابراهيم فحولوه إلى إسحاق ليخرجوا منه أبناء إسماعيل . ثم حولوه إلى يعقوب ليحصروه في سلالة إسرائيل . ثم حولوه إلى ذرية داود لينحصر في مملكة الجنوب دون مملكة الشمال . وهكذا كان وعد صهيون (وعداً سياسياً) تابعاً لمآرب الدولة ومآرب الهيكل الذي يقام في جوارها ، فلا شأن له بالعقيدة الدينية التي تشمل جميع سلالة ابراهيم .

وفي الأسر البابلي تعلم اليهود بقايا الديانة القديمة ، وما احتوته من البشائر عن عودة « مردخ » الى الأرض ، وعودة رسول النور كل ألف سنة إليها لاصلاح فسادها . فتعلقت آمالهم بعودة المملكة على يد بطل من أبطال الغيب . ولم يكن هذا البطل مقصوراً عندهم على ذرية داود ، بل زعموا مرة أنه هو « كورش » الفارسي الذي سمي بالمسيح في الاصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا . ولبشوا دهرأ يتخيلون المسيح الموعود ملكاً

صاحب عرش وتاج ، يفتح بيت المقدس بالسيف ، ويعيد فيها الدولة الدائلة . ثم يشوا مع الزمن من تجدد المملكة بقوة السلاح فعلقوا الرجاء بالرسول المختار من عالم الروح ، وقيل في وصفه كما جاء في سفر زكريا « انه عادل ومنصور ووديع يركب على حمار ابن أتان » .

ولما بعث المسيح - عليه السلام - أنكر كهان الهيكل بعثته وأمن به بعض اليهود وبعض أبناء الأمم المقيمين في فلسطين ، واحتج القوم عليه يوعده إبراهيم ، فقال لهم : إن أبناء إبراهيم بالروح هم الموعودون بالخلاص ، فكل من آمن بدينه فهو من أبنائه ، ولا فرق بين اليهودي واليوناني ، لأن رباً واحداً للجميع . كما جاء في الرسالة إلى رومية .

وقد حدث في عصر السيد المسيح أن اليهود تفرقوا في أنحاء الدولة الرومانية ، واتخذوا لهم وطناً في كل قطر من أقطارها الواسعة ، فكتب فيلون فيلسوف الاسكندرية اليهودي يقول في تحديد موقفهم من الدولة « إن اليهود - لكثرة عددهم - لا تحتويهم بقعة واحدة ، ويتفرقون لطلب الرزق في أغنى البلاد من أوروبا وآسيا ، على أنهم ينظرون إلى أورشليم مكرهين كل الله المقدس كأنها حاضرتهم الكبرى ، ويحسبون وطناً لهم كل أرض عاشوا فيها وعاش فيها آبائهم وأجدادهم من قبلهم » .

والكلمة التي عبر بها فيلون عن الحاضرة هي الكلمة اليونانية « متروبوليس Metropolis » أي أم المدن من كلمة « متري » بمعنى أم وبوليس بمعنى مدينة وتطلق على كل مركز مهم من مراكز المعابد أو الدواوين .

فالصهيونية في الزمن القديم لم تكن عقيدة دينية ، بل كانت نزعة سياسية ، ثم ذهب الأمل في نجاحها السياسي ، فانقطعت العلاقة بينها وبين معناها الجغرافي ، وأطلقت في بعض التعبيرات على معنى آخر بعيد كل البعد من المعاني الجغرافية ، وذلك حيث يقول صاحب الرسالة إلى العبرانيين من الانجيل « إنكم لم تأتوا إلى جبل ملموس مضطرب بالنار . . بل أتيتم إلى جبل صهيون ، وإلى مدينة الله الحي أورشليم السماوية . . وكنيسة أبكار مكتوبين في السموات وإلى الله ديان الجميع » .

وواضح من تعبير هذه الرسالة أن الصهيونية قد تحولت إلى فكرة لا تتعلق

بمكان معين ، ولا تتطلب العودة إلى فلسطين ، ولذلك ناهضها المتدينون من اليهود عند ظهور الدعوة إليها ، واعتبروا هذه الدعوة تجديفاً وإنكاراً للمسيح المنتظر في عالم الروح ، فتلاقت عقيدة المسيحيين المؤمنين بالمسيح - عليه السلام - وعقيدة اليهود الذين ينتظرونه في آخر الزمان ، فاتفقتا على شيء واحد ، وهو الفصل بين الصهيونية السياسية والفكرة الدينية .

والواقع أن الصهيونية الحديثة كآختها القديمة : كلتاهما وليدة السياسة والسياسيين ، أيّاً كان السبب الذي تستند إليه .

وجملة أسبابها - كما يذكرها المؤرخون لها - هي الاضطهاد وظهور الفكرة القومية ومطامع الاستعمار .

لهذا نشأت أول الأمر في أوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى ، حيث بلغ الضغط على اليهود أشده في القرن التاسع عشر ، ثم نشأت مع المسألة الشرقية واستخدمها الساسة لتحقيق مطامعهم في بلاد « الرجل المريض » . . أي الدولة العثمانية كما سماها رواد الاستعمار .

فلما اتجهت أوروبا كلها إلى طرق المواصلات بين الشرق والغرب خلال الدولة العثمانية - أراد نابليون أن يستخدم اليهود للسيطرة على التجارة في هذه البقاع ، فنشر بالصحيفة الرسمية إعلاناً دعا فيه يهود إفريقيا وآسيا إلى موافاة جيشه بمصر ، ليدخلوا معه إلى أورشليم ، وراجت في باريس سنة ١٧٩٨ دعوة يهودية إلى اغتنام الفرصة ، للاستعانة بفرنسا على تنظيم أعمالهم التجارية بين الوجه البحري في مصر وعكا والبحر الميت وشواطئ البحر الأحمر .

ولم تكد هذه الدعوة تحبط بحبوط حملة نابليون حتى تصدى الايرل أوف شافتسبري الانجليزي سنة ١٨٤٢ لتبنيها واحتضانها ، منعاً لتنفيذها على يد دولة أخرى ، وعلى الخصوص الدولة الروسية ، فوضع مشروعاً سماه مشروع « الأرض بغير شعب للشعب بغير أرض » ويعني بالأرض مكاناً خالياً يصلح للاستعمار الزراعي في أنحاء فلسطين ، ثم انعقد مؤتمر برلين وهذه الفكرة شائعة فيه بين الأروقة يزجها رجال المال من وراء الستار .

ولما فوتح السلطان عبد الحميد الثاني في هذه المسألة أراد بدهائه المعروف أن يسخرها لغرضين من أغراضه : وهما الحصول على القروض بأيسر الشروط ، واستخدام اليهود في رد حملات التشهير التي كانت تنهال عليه باسم المذابح الأرمنية . وسرى فيما يلي من الكلام عن أطوار هذه المسألة أنها كانت - ولا تزال - ألوية من ألعيب السياسة التي تتوارى خلف ستار من الدين ، ولكننا - قبل أن نتقل إلى الصهيونية بعد العصر القديم - نود أن نميط الستار عن حقبة أخرى ترتبط بتاريخ الصهيونية ، ويتجاهلها الذين تذرعو باسم الانسانية لتعليل هذه الحركة الجهنمية .

فهم يقولون - ولا يملون تكرار القول - إن الاضطهاد هو علة الصهيونية الأولى ، وإن قيام الصهيونية يقضي على هذه العلة أو يمنع تجديدها .

والحقيقة التي نريد أن نقررها هي أن الاضطهاد نتيجة لداء مزمن في اليهود سيقى معهم في دولتهم الجديدة كما كان معهم في دولتهم القديمة .

فمن الذي اضطهد اليهود في مملكة سليمان حتى انقسمت على أهلها ثم انقسم كل شطر من شطريها على أهله .

ومن الذي اضطهدهم يوم تمردوا على كل نبي من أنبيائهم ، وكل قائد من قادتهم ، وهم بعيدون من سلطان غيرهم ؟

إن القرآن الكريم قد وصفهم حقاً حيث قال عنهم « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى .. » ولم يصفهم القرآن الكريم إلا بما وصفتهم به كتبهم ورسولهم من أقدم عصورهم إلى ما بعد عصر المسيحية .

وفي الاصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية يقال لهم بلسان الرب : « إني عارف تمردكم ورقابكم الصلبة » .

وفي الاصحاح التاسع من سفر نحemia إنهم « أعطوا كثفاً معاندة ، وصلبوا رقابهم ولم يسمعوا » .

وفي الاصحاح السابع عشر من سفر أرميا انهم « قسوا أعناقهم لئلا يسمعوا ولئلا يعقلوا » .

وفي أعمال الرسل أنهم غلاظ الرقاب . وفي غير هذه الكتب اجماع على

غلظ رقابهم ، وشكاستهم ، وامتناع الوفاق بينهم . وهذه هي الافة التي لا تفارقهم في دولتهم الجديدة ، وما فارقتهم قط في دولتهم الغابرة ، حتى قضوا عليها قبل ان يقضي عليها أعداؤها . وقد جروا على انفسهم الاضطهاد في كل بقعة وفي كل عصر وبين كل قبيل ، فليس من المعقول أن تكون العلة في غيرهم ، وليس للأمم من حيلة معهم إلا أن تخضعهم آخر الأمر أو تخضع لهم برمتها ، وإنه لهو المستحيل بعينه على كل فرض من الفروض ، وإنما آفة القوم الكمينية فيهم أنهم كائن ممسوخ من الوجهة الاجتماعية ، لأنهم جماعة مقتضبة لم تصبح أمة ، ولم ترجع إلى نظام القبيلة البدوية . واشتبكت مع العالم وهي في مرحلة غير نامية وغير صالحة للنمو على حدة ، فكل علاج لها ميؤوس من جدواه ، ما لم يغلبها العالم على طبيعتها ، ويدمجها اضطراراً في طوية أممه ، وسوف يكون ذلك لا محالة ، لأن غيره لن يكون .

٢ - الصهيونية

من الميلاد إلى القرن التاسع عشر

منذ القرن الأول للميلاد لم يطرأ على « الصهيونية » شيء جديد قبل القرن التاسع عشر - فكل ما عرفه اليهود عن الصهيونية في عصر السيد المسيح بقي كما كان في القرون الوسطى ، وفيما تلاها من قرون النهضة والاصلاح إلى أوائل القرن التاسع عشر - أي إلى القرن الذي يصح أن يسمى في وقت واحد بعصر الثورة ، وعصر الاستعمار ، وعصر الصناعة الكبرى ، ولكل صفة من هذه الصفات علاقة باليهودية لا تخفى على النظرة العاجلة ، ولكنها تستحكم وتتغلغل في جميع الجوانب بعد إنعام النظر إليها .

كان اليهود يعيشون في أرجاء الدولة الرومانية بين أناس يخالفونهم في العقيدة ، وكانوا يعزلون أنفسهم عن المجتمع باختيارهم ، وينشئون في أنحاء الدولة مراكز متفرقة للمعاملات التجارية ، وشؤون الصيرفة ، ومبادلة السلع والنقود - ولكنها متفقة فيما بينها على قصد وعلى غير قصد لانعزالها في كل بقعة على حدة ، فإذا سافر اليهودي من الاسكندرية إلى روما علم قبل سفره أن هناك بيئة مماثلة لبيئته ، يذهب إليها ليستعين بها على عمله ، ويشترك معها وبارشادها في استغلال من حوله . وكان هذا الاستغلال بطبيعته سبباً لنقمة الفقراء والأغنياء في وقت واحد ، فكان اليهود غرضاً لغضب المعوزين كما كانوا عرضة لغضب المدينين وأصحاب المحصولات الزراعية من الضياع الواسعة ، وبخاصة في إبان الأزمات والحروب الخارجية والاهلية ، وقد كانت تتعاقب على كثرة من قبيل انهيار الدولة الرومانية .

وكلما كثرت الحروب وضح لأبناء الأمم المختلفة أن هذا الشعب المسمى

« اليهود » متفق عليهم ، متفاهم فيما بين أبنائه على ابتزازهم واستباحة أموالهم وأرزاقهم ، لأنه يعتزلهم كافة بمجتمعه في كل بقعة ، ثم يرتبط بالمعاملة بينه وبين أبنائه في المعسكرات المتقاتلة ، ولا ينظر اليهودي إلى زميله نظرة العداء والمقاطعة ، وإن قطعت الحروب والفتن بين البلدين .

ودانت أمم الغرب بالمسيحية شيئاً فشيئاً فلم تتغير هذه الحالة ، بل جد عليها سبب مفهوم ، للتقاطع بين اليهود والمسيحيين ، وهو عداء اليهود للسيد المسيح ، فعاش اليهود في عزلتهم ، وتعرضوا من جراء هذه العزلة لتهم كثيرة وشبهات أكثر ، حتى شاع عنهم في أيام الوباء أنهم هم الذين يسممون الماء والطعام .

وضاعف الاشتباه فيهم أنهم كانوا ينفردون بمطاعمهم في المدن ، وقلما يؤاكلون أحداً في الريف .

وحدث غير مرة أن اليهود كانوا ينصرون كل مغير على البلد الذي يقيمون فيه ، وحدث غير مرة أنهم كانوا يصاحبون الجيشين المتقاتلين لشراء الأسرى ، وبيع المؤنة ، وبذل القروض ، ثم يتقابلون على تفاهم عند « تصفية الأعمال » والمساومة ، فوقر في أخلاذ الأمم أنهم شعب غريب .

وكان شعورهم نحو بيت المقدس خلال هذه القرون لا يتجاوز شعور الحنين إلى مجد قديم ، وانتظار الوقت الموعود في الزمن الذي يختاره الله ، ولا شأن لها بتقديمه أو تأخير مع المشيئة الالهية ، وأصبحت الصلوات التي يعيدونها كل يوم أو كل أسبوع طلباً للرضوان الالهي ، ألفاظاً تعاد على الأكثر بغير معنى ، كأنها الدعوات التي يرددها الجهلاء من أتباع كل نحلة ، وهم لا يفقهون معناها .

ويسجل التاريخ الأوروبي على اليهود أنهم كانت لهم مشاركة في كل فتنة ، وكل إغارة . ولكن المؤرخين يختلفون في تحليل هذه المشاركات المتواترة - فيعزوها بعضهم إلى المصادفة لوجود اليهود في كل بيئة ، ويعزوها بعضهم إلى شعور النعمة الطبيعي على كل سلطان غاشم يخضع له المحكومون على رغم واضطرار ، ويعزوها بعضهم إلى التدبير المتعمد لهدم المجتمع المسيحي من داخله وتقويض دعائم الدولة والكنيسة في وقت

واحد ، ومما قيل وأصر القائلون عليه أنهم أسسوا جماعة البنائين الذين اشتهروا باسم الماسون ، وقرنوا بين التعاهد على بناء الهيكل وبين هذه التسمية ، وما يتصل بها من المصطلحات والشعائر ، وقيل غير ذلك كثير مما تتشعب فيه الظنون ولا حاجة الى استقصائه ، لأن الظواهر تغني فيه عن الأسرار .

وكان يتفق في بعض السنين أن يتجه اليهود والمسيحيون معاً إلى بيت المقدس ، على أثر الاشاعات « الفلكية » التي يزعمها أناس من المنجمين موعداً لعودة المسيح - عليه السلام - فتكثر الهجرة إلى المشرق على اعتقاد المهاجرين جميعاً أن الدنيا تنتهي بهذه العودة الموعودة ، وليست فكرة الوطن القومي مما يدخل في هذا الاعتقاد ، بل كان من المسيحيين من يرى أن ارتداد اليهود عن كفرهم بالديانة المسيحية شرط لقيام الساعة ، فلا أمل لهم قبل ذلك في اليوم الموعود .

أما فكرة « الوطن القومي » فلم تنشأ قبل عصر النهضة الوطنية ، ولم يسمع فيه صوت لليهود إلا لأن هذا العصر كان كذلك عصر الصناعة الكبرى وعصر الاستعمار .

فلا يخفى أن الاستعمار قد بدأ بالتجارة ، وأن طريق الهند كان أهم الطرق التجارية في العالم القديم ، ومن ثم كثر الاهتمام بفلسطين ومصر ، وارتفع في المجامع الدولية صوت اليهود لاتصالهم في وقت واحد بالتجارة وبهذه البلاد ، واشتبكت مسألة القروض بمطامع المستعمرين في أقطار الدولة العثمانية ، فلم ينظر الأوروبيون إلى مطالب اليهود كأنها مطالب منفصلة عنهم وحدهم ويغارون عليها من أجلهم ، ولكنهم جعلوها من الوسائل المعول عليها في خدمة السياسة والاستعمار .

وأثار القرن التاسع عشر مسألتين لا مسألة واحدة فيما يرجع إلى موقف اليهود من العصر الجديد .

أثار مسألة القومية اليهودية ، لأن القومية كانت على كل لسان في البلاد التي يكثر فيها اليهود خاصة كبولونيا ورومانيا وأسبانيا وهولندا ، فخطر لليهود أن يطالبوا بقومية مستقلة ، وأن يطالبوا لهذه القومية بوطن تساعد الدول

على احتلاله .

وأثار القرن التاسع عشر مسألة المساواة في الحقوق العامة ، فاعترف بعض الأمم لليهود بالمساواة بينهم وبين غيرهم من أبنائها .

واعترضت أمم أخرى على اعتبار اليهود من الوطنيين ، لأن الوطنية لا تقبل الولاء لوطنين اثنين ، وكان اليهود قد أخذوا في ذلك الوقت ينادون بالوطن القومي على اختلاف بينهم على موقعه : أين يكون وكيف يكون ؟

وفي هذه المرحلة صدر كتاب موريتس هيس Moritz Hess بعنوان رومة وأورشليم ، ومداره كله على ضرورة الاعتراف بوطنين للشعب اليهودي ، وعلى اعتبار اورشليم مركزاً لليهودية كما تعتبر رومة مركزاً للكنيسة المسيحية الكبرى .

ومما يؤيد تلفيق الدعوى الدينية في مسألة الصهيونية الحديثة ، أن إمام هذه الصهيونية الأكبر تيودور هرزل لم يفكر فيها إلا بعد سنوات من صيحته الأولى في سبيل « خلاص اليهود » وإنما كانت فكرته الأولى تحويل اليهود إلى المسيحية ، وإنشاء مدرسة في فيينا لابتداء هذه المحاولة ، وإقناع الجاليات اليهودية بين الأمم الأخرى بمحاكاتها ، ثم نظر اليهود فوجدوا لهم « لزوما » في دسائس الاستعمار ومساعيه الخفية الظاهرة ، ووجدوا لهم « لزوما » في عصر الصناعة والطرق التجارية خلال بلاد الدولة العثمانية ، ووجدوا لهم « لزوما » في عصر المسألة الشرقية وتفاهم الدول المستعمرة على تقسيم تركة الرجل المريض ومنها فلسطين ، فجاءت الصهيونية بعد ذلك كله « وليدة » السياسة كما كانت وليدة لها في أقدم عهودها .

وقبل أن تشتبك الصهيونية والمطامع الدولية خطر لليهود أن يصححوا مراكزهم ، ويلائموا بينهم وبين العصر الحديث بوسائل متعددة - لم تعرض لهم فكرة « الوطن القومي » إلا في نهاية المطاف .

فأنشأوا جماعة هسكالا أو « شكل » في ألمانيا لتجديد العقيدة ، والتوفيق بين التربية الدينية والتربية العصرية ، وأنشأوا جماعة « حلوة » على غرار الجماعة القديمة التي كانت تجمع التبرعات من أنحاء الأرض ، لا يواءم

الشيوخ والعجزة في اورشليم وصفد وطبرية وغيرها من مواقع فلسطين التي يكثر فيها اليهود ، وطمع بعضهم بقيادة موسى مونتفيور في شراء البقاع الواسعة في فلسطين من محمد علي الكبير لتعميرها بالزراع من المهاجرين ، وتألفت في الآستانة جماعة اليهود الروس المعروفين باسم « بيت يعقوب » لتشجيع الهجرة بعد استئذان السلطان .

فلما شعر اليهود بسهولة الطمع في « الوطن القومي » رفضوا هذه المحاولات جميعاً ، واندفعوا الى فكرة « الدولة اليهودية » ، ولم ينعوا بالوطن القومي لمجرد السكنى والتعمير .

ولكنهم - حتى في هذه المرحلة - لبثوا مترددين في اختيار الموقع بين أوغندة في افريقية ، واقليم من الأقاليم الخالية في الولايات المتحدة ، وبقعة من البقاع على البحر الأسود بين روسيا والبلقان ، وكانت طائفة من أقوى جماعاتهم الدولية وأكبرها - وهي طائفة عقودة اسرائيل - تعارض فكرة الوطن القومي إلى أيام الحرب العالمية الأولى ، ولم تعدل عن معارضتها الا بعد إعلان وعد بلفور .

وظلت فكرة الوطن القومي ، أو فكرة الدولة اليهودية ، كالسحاب الذي يتشكل على حسب أوهام الناظرين إليه ، حتى أوشك القرن التاسع عشر أن ينتهي دون أن تستقر على وضع محدود ، ثم تبلورت على شكل ثابت في مؤتمر بال بسويسرة سنة ١٨٩٧ ، وتم تشكيلها على الوضع الأخير بوعد بلفور بعد عشرين سنة .

أما مؤتمر بال المسمى بالمؤتمر الصهيوني فقد أصدر في اليوم الثاني من أيام انعقاده قراراً يقول فيه تعريفاً للصهيونية انها حركة ترمي الى إنشاء وطن للشعب اليهودي شرعي معترف به في أرض فلسطين ويرى المؤتمر أن الوسائل الآتية صالحة لتحقيق هذا الغرض وهي :

١ - ترقية اليهود المقيمين بفلسطين في أعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية .

٢ - تأليف اليهود في جميع البلدان جماعات محلية ، او جماعات عامة على

حسب القوانين المرعية في تلك البلدان .

٣ - تقوية الوعي اليهودي حيث كان .

٤ - اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على السند الضروري من الحكومات .

ثم نشبت الحرب العالمية ، فاتصل الصهيونيون بالمعسكرين وساعدتهم ألمانيا والنمسا عند الباب العالي لتحقيق هذا المطمع في فلسطين ، وعلم جمال باشا انهم يهدفون لانتصار دول الغرب على دول أوربا الوسطى فاشتد في مقاومة مشروع التعمير ، واتفق في أثناء ذلك أن أستاذاً كيمائياً في جامعة مانشستر كشف طريقة لاستخراج المواد اللازمة للمفرقات من بعض الحبوب ، فطلبت الجامعة مكافأته ، وأبى هو أن يطلب شيئاً لنفسه ، قانعاً بوعد من الحكومة البريطانية أن تصغى إلى مطالب قومه .

هذا الأستاذ هو الدكتور حاييم وايزمان الذي اشتهر بعد ذلك في زعامة الحركة الصهيونية ، وشفاعته هذه كانت المقدمة « المرغوب فيها » لإعلان وعد بلفور ، ولكنه لم يعلن يومئذ في البلاد العربية ، بل خطرت الإشارة إليه في الشرق العربي كله إلى ما بعد الهدنة بشهور ، وما كانت شفاعته الدكتور وايزمان الا تعلقه لإصدار هذا الوعد الذي كان جزءاً من السياسة البريطانية العامة ومعداً قبل إعلانه لتنفيذه في الوقت المناسب ، وقد كان في طريق التنفيذ بغير هذه الشفاعه ، وإنما أصدرته الحكومة البريطانية ليكون ثمن الدعاية الصهيونية في الولايات المتحدة ، كي تحصل بريطانيا على المساعدات الأمريكية التي كانت في حاجة ملحة إليها للمضي في الحرب العالمية الأولى .

٣ - الصهيونية منذ وعد بلفور

دخلت الصهيونية في دور العمل السياسي النافذ بعد وعد بلفور ، وانتداب بريطانيا العظمى لإدارة فلسطين .

وترجمة هذا الوعد « أن حكومة جلالته تنظر مع الموافقة إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي بفلسطين ، وستبذل أفضل مساعيها لتيسير الوصول الى هذا المطلب ، مع العلم بأنه لن يعمل شيء يمس الحقوق المدنية أو الدينية للطوائف التي تسكن فلسطين الآن من غير اليهود ، أو يمس الوضع السياسي المخول لليهود في أي بلد آخر » .

ويخيل إلى بعضهم من اليهود ومن العرب أن هذا الوعد منتزع أو مغصوب بحكم الضرورات الحربية ، ولكنه في الواقع جزء من سياسة عامة تتناول الشرق الأدنى برمته ومنه فلسطين وسائر البلاد العربية ، فهذا الوعد هو الجزء المقابل لوعود أخرى بذلت للأمراء في بلاد العرب التي خرجت من حكم الدولة العثمانية . ومن سخرية القدر أن نرجع اليوم إلى أقوال زعماء اليهود بعد استقرار الانتداب البريطاني على فلسطين نحو عشر سنين ، فقد كان اللورد ملشت الصهيوني الانجليزي يقول في سنة ١٩٣٦ « إن إقامة ثلاثة ملايين من اليهود في فلسطين سوف يقضي إلى الأبد على احتمال نجاح الثورة التي تهب على دولة الانتداب » . وكان بن غريون رئيس الوكالة اليهودية يقول « من خان بريطانيا العظمى فقد خان الصهيونية » .

وكان غيره يصرحون بأمثال هذه التصريحات ولا يقتصدون فيها ، ولو اطلع أحد على الغيب في تلك الآونة لقال مع أبي العلاء « وتقَدِّرون فتضحك الأقدار . . . » .

ومن الواجب على الدوام تذكر المناورات السياسية التي أدت إلى قيام الوطن

القومي في فلسطين ، فكل ما كان وليداً لهذه المناورات قد يموت بها في يوم من الأيام ، ولا سيما وليد التلقيق ، أو وليد المفاجآت .

إن الواقع المحقق في مسألة الصهيونية أن اليهود يستغلون الدول ، والدول تستغلهم . وهذا الواقع المحقق وحده هو الذي يقرر لنا أن العامل المهم في بقاء الصهيونية بفلسطين يتوقف على إرادة الأمم العربية في نهاية المطاف ، فلن تدوم الصهيونية في الشرق الأدنى اذا عملت أمم العرب على أن تموت ولا تدوم .

وقد تكون الشعوب بمأمن من تقلبات السياسة لو أنها نشأت نشأة طبيعية على أساس قويم ، أما ان تكون تقلبات السياسة هي مادة وجودها ومادة بقائها - فهي حالة لم تعرف لها سابقة في التاريخ .

عاجلت بريطانيا مشكلة الانتداب فلم يسلس مقادها في يديها بعد عشرين سنة من وعد بلفور ، فقسمت فلسطين شطرين بينهما شقة مستقلة في الناصرة وبيت المقدس ، وأبى العرب واليهود هذا التقسيم ، فاقترح العرب حكومة وطنية تراعى فيها مصالح الأقلية ، واقترح اليهود حكومة يهودية تعيش فيها الأكثرية عالة على اليهود مع فتح أبواب الهجرة لهؤلاء بغير قيود ولا حدود ، ثم مضت سنتان وأعلنت دولة الانتداب قيام الحكومة اليهودية على أن تصبح فلسطين بعد عشر سنين حكومة اتحادية ، وسمحت بدخول خمسة وسبعين ألفاً من المهاجرين اليهود خلال السنوات الخمس الأولى بعد سنة ١٩٣٩ ، فكانت لجنة الوصاية بعصبة الأمم أول المعارضين على هذا الحل ، واضطرت نيران الحرب العالمية الثانية دون أن ينقض أو يوقف عن التنفيذ .

ثم تأسست الجامعة العربية في أعقاب الحرب العالمية ، وتكرر العدوان في أواخر تلك الحرب من عصابات الارهاب الصهيونية وأشهرها عصابة أرجون ، وعصابة شتيرن ، وعرضت حكومة العمال الانجليزية مسألة فلسطين ومسألة الانتداب على هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ ، فأحيلت هذه المسألة كلها إلى لجنة من لجان الهيئة ، وعادت اللجنة إلى خطة التقسيم مقترحة أن تقسم البلاد إلى حكومتين مستقلتين في غير الشؤون الاقتصادية ، وأن يوضع بيت المقدس تحت الوصاية الدولية .

وماذا كان هذا الاستقلال في غير الشؤون الاقتصادية يعنى بالنسبة إلى العرب وإلى الصهيونية ؟

إن ربع قرن مضى في تشجيع اليهود على الهجرة والاستعمار وتنظيم الشركات لم يبق للعرب بقية من الاستقلال في شؤون الاقتصاد ، فإذا استقل العرب وسلموا زمام الاقتصاد إلى الحكومة العامة فمعنى ذلك أنهم يسكنون في حجرات بيت خلا من حجرة الطعام ، وسلم مفتاحها ومطبخها إلى الساكن الآخر يعطي منه ما يعطي ويمنع ما يمنع كما يشاء .

وقبل الصهيونيون هذا الحل ببعض التحفظ إلى حين ، واحتج العرب عليه ، واستعصى الأمر على الدولة المنتدبة ، فنظر مجلس الأمن فيه ، وقرر بجلسة الثاني من أبريل سنة ١٩٤٨ إحالته إلى هيئة الأمم لإعادة النظر في التقسيم ، وبحث مسألة الانتداب على احتمال اسناد الوصاية الموقوتة إلى هيئة الأمم ، فتركت الهيئة مشروع التقسيم كما كان ، وقررت أن توفد إلى فلسطين رسولا يصلح بين الفريقين ويبسط للهيئة حلا يرضيانه أو ترضاه وتقرضه على الموافقين والمخالفين .

وكانت بريطانيا العظمى قد أعلنت عزمها على الجلاء عن فلسطين ، والتخلي عن مهمة الانتداب ، وعينت للجلاء موعداً في الرابع عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٨ ، فكأنما كان هذا اليوم موعداً لقيام دولة إسرائيل واعتراف الولايات المتحدة بها قبل انقضاء ساعة من لحظة الاعلان .

ودخلت الجيوش العربية فلسطين ، واجتاحت أمامها عصابات اليهود ، ولأول مرة من تاريخ مجلس الأمن تعمل المادة التاسعة والثلاثون من ميثاق الأمم المتحدة عملها الناجز في وقف القتال حرصاً على سلام العالم . . فكانت الهدنة فرصة لتزويد الدولة اليهودية بالسلح والعناد ، وتهديد كل دولة عربية على انفراد للكف عن القتال ، مع الحرمان من كل مدد تستطيع أن تحصل عليه .

وقد تجددت في هذه المرحلة مناورات السياسة من الدول الكبرى التي تسيطر على سياسة العالم ، فاعتقدت كل دولة منها انها آمنة من مساعدة

الصهيونية . لأن الصهيونية في حاجة إليها ، فالولايات المتحدة تعطي القروض وتؤوي في بلادها خمسة ملايين من اليهود ، وبريطانيا العظمى صاحبة النفوذ الأكبر في الشرق الأدنى وعلى مقربة من حدود إسرائيل ، وروسيا يسكنها ملايين من اليهود وتدين بالملذهب الذي نشره اليهودي كارل ماركس وتابعه عليه الكثيرون من أبناء جلدته في جميع البلدان .

ثم كان ما هو مذكور من وقف القتال في السابع عشر من شهر يونيو سنة ١٩٤٩ وطغيان اليهود على بلاد فلسطين جميعاً إلى اقصى الجنوب وذهب أبناء البلاد مشردين بالعراء ، محرومين من المأوى والمرئق في مواطن آبائهم وأجدادهم منذ آلاف السنين ، وشذاذ الآفاق ينعمون بخيرات تلك المواطن ويتدفقون عليها بغير حائل ولا مانع ، حتى بلغ سكان إسرائيل أكثر من مليون وستائة ألف عند نهاية سنة ١٩٥٢ .

لقد رأينا كيف يتدرج الصهونيون من طمع إلى طمع كلما أنسوا التشجيع أو الإغضاء من دول الاستعمار . كانوا يقنعون بالسكن حتى وجدوا من يطعمهم في الوطن القومي فطلبوه وزادوا عليه إقامة الدولة في ذلك الوطن المغصوب ، وكانوا يقنعون بالقسمة فهم لا يقنعون اليوم بما دون السيطرة الكاملة على جميع البلاد ، ووضح من تسمية الدولة الناشئة باسم إسرائيل أنهم يتطلعون الى مملكة يهوذا في الجنوب ، ووضح من دعوتهم ودعواهم على السنة المتهوسين منهم انهم يطعمون في الدولة التي رسمت حدودها في سفر التكوين « من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات . . » والتي رسمت حدودها في كلام يشوع « من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات . . وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس » .

وليس دعوة المتهوسين بين هؤلاء القوم غير دعوة العقلاء والحكماء كلما سنحت الفرصة ، وواتها من الأقوياء تشجيع واغراء . وحسب صهيون من تشجيعهم واغرائهم حتى الساعة أنها لم تحاسب قط على مخالفة ، ولم تحفل قط بقرار يتفق عليه الأقوياء أو يختلفون . وتنقضي الأيام على مصرع رسول الأمم ، وعلى اقتحام بيت المقدس ، وعلى اختراق الحدود ، وإهدار دماء الأبرياء ، وترويع المشردين فوق ما أصابهم من ترويع وتشريد - فلائدان

صهيون بجريمة من هذه الجرائم، بل تتجنى على غيرها وتشكوه ، فتنفتح الأذان والصدور لاستماع شكواها ، ثم لا يقال لها أقل ما ينبغي أن يقال في هذا المجال : اذهبي فأطيعي الهيئة التي ترزئونها ثم تستمدين العون منها ، ولعلها ستعان ثم تعان قبل أن تؤمر يوماً بأن تسمع وتطيع .

وفي وسع الدول الكبرى أن تصنع كثيراً لإسرائيل ، إلا شيئاً واحداً لا تستطيعه ، لأنه لا يستطيع .

ليس في وسعها أن تقيمها على قدميها وأن تغنيها عن معونتها ، وهي لا تفتأ تستعين بها على نفقات الدفاع ، ونفقات الإيواء والتعمير ، وسداد الديون ، وإن طال صبرها على معونتها فليس في وسعها أن تضمن لها دوام « التقلبات السياسية » في مصلحتها ، ولا أن تقتلع من طباع أبنائها جذور ذلك الداء الذي شكاه أنبيأؤها قديماً ، وسيشكوه لا محالة أصبر الساسة من الأقوياء ، والضعفاء : داء الرقبة الغليظة ، وليس له دواء .

أما الأمم العربية فهي في الحق ضعيفة أمام أنصار إسرائيل . ولكنها تحبط ما يعملون بعمل واحد : وهو الاعراض عنها والكف عن معاملتها . وإن دولا أقوى من إسرائيل ، وأسلم منها بناء في موطنها . لتتخذل مع الزمن إذا طالت المسافة بين من تعاملهم ويعاملونها ، ونضبت مواردها عن تعويض منافعها من أقرب الناس إلى مصانعها وأسواقها ، وليس للأمم العربية من خيار إلا هذه المقاطعة ، أو سيطرة إسرائيل عليها بما تأخذه من خيراتها وتستفيد من جهودها .

ومن خيرته الحوادث بين هذين فقد وضح الطريق أمام عينيه .

٤ - الصهيونية العالمية

الصهيونية العالمية حقيقة واقعة .

هي قوة موجهة بأعمالها وأثارها ، موجودة بدعايتها وأخبارها ، موجودة بمقاصدها وغاياتها ، ولا حاجة بها إلى وجود في صورة أخرى ما دامت موجودة بالأعمال والدعاية والغايات .

ظهرت في القرن الماضي مجموعة من الوثائق السرية سميت بمحاضر مشيخة إسرائيل ، وانتشرت من روسيا حيث ظهرت أولاً إلى فرنسا وإنجلترا ثم سائر الأقطار الأوروبية ، وخلاصتها أنها تجمع المحاضر التي تسجل قرارات المشيخة الصهيونية ، وأن هذه المشيخة تلتقي من حين إلى آخر للنظر في شؤون العالم ، واتخاذ الخطط المرسومة لتوجيه السياسة الدولية وإثارة الفتن والقلق في أمم الحضارة ، سعياً وراء غاية واحدة : وهي تخريب العالم وهدم دعائم الأخلاق والأديان والقضاء على كل سيادة روحية أو دنيوية فيه ، لتمكين الصهيونية من السيطرة عليه ، وتسليمه للصيرفة والسامسة وأشباههم من خدام المال المستترين وراء كل شبكة مالية واسعة النطاق ، ومعظمهم من الصهيونيين .

والملاحظ على هذه الوثائق أنها لا تظهر في لغة من اللغات الا اختفت على أثر ذلك ، وأنها تختفي كلما عادت إلى الظهور مترجمة أو مطبوعة من جديد ، وهذه هي الشبهة القوية التي أقنعت بعض المشتغلين بالنشر والصحافة الكبرى بصحة الوثائق ، واهتمام الصهيونيين باخفائها ومنع تداولها .

ونحن على بغضنا للصهيونية لا نريد أن نعطي هذه الوثائق فوق حقتها ، فنحن لا نجزم بنفيها ولكننا كذلك لا نجزم بصحتها ، ولا نرى أن الدلائل

التاريخية كافية لاثباتها والتعويل عليها .

بل نحن نميل إلى الشك فيها كثيراً ، لأننا نستكثر على الصهيونية أن يكون لهم خلق الطاعة والولاء ، وأن يتعودوا الاخلاص في خدمة هيئة علنية او سرية . فلم يعرف في تاريخ هؤلاء القوم قط أنهم يخلصون في طاعة هيئة دنيوية أو دينية ، وليس في تاريخهم كله عشر سنوات متواليات خلعت من الفتنة والعصيان والتمرد على الرئاسة من أبناء جلدتهم ومن غير أبناء جلدتهم ، ولا فرق بين رئاسة دينية أو دنيوية في هذه العادة المزمنة بين هؤلاء القوم .

بل هم لم يخلصوا في طاعة نبي قط من عهد ابراهيم الخليل إلى عهد موسى ، إلى ما بعد انقضاء عهد النبوات لاسرائيلية وظهور السيد المسيح ، وقد وصفهم القرآن الكريم أصدق وصف في قوله تعالى : « بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » . وهذا وصف إلهي صادق عليهم في جميع العصور ، ولكننا لا نحب ان ندينهم بكتاب لا يؤمن به أنصارهم من الغربيين ، وفي كتبهم المعتمدة كفاية وفوقالكفاية لتوكيد هذا الخلق الذي نسميه عادة مزمنة فيهم ، ما زالت ولن تزال .

ففي التوراة من سفر الخروج « قال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة » .

وفي السفر نفسه بلسان الإله : أني لا أصعد في وسطك ، لأنك شعب صلب الرقبة لثلاث أفنيك في الطريق .

وفي سفر التثنية يقول لهم موسى عليه السلام : « إنني عارف تمردكم ورقابكم الصلبة » .

وفي سفر التثنية أيضاً يقول لهم : « ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها ، لأنك شعب غليظ الرقبة » .

وليس في العهد القديم سفر واحد خلا من وصف كهذا الوصف بمعناه أو بما هو أشد من معناه ، ولم تتغير طبائعهم بمضي الزمن إلى أيام السيد

المسيح . فإن السيد المسيح هو الذي يخاطب أورشليم قائلاً : « يا أورشليم ، يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ، ولم تريدي » .

وبعد السيد المسيح كان بولس الرسول يقول لهم : « يا قساة الرقاب ، يا غير المطهرين بالقلوب والأذان ، انتم تقاومون الروح في كل حين » .

فالصهيونيون لم يعرفوا في تاريخهم شيئاً يسمى الولاء والاخلاص في الطاعة لمن يتولى شؤونهم . وكل ما عرفوه وعرفوا به في تاريخهم الطويل طبيعة التمرد والشكاسة والألتواء والعصيان ، وليس هؤلاء بالذين يخلصون في طاعة هيئة خفية أو ظاهرة ، ولكنهم لا يحتاجون إلى ذلك لتحقيق مآرب الصهيونية العالمية ، فانهم في غنى عن هذه الهيئة بما لديهم من الوسائل الأخرى ، وهي كثيرة غير قليلة في العصر الحاضر .

فهم موجودون في أوطان متعددة - ولهم - باصطلاح العصر الحديث - طابور خامس في كل دولة ، ولهم وسائلهم التي لا تتورع عن شيء من ضروب الرشوة ، وارضاء الأهواء والشهوات .

وهم متعصبون متحزبون في كل مكان ، لا يجمعهم حب بعضهم لبعض ، ولكن تجمعهم كراهية الآخرين كما يجمعهم الحقد على العالم ، لأنهم استشاروه في كل بلد وفي كل زمن ، واستشاروا في نفوس ابنائه سوء الظن بهم وشدة النفور منهم ، فهم بغضاء اليه يعلمون أنهم مبغضون ، وحسبهم هذا ليعملوا مع متعصبين متحزبين .

وقد قيل إن عشرة متفقين أقوى من ألف متفرقين ، لأنهم في هذه الحالة عشرة أمام واحد ، ويتكرر هذا الموقف في كل بيئة على تباعد الديار بينهم فتجتمع منهم حلقة مفرغة ، تحيط بكل من يحاربون او يطمعون منه في معونة ، فتتوافر لهم بذلك قوة متآمرة مستمرة ، لا حاجة بها إلى رئاسة خفية تسيطر عليها في جوانب الكرة الأرضية .

ومع هذا كله لا نعتقد أن قوتهم هذه كافية - وحدها - لبلوغ ما بلغوه في فلسطين .

إن نفاذ الصهيونية الى فلسطين يرجع ، ولا شك ، إلى قوة الصهيونية العالمية . ولكن هذه الصهيونية العالمية لا تعمل وحدها في هذا الميدان ، بل تعمل معها قوتان أخريان أكبر منها ، وهما : قوة المصالح الاستعمارية ، والتعصب الشديد على الاسلام .

إن الغربيين الذين يساعدون الصهيونية العالمية لا يساعدونها حباً لها ، فما في الناس أحد يحب الصهيونية ، والصهيونيون أنفسهم لا يحب بعضهم بعضاً حتى في فلسطين . وإنما المسألة هنا خدمة للمصالح الاستعمارية ، وعداوة للاسلام وليست محبة للصهيونية .

إن الحالة الواحدة لتطراً على إسرائيل وتطراً على بلد من بلاد الاسلام ، فينظرون إليها في المغرب بعينين مختلفتين .

كل من الباكستان واسرائيل دولة قامت على أساس العقيدة الدينية ، وكل منهما تأخر وضع الدستور فيه لاختلاف الآراء على التوفيق بين الأحكام الدستورية والأحكام الدينية . ولكنك تقرأ في كلام الغربيين أن أمة الباكستان أمة متأخرة لأنها قائمة على أساس دينها ، ومتأخرة لأنها لم تتم بعد دستورها ، ولا تقرأ شيئاً من هذا القبيل بته عن الصهيونيين ودولة إسرائيل ، بل تقرأ عنهم كل ما شاءوا من أوصاف التقدم والحضارة .

هي إذن ثلاث قوى تعمل في قضية فلسطين : قوة الصهيونية العالمية ، وقوة المصالح الاستعمارية ، وقوة التعصب على الاسلام ، ولهذا نقول إن الصهيونية العالمية لا حاجة بها إلى مشيخة اسرائيل ، فحسبها الطابور الخامس المنتشر في كل مكان ، ومعه الطواير الأخرى التي تجتمع على البغضاء وإن لم تجتمع على المودة والولاء .

(١) تم دستورها بعد كتابة هذا الكلام وصدر في شهر مارس سنة ١٩٥٦ (التونسي) .

٥ - الصهيونية العالمية

جنايتهم على أنفسهم

الصهيونية منسوبة إلى صهيون في بيت المقدس .

ولكننا حين نتكلم عن الصهيونية العالمية ، نعني بها شيئاً أقدم من هذه النسبة ، وأقدم من وصول العبريين إلى أرض فلسطين منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة .

نعني بها ذلك الخلق الذميم الذي تأصل في طائفة من العبريين منذ أقدم العصور ، وجعلهم بغضاء منبوذين في كل مكان أقاموا فيه أو دخلوه .

نعني به خلق العدوان والادعاء والانانية ، وهو داء قديم في هؤلاء القوم ، لم يفارقهم قط في عهد من عهودهم التاريخية ، ولا شك أنه كان ملازماً لهم زمناً طويلاً قبل ظهورهم على مسرح التاريخ .

هذه الصهيونية بغیضة إلى كل الناس ، بغیضة من كل بلد ، بغیضة في كل زمن ، بغیضة في الزمن الحديث ، لا يحبها ولا يعطف عليها أحد بلا استثناء لانصارها المستعمرين والمتعصبين .

ولقد كان الصهيونيون يعرفون أنهم مبغضون ولا يستغربون ، وكان خصومهم يعرفون أنهم يبغضونهم ولا يستغربون : كان هؤلاء وهؤلاء لا يستغربون بغض الصهيونية لأنهم يعرفون أسبابه في زمانهم ، وإن اختلفوا فيمن هو على حق وفيمن هو على باطل .

أما العصور الحديثة فقد اختلط فيها الأمر على بعض الباحثين فخلطوا بينه وبين التعصب الديني على اليهود ، وهما شيان منفصلان .

وأرادوا أن يطلقوا على بغض الصهيونية اسماً جديداً فسموه كراهية الساميين Anti-Semitism لظنها أنها من عدواة الأجناس .

ثم ظهرت مباحث علم النفس الحديث - ولا يخفى أن الكثيرين من دعاة يهود - فراح الباحثون في علل الظواهر الاجتماعية يبحثون عن علة نفسانية لكراهية الساميين ، وحاول بعضهم أن يجعلها علة دخيلة تصيب الأمم والجماعات كما تصيب المخبولين من آحاد الناس ، فخطوا في ذلك خطاً ذريعاً ، وجانبوا الصواب في كل ما زعموه ، لأن المحاولة من أولها قائمة على ضلال ، أو على غرض يسوق إلى الضلال .

قال بعضهم : إن كراهية الساميين مرض اجتماعي يظهر في الأمم التي تصاب بمركب النقص ، وتشعر بأنها محتقرة بين الشعوب ، أو متخلفة عنها .

وقال بعضهم : إن كراهية الساميين مرض يصيب الأمم التي يتسلط عليها الخوف ، فتتهم من تستطيع اتهامه ، وتجد اليهود بينهم منعزلين متميزين ، فتخصهم بذلك الاتهام .

وقال بعضهم : إن كراهية الساميين داء تبثلى به الأمم المتكبرة التي توالى عليها الهزائم ، فهي تشفى وتتقم ممن تقدر عليه ، كما فعل النازيون .

وقال آخرون : إن الأمم الفقيرة تصاب بداء الحسد ، وتتقم من الأجانب والغرباء عنها إذا اعتقدت فيهم الثراء والنجاح .

وكل هذا لغو وخرافة ، لأن الأمم كلها لا تصاب بالأدواء النفسية ويسلم منها الصهيوينيون دون سواهم . وإذا كان الصهيوينيون مكروهين من قديم الزمن فالبحث العلمي المنزه عن الغرض يتجه إليهم أولاً ، قبل أن يتجه إلى الآخرين .

والواقع أن الصهيوينيين لم يآلفوا أحداً ولم يآلفهم أحد ، منذ عرف اسم العبريين في التاريخ .

إن هؤلاء القوم من سلالة سامية نشأت في جزيرة العرب مهد الشعوب السامية ، على أرجح الآراء

فشجر النزاع بينهم وبين جيرانهم وهاجروا الى العراق في الجنوب ، ثم هاجروا من جنوبي العراق الى شماليه في عصر يقارب عصر إبراهيم الخليل ، ثم هاجروا من العراق الشمالي إلى الصحراء السورية فدخلوا أرض كنعان ، وهناك كان يسكن الأدرميون والمؤابيون والعمالقة وعشائر مختلفة من الآراميين والكنعانيين ، وبدأ التاريخ يسمع بأنباء القتال بين هؤلاء جميعاً بعد دخول العبريين إلى أرضهم ، وبدأ التاريخ يسمع النزاع بين أتباع إبراهيم الخليل أنفسهم فانقسموا الى شطرين .

ومنذ تلك الحقبة لا يعرف التاريخ لهؤلاء القوم فترة واحدة جمعتهم على ألفة ووثام مع جيرانهم ، فدخلوا مصر ونفر منهم المصريون ، وعادوا إلى كنعان ونفر منهم الكنعانيون ، وقامت لهم دولة في عهد النبي داود فشغلهم بالاغارة على جيرانهم واتقاء الغارة من أولئك الجيران . ثم جاء سليمان الحكيم فبنى لهم الهيكل فثاروا عليه لأنه فرض عليهم الاتاوات لبنائه وبناء قصره ، ثم انقسموا بعده قسمين : إلى الشمال وإلى الجنوب ، وحفظت كتبهم ما قاله الشماليون في الجنوبيين ، وما قاله الجنوبيون في الشماليين ، فإذا هو أشد وأشنع مما قاله أعداء الساميين فيهم أجمعين ، من أقدمين ومحدثين .

ثم سباهم البابليون وحملوهم إلى أرض بابل ، فلم تنعقد الألفة بينهم وبين جيرانهم هناك ، وسرحهم « كورش » عاهل الفرس بعد حين - نفياً في حقيقة الأمر ، وعفوا عنهم في ظاهر الأمر كما قالوا وكما قال .

وجملة تاريخهم بعد العودة من السبي تكرر لهذا التاريخ ، ولما تفرقوا في البلاد بعد هدم الهيكل حدث لهم في كل بلد ما حدث في البلد الآخر : نفور وقتال وكراهية للساميين بالتعبير الحديث .

ولا حاجة إلى بيان ما حدث لهم بعد ذلك . فإنه ماثل في جميع الأذهان ، وهو من المواضيع التي لا تنقطع الكتابة عنها والكلام فيها بين الغربيين والشرقيين ، وبخاصة بعد اقتحامهم لأرض فلسطين ، متواطئين مع ساداتهم المستعمرين ونصرائهم من المتعصبين .

أفكل العالم مريض والصهيونيون دون سواهم هم المبرؤون من العلل والأمراض؟!

إن ذلك لهو اللغو بعينه كما أسلفنا في هذا الحديث ، وكفى أن تبرئة الصهيونيين من الاثم والملامة تلقى التهمة على أمم العالم جمعاء .. كفى ذلك لنعلم أنه اتهام باطل ينطوي على الغرض كما ينطوي على الضلال ..

لكن الواقع أن أعراض المرض النفساني ظاهرة محققة في الصهيونيين على نحو لا يقبل المراء .

إنهم مصابون بالبارانويا Paranoia بكل عرض من أعراضها التي يحصيها الأطباء النفسانيون .

إن أعراض البارانويا هي غرور الأنانية والانفصام عن الوسط الذي يعيش فيه المريض ، والوهم المتسلط والشعور بالاضطهاد ، والتوجس الدائم من الأعداء .

أي عرض من هذه الأعراض لا يظهر جلياً واضحاً في هؤلاء الصهيونيين ؟
إنهم يسمون رب العالم « رب إسرائيل » ويحسبون أنه خلقهم وحدهم لعبادته وخلق الأمم جميعاً لخدمتهم الى آخر الزمان .

انهم مصابون بالانفصام فيعزلون في كل مكان دخلوا فيه مجتمعين او منفردين .

إنهم يتوقعون الاضطهاد ويستثيرونه بوقوفهم موقف المقاومة له ، سواء تعرضوا له أو حرضوه بالعزلة والتأمر على استغلال الآخرين .

إنهم يجمعون كل أعراض البارانويا والشيزوفرنيا كما يحصيها الأطباء النفسانيون .

وكراهة الساميين إذن ليست مرضاً في الأمم الانسانية قاطبة باستثناء الصهيونيين ، ولكنها مرض في الصهيونيين بلازمهم في كل مكان وفي كل زمن ، ويشير في النفس « رد الفعل » الطبيعي له من كل إنسان سليم الطباع .

إنهم لهم الجنة على انفسهم ، وإنهم لقوم « لا يعقلون » كما وصفهم القرآن الكريم .

٦ - الصهيونية العالمية

دعوى الاضطهاد

حديثنا هنا موضوعه دعوى الاضطهاد .

ونحن لا نسميها « دعوى الاضطهاد » لأن الاضطهاد غير موجود أو لم يوجد في الأزمنة الماضية ، ولكننا نتكلم عن هذه « الدعوى » من جوانبها التي تخفيها الصهيونية ، ويعاونها على إخفائها أذئابها المنتشرون في بلاد العالم ، ومنهم السافرون والمتسترون .

نريد أن نقول « أولاً » إن الصهيونية هي المسؤولة عن كل اضطهاد تجره على نفسها وعلى أبناء دينها .

وأن نقول « ثانياً » إن الصهيونيين أشد الناس اضطهاداً لغيرهم إذا ملكوا القدرة الظاهرة أو الخفية .

وأن نقول « ثالثاً » إن الصهيونيين يستغلون دعوى الاضطهاد ، ويتخذونها وسيلة لتخير الأمم باسم الانسانية والغيرة على الحرية .

إن الصهيونية مسؤولة عن كل فاصل تقيمه بينها وبين أمم العالم . لأنها من قديم الزمن تقسم العالم إلى قسمين متقابلين : قسم إسرائيل وهم صفوة الخلق وأصحاب الحظوة عند الله لغير سبب إلا أنهم أبناء إسرائيل ، وقسم آخر يسمونه قسم الأمم أو « الجوييم » ويشملون به جميع الناس من جميع الأقوام والأجناس .

وفي كتب التلمود المعتبرة عندهم وصايا كثيرة عن المعاملة التي يستبيحونها مع غيرهم ولا يستبيحونها مع أحد من ملتهم ، ويكفي منها مثلاًن أو ثلاثة من تلمود شلقان عراق Shulchan Araq الذي لا يزال متداولاً بينهم ،

ففي هذا التلمود يقال لهم : « إذا خذع يهودي أحداً من الأمم وجاء يهودي آخر واختلس من الأممي بعض ما عنده بنقص الكيل أو زيادة الثمن فعلى اليهوديين أن يقتصما الغنيمة التي أرسلها إليهما يهواه » وهو اسم الآله في التوراة .

ويقال لهم في هذا التلمود « إنه وإن لم يكن من المفروض على اليهودي أن يقتل أممياً يعيش معه بسلام ، إلا أنه لا يجوز له في حال من الأحوال أن ينقذ حياة أحد من الأمميين » .

وقد ينكر بعض الصهيونيين اتباعهم لهذا التلمود ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينكروا أنهم يستبيحون اليوم ما أبيح لهم قديماً في التوراة ، وقد جاء في كتاب الخروج من الاصحاح الحادي عشر أن شعب اسرائيل أمر « بان يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبها أمتعة فضة وأمتعة ذهب . . وأن الرب أعطى نعمته للشعب في عيون المصريين » فأخذوا الأمتعة وهم على نية الرحيل من الديار .

ومعاملتهم لأعدائهم من باب أولى لا تعرف الحدود ، ومنها استباحة قتل الأطفال والنساء واحراق الحرث والنسل وتدمير المدن بما فيها من مساكن وحصون .

وليست عداوة الأمم داء قديماً عفى عليه الزمن كما يقول اليوم بعض الدعاة الصهيونيين ، فهي باقية على أشدها حتى اليوم ، وهي باقية حتى في شعور الصهيونيين نحو المنقذين لهم والقاديين لنصرتهم ، وقد ذكر كمشى Kimche داعية الصهيونية المشهور أن المحققين هالهم ما وجدوه من شعور المعتقلين بالعداوة نحو المسيحيين في سنة ١٩٤٦ وأن واحداً من اليهود مزق الجواز الذي يبيح له السفر إلى الولايات المتحدة لأنه لا يطمئن إلى احد من المسيحيين » .

قال كمشى في الصفحة الثالثة والثمانين من كتابه الطرق الخفية : « إن عداوة الأمم - Anti-Goyism - ذلك السرطان القديم في الحياة اليهودية قد جدد أخيراً أجله في الحياة ، وأنه مع الصهيونية يكهرب معسكرات اليهود في

القارة الأوروبية » .

وكمشى هذا هو صاحب صحيفة « جويش أوبزرف » وصاحب المؤلفات المشهورة في الدعاية الصهيونية ، ولا يزال قائماً بهذه الدعاية الى الآن .

فالدعوة المعروفة بعداوة السامية أو عداوة اليهود حركة مشكوك فيها قابلة للاختلاف على بواعثها ، ولكن الدعوة التي لا شك فيها هي عداوة الأمم التي طبع عليها الصهيوينيون المعاصرون ، أو عداوة الجوييم ، أو الـ Anti-Goyism كما يسميها الصهيوينيون المعاصرون جمهرة ولا يتكلفون لمداراتها وتلبيسها ، ثقة منهم بالضمائر المعروضة في سوق الخداع والتضليل ، وثقة منهم فوق ذلك بغفلة الغافلين ، وفرط العداوة في نفوس بغض الناس للاسلام ، فهم يحاربونه ولا يجهلون مساوئ الصهيوينيين .

فإذا كان هذا هو شعور الصهيونية نحو الأمم فلا غرابة في شعور الأمم نحوهم بفواصل التفرقة والانقسام ، ويتم هذا الشعور أن الصهيوينيين من أيام اسلافهم متوارثون خلائق العناد والشراسة ، ويصفهم أنبيأؤهم بصلافة الرقاب ، ويقول موسى عليه السلام نفسه : إلى متى يغفر الرب لهذه الجماعة الشريرة المتدمرة ؟

أما أن الصهيوينيين معروفون باضطهاد المخالفين لهم كلما استطاعوا فلا حاجة إلى الشواهد على ذلك من التاريخ القديم ، وهو مشحون بهذه الشواهد منذ أربعة آلاف سنة بل حسبنا شهادة واحد منهم وداعية من أكبر دعائهم ، وذلك هو صاحب « نيويورك تيمس » الذي ينشر لهم أباطيلهم في الولايات المتحدة . فإنه يقول إنه « ينفر من أساليب الاكراه التي يعمد إليها الصهيوينيون في أمريكا إذ يستخدمون الأسلحة الاقتصادية لاسكات من يخالفونهم ، وانه هو نفسه - وهو أمريكي يدين باليهودية - قد يتعرض للمتاعب من جراء هذه الشكوى » .

إن هذه الحكوى مما أشار اليه دوجلاس ريد في الصفحة المائة والتسعين من كتابه « الدخان والخنق » . . وزاد عليها أنه يستطيع أن يعززها بما يملأ كتاباً كاملاً عما يلقاه المخالفون للصهيونية من ضروب الاضطهاد .

فليس من حق صهيوني أن يشكو الاضطهاد إذا تعرض له بسوء نيته وسوء خلقه وسوء فعله ، فإنما الذنب فيه ذنبه قبل غيره ، وليس من شأن سوء النية . وسوء الخلق وسوء الفعل أن يجر إلى المودة والشكر والثناء .

والأعجوبة الكبرى في دعوى الاضطهاد أن الصهيونيين يستخدمونها لاقناع الناس بمطالبهم ، ولا يتورعون عن أكذوبة قط في سبيل مطلب مقصود .

هل يخطر على بال أحد أن هجرة اليهود من ألمانيا كانت باتفاق مع هتلر ؟ وأن حركة الاضطهاد كانت تنظم على علم من الدعاة الصهيونيين في القارة الأوروبية ؟

هل يخطر على بال أحد أن الصهيونية كان لها مكتب معترف به في برلين ، وأنها كانت على اتصال دائم « » « بالجستابو » عن طريق هذا المكتب وفروعه في البلاد الألمانية ؟

نعم . كان لها مكتب معلوم في العمارة رقم (١٠) من شارع مين كستراس Maine Chestrasse يديره اثنان أحدهما يدعى بينو Pino والآخر يدعى بار جلعاد Bar Gilad وكلاهما من زعماء الحركة الظاهرين في أنحاء القارة الأوروبية . . وكلاهما مذكور بالفخار في كتاب كمشي - الذي سبقت الإشارة إليه .

وكان هذا المكتب ينظم الهجرة الصهيونية سراً إلى فلسطين ، في الوقت الذي تثار فيه الثائرة على الجستابو وفظائحه المسلطة على اليهود . . ! .

ولما أعلن الجنرال مورجان ، بعد هزيمة ألمانيا ، أنه لم ير أحداً من اليهود المهاجرين في حالة سيئة ، وأنهم جميعاً يهاجرون ووجوههم مشرقة ، وجيوبهم منتفخة بالأموال - هبت عليه الأقلام المأجورة من أنحاء العالم تتهمهم بالنازية والتواطؤ مع الأعداء ، وتلح على حكومته بوجوب تجريده من ألقابه ومن كسوته العسكرية ، جزاء له على كشف القناع عما وراء الستار .

هذه هي « دعوى الاضطهاد » في جوانبها التي تخفيها الصهيونية ، وهي

تدين المضطهدين قبل أن تدين المضطهدين ، وتبرئ العالم كله من إثم الصهيونية ، لأنها لو وجدت في عالم من الملائكة لما كان لها فيه نصيب أكرم من هذا النصيب ، بل لعلها كانت في عالم الملائكة لا تنال من الرغد والنجاح ما تناله بالرشوة وخدمة الشهوات في ميادين السياسة الدولية ، كما ابتلى بها العالم الآن .

٧ - الصهيونية العالمية

والنبوغ

من الحقائق المتواترة ، بل من المشاهدات العيانية الثابتة ، أن الصهيونيين - كما قدمنا - مكروهون في كل مكان وفي كل زمن ، وأنهم يعرفون ذلك ولا يجهلونه ، ويعترفون به ولا ينكرونه . . لأنه أظهر من أن يجوز فيه المراء .

يعرف الصهيونيون أنهم مكروهون ، ويعترفون بذلك لأنه ظاهر متواتر ، ولكنهم لا يعترفون به لمجرد الاعتراف بالواقع الظاهر المتواتر ، بل يعترفون به لأنهم ينتفعون منه ، ولأن دعوهم كلها قائمة على شكوى الظلم والاضطهاد ، وعلى الحاجة الملحة إلى الانصاف .

يعرفون أنهم مكروهون ، ويحاولون في الزمن الحديث أن يفسروا ذلك تفسيراً يبرئهم من العلة ، ويرجع بالعلة كلها إلى أمم العالم دونهم ، فلا يفلحون !! .

على أنهم في الزمن الأخير يسلمون أن العلة منهم ، ولكنها علة تشرفهم ولا تعيبهم ، وإنما تعيب غيرهم من أعداء الساميين .

العلة في زعمهم أنهم قوم محسودون ، لأنهم قوم ممتازون بالنبوغ والنجاح ، وأنهم أصحاب كفايات لم تجتمع لغيرهم من الأمم . . فهم ناجحون في ميادين الأعمال ؛ ناجحون في ميادين العلوم والفنون ، وخلق بهذه الكفايات النادرة ، خلق بهذا النجاح الملحوظ أنه يحلب عليهم الحسد والكراهية ، لغير ذنب جنوه !!

وهذا هو الوهم الباطل بحذافيره !

هذه هي الاشاعة الكاذبة من الألف إلى الياء !
هذه هي الأكذوبة التي يقوم الدليل عليها بالحساب والأرقام ، والنظر إلى الواقع الذي نراه بيننا ، ولا يذهب بنا إلى بعيد .

في مصر كثير من الجاليات التي تعمل في ميادين الحياة العامة غير الصهيونيين .

فيها جاليات من اليونان ، ومن الأرمن ، ومن إخواننا أبناء الأمم العربية الشرقية .

ونظرة سريعة إلى الناجحين من كل جالية ، ترينا بالحساب والأرقام انهم لا يقلون عن الناجحين من الصهيونيين .

ويبقى بعد ذلك فارقان عظيمان : الفارق الأول ان الناجحين من هذه الأمم ينجحون في التجارة والزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، وأن الصهيونيين - على خلاف ذلك - قلما ينجحون في عمل غير السمسة والتجارة .

والفارق الآخر أن الجاليات الأخرى تعمل وحدها ولا تستند إلى عصبية عالمية من أبناء قومها منتشرة في أرجاء العالم ، وليس منها طواوير خامسة ماثوثة في كل بقعة تعاونها سراً وجهراً ، وتحارب من ينافسونها ويزاحمونها ، كما يفعل الصهيونيون .

فالصهيونيون - مع هذا التعاون بينهم وبين طواويرهم الخامسة في أنحاء العالم - لم يبلغوا من النجاح مبلغاً يفوقون به غيرهم ، ولم يبلغوا نجاحاً إلا في ميدان واحد دون سائر الميادين .

ندع هذا ونعود إلى دعوى التبوغ في العلوم والفنون ، فلا نرى أن الصهيونية أنشأت لها ثقافة مستقلة قط في زمن من الأزمان : وإنما يستفيد الصهيوني الألماني من ثقافة ألمانيا ، ويستفيد الصهيوني الانجليزي من ثقافة إنجلترا ، ويستفيد الصهيوني الأمريكي من ثقافة أمريكا . ويقال مثل ذلك عن الصهيونيين في إيطاليا وسويسرة وهولندا والبلجيك ، فهم

يستفيدون من ثقافات هذه الأمم ، وينبغي لذلك ان يكون الناجحون منهم في العلوم والفنون أضعاف الناجحين من جميع الأمم بالنسبة لعددها ، ولكنهم بالنسبة إلى عددهم ، وبالنسبة إلى استفادتهم من جميع الأمم - أقل من غيرهم في عدد النابغين بكثير .

وإذا ذكرنا الطوابير الخامسة في ميادين الأعمال الاقتصادية ، فلنذكر هذه الطوابير الخامسة في ميادين العلوم والفنون ، ولنذكر أن الصهيونيين يتدخلون في شركات الصحف وشركات الاعلان ، وشركات النشر والطباعة ، وأنهم يتعصبون ويتألبون ويتحزبون ، فينال الكاتب الصهيوني من الشهرة فوق ما يستحقه ، ويبدو ذلك جلياً من شهرة أناس من أمثال لدفيج ، وموروا ، وزفايج ، وكافكا ، وريلكة ، وبروست وسارتر ، وآخرين وآخرين . . فإنهم أقل من نظرائهم في بلادهم ، ولكنهم يشتهرون بفعل الدعاية والتآمر عليها ، لأنهم صهيونيون آباء وأمهات ، أو لأنهم أبناء أمهات من الصهيونيين .

إن المقياس الصحيح لنموذج الصهيونيين في العلوم والفنون هو تاريخهم القديم .

إن تاريخهم المستقل بثقافته ودراساته هو المقياس الصحيح لتلك العقول ، أو لتلك الكفايات !

وقد كانت في الاسكندرية مكتبة جمعت مئات الألوف من المجلدات في الطب والفلك والجغرافية والحكمة والرياضة وسائر العلوم ، وكانت هذه المكتبة الجامعة التي احترقت في بعض الحروب عنواناً لثقافة الأمم القديمة من يونان ورومان وبابليين ومصريين ، وكانت فيها محفوظات من تأليف هذه الأمم ومقتبساتها ، فكم كتاب كانت فيها من تأليف الصهيونيين الأقدمين ؟ كم أثراً من آثارهم في علوم الفلك أو الجغرافية أو الهندسة أو الطب أو الفلسفة ، أو غيرها من ثمرات العقول الانسانية ؟

لا كتاب ! ولا أثر ! ولا ثمرة . . وهذا هو المقياس الصحيح لتلك العقول وتلك الكفايات .

ولقد كان أذكاء اليهود يخجلون من هذه السبة ، وكان أذكاء الأمم يعيرونهم بها ويسألونهم عنها ، كما فعل ايبان Annian حيث وجه السؤال بصدها إلى المؤرخ اليهودي يوسفوس ، فبماذا أجابه يوسفوس ؟

إنه لم ينكر السبة لأنه لا سبيل للانكار ، وإنما اعترف بها واعتذر منها كما قال بحروفه : « إننا نسكن بلداً بعيداً من البحر ، ولا نتصل بالمعاملات ، وليست بيننا وبين الأمم مواصلات ، فهل من العجب أن أمة كهذه الأمة على بعدها من البحر قبل اشتغالها بالكتابة - تظل مجهولة بين غيرها ؟ » .

وقد أورد فولتير هذه العبارة ، فعلق عليها قائلاً - على فرض أن كتب العهد القديم تعد من كتب الصهيونية : « لا بد أن نلاحظ أن اثنين وعشرين كتاباً صغيراً ليست بالعدد الكبير إذا نظرنا إلى أكام الكتب التي كانت محفوظة في مكتبة الاسكندرية . . ولا شك أن اليهود قد كتبوا قليلاً وقرأوا قليلاً ، وأنهم كانوا على جهل مطبق في علوم الهيئة والرياضة والجغرافية والطبيعات ، وأنهم لم يفقهوا شيئاً من تواريخ الأمم الأخرى ، ولم يبدأوا بالتعلم إلا في الاسكندرية حيث أخذوا يهتمون بتحصيل بعض المعارف ، وما كانت لغتهم إلا خليطاً بربرياً من الفينيقية والكلدانية المحرفة ، ناقصة في تصرفات الأفعال ، فقيرة في أدوات التعبير ، وهم عدا هذا لا يظهرون الغرباء على كتبهم ولا على عناوينها . .

ومن السهل أن يقال عن فولتير كل شيء إلا أنه كان من أعداء الساميين ، ولو كان من أعدائهم لما قدح ذلك في كلامه عنهم ، لأنه لم يقرر كلمة واحدة في غير الواقع الملموس .

تلك حقيقة الدعوى التي يروجها الصهيونيون عن النبوغ المحسود ، وعن الكراهية التي يثيرها في النفوس امتيازهم بالكفايات والملكات ، فهم في الثقافة عالة على كل أمة يستمدون منها التعليم ، وهم في ميادين الأعمال دون غيرهم من الأمم التي لا تستعين بالطواير الخامسة كما يستعينون بها ، وآية ذلك ظاهرة من المقارنة بينهم وبين الجاليات الأخرى من الديار المصرية .

وتلك الطواير الخامسة هي مصدر القوة الصهيونية العالمية ، وهي التي نشرحها فيما يلي من الفصول .

٨ - الصهيونية العالمية

وطوابيرها الخامسة في ميادين السياسة والاقتصاد

الطوابير الخامسة إذن هي مصدر القوة الكبرى للصهيونية العالمية ، لأنها منتشرة في كل بلد ، متفقة على الحقد والضغينة ، وإن لم تتفق على المحبة والخير ، مطلعة على أسرار الدول وأسرار الشركات وأسرار المجتمعات . ولا توجد قوة في العالم تنتشر هذا الانتشار ، وتتفق على الحقد والضغينة هذا الاتفاق ، وتطلع على الأسرار وعلى وسائل استغلالها هذا الاطلاع .

لقد وُجدت في العالم دول قوية نشرت جواسيسها في كل بلد ، واستأجرت الدعاة لترويج مقاصدها وتمهيد الأذهان لقبول سياستها ، ولكنها لم تبلغ في القوة مبلغ الصهيونية العالمية . لأن الدولة القوية تناهضها دولة قوية مثلها ، وتستشير عليها الأوطان التي تحكمها ، ولأن الجاسوس الذي يعمل لدولة غريبة أو قريبة - غير الجاسوس الذي يعمل لنفسه ولجنسه ويصدر في عمله عن الحقد المتغلغل بين جوانحه ، والموروث من أبيه وجده ، ويعتقد أن إلهه يبارك حقه وشره ، ويتكفل له بالنصر على أعدائه ، وقلما يتمكن الجاسوس في بلد من البلدان كما يتمكن منه الصهيوني المقيم فيه ، المرتبط بمعاملاته وعلاقاته ، وقلما يتجاوز جواسيس الدول الألوف إلى الملايين . . أما طوابير الصهيونية فهم يتجاوزون الملايين ، من الظاهرين غير المستترين .

نعم من الظاهرين غير المستترين ، لأن الغالب على الكثيرين أن يحضروا الصهيونيين فلا يحسبون منهم إلا المقيمين على ديارهم المعترفين بنسبتهم إلى أبناء جلدتهم ، ولكنهم لا يحسبون الصهيونيين الذين أظهروا التحول عن دينهم ، ليكون هذا التحول أعون لهم على الدسيسة ، وأخفى

لأغراضهم عن الرقباء ، وأدنى بهم إلى مكامن الأسرار وبواطن النيات .
وهناك غير الصهيونيين المقيمين على دينهم ، وغير الصهيونيين المتحولين
عنه إلى دين آخر ، طوائف من الصهيونيين بالمصاهرة والمقاربة في
الشعور - لا يقلون في الغيرة على قضية الصهيونية عن زملائهم الآخرين .
هناك الصهيونيون من الأمهات الصهيونيات ، وقد ترقى بعضهم إلى مراكز
الوزارة في أكبر الدول ، وتربوا من المهد على خدمة الصهيونية ، كما يترى
الطفل على حب أمه ، وهو لا يلتمس لذلك الحب علة ولا برهاناً غير العاطفة
التي لا تحتاج إلى تعليم ولا تلقين .

فالصهيونيون أكثر من ملايينهم الظاهرين ، وهم - مع هذه الكثرة -
يطلعون على أسرار الدول والمعاملات المالية بحكم صناعتهم ، إذ كانت
الصناعة الأولى التي توارثوها هي صناعة الصيرفة والسمسرة المالية ، وهي
أحوج الصناعات إلى الاطلاع على الأسرار . لأن سرّاً واحداً عن الحرب
والصلح قد يعمر الخزائن بالملايين ، وقد يخرب الخزائن ذات الملايين .
وهذا عدا أسرار المضاربات في الأسواق بمعزل عن أخبار الحرب
والسلام . . فربما ارتفعت أسهم وهبطت أسهم من جراء سر يعرفه
المضارب قبل الأوان ، وربما حل الدمار بقطر واسع من عواقب هذا
الارتفاع وهذا الهبوط .

وليست الأعمال المالية - أعمال الصيرفة والسمسرة - وقفاً على
الصهيونيين ، فهناك صيارفة كبار من غير صهيون ، وهناك البيوت المالية في
جميع الأمم والقارات ، ولكن الشبكة العالمية وقف على الصهيونية
العالمية ، فلا توجد شبكة مثلها للصيرفة والسمسرة تضارعها في الانتشار .

يوجد في العالم أفراد من ملوك المائ أمثال مورجان وروكفلر ، ولكن لا
يوجد فيه ملوك مال من قبيل الأخوة روتشيلد : روتشيلد بريطاني في لندن ،
وروتشيلد فرنسي في باريس - وروتشيلد الماني في برلين ، وروتشيلد
نمساوي في فيينا ، وحولهم شبكة محكمة ، في السر والعلانية ، تحيط
بالأسواق ودواوين الحكومات .

قال الكاتب الانجليزي شسترتون الذي ننقل عنه هذه الملاحظة من كتاب : فاجعة السامية وعداوتها . « إن سفينة خرجت من ميناء في أمريكا اللاتينية أثناء الحرب العالمية ، وأرادت الدولة البريطانية أن تردّها فلجأت إلى من ؟ . . إلى بيوت روتشيلد ، فوقفت السفينة حيث شاءت » واستطاع المال في هذا الحادث ما لم تستطعه القوة . لأن القوة تخشى عواقب المناورات السياسية ، وتتقيد بالقانون الدولي ، وتخاف من سوء السمعة ، ولكن المال يفعل فعله سرّاً دون أن يعلم أحد بمن عمل ولماذا عمل . وقد يكون في عمله الرضى للمخدوعين غير العارفين ، وللمنتفعين بتدبيره من العارفين .

ومضى شسترتون A. K. Cheserton يقول في الكتاب نفسه في الصفحة الثمانين : « والأمر أعمق من ذلك وأخفى . فقد حدث قبل الحرب العالمية الأولى بعشر سنوات ، أن أوغنده عرضت على الصهيونيين فرفضوها ، لأنهم علموا أن حرباً عالمية في الطريق ، وأن فلسطين في خلال تلك الحرب تنتقل على سبيل الهبة إلى أيدي البريطان » .

قال شسترتون بعد ذلك : « إن يهوديا بريطانيا معروفاً تحدث إلى وليام هيكى Hickey عن مشروعات يتممها بعد الحرب ، أي قبل أن تشتعل الحرب العالمية الثانية بسنتين .

وفي الصفحة الخامسة والثمانين من هذا الكتاب بعينه يروي شسترتون قصة الكتاب الأبيض الذي صدر من وزارة الخارجية البريطانية عن ثورة روسيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وأن هذا الكتاب الأبيض جمع من الأيدي بعد صدوره ، وتغيرت بعض عباراته ، ولم يكن ما تغير منه إلا عبارات تشير إلى المساعي الصهيونية ، ثم صدر الكتاب كما هو بعد هذا التغير .

وينقل الكاتب كلاماً كثيراً من الصحيفة اليهودية الرسمية التي تسمى جويش كرونيكل Jewish Chronicle لا يخطر على البال إلا إذا اطلع القارئ على نصوصه التي لا شك فيها ، ومنها أن السير ستوارت صمويل - كما جاء في عدد السابع عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٠٩ - قد أنبأ عن تولي مستر

شرشل لوزارة الداخلية في الوزارة القادمة ، وأنه سيؤيد القوانين التي ترضي
البنزلاء اليهود ولا يتيسر تأييدها في الوقت الحاضر .

وقد نشرت صحيفة مانشستر جارديان في عدد الحادي والعشرين من شهر
أبريل سنة ١٩٠٨ أن مستر شرشل أَرْضَى اليهود بأجوبته عن بعض الأسئلة ،
وأنهم فضلوه بتأييدهم وقدموه على اليهودي الصراح جوينسون هيكس
Joynson Hicks . . . ولولا ذلك لما كان على المنبر الذي ارتقاه ذلك
اليوم . . .

ومستر شرشل كما يعلم حضرات القراء هو الذي كان يقول ولا يداري
خبيثة صدره « إنه صهيوني » . . وهو الذي نقلت عنه الديلي تلغراف في
التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٩٢٦ انه قال : « إنني في كل حياتي السياسية
كنت على صلة حسنة بالمواطنين اليهود » . . . وبعد هذا وذاك ، لا يخفى أن
الرجل ينتمي من جهة أمه إلى سلالة يهودية !

هذا طابور من الطواير الصهيونية الخامسة التي تعمل للسيطرة العالمية ،
وهو طابور الصيارفة والسماصرة ، وله من الوسائل - كما رأينا - ما يطلع به
على أسرار الحروب المقبلة ، وما يجري فيها لمصلحة الصهيونية ، وله من
الوسائل ما يتسلل به إلى مراكز الوزارات والمجالس النيابية ، وله من
الوسائل ما لخصه روتشيلد في كلمة واحدة حيث قال :

« مكّنني من إصدار النقد والاشراف عليه في أمة من الأمم ولا أبالي بعد
ذلك من يشرع لها القوانين » .

وإن هذا الطابور الخامس لواحد من طواير كثيرة ، فإن كان في الأمر
عجب فليس هو العجب لنفوذ الصهيونية في العالم ، بل العجب ألا يكون
لها في العالم نفوذ أكبر من هذا النفوذ . . .

٩ - الصهيونية العالمية

وطاويرها الخامسة من ميادين الثقافة

حسب الصهيونية العالمية سلاحاً ماضياً في جميع الميادين - طابورها الخامس في ميدان المال والاقتصاد .

إن هذا الطابور الخامس متغلغل في كل ميدان ، في كل بلد ، في كل حركة عالمية ، في كل دولة من الدول الكبرى على الخصوص .

وحسب الصهيونية العالمية أن يكون لها هذا الطابور الخامس ، لتملك به وسائل السيطرة في كل ميدان من ميادين الحضارة الحديثة ، وفي مقدمتها ميدان الثقافة والدعاية العالمية .

لكن الصهيونية العالمية لا تكتفي بالطابور الخامس في ميدان المال والاقتصاد ، ولا تكتفي بأثره القوي في شؤون الدعاية وما يتصل بها من شؤون الثقافة وشؤون الآداب والفنون على الجملة ، وإن كان في هذا الأثر الكفاية .

لا تكتفي سلاح المال والاقتصاد عامة وإن كان فيه الكفاية . بل تعمل للسيطرة على الثقافة العالمية مباشرة في ميدانها الأصيل ، ولا تقنع منه بسيطرة المالبين والصارفة وأصحاب الشركات والمشروعات في ميدانهم الكبير .

تتوسل الصهيونية العالمية إلى السيطرة على الثقافة والفنون بوسائل كثيرة ، نتكلم في هذا الفصل عن بعضها لأنها أظهرها وأعمها ، ولا نحصرها جميعاً لأنها بطبيعتها متشعبة في كل طريق ، ويوشك أن تشعب إلى كل مركز من مراكز الثقافة والدعاية من بعيد ، أو من دورة ملفوفة لا تظن لها الأنظار .

وسائلها الظاهرة للسيطرة على ثقافة العالم هذه الوسائل الأربع :

(أولا) وسيلة الصحافة العالمية .

(ثانيا) وسيلة الشركات التي لها اتصال وثيق بالصحافة ولا سيما شركات الاعلان .

(ثالثا) شركات النشر والتوزيع .

(رابعاً) هيئات الثقافة العالمية .

وهذه الوسائل الأربع كافية - مع التضامن والتألب - لتمكين الصهيونية العالمية من السيطرة على الكتاب والقراء لا تيسر لقوة عالمية أخرى .

تتمكن الصهيونية العالمية من الصحافة بالمساهمة في رؤوس الأموال ، والمساهمة في التحرير والمراسلة ، وبالمساهمة في السبق إلى الأخبار والأسرار .

ولكن الوسيلة النافذة هي الوسيلة الثانية ، وهي شركات الاعلان .

فالصحف التي تطبع الملايين في البلاد الغربية لا تستغني عن الاعلانات ، ولا يتأتى لها تعويض النفقات الكثيرة بثمن البيع أو الاشتراكات السنوية . فإن ثمن الصحيفة أقل من ثمن الورق الذي تطبع عليه ، فضلا عن تكاليف التحرير والادارة والطباعة والتوزيع ، وكلما اشتدت المنافسة بين الصحف عملت على نقص ثمن النسخة وازدادت تعويلها على الاعلان ، حتى بلغ ثمن الصحيفة المؤلفة من عشرين صفحة بنساً واحداً ، وبلغت أجور الاعلان خمسة أضعافها في الربع الأول من القرن العشرين .

والصحيفة التي تجازف بالموت هي الصحيفة التي تهاجم الصهيونية العالمية ، أو تناهضها في دسيمة من دسائسها ، فإن المساهمين في رأس مالها يهددونهم ويخرجونها في مجالس الادارة ، فإن لم تكن للصهيونيين حصّة كبيرة من رأس مالها ، ولم يكن لهم دخل في تحريرها وادارتها ، فهناك الاعلانات التي تعول عليها ولا تستغني عنها ، فإنها تقطع عنها فجأة ، وتتركها عرضة للافلاس . ولا تزال عرضة للافلاس والتعطيل حتى

تتوقف فعلا عن الصدور ، أو تدركها شركة جديدة ، بمعونة جديدة ، معلقة على قبول السياسة التي تملأ عليها ، بأسلوب صريح أو غير صريح .

وليس كل الكتاب في الغرب من كتاب الصحافة الذين يعملون لها في التحرير والمراسلة واصطياد الأخبار والأسرار ، بل هناك كتاب الأدب وكتاب الاجتماع وكتاب المذاهب الفكرية والفنية على التعميم . وهؤلاء لا تركهم الصهيونية العالمية بمأمن من وسائل تأثيرها وطفانها في كثير من الأحوال . . ووسائل النشر والتوزيع والنقد بعض أدواتها الفعالة في عالم التأليف والتفكير .

وليس بالقليل بين دور النشر ما يملكه الصهونيون منفردين بتمويله وإدارته ، وأكثر من ذلك دور النشر التي يساهمون فيها بالحصص والأسهم ، أو الإدارة والإشراف ، وكل هذه الدور لا تستغني عن الدعاية الصحفية وغيرها من أساليب الدعاية في العصر الحديث .

وتأتي الهيئات العالمية بعد هذه الهيئات المشتغلة بالصحافة أو النشر أو الاعلان والدعاية .

تأتي بعد ذلك هيئات عالمية لا تخطر على البال لأول وهلة ، لأنها مفروض فيها أن تعمل لخدمة الأمم الانسانية جميعاً ، ولكنها لا تعمل لخدمة أحد كما تعمل لخدمة الصهيونية العالمية .

خذوا لذلك مثلاً تلك الهيئة المعروفة باسم « اليونسكو » . . والتي يقال إنها مجعولة لخدمة الثقافة الانسانية في ارجاء العالم ، والتي تتقاضى المال من كل أحد غير الصهونيين .

فهذه الهيئة العالمية - الانسانية - ينتشر في دواوينها الصهونيون بين أمناء السر ، ورؤساء المكاتب ، ومديري الحسابات ، وزمرة المحررين والمسجلين ، ولم تعمل حتى اليوم عملاً أظهر وأجهر من أعمالها في خدمة الصهيونية ومحاربة أعدائها ، وبخاصة أعدائها المعروفين بكرهه الساميين .

وبين أيدينا الآن نحو عشرين رسالة في موضوع العنصر والسلالة ، تدور

كلها من بعيد أو قريب على محور واحد ، وهو الدفاع عن الصهيونية ، وتسفيه آراء الناقمين عليها والمشهرين بها ، والقائلين بالفوارق الجنسية التي تمسها وتغييها في نظر الأمم الأخرى .

وظاهر هذه الدعوة أنها انسانية عامة ، وبعض المشتركين فيها يكتبون لها على هذا الاعتبار ، ولكن الاهتمام بها في الواقع إنما هو اهتمام بالسامية دون غيرها ، لأنها هي مسألة العنصر المعروضة هناك على الأسماع والأبصار ، وعلى العواطف والعقول ، ولا يوجد انسان تبلغ به البلاهة أن يتصور « اليونسكو » عاملة على محاربة الولايات المتحدة مثلاً في قضية الزنوج السود ، ولا عاملة على خدمة الصهيونية دون غيرها : تبذل فيها أموال الأمم ، وتسخر لها الهيئة العالمية الدولية ، باسم العلم والانسانية .

ولا يحسن أحد في الشرق أننا نحن الشرقيين بمنجاة من هذه الشبكة العالمية في قضايانا مع الصهيونية ، فإن الدعاية التي يسيطر عليها الصهونيون لا تنسى الانتقام من أعدائها ، ولا تنسى مكافأة اصدقائها ، وبين حين وحين نسمع تلك الدعاية الخارجية - التي لا تعرف حرفاً واحداً من العربية - تهلل لبعض الأعوان ولا تعرف لهم عملاً إلا أنهم أغضبوا الاسلام ولم يغضبوا الصهيونية بفعل أو كلام .

ولنا أن نتخذها قاعدة عامة في الدعاية العالمية التي تتولاها الصهيونية . تلك القاعدة العامة أنها لا تشيد بذكر كاتب من الأوروبيين او الأمريكيين ، لا يعمل طوع بنانها في ترويج دعوتها الظاهرة أو الخفية ، ومن دعوتها الخفية هدم العقائد والأخلاق وتحطيم الأديان والأوطان ، وليس على حضرات القراء عناء كبير للتحقق من هذه القاعدة ، فحسبهم أن يلتفتوا خمسة أسماء أو ستة من أصحاب الحظوة في الدعاية العالمية ، فلن يجدوا منهم واحداً يعادي الصهيونيين ، وقد يجدونهم جميعاً خداماً للصهيونيين السافرين أو المقنعين .

١ - الصهيونية العالمية

وطايرها الخامسة في المجالس النيابية

حديثنا هنا عن الطواير الصهيونية الخامسة في المجالس النيابية .

والصهيونية العالمية تهتم بالوصول الى المجالس النيابية أحياناً ، ولكنها لا تهتم بالوصول اليها في جميع الأحيان ، لأنها تختصر الطريق فتصل الى الحكومة مباشرة ، فتعطل ما تعطل من القوانين الصادرة ، ومن التشريعات المنتظرة ، أو توجه السياسة عملاً إلى غير وجهتها التي لا ترضى عنها .

ولقد حدث في بلاد المجر أن الصهيونية التهمت ثروة الفلاح الصغير ، وملكت زمام الفلاح الكبير ، بالديون واشتباك المعاملات مع الشركات والمصارف ، وساعدها على ذلك أن اليهود - منذ القدم - كثيرون في أوربة الوسطى وأوربة الشرقية ، وأنهم ازدادوا كثرة بعد قيام النازية في ألمانيا ، فهاجروا أحاداً وجماعات من ألمانيا إلى المجر وانتشروا في العواصم والأقاليم ، وأصبحت بلاد المجر معروفة في ذلك العهد باسم « فردوس إسرائيل » لأن زمام الثروة فيها تجمع بين أيدي اليهود الأصلاء واليهود المهاجرين .

فلما تفاقم الخطر وثار الشعب الجائع على المرابين والمستغلين - لم يكن في وسع الهيئة التشريعية أن تصم آذانها عن هذا النذير العاجل ، وتقدمت إليها مشروعات متعددة لانقاذ ضحايا الربا الفاحش والاستغلال الذريع ، ونصت القوانين على تحديد حصة اليهود في كل شركة أو كل عمل مالي بستانة في المائة ، وذهب بعضها إلى تنظيم المصادرة على آجال متتابعة ، وصدر بعض هذه القوانين فعلاً ، وظل بعضها الآخر معروضاً للبحث والمناقشة بين

التأجيل والاهمال .

من هذه القوانين ما توقف عند الوصي على العرش فأسقطه بحق « الفيتو »
أو حق التعطيل .

ومنها ما صدر من البرلمان ومن ديوان الوصي على العرش ، ولم ينفذ ولم
يسمع له بعد ذلك خبر .

ومنها ما بقي في لجان البرلمان يدرس ويعاد درسه ، ويؤجل ويعاد
تأجيله ، إلى أن طواه النسيان .

فالصهيونية لا تهتم بالوصول في كل حين إلى المجالس النيابية ، أو هي لا
تهتم بها إذا أمكنها أن تسيطر على الحكومة بوسيلة من الوسائل . فأما إذا
تعذر عليها أن تسيطر على الحكومة واحتاجت إلى صوت مرفوع في
المجالس النيابية لتأييد قضية من القضايا المزينة عليها ، فهي لا تعيا إذن
بالوسائل التي تمكنها من التأثير في المجالس النيابية - ولو بعض التأثير -
وأهم هذه الوسائل الدعاية العامة « أولا » ثم استغلال الأحزاب التي تحتاج
إلى المال في إبان الانتخابات ، وقل أن تستغني خزائن الأحزاب عن المال
الكثير في إبان المعركة الانتخابية ، لأنها تنفق المال جهرة وخفية على
الحملات الصحفية ، ومنشورات الدعاية ، وتأمينات المرشحين ، ولجان
الدوائر وما إليها من الأعوان الحزبيين .

وقد تنبته الأمم الديمقراطية إلى هذه المساومات الوبيلة ، فأصدرت
التشريعات التي تحدد المقدار المسموح بانفاقه في الحملة الانتخابية ، أو
التي تقضي بإعلان مصادر الأموال في خزانة الحزب ، أو التي تشدد العقاب
على إعطاء الرشوة وقبولها أثناء الترشيح ، ولكن هذه القوانين لا تنفذ إلا
قليلا ، لأن الادانة فيها تمس الغالب والمغلوب .

وفي إنجلترا - مثلا - يكفي أن يقدم المرشح سيجارة إلى الناخب ليكون
ذلك حجة للطعن في انتخابه ، ولكن الناخبين احرار في الدعوة
لمرشحهم ، فما لا يفعله المرشح يفعله الناخبون .

وقد اهتم الصهيونيون بالوصول إلى مجلس النواب الانجليزي بعد الحرب

العالمية الثانية ، لأنهم اعتقدوا أن قضية فلسطين تحتاج إلى صوت مسموع في ذلك المجلس ، فوصل إليه نحو سبعين منهم ، كما جاء في كلام اليريجادير مكسون Brigadier Mackeson المثبت في سجلات هنسارد Hansard الرسمية ، وهو عدد يزيد على عشرة أضعاف النسبة التي يقدرها لهم قانون الانتخاب .

ولم يكن هؤلاء السبعون جميعاً متدينين باليهودية علانية ، بل كان منهم ثمانية وعشرون يهودياً ثابتون على دينهم ، وكان سائرهم يهوداً متحولين إلى المسيحية لتلبس المقاصد الصهيونية على جمهرة الناس .

قال دوجلاس ريد Douglas Reed في كتابه « من الدخان إلى الخلق » .

« إن عدد النواب اليهود في برلمان سنة ١٩٤٥ من العسير تقديره فيما يلوح لي . فإن الصحف اليهودية تقدرهم بثمانية وعشرين ، ولكنها إذا أرادت بذلك عدد اليهود غير المعترفين بدينهم فالصورة بعيدة جداً من الصحة ، وقد حدث بعد المناقشة التي دارت بالمجلس في اليوم الثاني عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٤٧ عقب اقتناص اثنين من الجنود البريطانيين في فلسطين ثم شق الصهيونيين لهما أن النائب اليريجادير مكسون وقف كما جاء في سجل هنسارد فأشار إليهم قائلاً : هنا نجوستين أو سبعين عضواً محترماً من اليهود يؤيدون الصهيونية . »

ثم استطرد المؤلف إلى الكلام على الحملة العنيفة التي شنها الصهيونيون على بريطانيا ، لأنها لم تتوسع في مطاردة العرب مرضاة لاسرائيل .

يحدث هذا في انجلترا ، أعرق البلاد البرلمانية ، فلا حاجة إلى الكلام عما يحدث في غيرها من البلاد التي لم تتمكن فيها بعد تقاليد الانتخاب .

والواضح أن السياسة العالمية كلها قد تأثرت بهذه المناورات الصهيونية ، فإن الدولة البريطانية علمت أنها هدف لحملات الدعاية الصهيونية في العالم ، وأن الصهيونيين يهددون بالعزلة في الحرب العالمية التالية ، وقد كانت الدولة البريطانية تخشاهم خلال كل حرب عالمية ، لعلمها بنفوذهم في الولايات المتحدة ، وقدرتهم على توجيه الرأي العام هناك - ولو بعض

التوجيه - الى اعتزال الحرب والوقوف على الحياد . . وكانت - أي الدولة البريطانية - مطمئنة الى كراهة اليهود لألمانيا ، وسعيهم الى تأليب الدول عليها ، ولكنها لا تدري كيف يكون الموقف خلال المنازعات الدولية التالية ، فقد تقف الصهيونية بأسرها في وجه إنجلترا لتعزلها وتبذل جهودها في إثارة الأمريكيين عليها ، وقد تقف إنجلترا يومئذ وحيدة في الميدان بتدبير المؤامرة الصهيونية ولهذا كانت تحتل منهم في فلسطين امانات ولطمات لم تصبر على مثلها في بلد آخر ، ولهذا اشتبك الدهاء البريطاني والدهاء الصهيوني في صراع الجبايرة استعداداً للنزال في المستقبل ، وما زال الدهاء البريطاني يحتال احتياله حتى أصبحت « بريطانيا العظمى » أقل الدول اليوم خوفاً من المؤامرات الصهيونية العالمية خلال الحرب المقبلة ، لأن الولايات المتحدة هي صاحبة الشأن الأول فيها ، فإذا حاربها الصهيونيون وانضموا إلى أعدائها هدموا بيوتهم على رأسهم عامدين أو غير عامدين .

وما أكثر ما يقال عن دسائس الصهيونية في المجالس النيابية لو اتسع المجال .

١١ - الصهيونية العالمية

وطوايرها الخامسة في السياسة الشرقية

كان نابليون الكبير من الخبراء الحذاق بصناعة الحكم ، وكان على علم بديهي بأطوار الجماعات ومصادر النفوذ في الرأي العام ، وكان من أجل هذا عظيم العناية بعوامل النفوذ الصهيوني في البلاد الفرنسية وفي البلاد التي يتطلع إليها بنظره ، لأغراض سياسية أو عسكرية .

كان في سنة ١٨٠٦ سيد القارة الأوربية غير مدافع ، هزم النمسا وبروسيا ، وتغلب على وليام بت في ميدان العلاقات الدولية ، ولكنه في تلك السنة كان يرفع يديه دهشاً ويسأل من حوله قائلاً : « بأية معجزة أصبحت أقاليم كاملة من فرنسا مرتثة لليهود ، وليس منهم فيها أكثر من ستين ألفاً ؟ » .

لا جرم يفكر نابليون في الصهيونية العالمية قبل حملته على المشرق ، ويساوم هذه الصهيونية على تبادل المنفعة من وراء تلك الحملة ، فهم يعودون إلى أرض الميعاد ويعيدون فيها دولتهم البائدة ، وهو يستفيد من أموالهم ودعايتهم في تأييد تلك الحملة ومقاومة النفوذ السياسي ، أو المالي ، الذي يعترضها ويعوق حركاتها .

ففي سنة ١٧٩٩ نشرت صحيفة جازيت ناسيونال Gazette Nationale الرسمية بياناً لنابليون يدعو فيه يهود آسيا وأفريقية أن يهرعوا إلى رايته ليدخلوا تحت ظلالها إلى أورشليم ، ويقول إنه قد جند منهم فرقاً تزحف على حلب .

وقبل هذا البيان بسنة واحدة نشر اليهود في باريس دعوة للاجتماع بها ، والاتفاق مع الحكومة الفرنسية على رد الصهيونية الى وطنها ، وذكروا أن ذلك الوطن يشمل الوجه البحري من القطر المصري ، مضافاً إليه إقليم يحده خط من عكا إلى البحر الميت ، وخط من جنوب البحر الميت إلى البحر الأحمر ، وأنهم باستيلائهم على هذه المملكة يسيطرون على تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقية الشرقية وأفريقية الجنوبية ، وأن مجاورة هذه المملكة لحلب ودمشق تيسر لهم سبل التجارة مع البلاد الفارسية ، وتفتح لهم من طريق البحر الأبيض المتوسط أسواق أسبانيا وفرنسا وسائر أنحاء القارة الأوربية ، وتصبح هذه المملكة من مركزها في وسط العالم مستودع المحاصيل العالمية فتمنح فرنسا - في مقابلة المعونة - على رد اليهود إلى وطنهم وحمايتهم فيه - جزاء مالياً وافياً ، وحصّة كبيرة من التجارة وأرباحها .

وجاء في الدعوة اليهودية أن المقترحات التي عرضت في الوقت نفسه على الدولة العثمانية ستظل في طي الكتمان ، وأن المعول فيها على حكمة المجلس المشرف على هذه الدعوة ، وعلى حسن النية من جانب الأمة الفرنسية .

هذه الدعوة نشرت بنصها في كتاب سوكولوف Sokolow عن تاريخ الصهيونية من سنة ١٦٠٠ إلى سنة ١٩١٨ ، ونشر فيه كذلك بيان نابليون وبعض التعليقات التي تكشف القناع عن دخائل المناورة وحواشيها .

وواضح من خطة نابليون أنه لم يكن يريد المعونة العسكرية من الصهيوينيين ، وإن الفرق المزعومة التي قال إنها تهدد مدينة « حلب » لم يكن لها وجود ، وإنما أراد بها معونة الأيدي الخفية في مراكز السياسة العليا ، كما أراد معونة المال إذا ضنت به خزانة الدولة .

هذا مثل من الأمثلة على أساليب الصهيونية في علاقتها بالسياسة الشرقية ، وأخصها سياسة فلسطين والديار المصرية .

تستطلع الأسرار ، وتحس بوادر الخطط الخفية قبل تنفيذها ، وتحاول أن تسالوم عليها ، فلا تعدم من يقبل هذه المساومة مخلصاً أو غير مخلص في مقصده ، وتجعل المصلحة المتبادلة ضماناً بعد ذلك لدوام المنعة بين

الطرفين .

فقبل حملة نابليون بسنة كانت الصهيونية على علم بموعدها ، وكان سفراؤها في باريس يساومون عليها ، ولا ينسون السفارة عند السلطان العثماني ، متكتمين طبيعة تلك المساومة ، ولكنها ظاهرة من قرائنها ، ولا بد فيها من عنصر الرشوة وعنصر الحريم .

وبعد قرن على التقريب ، بدأت طلائع الحملة الانجليزية ، وعملت فيها الصهيونية عملها الظاهر والخفي على نحو من هذه الأساليب ،

كان الخديو اسماعيل يبحث عن القروض فلا يجد من يقرضه ، ويرى بين يديه أسهم قناة السويس وهي قرية من نصف الأسهم ، فتلح عليه الحاجة العاجلة وتضطره الى عرضها للبيع سرّاً ، لخوفه من مناورات الهبوط والصعود في الأسواق المالية ، وخوفه قبل ذلك من مناورات السياسة الفرنسية والانجليزية ، وهما تتناظران ولا تكفان عن النزاع في شؤون القضية المصرية .

وهنا تنبري الصهيونية للعمل ويتدخل بيت روتشيلد بواسطة الدوق ديكايز Dicaze لتحذير البيوت الفرنسية من شراء الأسهم المعروضة عليها ، وتمكين بيكنسفيلد رئيس الوزارة البريطانية الاسرائيلي - من شراء الأسهم بالثمن المطلوب .

كيف تذلل هذه العقبة ؟

بل كيف تذلل هاتان العقبتان : عقبة السياسة الفرنسية ، وعقبة السياسة البريطانية ؟

هنا تفعل الصهيونية العالمية أفاعيلها التي يعجز عنها الساسة ، ولا تحيط بها المجالس النيابية .

فرنسا عدوة مناظرة لبريطانيا العظمى ، فكيف تترك لها هذه الغنيمة الشهية ؟

تتركها لأن بيت روتشيلد موزع بين باريس ولندن وبرلين ، ولأن بسمارك

يهدد فرنسا بعد حرب السبعين ويعزلها في سياسة القارة الأوروبية ، فإذا تدخل بيت روتشيلد لاقتناع فرنسا بارضاء بريطانيا ، وللتقريب بين السياستين الفرنسية والبريطانية في القارة الأوروبية ، وللتعاون بين الدولتين معاً على مناهضة بسمارك او مناهضة الدولة الالمانية الناشئة - فهي صفقة رابحة تأتي في أوانها ، ويقوم بها سمسار قادر عليها ، لأنه يملك نفوذ المال في باريس ولندن وبرلين . .

وربما سبق إلى الظن أن العقبة في بريطانيا أهون من هذه العقبة ، لأنها تشتري وتستفيد ، ولا حاجة بها الى اقناع للحصول على هذه الفائدة . إلا أن الواقع أن عقبة بريطانيا كانت أصعب من عقبة فرنسا ! وأحوج منها إلى التدبير والتواطؤ مع الصهيونية العالمية .

أولاً : لأن البرلمان كان في اجازة .

ثانياً : لأن المحافظين كانوا يخشون معارضة الأحرار في كل أمر يتعلق بالمسألة الشرقية .

وكان المبلغ اللازم أربعة ملايين جنيه ، وليس من السهل صرف هذا المبلغ ولا أقل منه بغير إذن البرلمان .

ولكن بيكنسفيلد صهيوني ، وروتشيلد صهيوني ، وصاحب المصرف مستعد للمجازفة بالمال في جميع الأحوال ، فانحلت العقدة ، وزال الاشكال ، ولم يبال بيكنسفيلد ان يعلن بعد ذلك :

« أن الصفقة مالية وسياسية وأنها لازمة لتمكين الامبراطورية » .

ودارت الأيام دورتها وجاءت الحرب العالمية الأولى وصدر وعد بلفور المشهور موجهاً إلى اللورد روتشيلد كأنه - وهو رعية بريطانية - نائب دولة أجنبية أخرى . وتطايرت الاشاعات عن الباعث على وعد بلفور ، فقبل إنه كان مكافأة على اختراع كيماوي للصهيوني « وايزمان » افاد الحلفاء في صناعة المتفجرات ، وما هذه الاشاعات عن الباعث المزعوم إلا تلفيقاً من الدعاية الصهيونية والدعاية البريطانية لا يثبت على المراجعة والتمحيص . . ففي الثاني والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩١٥ نشرت صحيفة « المانشستر

جارديان « مقالا صريحاً ربطت فيه بين انتصار الحلفاء وقيام الصهيونية في أرض فلسطين ، وقبل ذلك كان فلاديمير جابوتسكي Jabotinsky في القاهرة يؤلف فرقة النقل الصهيوني ، ويشكوا من القائد سير مارك سايكس Sykes لأنه لا يؤيد الصهيونيين ، ولم يتأخر اعلان الوعد - وعد بلفور - الا لمصلحة هؤلاء الصهيونيين ، إذ كانوا ينتظرون النصر الحاسم في جانب الحلفاء قبل أن يجهروا بتأييدهم ، محافظة على حيل الاتصال بين الجانبين .

هذه هي أساليب الصهيونية العالمية في السياسة الشرقية لا نظنها من تدبير هيئة مسيطرة قائمة في جميع الأوقات ، ولكنها أسرار تعرف في أوقاتها ، وفرص تغتتم من القادرين عليها ، ولا حاجة بالصهيونية العالمية الى تدبير أثبت من هذا التدبير .

١٢ - الصهيونية العالمية

أساليبها في العصر الحاضر (١)

تختلف أساليب الصهيونية بين عصر وعصر على حسب اختلاف الحوادث والأفكار والمناسبات واختلاف وسائل الاقتناع والدعاية والتأثير . ولكنها في جوهرها شيء واحد ، تتلخص في استطلاع الأسرار والخفايا ، وتسخير سلطان المال لاستغلال الحركات الاجتماعية والعلاقات الشخصية بذوي النفوذ ، والاتجاه بها إلى الوجهة التي تحقق لها مصالحها وأغراضها .

وينبغي قبل البدء ببيان هذه الأساليب ، أن نعلم انها بطبيعتها أساليب هدم ومقاومة ، وأساليب غش وتضليل ، ولا مناصر لها من ذلك إلا إذا خرجت على طبيعتها وتخلت عن وجودها . لأنها لا تستطيع البناء والتعمير ، ولا تستطيع الأمانة والعمل الصريح .

إنما تستطيع الصهيونية البناء إذا استطاعت أن تقيم دعواها على عقيدة تنشرها وتدعو الأمم إلى الايمان بها ، ولكنها إذا فعلت ذلك نقضت دعواها الأولى والأخيرة ، وهي احتكار الإله لنفسها ، والايمان بأنه إله إسرائيل كما يدعونه في الصلوات ، وليس للأمم الأخرى حظ من رضاه .

فالصهيونيون الذين يزعمون أن الله لهم وحدهم ، وأنهم شعب الله المختار ، دون غيرهم ، لن يقبلوا مشاركة أحد لهم في هذا الاحتكار ، ولن تراهم قط مبشرين بدين يدعون الناس إلى الدخول فيه ، خلافاً لأصحاب الأديان أجمعين .

إنهم كأصحاب الميراث الذين لا يقبلون شريكاً فيه ، أو كأصحاب الشركة التي ينفردون بها ولا يوزعون على أحد سهماً من أرباحها ، فليس في

استطاعتهم أن يقيموا سلطانهم على عتيدة عامة تشاركهم فيها الامم ، وليس في استطاعتهم أن يقنعوا الناس صراحة بقبول هذه الفكرة النابية ، وكل ما في وسعهم أن يهدموا عقائد الناس وأخلاقهم ودعائم افكارهم وشرائعهم ، ثم لا يخلفوها بعتيدة أخرى تقف لهم في الطريق .

كذلك لا تستطيع الصهيونية العالمية أن تسود بغير الخداع والتضليل ، لأنها لا تعمل بسلطان القوة الظاهرة أو بسلطان الملك والسلاح ، وإنما تعمل بسلطان المطاعم والمنافع والشهوات من وراء ستار . فلا بد لها على الحالين من أساليب الهدم وأساليب الخداع .

لهذا تبادر الصهيونية إلى استغلال نفوذها في اثاره الفتن والقلال ، وتظفر الفتنة بتأييدها كلما توقعت منها الامعان في الهدم والفوضى ، لأنها لا تنجح في عالم فيه ايمان بالخلق او بالوطن او بالدين ، وإنما تنظر إلى الأخلاق والأوطان والأديان كأنها حصون تحمي منها فرائسها وضحاياها ، ولا تطلق أيديها بالعمل كما تشاء حيث تشاء .

أما إذا أصبح المسلم غير مسلم ، وأصبح المسيحي غير مسيحي ، وأصبح الوطني لا يبالي بوطنه ، وأصبح الضمير الانساني ولا موضع فيه للحلال والحرام - فهي على الأقل في ميدان لا موانع فيه ولا عقبات ، إن لم يكن فيه أعوان وأذنان .

وقد اشتركت الصهيونية في كل حركة من حركات الهدم والتدمير ، وآخر ما اشتركت فيه - ولا تزال مشتركة فيه - حركة الشيوعية في العصر الحديث .

ربما كان الصهيوني من أصحاب الملايين ، ولكنه يحرص على نشر الشيوعية ويمولها بالمال والدعاية ، ويواليها بالدسائس والمؤامرات في مجتمع السياسة الدولية .

ولا حاجة إلى أكثر من سرد الأسماء لاظهار الأيدي الخفية من وراء هذه الحركة في إبانها ، وليست هذه الأيدي الخفية إلا أيدي الصهيونية العالمية في كل مكان .

كان رئيس الدولية الشيوعية الأولى في العالم كله زينوفيف ، واسمه

الصهيوني أبفلبوم Apfelbaum ، وكان رئيس البوليس السياسي ياجودا أو يهودا وكان وزير الخارجية ليفينشوف واسمه الصهيوني فنكلشتين Finkelstein.

وكان أهم سفير في الخارج مارسل روزنبرج ، لأنه كان يعمل في أسبانيا لتوطيد الشيوعية بعد الجمهورية ، وكان تروتسكي وكانيف وتومسكي وريكوف وكاجانوفتش على رأس الدولة السوفيتية ، ولم يكن فيها من الزعماء الكبار غير لنين وستالين من الروس الذين لا يدينون باليهودية ، ولكن « لنين » كان نصف يهودي يسمى إيليانوفتش ، وستالين كان صهراً لكاجانوفتش الصهيوني . . وهذا كل ما استطاعوه لادخاله في زمرة الصهيونيين .

ولقد أعلن جاكوب شيف Jacob Schiff الصهيوني صاحب الملايين ، أنه أمد تروتسكي بالمال لاقامة الدولة الشيوعية ، وثبت أن صاحب الملايين « ماكس ووربورغ » في ستوكهلم كان هو الواسطة القريبة لتزويد « تروتسكي » بالمال كلما احتاج إليه .

وإنها لضربة من ضربات القدر طاحت بهذه الدولة الصهيونية قبل استقرارها على قواعد العلية المعترف بها في العالم كله ، فقد تغلب ستالين على تورتسكي ، وأحس الغدر من عصاة الصهيونيين فعجل بها قبل أن تعجل به ، وتمكن من الغلبة على منافسه في مبدأ الأمر بمعونة فريق من العصاة ، لأنه كان - كما تقدم - زوجاً لليهودية وصهراً لكاجانوفتش . « أبيه في الحساب » كما يقولون .

أمصادفات هذه في عرض الطريق ؟

كلا . لا يمكن أن تتفق المصادفات كل هذا الاتفاق ، ولا يمكن أن تسري هذه المصادفات في كل مكان ، فيتولى زعامة الشيوعية في المجر « بيللا كوهين » ويتولاها في النمسا فريتز أولر ، وأوشك أن يتولاها في المانيا ليكننخت وروز الكسمبرج ، لو لم تعاجلها الأقدار بما خيب الآمال .

ومن المعلوم ، قبل هذا كله ، أن إمام الشيوعية الأول هو « كارل ماركس »

اليهودي ، وأن منافسه في ألمانيا لا سال من سلالة اليهود .

ولقد تأسست حكومة إسرائيل في فلسطين وهم لا يأسون من تسخير الشيوعية لتأييدها في المجامع الدولية ، وتسخيرها من جهة أخرى لتخويف دول الغرب ، وتهديدها بالتحول إلى جانب الكتلة الشرفية . إن لم تسعفها بالمال والسلاح والمعونة الدولية . . وكانت الكتلة الشرفية ترجو أن تبسط يديها على إسرائيل من وراء المهاجرين الشيوعيين . فلم تلبث أن عرفت غلطتها ، وأدركت ان الصهيوني يحترف الشيوعية . ويتسمى باسم المسيحية ، ويعلن الالحاد جهراً ، أو يدين به سراً . ولكنه صهيوني من الصهيونيين مهما تختلف الأسماء والآراء .

ولم تكن هزيمة تروتسكي وشيعته نهاية الحلف القديم بين كارل ماركس وأبناء ملته . فإن الصراع بين ستالين وتروتسكي لا يتكرر في كل بلد على هذه الصورة ، وإذا تكرر فحسب الصهيونية كسباً أن تهدم أركان الوطنية والدين ، وأن تنهار قواعد الأخلاق والآداب ، فتستريح من هذه العوائق في طريقها ، وتفتتح الأبواب لسلطان المال والخداع بغير شريك ولا حسيب .

إن بعض المؤرخين قد هالهم هذا الامتزاج بين الشيوعية والصهيونية فاعتقدوا أن الصهيونية قد خلقت هذه الثورة خلقاً ، وصاغت على يديها بمحض مشيئتها . بيد أنه غلو في تقدير قوة الصهيونية لا نقرهم عليه . وأنها على تشعب مساعيها واتساع ميادينها لأهون شأناً من أن تخلق ثورة لم تخلقها أسبابها ولم تسبقها مقدماتها . وإنما شأنها كله ان تستطلع الأسرار الخفية ، وأن تغتتم الفرصة السانحة ، وأن تتسلل من الثغرة المفتوحة . وأن مثل الشيوعية لواحد من أمثلة كثير على أساليبها في استغلال الحركات الاجتماعية ، والاتجاه بها إلى وجهتها في العصر الحديث .

١٣ - الصهيونية العالمية

أساليبها في العصر الحاضر (٢)

من أساليب الصهيونية العالمية استغلال الحركات الاجتماعية والاتجاه بها إلى الوجهة التي تريدها ، وأحب هذه الحركات إليها من كان كفيلا بهدم القيم والأخلاق وتفكيك أوصال المجتمع وتلويت العرف الشائع بين أهله ، ولهذا ظفرت الحركة الشيوعية منها في العصر الحاضر بكل تشجيع وترويج ، كما أسلفنا في الفصل الماضي .

ومع استغلال الحركات الاجتماعية تعنى الصهيونية في كل وقت باستغلال المراكز العالمية والعلاقات الشخصية بأصحاب النفوذ من حكومات العالم جميعاً ، وحكومات العالم الكبرى قبل سواها .

فما من رئيس ذي سلطان في السياسة الدولية ، وفي سياسة قومه - يتركه الصهيونيون بغير رقابة منهم على القرب ، تحيط به وتتفذ إلى أسرار ونياته ، وتبذل له الخدمة التي يتعودها ، ويتوهم مع الزمن أنه لا يستغني عنها ، فلا يزال معولاً عليها في كل عمل يفكر فيه أو يقدم عليه .

وقد لوحظ في إبان المشكلات العالمية - وفي إبان الحروب خاصة - أن الحاشية التي تحيط بالعظماء من قبل الصهيونيين تحكم حلقاتها ، وتشدد رقابتها ، وتتطوع للقيام بالمهام التي تؤثر في مجرى الأمور ، وقد تخلقها أحياناً لتقوم بها وتستجمع أزمة الأمور بين أيديها .

لوحظ ذلك في الحرب العالمية الثانية ، ولوحظ قبل ذلك في الحرب العالمية الأولى ، فأحاط الصهيونيون بويلسون ولويد جورج كما أحاطوا بروزفلت وتشرشل وعملوا جهرة وخفية كل عمل ينفع الصهيونية ويعجل

بتنفيذ مآربها .

ما من رئيس ذي خطر إلا يحيط به صهيونيون وصهيونيات ، ولكل من الفريقين عمله وميدانه الذي يعمل فيه .

وهؤلاء الصهيونيون ذوو حرص ودهاء ، يخفون أنفسهم ما استطاعوا عن الأنظار والأسماع ، ولكنهم تغلبهم سكرة القوة أحياناً فيفخرون بها ويكشفون سرها ، أو لعلهم يفعلون ذلك متعمدين غير مغلوين على أمرهم ، كلما احتاجوا إلى الارهاب وفت الأعضاء وإيقاع اليأس في نفوس الخصوم .

من ذلك أن وايزمان هدد بريطانيا العظمى قبل الحرب العالمية باقامة القيامة عليها في جنيف .

وتساءل المتسائلون : ما هي القوة التي يعتمد عليها وايزمان في هذا التهديد ؟ ومن أين له السلطان الذي يمكنه من اللعب بجنيف وعصبة الأمم فيها ، ويتيح له ان يقيم القيامة هناك على من يشاء ؟

ومن ذلك أن مستر « باروخ » صديق روزفلت الحميم تحدث عن نفسه في انجلترا يوماً فقال « إنه أخطر رجل في أمريكا » . . وتحدثت إلى فكتور لاسكي مرة فقال . « إنه هنا في انجلترا يحمل العصا للأولاد الكبار لكيلا يفسدوا عليه مشروعات السلام » .

وأذاع مراسلو الصحف المتحدة هذا الحديث ، فبدا للمستر باروخ بعد هذا أن يكف من نشره فكان له ما أراد .

وتساءل المتسائلون هنا أيضاً : « من هو باروخ هذا ؟ وما هي العصا التي يخوف بها الأولاد الكبار ؟ ومن الذي خوله هذه السلطة التي يعامل بها أقطاب الدول كأنهم أولاد كبار ؟

وقد كان جاكوب شيف Jacob H. Schiff الصهيوني يتولى الرئاسة في جماعة صهيونية تسمى بجماعة الأمم الحرة ، ويشاركه فيها خمسة من أصحاب المصارف اليهود ، وكان على اتصال دائم بكل رئيس ذي خطر في

الولايات المتحدة ، وأولهم الرئيس ويلسون صاحب الوصايا المشهورة . .
فما هو إلا أن علم أن الرئيس ويلسون يتردد في إقرار مسائل التعويضات
حتى ادركه برسالة برقية غيرت موقفه على الأثر من مسألة السار ومسألة
سليزيا العليا ومسألة دانزيغ وفيومي ، لأنها كلها من المسائل التي ترتبط
بأموال التعويضات والمصانع العظمى ، وكلها بطبيعة الحال من المسائل
التي ترتبط بمارب الصهيونيين .

ونشرت التيمس أسماء المدعويين إلى القصر الأبيض لتكريم مستر أتلى
Attlee في سنة ١٩٤٥ فكان منهم القاضي فرانكفوتر عضو المحكمة
العليا ، والشيخ فوليت Follette وكوناللي Conally ووارين أوستن Warren
Austin وسول بلوم Sol Bloom وشارل إيتون Charles Eaton ووليام جرين
William Green رئيس اتحاد العمال واريك جونسون Eric Johnson رئيس
الغرفة التجارية ومسترجون لويس (Lewis) رئيس عمال المناجم ، ومستر
ايراموشر Ira Mosher عضو اتحاد الصناعات ومستر برنارد باروخ Baruch
ومستر هربرت سووب Swobe الصحفي والناشر ، ومستر اويجين ماير
Egene Meyer من أصحاب واشنطن بوست ، ومستر جوزيف دافيز Joseph
Davies السفير السابق عند الكرملين .

وما من عنصر امريكي مثل في تلك الوليمة الفخمة كما مثل فيها
الصهيونيون .

ولقد نشرت هذه المعلومات جميعاً بين الصفحة المائتين والصفحة
المائتين والعاشرة من كتاب مأساة العداوة السامية The Tragedy Anti Semitism
و جاء بها مؤلفو الكتاب على سبيل التحدي للكاتب الصهيوني الذي تولى
الدفاع عن أبناء قومه ، فلم يكن له من جواب سائغ على خبر من هذه
الأخبار ، ولم يستطع أن ينقض الوقائع وان غلط في التفسير والتأويل .

وليس علينا ان نبحت طويلا للعثور على الأدلة القديمة أو الحديثة التي
تثبت هذه الخطة الصهيونية أو هذا الأسلوب الصهيوني في استغلال
العلاقات الشخصية ، فان كتب اليهود التي يتعبدون بها طافحة بأخبار
الرجال والنساء الذين يجدون النعمة « او اللائي يجدن النعمة في أعين »

الملوك والرؤساء ، ولا شك أن المستور أكثر وأغرب من المنشور والمشهور .

هذا أسلوب من الأساليب الصهيونية القديمة الحديثة ، التي عهدت منهم قبل ثلاثة آلاف سنة ، وتعهد اليوم على نمط يوافق الزمن ومطالبه . فلا يتورع الصهونيون عن استغلال العلاقات الشخصية والانفعال بنفوذ الرؤساء واصحاب السطوة والجاه كلما احتاجوا إلى استغلالها ، ولا يختلف بين أمس واليوم إلا نوع الخدمة ونوع الوظيفة ونوع المهمة السياسية ، وإنما الأسلوب الحديث هو الأسلوب القديم سواء عمل فيه الصحفي ورئيس الشركة وعضو المجلس النيابي ، أو عمل فيه الكاهن والصراف ومنسوبة الجالية المختار !! .

وفي كل حالة من هذه الحالات يضطر الصهيوني إلى الغش والافساد ، لأنه لا يقدر على الصراحة والاستقامة . إذ لا سبيل إلى الصراحة والاستقامة إلا إذا قام العمل على الاقناع والمساواة ، وما من أحد يمكن أن يقتنع بتسخير الله لعباده اجمعين في خدمة الصهونيين ، وما من مساواة بين الناس عند إله يسمونه « رب اسرائيل » ويعادي الأمم جميعاً حباً لأمة واحدة هي أمة صهيون !

وهكذا فرضت طبيعة الصهيونية على قومها أن يعملوا للهدم والخداع سواء عملوا في استغلال الحركات الاجتماعية ، أو عملوا في استغلال العلاقات بذوي الجاه والرئاسة .

١٤ - الصهيونية العالمية

أساليبها في العصر الحاضر (٣)

كل جهود الصهيونية العالمية في الوقت الحاضر تنحصر في غاية واحدة ، وهي إنقاذ « إسرائيل » من قضائها الذي تخشاه .

ولا سبيل إلى ذلك في تقدير الصهيونية - وفي الواقع الذي يراه غيرها كما نراه - إلا بوسيلتين :

أولهما الصلح مع العرب .

والأخرى استبقاء نفوذها في البلاد الأمريكية .

فالواقع أن إسرائيل هالكة لا محالة إذا استمرت مقاطعة العرب لها سياسياً واقتصادياً بضع سنوات أخرى .

ولهذا يعتمدون خلق المشكلات بين إسرائيل والبلاد العربية ، عسى أن يؤدي البحث في المشكلات إلى البحث في الصلح ، وعسى أن يؤدي البحث في الصلح إلى فك الحصار السياسي والاقتصادي عن الدولة القائمة على غير أساس .

وقد تحدث رؤساء العصابة التي تسمى نفسها حكومة إسرائيل عن مشكلات الحدود الفلسطينية ، فقالوا : إنها عمل من أعمال القصاص ، وإن إسرائيل لا تلجأ إليها بأختيارها ، وإنما تضطر إليها اضطراراً لكف العدوان على حدودها .

لكن الصهيونيين أنفسهم يكذبون هذه الدعوى ، ويصرحون بما ينقصها في كلامهم الذي ينشرونه بين الأمريكيين ، ويعلنون أن خلق هذه

المشكلات على الحدود إنما هو خطة مدبرة لأكراه العرب على الصلح ، وإنقاذ إسرائيل من الخطر المحتوم الذي تهددها به المقاطعة .

نشر أحدهم موسى برليانت Moshe Brilliant في عدد شهر مارس ١٩٥٤ من مجلة هاربر Harper's Magazine مقالا بعنوان « سياسة القصاص الاسرائيلية » كتب له على رأس المقال خلاصة قال فيها : « إن حوادث الحدود الدموية فلما تكون عرضية . . وإنما هي من بعض جوانبها قصاص وأخذ بالثأر ، ومن الجانب الآخر خطة مدبرة لسوق العرب كرهاً إلى مائدة الصلح ، ومن الناس من يصفها بالواقعية ، ومنهم من يصفها بالخبت ، ولكنها تؤذن بأن تنجح وتفيد » .

ومضى موسى برليانت يقول : « إن هذه الخطة جلبت على الحكومة اليهودية لوم مجلس الأمن في هيئة الأمم المتحدة ، وجرت عليها تأنيب لجنة الهدنة المشتركة في الشرق الأوسط ، وبعض التقريرات الدبلوماسية من واشنطن ولندن وباريس ، بل أوشكت أن تحول عن الدولة اليهودية عطف أبناء دينها في الولايات المتحدة ، فقل الاقبال على تلبية النداء الموجه إليهم بطلب الاعانة من جماعة اليهود المتحدة ، ولوحظت هذه القلة على الدوام عقب حوادث القصاص على الحدود » .

وراح الكاتب يعدد المواقف التي أفادت فيها هذه الخطة المدبرة ، فذكر منها الموقف الأول وهو إكراه العرب على وقف القتال ، وذكر منها الموقف الثاني وهو إكراههم على عقد الهدنة ، وقال : إن هذه الخطة بعينها ستكرههم على الموقف الأخير وهو قبول الصلح مرغمين ، ولم يبال هذا الكاتب الصفيق أن يقول : إن إسرائيل كانت تختلق المعاذير والتعللات لقتل من تقتلهم باسم الثأر على سنة العين بالعين ، ولكنه استطرد قائلاً : « إنه أمام هذه السوابق تولد في إسرائيل شعور بأن الوسيلة الوحيدة لسوق العرب كرها إلى مائدة الصلح إنما هو العلم بأن حالة الهدنة ضارة بهم غير موافقة لمصلحتهم . وهذا ضرب من التفكير يخالف مزاج الأكثرين من الأمريكيين ، ولكنه منطلق من الصعب مقاومته ، فضلاً عن تعزيزه بمجرى الحوادث منذ سنة ١٩٤٩ » .

فهؤلاء الناس لا يخلجون من المناداة بتدبير الاجرام وانتحال أسباب القتل والعدوان لتنفيذ خطة مرسومة بالدم البارد كما يقولون ، لأكراه العرب على مصالحتهم واضطرارهم الى قبول استغلالهم وتسخيرهم لمطامعهم ، ويحسبون أن الرأي العام الذي يخاطبونه بهذه الصراحة لا يؤاخذهم على اجرامهم وعدوانهم ، لأنه يريد لهم النجاح بكل وسيلة مستطاعة ، ولا يبالي ما يصيب العرب إذا كان في هذا المصائب تحقيق مطامع إسرائيل .

إن هذه الصراحة في الاعتراف بالاجرام لدليل على كثير ، وأدل ما تدل عليه انهم يعتقدون أن اللاتمين لهم إنما يلومونهم على سوء السياسة ، وعلى التورط في الأخطاء التي تعزى إلى الرعونة وقصر النظر . فأما إذا كان العدوان تدبيراً محكماً فلا لوم عليهم في التصريح به علانية ، ولا ضرر في اتخاذ كل وسيلة لأكراه العرب على الاذعان لاسرائيل .

على أن الشواهد المتوالية تخيب ظن الصهيونيين في هذا التقدير . لأن هؤلاء الصهيونيين قد جاوزوا الحد في الاعتماد على عطف المؤيدين وغفلة الغافلين ، وقد بدأت بوادر السامة بين الأكثرين في الغرب من هذه اللجاجة التي لا تعرف الحياء ، وضاق الناس ذرعاً بما تكلفهم عصابة إسرائيل من ثمن ثقيل لا يؤدونه اليوم حتى تعود فتكلفهم بثمن جديد ، ومن هؤلاء الذين ضاقوا ذرعاً بمشكلات العصابة الصهيونية أناس من اليهود أنفسهم ، كما قال موسى برليان في المقال الذي أشرنا إليه .

ولقد أخذ الكثيرون من الأمريكيين يحسون أنهم يحتملون من أجل إسرائيل فوق الطاقة على غير جدوى وإلى غير نهاية .

وقد ظهر هذا الاحساس في مواطن كثيرة ، وأشفق الصهيونيون من عقابه فهدهم ذلك الطبع الأعوج الذي فطروا عليه إلى الخطة التي جربوها مع الانجليز بفلسطين ، واعتقدوا أنها صالحة للتنفيذ في كل موضع وفي كل أوتة ، وهي خطة الارهاب والتهديد .

غرههم أنهم قتلوا « برنادوت » رسول الأمم المتحدة ولم يصبهم شيء من جراء قتله ، فأنشأوا في البلاد الأمريكية جماعة ارهايية من قبيل الجماعات

التي اشتهرت بفلسطين ، وكأنهم يشسوا من دوام نفوذهم القديم بغير الارهاب ، فاستعدوا بالارهاب لطوارئ الزمن وتقلب الأحداث ، وخيل إليهم ان استبقاء نفوذهم في البلاد الامريكية ضرورة لا غنى عنها بكل ثمن وبكل حيلة ، لأنها مسألة الحياة والموت في هذه المرحلة من حياة الصهيونية العالمية ، فهم يستमितون في سبيلها ، وينسون أن الاستماتة قد تमित .

إن اليهود في الولايات المتحدة يبلغون خمسة ملايين ، نحسب منهم من تتوسط بهم السن فوق الخامسة عشرة ودون الأربعين فنكاد نقول إنهم كلهم مشتركون في منظمة الارهاب ، لأن اعضاءها يعدون بمئات الألوف ، وربما كان المساعدون على الارهاب أكثر من العاملين به ، بل ربما كان اليهود المخالفون لخطة الارهاب عرضة للتهديد والانتقام قبل غيرهم من المخالفين . فلا مبالغة في القول بأن «الارهاب» هناك خطة خمسة ملايين ، وليس بالخطة المقصورة على عشرات الألوف أو مئات الألوف .

إن هؤلاء الارهابيين يكتفون اليوم بالتهديد الاقتصادي ، وتهديد حملات التشهير والدعاية والفصائح الاجتماعية وقد يضغيطون بالرؤساء على المرؤوسين الذين يعارضونهم ولا يتواطئون معهم على مساعدتهم ودسائسهم طواعية بغير مقاومة ، ولكنهم - أي هؤلاء الارهابيين - سيندفعون ويتجهجون كلما اشتدت المقاومة واشتد الخطر على نفوذ الصهيونية ، وسيندفعون ويتجهجون كلما اغتروا بالقوة وأمعنوا في هذه الصناعة التي تشبه رذيلة الادمان في الاغراء بالمزيد ، كلما استحكمت العادة ومردت عليها النفس المنكوبة بشرها . وفي تاريخ الارهاب من عهد شيخ الجبل - او عهد حسن بن الصباح - أمثلة على البداية والنهاية في هذا الطريق ، فقد بلغ الخطر أشده حين أحس به الجميع ، فلما أحس به الجميع قضى عليه وجنى على نفسه كما جنى على ضحاياه .

حياة الصهيونية العالمية في الصلح مع العرب ، وفي استبقاء نفوذها بالبلاد الأمريكية ، وكل جهودها في العصر الحديث ضائعة إن لم تحقق هاتين الغايتين .

١٥ - عصبية الصهيونية

في ميدان الثقافة والسياسة

عصبية الصهيونية الحمقاء داء قديم متأصل في نفوس القوم لا يسلم منه كبير فيهم ولا صغير ، ولا تخفى شواهدة عن تنزه عن الغرض ، سواء نظر الى تاريخهم القديم أو تاريخهم الحديث .

وقد أشرنا في هذه الفصول إلى هذا الداء الويل ، وأتينا على بعض شواهدة .

ونشير هنا إلى بعض آثار هذه العصبية وتبشيرها بالدعوات والحركات المضللة في ميادين الثقافة والعلم والسياسة ، فتمضي أكاذيبها بين الكثيرين من المستنيرين وكأنها حقائق لا تقبل الشك ، أو آراء جديدة تقابل بالجد والاهتمام .

وإنهم ليستعدون لترويجها والدعوة لها بمن يجندون من صفوفهم أو من حملة الأقلام المأجورة لخدمتهم ، ويظهر منها ما يظهر ، ويختفي ما يختفي ، مقدراً على حسب الأجواء المهيأة له ، وكل ذلك يجري في غفلة عن بواعثه الخفية والدسائس اليهودية .

وما أشد ما تتردد الدعايات الحماسية المحمومة في الكتب والصحف والمعارض ودور الصور المتحركة لما يبتدعون أو يبتدع غيرهم من المدارس والمذاهب الأدبية والفنية العلمية والفلسفية التي تتجه إلى الهدم خدمة للصهيونية ، كما تتردد هذه الدعايات المجموعة من أجل هذا الغرض لتعلي شأن البارزين والبارزات من اليهود حتى تغطي شهرتهم على من هم أولى منهم بالتقدير والشهرة ، أو لتغض من أقدار النابغين من غيرهم دون

جناية لأحد من هؤلاء المظلومين إلا أنه ليس من اليهود ولا صنائعهم وأوليائهم ، أو ممن قال فيهم يوماً كلمة حق تغضبهم ، فاستحق من أهلها المقت واللعنة من رضوانهم ورضوان أذنانهم في كل ميدان .

وأما الحركات الفكرية والاجتماعية والسياسية في الغرب ، وأصداؤها هنا وهناك ، فإن دراستها على حقيقتها دون عناوينها تدل على عبث الصهيونية بأقدس القيم ، وتسخيرها كل حركة - ما استطاعت - لافساد العقول والأخلاق .

وقد كان من رأينا أن مثل هذه الحركات ينبغي أن تفهم مع فهم بواعثها في نفوس أصحابها والقائمين بها ، وأنه لا سبيل إلى فهمها بغير ذلك .

وهكذا ينبغي أن تفهم الحركات الحديثة في الغرب ، وتفهم معها العوامل الصهيونية التي تحركها سراً وعلانية ، ليتبين ما فيها من حق وباطل ، تنكشف بواعثها وأغراضها الحميدة والذميمة .

وقد قلنا منذ سنوات في مقال عن الوجودية : « لن تفهم المدارس الحديثة في أوربة ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها وهي أن اصبعاً من الأصابع اليهودية كأمّة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الاخلاقية ، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الانسان في جميع الأزمان . فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان . واليهودي دركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب ، واليهودي - أو نصف اليهودي - سارتر وراء الوجودية التي نشأت معززة لكرامة الفرد فجئح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بأفات السقوط والانحلال .

ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية كلما شاع في أوربة مذهب جديد . ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود .

وهناك أمثلة على هذه العصبية من نوع آخر ، تعزز كل ما قدمنا ، وتؤكد لنا أن هذا الداء العياء لم يسلم منه أحد بينهم حتى العلماء « المستقلين » .

من ذلك فرويد صاحب المذهب المشهور في الطب النفساني ، وإن كان يقال فيه ما قلنا عن ماركس ودركايم وسارتر ، إنه كان من وراء علم النفس الذي يرجع كل الميول والاداب الدينية والخلقية والفنية والصوفية والأسرية إلى الغريزة الجنسية ، ويحاول أن ينسخ قداستها ويخجل الانسان منها ، ويسلبه الايمان بسموها وسمو مصدرها حين يردها إلى أدنى ما يرى هو في نفسه ، وبهذا تتمزق صلاته بأسرته ومجتمعه والكون وما وراءه .

ويبدو فرويد « مستقلا » بعلمه عن « يهوديته » ولكنه كان في الحقيقة لا يطمئن إلى أحد في عمله إلا أن يكون من « اليهود » ولا يثق بعمل مساعد له من غير ملته في المستشفى والمعمل ومعهد التطبيب .

وكان من المولعين بالعقد النفسية ، وكنا ولا نزال نرى أن الولع بهذه العقد قد يكون إحدى العقد النفسية ، وأن المكشرين من الحديث عنها قلما يسلمون من مركبات النقص وما إليها ، وكذلك عاش فرويد .

وكان الدكتور إرنست جونز أكبر تلاميذه الأحياء قد أصدر الجزء الثاني من ترجمة أستاذه ، وجاء فيه بشواهد كثيرة تعزز هذه الملاحظة ، ولم يقصد بروايتها غير تقرير الحقائق ، لأنه من المعجبين بالأستاذ إعجاب التقدير والوفاء . من تلك الشواهد الكثيرة أن فرويد كان يتبع أوراقه فيحرقها قبل أن يتمكن أحد من الاطلاع عليها .

ومنها انه كان إذا نوى السفر ذهب إلى المحطة قبل وصول القطار بنحو ساعة .

ومنها أنه كان شديد القلق يعتمد على الدوام إلى تهدئة أعصابه بالافراط في تدخين التبغ اللادع ، وتعزى إلى ذلك إصابته بالسرطان في فمه .

ومنها أنه كان يحيط نفسه بأعوان من اليهود ، ويندر أن يعمل مع أحد من غير دينه .

وترد الصحف الغربية بأنباء الاحتفال بمرور مائة سنة على مولد فرويد فنرى أعجوبة من أعاجيب التذكار لهذه المناسبة ، لأن العرف قد جرى على الاشادة بمآثر المحتفى به من أمثال هذه الذكريات ، ولكن الأطباء

النفسانيين الذين اجتمعوا لحياء ذكرى فرويد في مدينة شيكاغو - وعدتهم نحو أربعة آلاف - قد فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه يتولاها رجل مسؤول في مركزه العلمي والرسمي ، وهو الدكتور برسفال بيلي Bailey مدير معهد النفسانيات بولاية النواز ، وخلاصة حملته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه لها ، وأن آراءه لا تضيف شيئاً إلى القيم الانسانية ، لأنه يرتد بالانسان إلى الباطن ، ويهمل جانبه المنطقي الشاعر ، وأنه لم يكن يفهم المرأة ، ولم يكن يندوق الموسيقى ، ولا يحس جلال العقيدة .

وإنه لمن العجب أن يكون الدكتور إرنست جونز تلميذه الوحيد من غير اليهود ثم ينساق في تقديره مع الوعظ التبشيري باسم العلم والثقافة .

ونحسب أن فرويد لم يعمل عبثاً إذا كان العالم قد استطاع بعد أقل من عشرين سنة من وفاته أن يضعه على المشرحة التي كان يضع عليها مرضاه . ويذكرني هذا بقصة التلميذ اليوناني وأستاذه في علم الجدل والسفسطة ، فإن التلميذ أنكر حق الأستاذ في الاجر المتفق عليه بعد انتهاء الدروس التي حضرها عليه ، وقال له انه سيناقشه في هذا الحق فإن أقنعه بأنه لا يستحقه فلا أجر له عنده ، وإن لم يقنعه فلا أجر له عنده كذلك ، لأنه لم يعلمه كيف يقيم البرهان على دعواه .

قال الأستاذ : بل أستحق الأجر مرتين لأنني علمتك أن تغلب أستاذك ؛ وعلى هذا النحو يستطيع فرويد أن يهدأ في قبره ، لأنه علم الناس كيف يضعونه على المشرحة ليطبقوا مذهبهم عليه .

ومثل آخر هو ألبرت أينشتين صاحب نظرية النسبية ، وأكبر ما في « يهوديته » أن الكثيرين يحسبون « مستقلاً » منقطع الصلة بها لأنه يعيش أيامه كلها على اتصال بمعاهد العلم والعلماء .

ولكنه كان ينادي بالعصية الصهيونية حين لا يضطره أحد إلى هذا النداء . وقد نشرت بعد وفاته مجموعة من الرسائل والخطب في طبعة جديدة ، وقيل إنه أقر اختيارها وتنسيقها في هذا الكتاب .

· ويجهز أينشتين في جملة من هذه الرسائل « بعصية الصهيونية » ويؤمن
باسرائيل كأنها عالم البعث للحياة اليهودية ، وليست مجرد وطن أو « مأوى »
للمضطهدين من المهاجرين .

ويعتقد العالم « المستقل » برابطة الوحدة التي لا تنفصم بين الصهيونيين
ثم يزعم أن موقف العالم من اليهود هو الذي يربط بينهم بهذا الرباط الوثيق ،
ولا يذكر أن موقف اليهود من « الجوييم » سابق لكل موقف من مواقف الأمم
الأخرى في المشرق والمغرب نحو هذه السلالة التي تعزل نفسها ولا تكتف
عزلتها وانفصالها بين الأمم بالنسب والعقيدة والمصلحة والسيادة الموعودة
على أبناء آدم وحواء .

فهو يقلب الحقائق رأساً على عقب ليسوغ « العصية اليهودية » ويلقي
تبعاتها على « الجوييم » وما كان للجوييم هؤلاء من وجود في غير شعائر
اليهود ، ونصوص الترجوم والتلمود .

ومثل آخر من علمائهم ولكنه من طراز عجيب هو العالم الطبيب ماكس
نوردو الذي ترى من نظرة واحدة إلى معارف وجهه ولمحات عينيه ذلك الحبر
العبري القويم الذي لم تغير من قسماته ولا خصاله مئات السنين التي قضاه
أسلافه بين ربوع أوربة ، وقد شغف طول حياته بالهدم أشد من شغفه
بالبناء .

ومن أعاجيب نوردو أن كاد يقسم الأخلاق إلى إسرائيلية وغير إسرائيلية ،
وأنه كان شديد الغيرة للدعوة الصهيونية ، حريصاً على التبشير بها مع تطرفه
في الالحاد ، كأنه كان يستخرج من الحاده فخرأ صهيونياً ، فإن نهاية الالحاد
أن ينفي كل ما وراء المادة ، وفي ذلك شاهد على جودة الطبع اليهودي عنده
لأنه سبق إلى هذه النهاية ، إذ لم تنظر الديانة الموسوية فيما وراء المادة
مطمعاً للإنسان . وكان طول حياته يبشر بدين المنفعة ، ونسميه ديناً على
عمد لأنه في الحقيقة دين يذب عنه بكل ما يكون لدين هكذا من الغيرة
واصرار العقيدة . فهو يؤمن بدين المنفعة ولا يعرف للأشياء غاية تعدوها ،
ولا يثنى على خلق إلا إذا استطاع أن يبين نفعاً ظاهراً في هذه الأشياء
المحسوسة .

بل لو رجعنا إلى مواهب نوردو وعادات تفكيره لوجدنا أبرزها عادة ملكت نفسه وغلبت على هواه ايما غلب ، وهي فيما نرى مفتاحه الذي نستعين به على تقدير أحكامه ومعرفة اتجاهاته ، وهذه العادة هي « الاسرائيلية » التي يكاد لا ينساها في جميع آرائه ، ولا يعدو أن يكون مدافعاً عنها في كل مبحث من مباحثه ولو بعدت الشقة بينه وبين الاسرائيلية والاسرائيليين .

فإذا رجعت إلى الصفات التي يثنى عنها وينوه برجحانها ويتخذها مثلاً للفطرة السليمة وعنواناً على الصلاح في الحياة وجدتها هي صفات اليهود التي تفوقوا فيها على غيرهم أو اشتهروا بها بين الأمم ، وعلى نقيض ذلك نرى الصفات التي عرف اليهود بالتخلف فيها أو التجرد منها عرضة لتهكمه وتهجينه ، او معدودة عنده في المراتب المرجوحة التي لا تميز أمة على أخرى ، ولا تتفاضل بها معادن الرجال ، وكثيراً ما يحسبها من الصفات الكمالية أو الهمجية الصائرة إلى الضعف مع تقدم المدنية ، وتارة أخرى يتجاهلها في نقده أو يعتدها عرضاً من أعراض النكسة والاضمحلال ، وربما بدر ذلك منه عفواً في بعض الأحيان ، ولكني لا أظن إلا أنه قد كان يقصده أحياناً ويتحراه ويترقق في دفع شبهته عن قلمه ، وكأنما شك الرجل في اليهودية بفكره وبقي على اعتقادها بوجدانه ، فرجع عن قولهم إن اليهود شعب الله المختار ، ليقول إنهم هم شعب الطبيعة المختار .

وخلاصة ما اعتمده نوردو من الرأي في الفصل بين الأخلاق والآداب هو قسمتها إلى ذينك الشطرين فما كان منها من صفات قومه فهو الصالح المطلوب ، وما لم يكن من صفاتهم أو كان نصيبهم منه قليلاً أو ملتبساً فذلك هو النافلة الذي لا غناء به ولا معول في الحياة عليه ، وهو لم يكن يدفع عن قومه فحسب بإعلاء دين المنفعة ، بل كان يدفع عن نفسه كذلك ، فقد كان كما قدمنا يدين بدين المنفعة دون غيره .

فهو - من حيث أراد ومن حيث لم يرد - صهيوني غارق في الصهيونية ، متعصب لها أشد التعصب بمزاجه وأخلاقه ومولده (إذ هو ابن كاهن) وبأحوال عصره ، فلما ظهرت الحركة الصهيونية كان من أعوانها الكبار وأعوانها المعدودين ، فشن الغارة على الكنيسة الكاثوليكية ، واتهمها

بالتحريض على ذبح اليهود في فرنسا ، وظل إلى آخر أيامه غيوراً على نشر الدعوة الصهيونية لا يني كاتباً أو خاطباً في تأييدها وشد أزرها ، فلما صرح اللورد بلفور بتصريحه المعروف شخص هو إلى لندن لمفاوضة الحكومة الانجليزية في تفاصيل إنشاء الوطن اليهودي بفلسطين . وهناك قال قوله تروى عنه وهي ان الانجليز لا يساعدون اليهود حباً في سواد عيونهم ولكن طمعاً في الدفاع عن قناة السويس ، وأنه على هذه القاعدة من تبادل النفع يجب أن يبنى الاتفاق بين شعب إسرائيل والحكومة الانجليزية .

وهذه الكلمة مفتاح كل كتب نوردو ، وخلاصة جميع آرائه فيها ، لأنه لم يكن يؤمن بغاية للفرد والنوع غير النفع المادي المحسوس في هذه الدنيا وهو في هذا يجري على اساس أسلافه وعشيرته . ولما نشبت الحرب العالمية الأولى وطرد من فرنسا رحل إلى أمريكا لخدمة الدعوة الصهيونية بمقالاته وخطبه ومحاضراته .

وقد يستغرب من العلماء الماديين أن يلقوا بأنفسهم في غمار الحركات الدينية ويتشيعوا لها أشد التشيع كما كان يفعل نوردو ، ولكن هذا الذي يستغرب من سائر العلماء لا يجوز أن يستغرب من عالم إسرائيلي لما هو معلوم من أن اليهودية وطن للاسرائيليين وجامعة نفعية لا دين ولا نحلة فحسب ، ومن أجل هذا ولأسباب أخرى صار نضال الرجل منهم عن نحلته صورة أخرى من نضاله عن نفسه ومصلحته وكرامة شخصه ، ولهذا لا نرى غرابة ما في تصدي طائفة من العلماء كلهم ملحدون لقيادة الدعوة الصهيونية .

وينبغي ألا تنسى هنا الحملة الشعواء التي شنّها نوردو في كتابه «الاضمحلال» أو «الانحطاط» على النابهين من أدباء عصره وغيرهم ممن وقع في طريقه ، فقضى عليهم جميعاً بالمسخ والخداج وانتكاس الأذواق والعقول ، وأضرّم ناراً من النقد الجائر كثيران محكمة التفتيش فجعل يلقي فيها ما يلقي من كتبهم ودواوينهم باسم العلم في هذه المرة لا باسم الدين .

وقد أنحى فيه على طائفة كبيرة من أعلام المفكرين وفحول الشعراء والأدباء الذين اشتهر ذكرهم في عصره والعصر الذي قبله وقسم أدباءه أو قل

مرضاه - إلى طبقتين : طبقة عالية تخفي فيها أغراض المسخ بعض الخفاء
وأخرى واطئة لا تمتاز في شيء من سائر المعتقدات والأمساخ ، واستخرج
من معاني أشعارهم ومضامين سطورهم دلائله التي خالها أعراضاً شاهدة
عليهم جميعاً بالمسخ وفسولة الطبع ، فمنهم - فيما زعم - مجانيين الأنانية ،
ومنهم أسرى الشهوات والمصابون بالاضطرابات المخية والنخاعية ، ومنهم
البله والسوداويون ، والمعذبون بالصرع والوسواس ، والمتهوسون في
الدين أو العصبية ، والمتكشفون الموكلون بتعذيب أنفسهم وتنغيص
لذاتهم ، والناشزون على العرف والآداب ، وكثير من أمثال هذه الآراء التي
أرسلها في صفحاته بسخاء من ذلك القلم المنغمس في كتابة التفسيرات
وأوراق الأدوية ! .

وقد تلخص كل أعراضه في ظاهرتين اثنتين : هما العجز عن حصر الذهن
وسوء نقل الحواس والأعصاب عن مؤثرات البيئة أو عدم الاحساس بالأشياء
على حقيقتها .

ولتعليل إعجاب قراء العصر بأولئك الأدباء والمفكرين رمى نوردو
الطبقات القارئة كلها وبعضاً من الطبقات الأخرى بالضعف واختلال الحس
ثم مضى يعلل لهذه الأوهام ليدين عصره كله بالخلل والفساد .

وحملة أخرى شنّها نوردو في كتابه « الأكاذيب المقررة في المدنية
الحاضرة » ، ولكن حملته هنا على المجتمع لا على الأدباء ، وقد فضح كل
ما ظهر له من أكاذيب الحضارة الأوربية ، وسمى ما لم يرقه بالأكاذيب ،
ومما سماه أكذوبة الدين وأكذوبة الحكم المطلق وأكذوبة الزواج والأكذوبة
السياسية والأكذوبة الاقتصادية وما إلى ذلك ، وهو في نقده لما سماه
الأكاذيب متحمم متسرع ، وقد أملى له في تهجمه فوق ما قدمنا يقين الشباب
واقبال التفاؤل ولولا هذا اليقين وجراً في نوردو صحبته طول حياته لكان
الاولى به ان يسمى « الحقائق في سبيل التطبيق » بدلا من « الأكاذيب
المقررة » لأن كثيراً من الأكاذيب التي أوردّها إنما هي حقائق يخالطها الزغل
عند التجربة - كالديمقراطية مثلاً - وأين هي الحقائق الاجتماعية التي تتركها
التجربة على صفائها ؟ أليس من الحقائق الرياضية - وناهيك بدقتها - ما

يختلف بين الأوراق والأعمال ؟؟ .

وإذا كان هذا مبلغ العصبية الصهيونية عند العلماء المستقلين حتى الملحدين وانغماسهم في غمراتها الى هذا القرار فكيف بمن ليسوا علماء ولا مستقلين ولا سيما المتدينين ؟ وإذا كان هذا مبلغ الغلو في العصبية عند من ينبغي لهم سترها أو الاعتدال فيها وهم قادرون عليه ولا ضرورة تمنعهم دونه - فكيف بالمجاهدين المؤمنين الذين لا ينتظر منهم ستر ولا اعتدال ولا قدرة لهم عليه ولا مفر لهم منه .

ونختم حديثنا عن عبث الصهيوينيين بالمذاهب والحركات الفكرية - بالاشارة الى أن كثيراً من صنائعهم ، والبيخاوات من أدعياء الثقافة بيننا يتلقفون هذه الدعوات المعرضة في عالم الأدب والفن والفلسفة وغيرها ، ويبشرون بها باسم التقدم أو التحرر أو التجديد أو الاصلاح وما إلى ذلك من الأسماء كأنها هي دعوات هداية وبناء من قادة منزهين عن المرض والغرض . وإن الإمامة خفيفة بما ينشر في الصحف والمجلات والكتب بيننا للتبشير بتلك الدعوات والتتويه بشأن البارزين من الصهيوينيين وأعوانهم ، واللغة الفارغ بتاريخهم وأعمالهم سواء كانوا من العلماء والأدباء والزعماء أو من فتيات المسرح ودور الصور المتحركة وعارضات الأزياء - إن الإمامة خفيفة بذلك لتدل على أننا نعاني محنة في المروءة والأخلاق فضلاً عن محتنتنا في العقول والأذواق .

ونحن لا نلوم « العلماء المستقلين » خدام الحقيقة المطلقة لأنهم يتعصبون للملة اليهودية .

ولكننا نلوم من ينسى مروءته بيننا من أجل كلمات يتلقفها ويسميها علماً ينفصل بصاحبه عن بني قومه في معترك العصبيات والأخطار ، وإنهم لأحوج الأمم الى عون العارف والجاهل في عزلتهم أمام الصهيونية والاستعمار ودسائس الأعداء والطامعين من كل قبيل .

وندعو تلك الطائفة من أدباء العربية وعلمائها المستقلين للأذلاء لنقول لهم : من كان منكم أعلم من فرويد وأينشتين وغيرهما ممن ذكرنا فله أن يقيس أدبه وعلمه على غير قياس ، وأن يتصل به أو ينفصل عما يشاء من

الناس .

ومن كان منكم يحسب أن الصهيونية أحوج من قومه إلى الأعوان فليدخل بعونه على هؤلاء القوم « الأغنياء » .

أما الخذلان ولا غنى عن الغوث فإن أهون وصماته ليخزي من لا يخزيه شيء .

ونتقل إلى بيان شواهد من عصبية الصهيونيين في ميادين السياسة ، وهي أغلظ وأظهر ، وإن أعمالهم التي تدفعهم إليها حماقتهم لتوبقهم وتغني في القضاء عليهم لولا أن خصومهم يلقونهم أحياناً بمثل ما عندهم من الحماقة .

ومن أحدث الشواهد التي تدل على الارتباط الشديد بين مسائل العالم في العصر الحاضر حملتهم الخفية على إيدن رئيس الوزارة البريطانية في يناير هذا العام ، وهي حملة تهدد مركزه كما يقولون من جراء حوادث الشرق الأدنى .

ويتألب عليه في هذه الحملة فريق صغير من المحافظين وفريق كبير من العمال وتدير الحملة كلها من وراء الستار أيدي الصهيونية البريطانية تؤيدها الصهيونية العالمية من بعيد .

ولا عجب في انضمام فريق من المحافظين إلى الحملة إذا تذكرنا أن رئيس الحزب في الواقع هو الاستعماري الصهيوني العتيق ونستون تشرشل ، وهو يصرح بانتمائه إلى الصهيونية وإن كان لا يصرح بالسبب . فإنما السبب الحقيقي أنه ينتمي من جانب أمه إلى سلالة إسرائيل .

أما العمال فلا عجب أيضاً من دخولهم في الحملة أو قيادتهم لها جهاراً ، لأن خزانة الحزب تخوى من المال إن فقدت معونة المرشحين الصهيونيين بارزين ومستترين .

ورئيس الوزارة البريطانية لم يفعل شيئاً يجحف بإسرائيل ليستحق من الصهيونية هذه العداوة .

ولكن الدنيا تجهل إسرائيل وتجهل الصهيونية كلها إن لم تعلم أن القوم حمقى في الغاية القصوى من الحماسة ، ومن حماقتهم هذه الأناية المريضة التي تخيل إليهم أنهم وحدهم شعب الله ، وأن الله إليهم وحدهم بغير شريك ، وأن الساسة في العالم كله مطالبون بخدمتهم ومحاباتهم والتعصب لهم مائة في المائة ، وإلا فهم أعداء مغضوب عليهم بغير عذر ولا هوادة . ونحن والله نود لو ينجحون في حملتهم على رئيس الوزارة البريطانية ، لأن هذا النجاح سيكشف الحقيقة لأعين الناس ، ويخرجها من حيز المناورات البرلمانية وراء الستار ، ويؤمئذ ترجع الصهيونية إلى وكرها مسحوق الرأس والذنب ، ليستريح العالم من شرورها الجهنمية إلى أن يشاء الله .

إن القوم حمقى في الغاية من الحماسة . ولكنهم يسلمون من جرائم حماقتهم بحماسة مثلها في بعض الخصوم الذين ينهضون لمكافحتهم والقضاء عليهم فينفعونهم ويضمون إليهم الأعوان والأشياع .

عاداهم كما قدمنا جماعة الكوكلكش كلان في الولايات المتحدة وبلغ عددهم أربعة ملايين كعدة اليهود جميعاً في تلك الولايات ، ولكن حماسة هذه الجماعة سولت لها أن تعادى الصهيونية وتعادي معها الكنيسة الكاثوليكية وحركة التحرير التي ترمي إلى إنصاف السود والملونين ، فاجتمع عليها من الأعداء أكثر مما تطيق .

وعاداهم في إنجلترا جماعة « المستميتين » في المحافظة إذ كان لسان حالهم صحيفة المورننج بوست ، ثم عاداهم موزلي وأصحابه من أنصار الفاشية والنازية ، فانقطع الصهيونيون بعداوة هؤلاء لأنهم جمعوا معهم الأحرار والعمال والمحافظين المتوسطين .

ويعاديهم اليوم في فرنسا حزب « بوجاد » ولكنه لحماقته يحاربهم ويحارب الجمهورية ويؤيد أن يرجع بالاستعمار مائة سنة إلى الوراء ليحكم الشعوب الشرقية حكم السادة للعبيد .

حماسة خصومهم هي التي تنقذهم من حماقتهم ، ولكن الله سخر لهم

دويلة إسرائيل لتكشف عنهم كل مستور ، وثبتت للعالم أنهم - كما وصفهم القرآن الكريم - « قوم لا يعقلون » فلا يريحون ولا يستريحون ، ولن يزال العالم كله في خطر ما داموا يقبضون بأيدهم على زمام الديسة والغرور . فإذا انقطع هذا الزمام فهم شر على أنفسهم وذويهم ، والعالم منهم في أمان .

ولا شك عندنا في حقيقة الحملة التي ترامت أخبارها من البلاد الانجليزية ، فإن الأسباب الظاهرة واهية لا تستر ما وراءها ، وكلها تدور على غلاء المعيشة كأنه من المستحدثات في الأشهر الأخيرة ، وقد كان قبل شهر يونيو في العام الماضي (١٩٥٥) حين اجتمع برلمانهم الجديد - أشد مما هو اليوم .

والبركة في إسرائيل والعياذ بالله من هذه البركة .

إن إسرائيل هي القضاء المبرم على إسرائيل وعلى الصهيونية بعدها بأمد قصير .

١٦ - مصير الصهيونية العالمية والأسباب الدولية

تكلمنا في هذه الفصول عن الصهيونية العالمية ، وعن المرض النفساني الذي تطوي عليه ، وعن الطواير الخامسة التي تعمل بها في البلاد المختلفة ، وعن العوامل المجللة التي تستمد منها نفوذها ، وعن أساليبها في استغلال الحركات الاجتماعية والعلاقات الشخصية ، وعن اضطرارها - بحكم طبيعتها - إلى الغش والافساد في كل أسلوب تعول عليه .

وننظر بعد ذلك في هذا الفصل وما يليه إلى مصيرها الذي تنبئنا عنه الوقائع الحاضرة ، ونستطيع أن نقول في كلمة موجزة : إن الصهيونية العالمية قوة مولية ، وان عوامل الزوال التي تحرق بها أكبر من عوامل الثبات .

ولذلك أسباب متعددة ، نتاول منها في هذا الفصل جملة الأسباب الدولية كما تبدولنا الآن ، وكما تؤول إليه مع التطور الواقعي في المستقبل القريب .

إن الصهيونية هيئة عالمية ، ولا مهرب لها من التأثير بأطوار الشؤون العالمية في هذا الزمن خاصة ، لأ زمن تتداخل فيه شؤون الأمم في كثير من المصالح والعلاقات .

لقد كانت الصهيونية هي الهيئة العالمية الوحيدة التي تعمل طوايرها الخامسة دون التفات إليها في القرون الخالية .

كانت كل أمة تحس بالصهيونية في حدود بلادها ، وكان الاحساس بها مقصوراً على الشؤون الاقتصادية كلما ثقلت على الناس وطأة الديون ، ونشبت في أعناقهم مخالب المرابين والمستغلين . أما الاهتمام بالصهيونية

من الوجهة السياسية فلم يكن مما يشغل بال أحد . لأن السياسة « أولاً » لم تكن شغلا شاغلا لأذهان الجماهير ، ولأن الصهيونية « ثانياً » كانت حريصة على التستر والعمل في السياسة من وراء حجاب ، فكانت مساعيها العالمية مجهولة بين كل أمة ، وكانت كل أمة لا تحس بها في غير شؤونها التي تعنيها داخل حدودها ، وكانت هذه الشؤون مقصورة كما تقدم على أزمات الديون والربا المضاعف والاستغلال .

أما اليوم فالعلاقات الدولية ظاهرة في أهم الشؤون العامة ، وليس في وسع الصهيونية العالمية أن تعمل من وراء حجاب . فلا بد لها من العمل الظاهر ، ولا بد لها مع العمل الظاهر من التحدي المكشوف . . وتلك ولا ريب فاتحة الدمار . لأن الهيئة التي تتحدى العالم كله - منهزمة في النهاية بغير مرء .

ومما تغير في الأحوال العالمية أن السيطرة الاقتصادية كانت فيما مضى سراً من أسرار المكاتب ، وعملاً من أعمال السمسرة الخفية وراء الأسواق . وكان في وسع الصهيونية بالألاعيب المكتبية ، أو بحبائل السمسرة - أن تتلاعب بالأسواق والأسعار وهي آمنة وراء جدرانها .

أما اليوم فالسيطرة الاقتصادية مسألة متشعبة ترتبط بالأحوال الاجتماعية ، والحقوق الوطنية ، وأنظمة الزراعة والصناعة في جميع القارات ، وليس في طاقة هيئة عالمية - مختلصة - أن تقبض بأيديها على أزمة هذه الشؤون وأن تسخر لمشيئتها جميع العاملين في هذه الميادين .

وقد تفعل السمسرة فعلها في مبادلات العملة ومقادير الواردات والصادرات ، ولكن الألاعيب التي تقلد عليها السمسرة الخفية تقف اضطراباً إذا اصطدمت بسياسة تحسب حساب الثورات والقلاقل ، ولا تجازف بالاختار وتهديد عوامل الاستقرار ، ومهما يكن من نفوذ الصهيونية في دولة من الدول فهو نفوذ مصطنع ، يتمرد عليه الساسة حتماً كلما بلغ حد المخاطرة ، ودفع بهم إلى تجاهل الواقع في مشاكل الأطوار العالمية ، وتدخل فيها مصالح كثيرة في الشرق والغرب ، لا ينقاد زمامها للصهيونية العالمية ، ولا لهيئة من الهيئات على انفراد .

ومن أهم الأسباب التي زعزعت قوة الصهيونية في سياسة الأمم هذا التغيير الكبير الذي طرأ على مراكز الدول العظمى ، وهذه الضرورات العالمية التي أخرجت الولايات المتحدة من عزلتها ، وجعلتها طرفاً مهماً في كل نزاع بين المعسكرين المتناظرين .

كانت بريطانيا العظمى تقود أحد المعسكرين في كل حرب عالمية ، أو كل حرب عامة تشترك فيها دول كثيرة .

وكان دور الصهيونية العالمية عظيماً جداً في الحروب والأزمات الكبرى من أجل ذلك ، أي من أجل قيام بريطانيا العظمى على قيادة أحد المعسكرين ، في كل حرب عالمية .

ومن أيام حروب نابليون ، كانت بريطانيا العظمى تستعين بالصهيونية العالمية لتضييق الخناق على أعدائها ، وضرب الحصار الاقتصادي المحكم على المعسكر الآخر ومن يعاملونه في أسواق التجارة .

واستفادت الصهيونية كثيراً من اللغب بالنفوذ بين الدول ، ولم تكن متبرعة في الحقيقة بمساعدتها لبريطانيا العظمى ، لأن بريطانيا العظمى كانت مركز الصناعة والتجارة وميزان الأسواق .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى وتلتها الحرب العالمية الثانية ، فتعاضم شأن الصهيونية في السياسة الدولية ، وراحت تساو على الوساطة والدعاية وتملي الشروط ، وتغلو في المطالب ، واستخدمت نفوذها في الولايات المتحدة لتهديد الانجليز بالعزلة في ميادين القتال ، فإن لم يستجيبوا لها في كل ما تطلب أثارت عليهم الدعاية في الولايات المتحدة في أخرج الأوقات ، وحاولت جهدها - وهو جهد غير قليل - أن تبقى الدولة الامريكية بعيدة من الميدان ، وأن تحرم الانجليز من معونتها المالية والحربية ، أو تؤخرها الى ما بعد الأوان .

بهذا التهديد نجحت الصهيونية فحصلت على وعد بلفور بالوطن اليهودي في فلسطين ، وكل ما يقال عن تحليل الحصول عليه بقصة وايزمان ، واختراعه الكيماوي النافع في صناعة المتفجرات ، فهو من خرافات العجائز

ولحاديث الأطفال ، إذ ليس بالمعقول أن تتحمل بريطانيا أعباء الوطن اليهودي لتكافئ مخترعاً يعمل في مصانعها وجامعاتها ، ولا يستطيع أن يمنعها حق الانتفاع بذلك. الاختراع ! فما كان الاختراع إلا علالة قصد بها التثويه لاختفاء الأسباب الحقيقية لهذا الوعد .

إنما نجح الصهيونيون في انتزاع وعد بلفور لانهم جعلوه ثمناً للدعاية الأمريكية .

ثم أرادوا أن ينجحوا مثل هذا النجاح في الحرب العالمية الثانية فأخطأهم التوفيق ، لأن الصهيونية لا تستطيع أن تعزل بريطانيا في حرب مع هتلر والنازية ، وإن فعلت ذلك فإنما تدور الدائرة عليها .

إلا أن هزيمة هتلر قد أطلقت أيدي الصهيونيين في التهديد وإملاء الشروط على الدولة البريطانية ، فاستكانت لهم هذه الدولة استكانة لم تقبلها من أحد ، وطغى الأذلاء الذين صبروا على مظالم الطغاة مئات السنين ، فأنفوا أن يعاقب الانجليز مذبناً منهم تثبت عليه جريمة الفتك والعدوان ، وقبضوا على جند الحكومة ليقنصوا منهم بالجلد والقتل إذا نفذ العقاب في الصهيوني المحكوم عليه ، فأذعن الحاكمون إذعائاً مخجلاً لهذه الغطرسة من هؤلاء الأذلاء . ولولا خوف الدولة البريطانية من دعاية الصهيونية بين الأمريكيين لأتت على تل أبيب نفساً وهدماً في لمحة عين .

وتغير الموقف الآن كل التغيير من وجهة السياسة الدولية . فليس في مقدور الصهيونية أن تعزل بريطانيا العظمى لأن قيادة المعسكر الغربي انتقلت إلى الولايات المتحدة ، وليس في مقدورهم أن يعزلوا الولايات المتحدة ، لأن سياسة العزلة ذهبت في خبر كان . ولو حاول الصهيونيون محاولة من هذا القبيل في إبان حرب من الحروب لكانت هي القاضية عليهم في تلك البلاد .

وتم التغيير في الموقف الدولي بعد أن أصبحت للصهيونيين دويلة تسمى إسرائيل .

إن الصهيونيين كانوا يلعبون بالسياسة الدولية ويملكون وقت اللعب فلا

يخسرون أولاً يصبرون طويلاً على الخسارة .

كانوا يلعبون بالسياسة الدولية فأصبحوا في بعض المواقف على الأقل لعبة للسياسة الدولية ، وأصبحوا هدفاً ظاهراً لمن يهددهم بالانتقام ، فما عليه إلا أن يضرب إسرائيل فإذا بالصهيونية كلها مضروبة من وراء إسرائيل .

إن التغيير الذي طرأ على السياسة الدولية لا يجري مع المأرب الصهيونية في مجرى واحد ، وهذا التغيير في السياسة الدولية سبب من الأسباب التي تولي غداً بالصهيونية العالمية وتندرها بما تستحق من مصير .

١٧ - مصير الصهيونية العالمية ونفوذها المهدد

من الحكمة ألا يستصغر المرء قوة عدوه .

، ومثله في الحكمة ألا يستعظم قوة عدوه وألا يبالغ في استعظامها من باب أولى . لأنه إذا استعظمها ضيع في الحذر منها جهوداً يضره أن تضع ، وينتفع العدو بضياعها عليه .

والصهيونية العالمية قوة كبيرة ، تملك وسائلها التي تؤذي بها خصومها وتنفع أعوانها وأذئابها ، ولكننا نعدو بها طورها ونجاوز بها حدها إذا قلنا مع القائلين : إنها تخلق الثورات وتدبر الانقلابات وتثمل العروش وتهدم الممالك . فإنها لأهون شأناً من ذلك كما قدمنا في بعض الفصول الماضية ، وإنما شأنها أن تنتفع بالأسرار التي تعلمها وتغتسم الفرصة في حينها .

والحق أن الصهيونية العالمية أضعف مما ينبغي لمثلها ، وأنها كانت خليقة أن تفعل أضعاف ما فعلته لخدمة مآربها وإنجاح دسائسها ، بالقياس إلى قده عهدها وانتشار طوايرها الخامسة في أجزاء المعمورة ، مع غفلة الغافلين عنها وتواطؤ أعداء الاسلام على مساعدتها . ولكنها تفقد الشيء الكثير بحماقتها واندفاعها مع هوس العصبية الطائفية ، فإن الصهيونيين - ولا ننسى وصف القرآن الكريم لهم - قوم لا يعقلون .

ومن المعلوم ان التنظيم والاتفاق في الغرض يجعلان العشرة أقوى من المائة ويجعلان المائة أقوى من الآلاف .

والصهيونية العالمية قوة منظمة في الولايات المتحدة ، ويسمي الساخرون مدينة نيويورك من أجل ذلك بمدينة « جيويورك » Jew York . . أي :

« مدينة اليهود » لأنهم يزيدون فيها على المليون ويتعاونون قصداً وعلى غير قصد في ترويج مصالحهم والنكاية بأعدائهم . . ويتصلون بمثل الشبكة المحكمة بالملايين الثلاثة الأخرى الموزعين في أنحاء البلاد الأمريكية ، ولكنهم - على كثرة العدد واتفاق الغرض - لم يبلغ من نفوذهم أن يصنعوا ما صنعه جماعة منع المسكرات في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولم يكن أعضاء هذه الجماعة يزيدون على بضعة آلاف يؤيدهم أناس من رجال الدين . وكانوا يفرضون على الشعب قانوناً لا يريده ، ويحاربون مصالح المعامل التي تصنع الخمور والشركات التي تبيعها ، ويعرضون تعديلاً للدستور هو التعديل الذي اشتهر باسم التعديل الثاني عشر ، وتسنى لهم بفضل التنظيم والمثابرة على غرض واحد أن يعدلوا الدستور ، وأن يصدروا قانون تحريم المسكرات من مجلس الشيوخ ، ثم من مجلس النواب ، وأن يتغلبوا على الرئيس ويلسون الذي رفض القاتون بحق النقض ، فأعادوه إليه وعباؤا الرأي العام في وجهه ، فأمضاه مضطراً حسب نصوص الدستور .

هذه الجماعة « جماعة منع المسكرات » لا تذكر إلى جانب الصهيونية العالمية التي تستعين بكثرة العدد وقوة المال وتغلغل الأعوان والأذنان في كل مكان ، وقد كانت الصهيونية نفسها تقاوم هذا القانون في الولايات المتحدة فانهزمت مع المنهزمين أمام « جماعة منع المسكرات » .

ومما لا نشك فيه أن جماعة منظمة تكافح الصهيونية العالمية في الولايات المتحدة تستطيع أن تقهرها وتمحو أثرها ولو لم تبلغ مليوناً واحداً يحاربون خمسة ملايين . لأن الحقيقة المفهومة أن الصهيونية بغية جداً إلى جمهرة الأمريكيين ، وأنهم صبروا عليها طويلاً ، واستعدت نفوسهم للتمرد على سلطانها الخبيث ، لو وجدت الجماعة التي تتولى تنظيم المكافحة وتحصرها في غرض واحد لا تتشعب عليه المطالب والجهود .

ولقد وجدت الجماعة التي تكافح الصهيونية فعلاً أثناء الحرب العالمية الأولى - وهي الجماعة التي أطلقت على نفسها اسم « كوكلكس كلان KuKlux Klane » وعاشت بضع سنوات فوصل عدد الأعضاء فيها على تقدير الخبر الإحصائي ستانلي فروست Stanly Frost أربعة ملايين ونصف مليون .

إلا أن هذه الجماعة القوية وسعت حملتها وشتت الغارة على أعداء أربعة بدلا من عدو واحد . فجعلت في همها محاربة الزنوج ، ومحاربة التابعين للكنيسة الرومانية ، ومحاربة الاشتراكيين والشيوعيين ، ومحاربة اليهود ، وافتضحت لها أمور معيبة مكنت خصومها من إحباطها وتفريق شملها وتبع العورات التي تنسب إليها ، ولو أنها قصرت محاربتها على الصهيونية لقضت عليها عنوة في سنوات معدودات .

لقد كان حظ الصهيونية أن « الكوكلكس كلان » أخطأت هذا الخطأ ، وانفضحت تلك الفضيحة ، ولكن حماقة الصهيونية توازن حظها الحسن وتربى عليه ، ومن حماقتها أنها تهوس الآن في الدعاية لاسرائيل ، وترج بالدولة الأمريكية في مآزق لا تؤمن عقباها من ورطة بعد ورطة ، وإقحام بعد إقحام ، وأنها لتوغر الصدور عليها كرهاً بالصلف الذي لا يطاق ، ولا بد أن يغضب عليها من تستغضبهم ولا تبالي عاقبة غضبهم ، فينفضوا عن كواهلهم ذلك العبء الثقيل الذي يسخرهم كل هذا التسخير لصهيون اسرائيل .

ومن بؤادر الانقلاب على النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة أن الصهيونيين يخافونه ويدركون خطره ، وأن الخطر يذهلهم عن الصواب ويخرجهم عن السداد ، فيحشدون اليوم جماعات الارهاب للايقاع بالخصوم والمعارضين ، ويعملون بأيديهم على مقابلة الارهاب بمثله ، فلا تعود لهم جماعة « الكوكلكس كلان » هذه المرة بالحملة الموزعة عليهم ، وعلى الزنوج ، والاشتراكيين ، وأتباع الكنيسة الرومانية ، ولا تكسبهم الأنصار من هؤلاء الشركاء في النعمة والبغضاء ، بل تعود لهم ومعها أنصار متألبون ممن تجمع بينهم عداوة الساميين .

إن الأمم قد تصبر على التسخير الذي تجهله ولا تعرف اضراره ، ولكنها لا تصبر على التسخير المكشوف الذي يلج به التحدي والغرور ، فيركب رأسه غير حافل بما يثيره من السخط والنفور . وقد أوشكت الصهيونية أن تواجه الشعب الأمريكي بمثل هذا الصلف في قضية إسرائيل ، وفي قضايا السياسة الدولية ، وأوشك هذا الصلف أن يستدعي المقاومة المنظمة لمقابلة الارهاب بالارهاب ، وتعددت فضائح الصهيونيين في مسائل الجاسوسية

وأسرار القذائف الذرية ، فلن يطول الأمد على مثل هذه الحالة حتى تتكشف
العداوة الصراح ، ولن يفعل الصهيونيون يومئذ إلا ما يضرهم النار ويفسد
الجوار .

وفي الولايات المتحدة اليوم أكثر من مائة ألف عربي ومسلم ، ومنهم في
نيويورك نحو خمسة آلاف مسلم . بين بولونيين وشراكسة وهنود ويمانيين
ومصريين ، ومنهم في دترويت Detroit نحو عشرين ألفاً بين لبنانيين
وسوريين وألبانيين ، وكل من في الولايات المتحدة من المسلمين أو العرب
المسيحيين ذوو همّة ودأب وغيره على القضية العربية ، ولا يطلب من مائة
ألف أن يقاوموا خمسة ملايين متأصلين في البلاد ، متشعبين في ميادين
الأعمال ، ولكنهم عدد لا يهمل في حساب الفريقين ، والاستماع لهم أيسر
من الاستماع لأناس يفرضون لهم سيادة على البلد ، ويسومون الدولة كل
يوم أن تزج بنفسها - لحسابهم - في مأزق بعد مأزق على غير جدوى وإلى
غير نهاية . وهكذا يفعل الصهيونيون في الولايات المتحدة ، ويعلم الايقاظ
من أبناء البلاد أنهم يفعلون .

قلت في فصل مضى إن الصهيونية العالمية قوة مولية في ميادين السياسة
الدولية ، ولم نسمع من صهيوني متفائل مبالغ في خداع نفسه أنه يطمئن إلى
مصير النفوذ الصهيوني بين الأمريكيين ، فقد برح الخفاء ، وتكشفت
الدسائس ، وعرف العامة ما لم يكن يعرفه إلا الخواص والأخصاء
المقربون ، فإذا جرى الصهيونيون على عاداتهم من صلف الذليل ، ورعونة
المغرور ، فتذرعوا ذرائع الارهاب لاستبقاء النفوذ المهدد بالزوال - فتلك
علامة أخرى من علامات الادبار ، وما من إقبال يرجى لمدرع بالليل إذا طلع
النهار .

١٨ - مصير الصهيونية العالمية

وبنيها المتناقضة

من علامات الفناء في الصهيونية أنها بنية متناقضة ، يصلحها من ناحية ما يفسدها من ناحية أخرى ، ولا مفر لها من النقيضين ، وليس من اليسير عليها أن تجمع بينهما ، ولا أن تطمئن معهما إلى طول البقاء .

وأكبر جراثيم الفناء في هذه البنية أن الخلاف شديد بين الصهيونيين على عقيدة الصهيونية .

فما هذه العقيدة في أساسها ؟

إنها في أساسها عقيدة دينية تقوم على الأمل في ظهور ملك من بيت داد ، يبني عرشه بمعجزاته وكراماته في بيت المقدس ، وينشئ فيها مملكة أورشليم التي بها اختص إله إسرائيل شعبه دون سائر الشعوب ، وليست هذه المملكة من عمل الشعب اليهودي ، ولا من عمل أحد من الناس ، ولكنها العمل الذي يتولاه رب إسرائيل بعد تكفير الشعب عن خطاياهم : بالتشريد ، واحتمال العذاب والاضطهاد .

هذا هو أصل العقيدة الدينية التي آمن بها الصهيونيون إلى القرن السابع عشر . ثم تحررت العقول وظهرت بين اليهود حركات عقلية في القرن الثامن عشر ترتاب في هذه العقيدة ، وتعددت المذاهب التي تناقضها بين جماعة الهاسكالا Haskala ، وجماعة الأحرار ، وجماعة العصريين المحدثين ، وغيرهم من الجماعات ، وتخلصت هذه الحركات أخيراً في دعوة إسحاق ماير وايز Issac Mayer Wise الذي عقد مؤتمر فلاديفيا سنة ١٨٦٩ ، وأعلن بالقول الصريح ان رسالة اليهودية لا ترمي إلى تجديد ملك

إسرائيل على يد ملك من ذرية داود ، وأنها لا تعني أن يعود اليهود إلى انفصال جديد بينهم وبين أمم العالم ، ولكنها ترمي إلى قيادة الأمم الانسانية في طريق الخلاص على سنة الاخاء ، وتكوين عالم جديد يضم جميع الشعوب بهداية روح إسرائيل ، وهو العالم الذي يشتمل يومئذ على مملكة اورشليم الموعودة التي تبقى إلى آخر الزمان .

وظهرت مع هذه الحركة المجددة حركة أخرى تخالفها في أسلوب التجديد وهي الحركة التي تأثرت بالهيئات القومية في القارة الأوروبية ، فقام زعمائها بقلدون دعاة الوطنية وينادون بقومية صهيونية ، تعمل لإنشاء وطن قومي يؤسس اليهود بمجهوداتهم العالمية ولا ينتظرون الملك السماوي الموعود من بيت داود ، لتأسيس الوطن المنشود بمعجزات السماء .

ونشطت هذه الحركة بزعامة هيس Hess الألماني وسمولنسكن Smolenskin اللتواني ، وكان هيس من دعاة الاشتراكية : يزعم أنه يريد وطناً يهودياً في فلسطين ، ليجعله نموذجاً للمجتمع الاشتراكي الذي تقتدي به مجتمعات العالم ، وتلك في رأيه هي رسالة إسرائيل .

هذان مذهبان منشقان في الحقيقة عن العقيدة الصهيونية الدينية ، أحدهما يلغي الفواصل بين اليهود وبين أمم العالم خلافاً لعقيدة الشعب المختار ، والآخر يجعل الصهيونية وطناً قائماً بغير العرش الموعود في بيت داود .

فلما صدر وعد بلفور تغلبت الفكرة القومية على الفكرة الدينية وعلى الفكرة العالمية ، برز الدعاة القوميون في الميدان وأسكتوا من عداهم من أصحاب المذاهب بين اليهود ، وانتصروا على المعارضين ولا يزالون منتصرين عليهم بقوة النجاح الموقوت .

ولكنه نجاح لا يدوم .

بل هو في الواقع نجاح مشؤوم .

فاليهود الذين أوشكوا أن يحطموا الحواجز بينهم وبين أمم العالم قد عادوا بفعل ذلك النجاح المشؤوم إلى عزلة جديدة تنقلب مع الزمن شراً عليهم من عزلتهم الأولى .

وهؤلاء الذين نجحوا اليوم بإنشاء دويلة إسرائيل قد أثاروا في نفوس أبناء دينهم عصبية لا طاقة لهم باشباعها ، ولا طاقة لهم بالاستغناء عنها ، ولا مناص لها من الاصطدام بالواقع في زمن غير قريب .

هل في وسع إسرائيل أن تصبح وطناً لجميع اليهود المتفرقين في أنحاء العالم ؟

هل في وسع اليهود أن يعيشوا في أنحاء العالم بعصبية قومية سافرة بين الأوطان التي يدينون لها بالولاء ؟

إذا كانت العزلة قد جرت عليهم عداوة الأمم في الماضي فهي لا تنجيهم من تلك العداوة بعد شيوع أمرها ، وانتباه الناس لمؤامرتها ودسائسها .

وإذا كان نجاح الصهيونيين في إنشاء الوطن القومي بفلسطين - قد نصرهم على معارضيهم من أبناء دينهم ، فلا غنى لهم عن دوام هذا النجاح لدوام هذا الانتصار..

ومن نقائص الدويلة الصهيونية أنها لا تنجح مع اضطهاد اليهود في العالم ولا تنجح إذا انتهى ذلك الاضطهاد وسلم اليهود من بلواه .

فالوطن الفلسطيني لا يتسع للهاربين من الاضطهاد جميعاً ، ولا يستطيع أن يغلق الأبواب في وجوههم كما تغلقها الأوطان الغربية ، وإلا سقطت كل دعواه .

أما إذا زال الاضطهاد فقد زالت الدعوى من جذورها ، وخمدت النار التي يلهبون بها الغيرة في صدور أبناء دينهم ، ويثيرون بها العطف عليهم في صدور الغرباء .

إن هذه الحركة القومية لا بد أن تعيش لكي تتغلب في المستقبل على العقيدة الدينية ، وعلى مذاهب الاصلاح العالمية ، كما تغلبت عليها في هذه السنوات .

وقد تعيش سنوات معدودات من المعونة الخارجية التي يجود بها الاستعمار ، أو يجود أبناء دينهم مؤمنين مقتنعين ، أو متورطين خاضعين.

للتهديد .

ولكنها لن تعيش على المعونة الخارجية مدى السنين ، ولن تعيش طويلاً إلا إذا قامت على قدميها واستقلت بمواردها ، وهذه هي النقيضة الكبرى التي تصير بها من نقيض إلى نقيض .

لن تعيش إسرائيل الا بصناعة ، ولن تعيش صناعتها إلا بخامات وأسواق ، والبضاعة الناشئة تحتاج إلى القصد الكبير في النفقات والتكاليف ، ولا سبيل إلى القصد الكبير في نفقاتها وتكاليفها مع الأجور العالية التي تفرضها أحزاب الصناع ، ولا تبالي أن تزيد بها على أجور المهندسين والأطباء وغيرهم من الفنيين الممتازين .

وتحتاج الصناعة الناشئة إلى الخامات الرخيصة وإلى الأسواق التي لا مزاحمة فيها .

فإذا لجأت إسرائيل إلى شراء الخامات من بلاد بعيدة زادت خسارتها على أرباحها ، وإذا أرسلت مصنوعات إلى الأسواق البعيدة لم تجد من يشتريها بأثمانها العالية ، مع اشتداد المزاحمة في تلك الأسواق .

لهذا تنهافت إسرائيل على مصالحه الأمم العربية ، وفك الحصار الذي تضربه تلك الأمم عليها ، ولا يكفيها أن ترغب الأمم العربية على مصالحتها وفتح أسواقها لمصنوعات ، بل يلزمها أشد اللزوم أن ترغب العرب جميعاً على البقاء - مدى السنين - بغير صناعة تنافس الصناعة الصهيونية ، وتساثر بالخامات لمعاملها وأبنائها ، وهذه هي النقيضة التي تضاف إلى غيرها من النقائص ولا تختتمها على كثرتها .

ان نجاح اسرائيل نكبة على الصهيونية لانه نجاح مشؤوم ونجاح لا يدوم .

كان اليهود يشفقون من عزلتهم بين أمم العالم ، ويفكرون في تحطيم حواجزها ، وتقريب الفوارق بينهم وبين الأمم الانسانية على سنة الاخاء والروابط الوطنية في كل أمة ينتمون إليها .

فلما نجحت إسرائيل ، وأقامت لها وطناً قومياً في فلسطين - لم يكن

لتجالحها غير معنى واحد لا تسلم من جريرته ، وذلك هو العزلة الدائمة ،
والعصبية التي تخضع العالم كله لدساتسها ومؤامراتها أبداً ، أو تخضع
للعالم كله في النهاية خضوع المقهور .

وإن الصهيونية لتسير مع الزمن إذا كان الزمن يؤديها في الانفصال الدائم
من أمم العالم ، والسيادة الدائمة عليها ، والغفلة الدائمة في هذا العالم
الذي تسوده وتحداه .

فاذا ابي عليها الزمن ذلك - وسيأباه لا محالة - فنصيبها من أمسها الذي تفر
منه أهون من نصيبها عند الغد المجهول ، بل الغد المعلوم .

١٩ - الصهيونية العالمية

مصيرهم في أعينهم

من المفيد - ونحن ننظر إلى مصير الصهيونية العالمية - أن نلم بأمثلة من نظرات الصهونيين وأعوانهم إلى ذلك المصير .

ومن الأمور ذات المغزى أن البحث في هذا المصير متعاقب متواتر بعد الحرب العالمية الثانية ، فهم من صهونيين وأعوان للصهونيين متفقون على أن الوطن اليهودي في فلسطين لا يحل مشكلة الصهيونية ، وليس هو على اليقين بالحل الأخير .

وهؤلاء الصهونيون عصابة عاملة لا يعوزها النشاط في نشر الدعوة ، واستدراج الأعوان والأنصار إلى المشاركة فيها ، وهم على كثرة نشراتهم منذ الحرب العالمية لم يغيروا شيئاً في جملة الآراء التي يرونها في مصيرهم : يبدئون فيها ثم يعيدون ، كرة بعد كرة ، منذ الحرب العالمية الثانية ، إلى إعلان قيام الدولة الاسرائيلية ، إلى هذه الأيام التي يعلقون فيها أكبر الآمال على مصيرهم مع جيران فلسطين .

فتارة يؤلفون فيه الكتب ، وتارة ينشرون فيه الكراسات والفصول ، وتارة يستكتبون فيه المقالات من اليهود وغير اليهود ، ليوسعوا العناية به جهدهم ، ويجتذبوا إليه القراء الذين لا يقبلون على دعاية ينفرد بها دعاة صهون .

إحدى هذه المجاميع اشتملت على ستة عشر رأياً بعنوان « مستقبل اليهود » واشترك فيها طائفة من المؤرخين والصحفيين وأساتذة الجامعات وأعضاء المجالس النيابية ، بعضهم من اليهود وبعضهم من المسيحيين ، ومنهم الألمان والانجليز والروسون والبلجيكيون .

ولا يخفى أن أصحاب هذه الآراء من غير اليهود - قد استجابوا للرجاء والالاحاح ، أو استجابوا لداعي المنفعة والهوى ممن يعينهم جمع الآراء في هذا الموضوع .

وهذه أمثلة من نظرات الصهيونيين إلى مصيرهم نبدأ بها في هذا الفصل ، ونتبعها بفصل آخر عن آراء الأعوان والمجاملين من غير الصهيونيين .

أحد المساهمين في هذه المجموعة أستاذ روسي يسمى شتينبرج Steinberg عمل في تدريس الفلسفة بجامعة ليننجراد ، واشترك في تأليف الموسوعة اليهودية الكبرى التي تصدر في باريس ، ورأيه أن العداوة السامية لم تختف من روسيا بعد اختفاء القيصرية ، وأن الجيل الجديد من الناشئة الشيوعية يضم الكراهية لليهود كما كان يضمها أبائهم المتدينون ، وأن الكاتب الروسي مكسيم جوركي قد يئس من إزالة هذه العداوة بتدبير الحكومة وسلطان الشريعة ، وأشار باصطناع الصبر في علاجها حتى تزول بالتربية والايحاء في برامج التعليم ، فإن السلاح القديم قد تلم ولكنه لم ينكسر ، ولا يزال حاضراً في أيدي حامليه ، والقول الفصل عند شتينبرج في مصير اليهود : « إن الشعب اليهودي في أصل تكوينه هيئة عالمية أو دولية ، وأن ستالين قد أصاب حين استبعد حل المشكلة اليهودية في وطن واحد ، ولا غنى لها عن عدة أوطان » .

ومن كتاب هذه المجموعة ريجنالد سورنسن Sorensen عضو مجلس النواب الانجليزي عن دائرة ليتون الغربية ، ورأيه أنه « من الصواب أن تخصص أقاليم منعزلة في القارة الأوروبية لاقامة اليهود فيها ، وأن هذه التجربة لم تفلح في روسيا ، وقد تخفق في غيرها . ولكنها جديرة بالتكرار حتى تنتظم شؤون الوصاية على الأقليات ، على نحو يضمن السلامة للأقليات اليهودية » .

ومن كتاب هذه المجموعة هايمان ليفي Hymen Levy أستاذ الرياضيات بجامعة لندن وغيرها من الجامعات البريطانية ، ورأيه أن فلسطين برمتها لا تعدو أن تكون أقلية صغيرة في قلب العالم العربي الكبير ، وأنه من الخطأ أن يتوهم أحد أن الوطن اليهودي في فلسطين - وهو لا يضم إلا القليل من

الشعب اليهودي كله - يحل المشكلة ويختتم البحث فيها ، ويستطرد فيقول : « ما من أحد - إلا أن يكون أعمى البصيرة - يخفى عليه أن الدور المقبل من أدوار التاريخ الانساني منتقل بالنظام الاقتصادي في الدنيا بأسرها إلى الاشتراكية الأممية ، وفي مثل هذا النظام تمحى القضية اليهودية كما يمحى الكابوس الثقيل . . وليس العقل السليم وحده بالذي يوحى إلى اليهود أن ينخرطوا في حركة التقدم الانساني الشامل ، بل يوحى إليهم طلب السلامة والحرص على البقاء » .

ويبحث غير واحد من كتاب المجموعة في حل المشكلة برجة اليهود المهاجرين من ألمانيا إلى أوطانهم الأولى بعد انهزام النازية ، ومن هؤلاء الباحثين « أوتوليهمان روسفلدت Otto Lehman Russfeldt المولود في ألمانيا والعضو في الجماعة التي تألفت فيها باسم « عصبة الحريات المدنية » . . وفحوى كلامه أن الرجعة إلى الوطن الألماني مستحبة بعد اتخاذ الحيلة لحماية اليهود من خطر الاضطهاد ، وتخويف الأمة الألمانية بالقصاص إذا تكرر ذلك الخطر على أيدي الحكومات التي تخلف حكومة النازيين قال : « إنني - وأنا ألماني ووطني عالمي - أنظر إلى الأثر الأدبي الذي نجم من عمل اليهود في الاسكندرية أيام الدولة الرومانية ، والأثر الأدبي الذي نجم بعد ذلك من عملهم في أسبانيا وهولندا ، وعلى مثال أوضح من ذلك في ألمانيا نفسها ، فيطيب لي أن أهنيء العائدين وغيرهم من اليهود المنتمين إلى الوطن العالمي من هذا الطراز إذا وجدوا سبلهم إلى الديار الألمانية » .

والمصير كله معلق على مركز اليهودي بين الأمم في رأي الدكتور ليفي زلمانوفتز Levy Zelmanovitz ، أكبر زعماء الصهيونيين في بلاد التشك ، وسكرتير الحزب اليهودي في بلده ، ثم رئيس المجلس اليهودي في العاصمة الانكليزية منذ نشوب الحرب العالمية الثانية . فهذا الزعيم الصهيوني يقترح لحل مشكلة اليهود في أوروبا ان يتساوى اليهودي وغيره في جميع الحقوق السياسية ، وان تعتبر الطائفة اليهودية حيث كانت « اقلية » قومية تحميها منظمة الأمم المتحدة ، ويحق لها بطبيعة الحال أن ترجع الى تلك المنظمة لتحكم بينها وبين « الأكثرية » في وطنها كلما شجر بينهما خلاف على تطبيق

الحقوق .

ومتى تقرر لليهودي حق مساو لكل حق مفروض لغيره من أبناء الوطن الواحد ، وتقرر للطائفة اليهودية حق في تكوين الاقليات تحميه الدول الكبرى ، فقد هانت مشكلة اليهود في العالم ، وأصبحت قابلة للرقابة والاشراف .

وخلاصة هذا الحل أن شعوب العالم مطالبة بإلغاء كل فارق بينها وبين اليهود ، ولكن اليهودي غير مطالب بإلغاء الفارق الذي يقيمه بينه وبين شعوب العالم ، وغير مطالب بالتزول عن عقيدة الشعب المختار الذي ميزه بها « يهوه » على شعوب العالمين أجمعين ، وأن دول العالم الكبرى التي تدير منظمات الأمم المتحدة مطالبة بالتدخل في شؤون الأوطان الداخلية لتمكين اليهود من الاحتفاظ بعزلتهم وامتيازهم في نظر أنفسهم ، وتحقيق الشكايات التي تدعيها « الأقليات » اليهودية ، وتنتظر الانصاف فيها من الدول الكبرى ، ووراء هذه الدول نفوذ الصهيونية العالمية كما هو معلوم .

ولم يكتف المؤلف الذي جمع هذه الآراء طبيعة المشكلة المعروضة على ذوي الآراء لحلها والنظر إلى مصيرها ، بل قال في المقدمة : « إن مسألة مصير اليهود عولجت في هذه الصفحات على القاعدة التي توجب إشراك اليهود إشراكاً تاماً في أوطان الشعوب المتحضرة وحلفاء الأمم المتحدة ، وهي لا تنحصر في عرض قضية الوطن القومي ، بل تجاوزه إلى احتمال إنشاء أوطان قومية أخرى غير فلسطين .

ثم قال في ختام المقدمة : « وسواء تعلق الأمل بأرض الموعد فلسطين أو بهيئة عالمية تتمثل فيها حقوق اليهود ويتقرر بها مركزهم فمستقبل اليهود بعيد من أن ينظر إليه كأنه مصير مبشر مأمول » .

والخلاصة في كلمتين أن هؤلاء القوم الذين وصفهم القرآن بأنهم لا يعقلون - لم يصنعوا بالوطن القومي في فلسطين إلا أنهم جروا بأيديهم عداوة حامية كانوا مستريحين منها ، وخلقوا للدول الكبرى مشكلة كانت في غنى عنها ، وعادوا مرة أخرى يبحثون عن أوطان ، ويحارون فيما ينتظرهم من مصير » .

٢٠ - مصير الصهيونية العالمية

في أعين أصدقائهم

لخصنا في الفصل الماضي أمثلة من نظرات الصهيوينيين إلى مصيرهم كما بدا لهم منذ الحرب العالمية الثانية ، ومؤداها جميعاً أن مشكلة اليهود في العالم لا تحل باقامة الوطن القومي في فلسطين ، وأنهم ينظرون إلى أوطان أخرى في القارة الأوربية ، وإلى حلول أخرى لمشكلة اليهود الفردية في كل بلد من بلدان الحضارة .

ونلخص في هذا الحديث أمثلة من نظرات الأصدقاء المجاملين ، وهم رجال ونساء مشتغلون بالمسائل العامة ، سألهم الصهيوينيون أن يصرحوا بأرائهم في مسألتهم ، فصرحوا بها على مناهج شتى : من مجاملة النفاق ، أو مجاملة التحفظ والاعتدال .

فمنهم من كان كالمعزّي الذي أراد أن يسبق أهل الميت في العويل والصياح ، فكان في آماله لأصدقائه صهيوينياً أكثر من الصهيوينيين . ومنهم من تذكر أمانة الفكر وتبعة النصيحة العامة ، فقال ما لا يغضب الحقيقة .

ومنهم من لجأ إلى روغان كروغان الساسة ، فجاء بكلام لا يربط قائله ، ولا يمنعه أن يفسره بما يشاء .

فمن المجاملين الذين سبقوا أهل الميت في العويل والصياح كاميل هويسمان Camille Huysmans الفلمنكي ، الذي كان أستاذاً بجامعة بروكسل ، ووزيراً للعلوم والفنون ، ورئيساً لمجلس النواب ، فهذا المجامل الذي جاوز حدود دوره على المسرح حماسة وغيرة - يقول : إن

حل قضية العرب لا يتوقف على العرب ، بل يتوقف على البريطان والأمريكيين ، وعلى اليهود . ويخيل إليه أنه يقسم الأرزاق للشعوب باسم هؤلاء الذين يتوقف عليهم مصير العرب ، فيقول : إن العرب على كل حال لا يحق لهم الشكوى من نصيبهم في الدنيا . . لأنه على وفاق هذا الرأي نصيب قد ارتضاه لهم البريطان والأمريكيون واليهود ويمضي فيقول : إن الصهيونية تستند إلى الضرورة ، وإلى السلطان النافذ ، وإلى المنطق ، ويؤيدها نصير أوربي من غير أهلها أراد أن ينفذ إلى لبابها ، وقد نظرت إلى الصهيونية بعين وطني فلمنكي يعيش في بلاد البلجيك وربما استطعت من اجل هذا أن أفهمها بهذه السهولة ، وقد اضطر البلجيكيون أيضاً إلى النضال لخلق دولتهم وتقرير مركزها ، وثابروا على النضال عدة قرون إلى سنة ١٨٣٠ ، ثم ثابر الفلمنكيون - وهم على الأقل نصف السكان - على نضالهم للاعتراف بحقوقهم الثقافية ، فبلغوا به الغاية الموفقة من تجاوز العنصرين واللغتين .

وعند هذا المؤرخ العلامة أن قضية العرب واليهود في فلسطين تشبه قضية البلجيكيين والفلمنكيين ، وأن إقامة دولة يهودية في محيط الكمنولث البريطاني ضمان لسلم الصهيونية ، وسلم القارة الأوربية ، وحاجز أمان الى جوار قناة السويس .

ومن المجاملين المعتدلين كاتب من محبي السلام ، منحتة لجنة نوبل جائزتها سنة ١٩٣٣ ، وهو نورمان أنجل Angell صاحب كتاب « الوهم الأعظم » المشهور بالدعوة إلى الاخاء ، واحترام الحياة الروحية التي أوشكت أن تفقد احترامها في العصر الحديث .

فهذا الكاتب يترك مسألة الوطن القومي في فلسطين جانبا ، ويوجه التفاته كله إلى مسألة الهجرة ، وتيسيرها للمضطهدين من اليهود ومن الشعوب الأخرى التي تضيق بها أوطانها بين الكثرة المتغلبة عليها ، ويشير الكاتب إلى المستعمرات البريطانية التي تتقبل الوافدين إليها من الخارج ، ولكنها تقيد الهجرة بقيود ثقيلة تكاد أن تمنعها ، فيقول : إن المستعمرات حكومات مستقلة بشؤونها الداخلية ، ولكننا في انجلترا نستطيع أن نتقدمها بالقُدوة

الصالحة ، فتعدل عن بعض تلك القيود ، ولا تقدم على العدول إذا استفادت من جهود المهاجرين إليها .

وتوماس مان كاتب آخر من حملة جائزة نوبل ، ومن المتصدرين بين جماعات الدعوة إلى السلام والاجتماع على التسليم ، وأصله من سلالة يهودية ألمانية ، ولكنه يتجنب الاندفاع في التعصب لقومه ، ويحاول أن يصنع عليهم صبغة العطف على الضعفاء المضطهدين من كل ملة . ومقالته في هذه المجموعة تخلو من ذكر الوطن القومي في فلسطين ، وتدور بالأمل كله في مدار الهجرة الميسرة ، والتسوية بين اليهودي وغيره في حقوق الوطن والوظائف السياسية ، وإذا تعرض لبقاء الصهيونية قال إنها ستبقى في المستقبل لا كما بقيت في الماضي ، وإن مصائب التشريد والاضطهاد لا تدوم على حالة واحدة ثم يختم كلامه عن الهجرة بملاحظة عملية يحث بها الأمم الديمقراطية على تقدير الظروف الاستثنائية في تطبيق قوانين الهجرة ، لأن هذه القوانين لا تقدر في الوقت الحاضر أحوال الاضطهاد التي تسوق المئات والألوف إلى مغادرة أوطانهم في آونة واحدة . ثم يقول : عسى أن يفيض المعنيون بمصير اليهود بموجات من العطف والغضب والثبات على المعونة تبلغ إلى السفاحين الذين يزهقون الحقوق والفضائل الانسانية فيخففهم ، ويكون لها فوق ذلك أثرها الفعال في حث القادرين على المساعدة وتخفيف الآلام .

ومن الذين كتبوا بلغة السياسة في هذه المسألة سيدة انجليزية اشتهرت في حركة المطالبة بحق المرأة في الانتخاب والنيابة ، وهي السيدة كوربت أشبي Corbett Ashby التي نابت عن بريطانيا العظمى بين سنتي ١٩٣١ و ١٩٣٥ في مؤتمر نزع السلاح ، وقد أبدت الدعوة الصهيونية كل التأييد كأنها ملاذ « احتياطي » لمن يضطرون إلى الهجرة من أوطانهم ، وأتبع ذلك بالتحفظ السياسي الذي تؤكد فيه ضرورة إنصاف العرب إذا أريد منهم أن يتقبلوا الوطن الصهيوني طواعية بحسن نية وبغير إكراه أو مخادعة ، وأن ينال العربي جميع الحقوق التي ينالها اليهودي في الدولة الصهيونية .

ويشبه السيدة أشبي في لهجتها السياسية إدوارد هلتون Hulton مؤسس

البكشربوست Picture Post وغيرها من الصحف العصرية ، وهو لا يدين بمذهب حزب من الأحزاب ولا يتقيد بخطة معينة في السياسة البريطانية ، وقد ذكر في مقدمة كلامه أن المسلمين تسامحوا في معاملة اليهود خلال القرون الوسطى ، وأن اليهود يتعرضون للنفور والجفاء لعزلتهم الدينية والقومية ، وأن عداوة الساميين موجودة اليوم في البلاد الانجليزية ، وتزداد بعد الحرب العالمية ، ولكنها قد تهدأ بعد هزيمة النازيين ، وتبطل الفائدة منها كلما استغنى الحكام المستبدون عن هدف يحولون إليه حماسة الجماهير ، ويشيرون به شعور البغضاء الذي يعتمدون عليه في التقرب إلى رعاياهم المخدوعين ثم انتهى قائلاً : وبعد كل هذا ينبغي أن نعلم أن العرب موجودون في فلسطين ، وأنها واقعة لا تبطل بالجدل والمناقشة ، ومن المشكوك فيه أن يتحقق انصاف قوم باغتصاب آخرين ولا سيما القوم الذين هم طرف ثالث في المشكلة ، ولا ذنب لهم فيما وقع على اليهود من إجحاف .

هذه أمثلة من نظرات الأصدقاء المجاملين الى مصير الصهيونية ، تكاد في جملتها أن تنتهي بنا إلى نتيجة واضحة لا تختلف باختلاف الباحثين ما داموا من الباحثين المسؤولين الذين يدركون تبعاتهم ، ويحاسبون أنفسهم على آرائهم . فما لم يكن الكاتب مأجوراً رخيص الضمير فهو شديد التحفظ في مؤازرة الصهيونية ، ومجاراتها على شهوات العصبية التي تزين لها الهيام الأحق باغتصاب فلسطين ، واعتبار المقام فيها باسم الوطن القومي - حلاً لمشكلة اليهود ، يحسم المشكلة ، ويريح الأسم والحكومات من هوس الصهيونيين وأخطارهم التي يجرونها على أنفسهم وعلى سائر الشعوب .

وإذا كانت الدويلة الصهيونية تأتي بنكبات جديدة ، ولا تدفع نكبة واحدة - فالمشكلة باقية ما بقيت الصهيونية العالمية ، وسلامة العالم أن تقلع الصهيونية العالمية عن هوسها ، وأن يقلع المؤيدون لها عن تشجيع ذلك الهوس الويل ، فإنه لا دوام له مع انقطاع التشجيع والتأييد ، وانكشاف السر « العالمي » في عصر لا تحتجب فيه هذه الأسرار .

٢١ - مصير الصهيونية العالمية

ومقاطعة العرب

إذا كان هناك شيء يتفق عليه العرب والصهيونيون ، ويتفق عليه من يكتبون لمصلحة القضية العربية ومن يكتبون لمصلحة الصهيونية - فذلك هو الحقيقة التي تبدو لأول نظرة ثم تبدو مؤكدة مرعدة بعد مائة نظرة: أن إسرائيل لا تحتل البقاء مع مقاطعة العرب لها ، فإذا قاطعها العرب وثابروا على مقاطعتها فليس في الأرض قوة تنصرها عليهم ، وليس بالعرب من حاجة إلى سلاح يدفعون به خطرهم أمضى من هذا السلاح .

إن الحقائق البينة التي يجترأ الصهيونيون على إنكارها كثيرة لا تحصى إلا هذه الحقيقة التي لا تقبل المراء والمغالطة ، فإنهم يسلمونها ويعلمونها ، ويسلمها معهم أناس يبحثون قضية فلسطين بحث العالم المجرد عن الهوى ، وأناس لا يفوهون بحرف في هذه القضية إلا لخدمة إسرائيل أو خدمة صهيون .

نشرت مجلة الشرق الأدنى في عدد الخريف سنة ١٩٥٤ بحثاً مفصلاً بعنوان « اقتصاد إسرائيل المشوه » ذكرت فيه العوائق التي تشوه هذا الاقتصاد أو تمزقه فقالت : (أولاً) مقاطعة العرب ، ومنها إغلاق قناة السويس ، فإنها تحرمها مورداً رخيصاً من موارد الخامات وسوقاً سهلة لتصريف البضائع المصنوعة ، و(ثانياً) اضطرابها إلى إبقاء جيش قائم وإلى تقرير التجنيد العام مما يكلفها نصف موارد الميزانية العادية ، و(ثالثاً) قطع أنابيب البترول من العراق إلى حيفا ، وهو أمر لا يقصر عمل المصنع الخاص بالتكرير على خمس طاقته وكفى ، بل يضطر إسرائيل إلى دفع عملة أجنبية ثمناً للبترول بلغت في سنة ١٩٥٣ نحو خمسة وأربعين مليون ريال ، وكان

في ميسورها - لولا المقاطعة - أن تشتريه بالعملة الوطنية .

وكتب خبير عسكري في الديلي تلغراف - هو الجنرال هـ . ج مارتن H. G. Martin فقال : « إن إسرائيل مضطرة إلى الاستعداد ببارودها الجاف في كل وقت » - وهو تعبير يراد به الاستعداد لتجريد السلاح بغير إمهال ، فإن حدودها تبلغ ستمائة ميل ، وليس لها عمق كبير لأنها تضيق حتى تنقص عن سبعة أميال ، وتتسع فلا تزيد على عشرين ميلا .

ولهذا تنوء بأعباء التجنيد العام ، وتفرض الجندية سواء على الرجال والنساء من سن مبكرة ، تبتدىء في فرق الشباب في الرابعة عشرة ، ونظامها الزراعي نفسه قائم على هذه الضرورة الحربية ، لأن الخلايا الزراعية الموزعة على الحدود ، أو بجوارها - لا بد أن تقوم في الوقت نفسه بأعمال الاستطلاع وأعمال الطلائع كأنها في الميدان .

وفي حديث جرى بين مندوب نيوزويك Neusweek الأمريكية في شهر مايو سنة ١٩٥٤ صرح وزراء إسرائيل بالخسائر التي توقعها بهم مقاطعة العرب ، وقالوا : إنهم يضطرون إلى جلب البترول من فنزويلا في أمريكا ، وإن خسارة البترول وحدها تكلفهم أربعين مليون ريال ، وهو مقدار يساوي الاعانة التي حصلوا عليها هذه السنة من الولايات المتحدة . . . ومضت الصحيفة فقالت : « إن مقاطعة العرب قد تعرض إسرائيل لنكبة جديدة غير نكباتها الماضية ، فربما تدفق على أرضها نحو خمسمائة ألف من يهود مراكش والجزائر وتونس الذين يحسون بوطأة المقاطعة العربية في تلك البلاد . » .

فالحقيقة التي تواجه الصهيونية في مقاطعة العرب أشد عليهم وأوضح أمامهم وأمام غيرهم من أن يكتموها وأن يغالطوا أنفسهم فيها .

ولكن العلة الأصلية في إسرائيل أنها مخلوق متناقض ، يعتمد في بقائه على النقيضين ، فهو يعادي العرب ، ويقتحم عليهم ديارهم ، ويستغل مواردهم . . ثم يطمع منهم في المعونة التي يقدمونها بأيديهم لتمكينهم من الاقتحام والاستغلال .

وقد تبلغ الفحة والصفافة بهم وبأنصارهم أن يصرحوا بالأمرين في وقت واحد . فمن أعجب ما قرأناه ، بل من أعجب ما يروى على طول الزمن ، أن يقول قائل منهم : إن إسرائيل حربة طاعنة في جنب العالم الاسلامي ، ثم يعود فيقول : إن الأمل معقود بأن تعيش إسرائيل بين العرب معيشة الجيران والعشراء .

قبل عامين أوفدت « السنداى تيمس » مندوباً يسمى تريفور روبر T.Roper ليدرس أحوال إسرائيل ، ويكتب لها عن موقفها ومصيرها كما يشير إليه ذلك الموقف ، فقال في عدد الرابع من شهر أبريل : « إن إسرائيل واغلة في قلب العالم الاسلامي وإنها تلوح لهذا العالم الاسلامي كراس الحربة الممتدة من حضارة أجنبية مهددة ، وقد تكون فاتحة متوسعة » ، ثم يقول : « إن الفاتحين السابقين قد فرضوا على العرب طبقة حاكمة موقوتة ، أما اليهود فانهم بهجرتهم جماعات جماعات قد أصبحوا مجتمعاً كاملاً لا يبقى إلى جانبه موضعاً لسكان آخرين » .

يقول هذا في عدد الرابع من أبريل ، ثم يقول في العدد الذي يليه - أي عدد الحادي عشر من أبريل - إن هذه الحربة في جنب العالم الاسلامي قد تعيش في جوفه معيشة الجيران فتقوى على البقاء والتعمير .

وقال : « إنه لا مناص لاسرائيل مع مقاطعة العرب في الوقت الحاضر من البحث عن أسواق بعيدة ، تباع فيها حاصلاتها ومصنوعاتها . ولكن هذه المقاطعة إذا انتهت وقبلت الحكومات العربية حكومة إسرائيل لتعيش إلى جانبها معيشة الجيران - فيومئذ تنظر فترى إسرائيل كأنها بلجيكا أخرى أو كأنها ألستر أخرى في المشرق . » .

وعلينا نحن العرب الطيبين الذين يقللون الحربة جاراً مقيماً في أبدانهم ، أن نفهم ماذا يعني هذا الصهيوني الأريب بالمثل الذي ضربه عن بلجيكا أو عن ألستر دون غيرهما من البلدان .

فبلجيكا حربة في جنب ألمانيا ، وألستر حربة في جنب أيرلنده ، وكلتاهما تقيم في مكانها لأن العدو ملاصق لحدودها .

ومن العدو هنا غير الأمم العربية ؟ ومن المطلوب منه أن يثبت هذه الحربة في جنبه غير الأمم العربية ؟ ومن الذي يقبل هذه الغفلة في ظن هذا الصهيوني وأمثاله غير الأمم العربية ؟

إن غفلة الأمم العربية وخيانتها لنفسها مطلوبتان لراحة إسرائيل وتخفيف متاعبها . فلم لا تتغفل الأمم العربية نفسها باختيارها أو على الرغم منها ؟ ولم لا تخون قضيتها وتبيع حاضرها ومستقبلها إذا كان ذلك لازماً لراحة إسرائيل ، وتخفيف المتاعب عن إسرائيل ؟ عجب لا مثيل له في العجب .

وأقوال تقال ولا يدري قائلوها أن العربي لن يعقل منها غير معنى واحد أوضح امامه من الشمس في ضحاها ، فلولا عداوة جهنمية - والعياذ بالله - لهذه الأمم العربية لما خطر لهؤلاء الناس أن اللفظ الذي يهذرون به كلام يقال ويجوز على العقول .

إن الأمم العربية يطلب منها أن تعجز باختيارها عن مقاومة إسرائيل في ميدان المعاملات ، ويطلب منها أن تنظر إلى الخنجر في يد صهيون فتفتح له صدرها ، أو تأخذه من يدها لتغمده في تلك الصدور الخاوية .

وكل هذه الأعاجيب التي لا تخطر على البال لو لم تنظر بالآعين وتسمع بالأذان ، إنما هي في الواقع من أعاجيب هذا المخلوق المشوه المتناقض المسمى إسرائيل ، فإن بقاءه يتوقف على النقيضين ، ولا بقاء لمخلوق يقوم على نقيضين ، فهو عدو العرب ومصيره بأيدي العرب ، ولا حيلة للعرب في الأمر لأنهم مخيرون بين مقاطعة هذا العدو ، وبين إحيائه بالوسيلة التي لا حياة لها غيرها ، وهي استغلال البلاد العربية وتوطيئها النفس على البقاء إلى الأبد رهينة بذلك الاستغلال ، فإنها لا يكفي منها لابقاء إسرائيل أن ترفع الحصار عنها ، بل يجب على كل أمة عربية بعد ذلك أن تظل مفتقرة إلى الصناعة لتشتري من إسرائيل ولا تشتري من صناعتها ، وأن تظل رخيصة الخامات لتأخذ منها إسرائيل ما تأخذه بالثمن البخس الذي تجود به عليها ، ونكاد نقول : إن العرب لو أرادوا ذلك لما استطاعوا ، ولهذا ينكشف المصير المحتوم أمام الصهيونية في إسرائيل ، مصير يتوقف على المستحيل .

٢٢ - الاستعمار الصهيوني

حديثنا هنا عن الصهيونية المستعمرة .

واليهودية كلها لم تقم لها دولة في العالم منذ أكثر من سبعة وعشرين قرناً ، فلم تكن قط في عداد المستعمرين بقوة حكومتها وجيشها ، وإنما كان عملها في الاستعمار أنها تستتر وراءه ، وتمهّد له ، وتعتمد عليه في الاستغلال وامتصاص دماء الشعوب .

ولكنها دخلت في عداد المستعمرين منذ ابتليت فلسطين بتلك العصابة التي تسمى دولة إسرائيل ، فلا وجود لها - ولا يتأتى أن تبقى في الوجود - إلا إذا عاشت على استغلال الشعوب من حولها ، وليس من حولها شعوب تطمع في استغلالها غير الشعوب العربية .

إننا نسمع عن التوازن بين إسرائيل والعرب ، ونعلم أن هذا التوازن يقضي بحرمان العرب من كل قوة حربية تزيد على قوة إسرائيل ، أي يقضي بحرمان خمسين مليوناً أن تزيد قوتهم على قوة مليونين اثنين على أكبر تقدير .

وإذا تساوى العرب وإسرائيل في القوة الحربية - فمعنى ذلك أن إسرائيل أقوى من العرب جميعاً . لأنها تتصرف في قوة واحدة بارادة واحدة ، ولها بذلك فرصة أسرع على الأقل من فرص العرب مجتمعين .

لكن الواقع أن الموازنة الحربية ليست كل ما هنالك ، وأن الموازنة الحربية لا تهتم إسرائيل بمقدار ما تهتمها القوة الصناعية والاقتصادية ، وهي التي تجعلها قوة مستعمرة أخطر من جميع المستعمرين ، لأنها لا تعيش بغير الاستعمار ، ولا تجد لها مجالاً للاستعمار غير البلاد العربية .

إن الموازنة الحربية لا تهتم إسرائيل ، ولا تعتقد هي أن بقاءها متوقف عليها . لأن في العالم أمما كثيرة لم تعتمد على الأسلحة الحربية في البقاء ، وإسرائيل بصفة خاصة تعتقد أن الذين خلقوها سيبدرون إلى نصرتها ومعونتها إذا تعرضت للهزيمة في ميدان القتال ، وقد تعرضت لها قبل بضع سنوات فلم تنج من الهزيمة بفضل سلاحها وجندها ، بل بفضل الدولة المتألبة لحمايتها وخذلان العرب في ميدان القتال ، وفي ميدان السياسة .

فالموازنة الحربية بين إسرائيل والعرب معناها رجحان إسرائيل على العرب مجتمعين - ولكنها - أي الموازنة الحربية - مع ذلك لا تهتم إسرائيل كما تهتمها قوة الصناعة والاقتصاد ، لأنها تعيش بغير موازنة في السلاح ، ولن تعيش بمواردها زمنا طويلا إلا إذا تفوقت على العرب في ميادين الصناعة والاقتصاد .

إن إسرائيل لن تعيش الا بوسيلة من وسيلتين : فإما أن تظل عالية على التبرعات والمعونة الخارجية بغير انقطاع ، ولا تستطيع دولة أن تعتمد على هذا المورد في تدبير وسائل البقاء الطويل .

والوسيلة الاخرى أن تعيش بمواردها في صناعتها ومرافقها التجارية والاقتصادية ، وليس في استطاعتها ان تعيش بمواردها الصناعية و ثروتها الاقتصادية حين يتقدم العرب في الصناعة ، وحين تصبح لهم تجارة تناسب هذا التقدم في إخراج المصنوعات .

إذا عاشت إسرائيل فلا بد لها من الحصول على مواد الخامات بأثمان رخيصة ، وهي لا تحصل على هذه المواد بالثمن الذي تقدر عليه حين تتقدم الصناعة في البلاد العربية ، وحين تصبح مساوية للصناعة الكبرى أو الصناعة الصغرى في إسرائيل . فإن الأمة العربية التي تتقدم في صناعتها تستفيد بخاماتها ، ولا تفرط فيها ليأخذها المنافسون لها في إخراج المصنوعات وبيع السلع ورخص الأثمان .

وإذا أرادت إسرائيل أن تعيش بمصنوعاتها فلا غنى لها عن بيعها في الأسواق القريبة منها .

وإنها إذا أرسلتها إلى الأسواق البعيدة تضاعف ثمنها وعجزت عن منافسة الصناعة الأوروبية والأمريكية .

إما إذا أرسلتها إلى الأسواق القريبة فهي أسواق البلاد العربية ، وهي لن تضمن الرواج في هذه الأسواق إلا إذا كانت تلك البلاد العربية بغير صناعة وبغير مصنوعات .

فتعجيز البلاد العربية - إلى الأبد - شرط لازم لبقاء إسرائيل معتمدة على مواردها ، غير معتمدة إلى غير نهاية على صدقات المتبرعين ومعونة الحماية ، والنصر من الدول الأجنبية .

ينبغي أن تظل البلاد العربية عاجزة عن التقدم الصناعي ، فريسة للمستغلين من الصهيونيين ، لتعيش إسرائيل بثروتها وموارد صناعتها .

ينبغي أن يضرب الحجر الأبدي على بلاد العرب ، فلا تكون لها قوة تزيد على قوة إسرائيل في ميدان القتال ، ولا تكون لها صناعة تعول عليها وتستغني بها عن الصناعة الصهيونية في أيام السلام .

ولا حاجة إلى كشف الأسرار ولا هدم الجدار للنفاذ إلى ما وراءه من الأغراض والأوطار .

فالمسألة بديهية ملموسة لا يختلف فيها قولان : ولا تقبل التصديق إن اختلف فيها المكابرون والمغالطون .

إذا كان رجحان الصهيونيين في عدة الحرب واجباً متفقاً عليه ، وخطة مقرر في عرف حماة الصهيونية - فليس من المعقول أن يسمح للعرب بالرجحان في عدة الصناعة وموارد الثروة والمال ، ولا حاجة إلى قراءة الضمائر الخفية للعلم بالمقاصد المبينة لبلاد العرب جمعاء ، فلن تقف تلك المقاصد دون تعجيز العرب في ميدان الحياة العصرية ، وتقييد نهضاتهم وبرامج الإصلاح في أوطانهم - كلما عملوا على تدبير ثروتهم ، وتوفير مصنوعاتهم ، والانتفاع بخاماتهم ، والاستغناء بها عن السادة المتحكمين ، أو السادة المستغلين في إسرائيل .

وهذه هي الصهيونية المستعمرة .

وهذا هو الاستعمار الصهيوني الذي لا يدانيه في الخطر استعمار قديم ولا حديث ، لأنه يوصد طريق التقدم - من جميع جهاته - أمام خمسين مليوناً ليستغلهم مليونان ، ولا ينتهي هذا الاستغلال بعد حين قصير أو طويل ، بل يزداد ويتفاقم مع الزمن ، وتتواطأ عليه القوى البارزة والمستترة ، ممن يسمون هذا المسخ الأبدي توازناً في الاستعداد والعدة بين العالم العربي وعصابة صهيون .

ومن خفي عليه الأمر في مبدئه ، فقد برح الخفاء أمام عينيه عاماً بعد عام ، فلا عذر له إن لم يفهم معنى وجود إسرائيل ، وعاقبة وجودها بين العرب على تعاقب الأعوام .

إنها لم توجد لتعيش بمواردها .

إنها لم توجد لتعتمد على نفسها .

ولكنها وجدت لتخنق الحياة العربية من حولها ، وتتقدم وحدها بصناعاتها بين بلاد لا صناعة لها ، ولا فائدة لها في العالم الانساني غير امتصاص دمها لإحياء بنية طفيلية شاذة ، تعطيها من فضلات الرزق ما تجود به عليها ، كي تستبقي في عروقها بقية من الدم تمتصه وتعيش عليه .

موازنة في السلاح ..

كلا ! لا موازنة في السلاح إذا تساوت إسرائيل وبلاد العرب في القوة الحربية ، لأن إسرائيل تملك فرصتها منفردة بمشيئتها ، وليست قوة في يد واحدة كقوة موزعة بين الأيدي ، وإن تكن على أتم وفاق .

إلا أن الخطب هين في هذه الموازنة بالقياس إلى موازنة أخرى أهمّ وألزم لإسرائيل من موازنة السلاح .

إن تعجيز العرب أجمعين عن مجاراة إسرائيل وحدها في ميدان الصناعة والتقدم أفدح خطوب الاستعمار منذ وجد الاستعمار . وهذا هو الاستعمار الصهيونية الذي يراد ، ولا يستتر فيه المراد . وإن ربك لبالمرصاد .

٢٣ - الصهيونية والمستقبل

ترجع دويلة إسرائيل بين الكفتين : كفة التمكن والبقاء وكفة التداعي والفناء . وفي كل من الكفتين عواملها وأسبابها . ولكن عاملاً واحداً إذا بقي في كفة التداعي والفناء كانت له الغلبة في النهاية لا محالة ، وهو عامل المقاومة العربية . أول عوامل التمكن والبقاء هو العامل الطبيعي الذي يسيطر على كل حي في هذا العالم وهو حب البقاء . فالدويلة الصهيونية تحب أن تبقى وتتوسل إلى البقاء بكل وسيلة في مقدورها وميسورها ، ومنها وسائل العلم والصناعة ونشر الدعوة في العالم الخارجي ، ومنها معونة الدول الكبرى بالمال والسلاح . وفي سبيل البقاء تعمل هذه الدويلة على ري صحراء النقب ، ونشر المحلات الزراعية التي ظاهرها حرث وغرث وحصاد ، وباطنها حصون ومعازل استطلاع . وفي سبيل البقاء تستعد بقوة عسكرية أكبر من كل قوة في الأمم الأخرى بالنسبة إلى عدد سكانها ، ولكن هذه العوامل كلها تقابلها على الكفة الأخرى عوامل مثلها وأشد منها ، وهي عوامل طبيعية غير مصطنعة كمعظم العوامل التي تساعد على بقاء إسرائيل .

إن ثروة إسرائيل مثقلة بالتفاوت الكبير بين صادراتها ووارداتها . فوارداتها خمسة أضعاف صادراتها ، وما دامت المقاومة العربية محيطة بها من جميع جوانبها فهي مضطرة إلى جلب الخامات من بلاد بعيدة ، وإرسال المصنوعات إلى أسواق بعيدة لا تستطيع المزاحمة بتكاليف صناعتها الغالية . وينمايف هذه التكاليف الصناعية أن جماعة « هستدروت » تصر على رفع الأجور ، حتى بلغ أجر العامل في إسرائيل ضعف أجره في البلاد الانجليزية ، ونجمت من ذلك مشكلة داخلية بين العمال المتفرنجين والعمال الشرقيين الذين يقنعون بالأجور المعتدلة ، فإن جماعة

« هسندروت » تسعى إلى تقييد الهجرة إلى إسرائيل من البلاد الشرقية منعاً لهذه المزاحمة ، وقد أصبح العمل في الدولة الصهيونية شبه احتكار للمتفرنجين المترفعين عن إخوانهم في الدين ، وهم يزدادون تشبشاً باحتكارهم كلما أحسوا بانفرادهم في الميدان ، لأن عدد المهاجرين من إسرائيل إلى خارجها يكاد يساوي في الوقت الحاضر عدد المهاجرين من خارج إسرائيل إليها . وقد كانت الزراعة فيما مضى معهوداً إلى طوائف الكبوتيين ، وهي طوائف اشتراكية تملك الأرض وتزرعها بالاشتراك بينها في العمل والمعيشة ، فلما فترت الدفعة الأولى من دفعات الحماسة والعصبية قل الاقبال على الملكية المشتركة ، وغلبت عليها طوائف الموشوية ، أو طوائف الملكية الفردية ، وبين الفريقين اليوم من التنافس والتناظر ما ينذر الزراعة بأزمة الصناعة ، أو أعسر وأبقى .

ولا ننس الباعث النفساني الذي كان يسوق اليهود إلى فلسطين عقب الحرب العالمية الأولى ، فقد كان باعثاً فعالاً يغذيه الأمل من جهة ، ويغذيه الاضطهاد من جهة أخرى ، فلما فتر الأمل وزال اضطهاد النازية والفاشية - ضعف الباعث النفساني الذي كان يوماً من الأيام (رأس مال) الحركة كلها ، وأصبح الصهيوينيون يستغيثون بأبناء ملتهم ليعودوا إلى تلك الحماسة ، ويتساندوا على التضحية في سبيل القضية العظمى ، فلا يسمعون لهذه الاستغاثة صداها الذي تعودوه ، لأن الحماسة المصطنعة لن تغني غناء الحماسة المطبوعة بغير كلفة أو تدبير . وقد تقدم أن الاستعداد الحربي في إسرائيل أقوى من كل استعداد في الأمم الأخرى بالنسبة إلى عدد سكانها ، وهذه ضرورة لا محيد لها عنها ، وعيب فادح لا يتأتى لها أن تخفف منه ما دامت البلاد العربية تقاومها وتقاطعها ، فإن حدودها البرية تزيد عن ستمائة ميل لا بد لها من الحراسة الدائمة وخطوط الدفاع المستمرة ، ومهما تصنع من ضروب الحيلة فالأعباء أكبر من الطاقة ، وهي اليوم أعباء تكلفها الكثير وتلجئها إلى نظام من التجنيد ثقيل الوطأة على مواردها البشرية والاقتصادية . فمن الرابعة عشرة ينتظم الذكور في فرقة الشباب إلى الثامنة عشرة ثم يدعى الذكور والاناث في الثامنة عشرة إلى التجنيد للخدمة العامة ، ومنها الخدمة في الطيران ، ويظل النساء بعد انتهاء الخدمة العامة أربع عشرة سنة رديفاً

تحت الطلب ، وتتضاعف هذه المدة بالنسبة للذكور ، فيدعون خلالها شهراً كل سنة للتدريب .

هذا الاستعداد فيه من عوامل الضعف بمقدار ما فيه من عوامل القوة ، وإذا انهزم جيش كهذا في القتال فهي هزيمة الأمة كلها وفناؤها بالعدد والعدة ، وهي نكبة لا يتعرض العرب لمثلها ، لأنهم يزيدون على أربعين مليوناً .

ويستطيعون أن يخصصوا للتجنيد جيشاً في عدة إسرائيل كلها برجالها ونسائها وأطفالها ، ثم يخلفوه بغيره وبغيره دون أن يستنفدوا ما عندهم من وسائل المقاومة والثبات .

إن التناقض يضرب بمعوله في كيان إسرائيل من أساسه ، فإنها قد أنشئت لتكون وطناً قومياً لليهود ، فهل هي كذلك الآن ؟ وكيف يمكن أن تكون وطناً قومياً لهم بأي معنى من معاني الوطنية ؟

إنها لا تسع يهود العالم ، ولا يهود العالم يرغبون جميعاً في الانتقال إليها . قد صدف عنها من رحلوا إليها ، وتبين للكثيرين منهم أن مقامهم في الديار الأجنبية أنفع لهم من محاولتهم العقيمة في البلاد التي يزعمون أنها وطنهم المختار . وإذا طال بإسرائيل عمرها وجاء اليوم الذي يتكرر فيه اضطهاد النازية والفاشية فليس من البعيد أن تصد إسرائيل سيول الهجرة إليها كما تصدها الأمم الأخرى ، لأنها لا تستطيع أن تؤويهم ، بل لا تريد إيوائهم باختيارها ، سواء قصدوا إليها للاقامة الدائمة أو للاقامة المؤقتة .

ومع هذا التناقض صعوبات أخرى ، لم يتغلب عليها اليهود قط ولن يتغلبوا عليها ، وهي الصعوبات التي تخلقها بينهم شكاستهم المعهودة منذ كانوا قبل أربعة آلاف سنة في جزيرة العرب ، إلى أن أخرجتهم شكاستهم منها ، ثم أخرجتهم من العراق ، ثم أخرجتهم من كنعان ، ثم أخرجتهم من مصر ، ثم أخرجتهم من فلسطين ، ثم عرضتهم للعدوان والبغضاء في كل وطن وبين كل أمة . ولولا أن الخطب في المرحلة الأخيرة أكبر من طاقاتهم - لظهرت شكاستهم هذه على عاداتها بين طوائفهم المختلفة التي برزت حتى الآن في الدولة الصغيرة ، وعندهم منها حزب الرجعة وحزب الفرنجة ، وعندهم منها المالئون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم -

على الرغم منهم - أن يخلقوا للشكاسة أسبابا لا تخطر على بالهم ولا على بال أحد . فلن يزالوا كما وصفهم القرآن الكريم مع حلفائهم « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » لأنهم لا يعقلون .

وتعود بنا صفتهم بأنهم لا يعقلون إلى وهم شاع عنهم بين من يعتقدون أنهم شعب ممتاز بالذكاء والنبوغ ، وقد عرضنا لهذا الوهم مرة ، ورجعنا إلى حقيقة فكانت الحقيقة أنهم عالة على ثقافات الأمم . فإن فضل كل أمة راجع إلى ثقافتها التي أنشأتها ، ولكنهم هم يعيشون بين كل أمة ويأخذون من كل ثقافة ، وإذا نظرنا إلى النجاح في عالم المال فلا امتياز فيه لليهود على طائفة أخرى تنتفع بالفرصة التي ينتفعون بها ، وشاهدنا على ذلك عدد الأثرياء في مصر بين طوائف الأرمن والاعريق وأمثالهم من أمم البحر الأبيض المتوسط . فانهم قد يزدون على أثرياء اليهود أو يساؤونهم في العدد وقد يزدون عليهم كذلك أو يساؤونهم في مقدار الثراء وتنوع مصادر الثراء ، وكلما يرجع نجاح الاعريقي أو الأرمني إلى تضامن بينه وبين أبناء جلدته كما يتضامن يهود العالم .

وعلينا - بعد - أن نقدرهم ونسبر غورهم ، ولكن بالمقياس الصحيح الذي لا مبالغة فيه من ناحية القوة ، ولا من ناحية الضعف ، ولنذكر أسباب بقائهم في دويلتهم كما نذكر أسباب تداعيهم وانحلالهم ، ولا ننس أن الدول الكبرى تعينهم تعصباً على الاسلام والعرب وإن لم يكن تعصباً لهم ، ولكن البنية لا تستمد الحياة من معونة غيرها إن لم يكن فيها قوام الحياة ، ولن تحيا إسرائيل إذا بليت مقاومة العرب راصدة لها في كفة انحلالها وفنائها ولودامت لها معونة الثقليين ، وهي لا تدوم . .

٢٤ - الصهيونية العالمية

في الختام

شركة تبحث عن رأس مالها القديم ، فتعلم أن الكثير منه قد تبدد ، وأن ما بقي منه يوشك أن يضيع .

تلك هي الصهيونية في العصر الحاضر ، أو في المرحلة المتوسطة بين ماض عاشت فيه على استغلال الاضطهاد واللعب بأعمال الصيرفة والمضاربات وتسخير الطواير الخامسة في المؤامرات الخفية ، وبين مستقبل يجور على كل حصة من هذه الحصص التي تجمع منها رأس مالها ، ويوشك أن يكشف حسابها جميعاً ، إن لم يأت على بقية منها بعد بقية ، وعلى رصيدها بعد رصيده .

فكل ما بحثوا فيه من أمر المصير وأشرنا إليه في الفصول انسابقة . .

وكل ما يعلنونه أو يسرونه اليوم من الشكايات الحققة أو الشكايات المفتعلة ، فإنما هو بحث عن رأس المال المهتد بالضياع .

قيل إن الصهيونيين الانجليز اتصلوا بالوفد الروسي المسيحي ، في العاصمة الانجليزية ، وبحثوا معه في أحوال اليهود المقيمين بالبلاد الروسية .

وقيل إن عمال اليهود الأمريكيين طلبوا من الرئيس أيزنهاور أن يفتح مندوبي الروس إلى مؤتمر « جنيف » في أمر السماح لليهود الروسين بالهجرة إلى إسرائيل .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان أصحاب هذه المباحث وهذه المطالب

يقصدون إلى الدعاية ، ولا يقصدون إلى الجدل فيما يذيعونه من شكايات اليهود الروسين واقناع الحكومة الروسية بالترخيص لهم في الهجرة إلى إسرائيل .

فليس من اليسير أن تعترف حكومة « الكرملين » على نفسها باضطهاد رعاياها وهي تذهب إلى جنيف لإعلان منايها الحكومية ورعايتها لحقوق المحكومين .

وليس من اليسير إذا اعترفت حكومة الكرملين باضطهاد اليهود أن ينتقل خمسم ولا عشرهم إلى إسرائيل ، وعدة اليهود في روسيا تزيد على خمسة ملايين .

وليس من اليسير أن تستوعبهم إسرائيل وهي تضيق بمن فيها وتتوالى الأنباء بعزم الكثيرين منهم على العودة من حيث أتوا ، وتردد الكثيرين منهم في التحول من جنسيتهم إلى جنسية إسرائيل .

وإنما هي بضاعة الاضطهاد يشعرون بالحاجة إلى استغلالها في الآونة الحاضرة ، لأن رصيدهم القديم منها يقارب النفاذ .

كانوا يستغلون الاضطهاد النازيين اليهود في البلاد الألمانية ، وكان لهم مكتب في برلين يتواطأ مع النازيين على تنظيم الاضطهاد وتنظيم الهجرة من جرائه إلى إسرائيل ، وكان لهم رئيسان معروفان يديران ذلك المكتب لحساب الصهيونية العالمية ، وهما - كما ذكر في فصل سابق - رئيس يدعى بينو ورئيس يدعى بارجلعاد .

ولا يعني هنا أن الاضطهاد يقع أولاً يقع ، ولا يعني أنه يروى على حقيقته أو يروى مبالغاً فيه ، ولكن الواقع في جميع الأحوال أنه بضاعة نفسية تستغلها الصهيونية العالمية ، وتمزج فيها بين استغلال العطف الانساني واستغلال الخوف من الأعداء .

فالنازية كانت العدو المخيف لأمم الغرب قبل منتصف القرن العشرين ، فمن الأرباح النافعة التي تستفيد منها الصهيونية العالمية أن تثير العطف على ضحاياها وأن تثير البغضاء على العدو المخيف ، وأن تكون ضحية

الاعداء الألداء التي تستحق العون من الساخطين على النازية ، والمتوجسين من مطامع النازيين .

والشيوعية اليوم هي العدو المخيف للأمم الغرب التي كانت بالأمس تحارب النازية في ميدان السياسة وميدان القتال .

فالصهيونيون إذن هم ضحايا الاضطهاد في بلاد الشيوعية ، ومن الواجب أن تثار الدعاية حول هذا الاضطهاد في هذه الآونة على التخصيص ، لأن فضائح الجاسوسية في الولايات المتحدة قد كشفت عن علاقة وثيقة بين الجواسيس الصهيونيين وبين الدولة الحمراء ، وقد ذكرت الأمريكيين بأن الشيوعية كلها قامت قبل أربعين سنة على أيدي العشرات من دعاة صهيون .

رأس مال يتجدد لأنه قارب على النفاد ، ودليل جديد على أن الصهيونية العالمية تعيش اليوم على رأس مال مهدد بالضياع .

ويصبح سفير إسرائيل في الولايات المتحدة محتجاً على تفتيش السفن التي تعبر قناة السويس إلى إسرائيل ، ومتعجباً من إصرار العرب على مقاطعة الدولة التي بحسب أنها شوكة في جنوب الأمم العربية ، ومنكراً على هذه الأمم أنها - كما يزعم - تبني الآمال الكبار على خذلان أمريكا للصهيونيين ، ومؤكداً أن الحوادث العارضة لن تكدر صفو العلاقة الأمريكية الصهيونية ، وأن آيات الصداقة والحب لا تنقطع في الوقت الحاضر ولا في وقت من الأوقات .

رأس مال آخر مهدد بالضياع .

وكلام لا تثبت منه إلا حقيقة واحدة ، وهي أن إسرائيل محرومة من عوامل البقاء بغير المعونة الأمريكية ، وأن الأمم العربية تعرف ذلك كما يعرفه الصهيونيون .

فالمطلوب على هذا من الأمم العربية أن تعدل عن المقاطعة ، لأن معونة أمريكا لإسرائيل باقية ، ومقاطعة العرب في هذه الحالة لا تفيد .

وينسى السياسي الصهيوني أن هذه الصفحة يمكن أن تقلب عليه أو أنها قد

تقرأ من اليمين إلى الشمال كما تقرأ من الشمال إلى اليمين .
قد يقال مثلاً : إن أمريكا ستعلم أن مقاطعة العرب دائمة ، وأن معونتها
لإسرائيل في هذه الحالة لا تفيد .

وقد يقال مثلاً إن عداوة العرب والعالم الإسلامي كله مشكلة خطيرة في
السياسة الدولية ، وأن عداوة الصهيونية لأمريكا لن تكون مشكلة خطيرة
يحفل بها الشعب الأمريكي أو الدولة الأمريكية . لأن الصهيونية عالة على
القوم لا قبل لها بمحاربتهم كما كانت تحارب البريطان والألمان .
والمسألة في جوهرها أكبر من مسألة الخلاف الحاضر بين العرب
وإسرائيل .

فإنما هي مسألة الموازنة بين نتيجتين لا معدى عن إحداهما على تعاقب
الأيام .

فإذا أن تذهب إسرائيل من حيث أتت ، وإما أن تبقى الأمم العربية فريسة
لإسرائيل تأكل من لحمها ودمها وتحول بينها وبين التقدم ، لكي تأمن
مزاحمتها اليوم وغداً وإلى آخر الزمان في ميدان الصناعة والتجارة والارتقاء
على الاجمال .

وذهب إسرائيل من حيث أتت أهون النتيجتين وأدناهما إلى المعقول .
وذهابها من حيث أتت نتيجة محتومة في مصير صهيون .

إن صهيون عاشت من قبل على طوابيرها الخامسة في جميع الأقطار ،
وليس من طبيعة الطوابير الخامسة أن تعمر طويلاً إذا تفتحت عليها الأنظار .

إن صهيون عاشت من قبل على اللعب من وراء الستار بأعمال الصيرفة
وأسواق المضاربات ، وليس في مقدورها اليوم أن تعيش بهذا اللعب
المكشوف ، لأن شؤون الثروة ترتبط في العصر الحاضر بأطوار الاجتماع
وثورات الأمم وحقوق الطوائف والطبقات ، ولا يسهل العبث بها وراء
الأبواب وبين الجدران .

إن صهيون قد عاشت من قبل بالبضاعة التي تسميها « الاضطهاد » وتتجر

بها بين اليهود وغير اليهود ، فإذا وقع الاضطهاد في العصر الحاضر فهو مشكلة لدولة إسرائيل قبل أن يكون مشكلة للدول التي تضطهد اليهود ، أو تحاول إنقاذهم من الاضطهاد .

فإذا هي فتحت أبوابها للمضطهدين فهي مختنقة بالزحام ، عاجزة عن إيواء المزدحمين على الأبواب .

وإذا هي أغلقت بابا من تلك الأبواب فقد هدمت دعواها بيديها ، وبذرت بذور الفتنة بين رعاياها وبين اللاجئين إليها والمقيمين في غير بلادها .

وسياتي اليوم الذي يعلم فيه الصهيونيون - كما يعلم غير الصهيونيين - أن قيام إسرائيل نكبة عليهم ونكسة بهم إلى عزلتهم الأولى وعصبيتهم الباطلة التي يعاديهم الناس من أجلها ويعادون من أجلها كل إنسان لا يحسبونه من خلق الله المرضي عنهم ولا يدخلونه في عداد « شعب الله المختار » .

ومتى وقفت صهيون في جانب من عزلتها وعصبيتها ، ووقف العالم كله على سعتة في جانب الحذر منها - فذلك هو المصير الذي لا مراء فيه ، وذلك هو الختام :

عباس محمود العقاد

تعقيب برتوكولات حكماء صهيون

يشاء الله أن نلتقي في « تعقيب » بعد الفراغ من قراءة فصول « الصهيونية العالمية » لأستاذنا العقاد كما التقينا في « بداية » قبلها ، وهذا فضل آخر يسديه إلينا الأستاذ الجليل ، وإنا لتلقى فضله بما هو أهله من الغبطة والشكر .

وقد رثي أن يكون « التعقيب » تلخيص كتاب خطير أشار إليه الأستاذ العقاد في مستهل الفصل الرابع هنا ، وما هو بغريب عن « الصهيونية العالمية » موضوع هذه الفصول ولا هو بضعيف القرابة منها ، بل هو من صميم موضوعها ، وإنه ليتناولها من الوجهة التي تتناولها منها هذه الفصول ، فالكتاب يتضمن مجموعة من الوثائق السرية كتبت في أخريات القرن الماضي ، وطبعت لأول مرة في روسيا سنة ١٩٠٢ ، ثم انتشرت ترجماتها في سائر الأقطار الأوروبية بلغات عدة ، ولوحظ - كما أشار الأستاذ - « أنها لا تظهر في لغة من اللغات الا اختفت على أثر ذلك ، وأنها تختفي كلما عادت إلى الظهور مترجمة أو مطبوعة من جديد » وتفسير هذه الظاهرة فيما نرى أن اليهود يجمعون نسخها كلما عادت إلى الظهور ، لأنه يفضح مؤامرة من مؤامرات « الصهيونية العالمية » .

ونضيف إليها ملاحظة أخرى للمؤرخ المعاصر الاستاذ دجلاس ريد Douglas Reed في كتابه فن الحركات السرية في العصر الحاضر ، هي انه لم يجرؤ طابع ولا ناشر في أوروبا وأمريكا على طبع هذه الوثائق منذ سنة ١٩٢١ ، وذلك أمر بالغ في دلالة على سعة نفوذ « الصهيونية العالمية » على

وسائل الطبع والنشر هناك ، لأن هذه الوثائق تفضح مؤامرة اليهود لغزو العالم والتسلط على حكمه وخيراته ، وهم حريصون على ان تبقى مؤامرتهم نافذة دون أن يفتن إليها احد غيرهم ، بل دون أن يلحقها أحد بينهم عدا أكابر زعمائهم الذين يشاركون في تدبيرها وتنفيذها في الخفاء ، فهكذا قدروا للوثائق ، وهكذا يصادرونها في كل مكان .

١ - عنوان الوثائق « بروتوكولات حكماء صهيون Protocols of The Learned Elders of Zion » وقد اضيف اليه في الترجمة الانجليزية عنوان اخر تستحقه هو « الخطر اليهودي » Jewish Peril وبهذين العنوانين معاً سمينا ترجمتنا ، وهي اول ترجمة كاملة لها بالعربية ، والعنوان الاول هو الاشهر في مختلف اللغات .

٢ - معنى بروتوكولات هنا محاضر جلسات ، وهذه التسمية لا تطابق محتويات الوثائق تماماً ، فإنها ليست بالضبط محاضر جلسات بل تقريراً مسهياً وضعه زعيم قوي النفوذ في مؤتمر يهودي سري فحاز الموافقة ، وقد قسمه أقساماً لا تطرد اطراداً منطقياً على الدوام ، ورسم فيه خطط مؤامرة يهودية جهنمية تنتظم جميع العالم وتمتد إلى مختلف نواحي نشاطه ، وتسعى إلى تنغيص أمنه ورغده.. حتى يتم اخضاعه لليهود ، وقراءة البروتوكولات تشعرنا بأنها جزء من مؤامرة أخرى أخطر وأوسع ، وإذا كانت هذه المؤامرة الأخرى لم تنكشف حتى اليوم فإنها تعبر عن نفسها في هذا الجزء تعبيراً قوياً واضحاً .

٣ - وإذا تأملنا محتوياتها بدت كأنها حقائق مسلمة مألوفة كثيراً أو قليلاً ، وإن عبر عنها بحدة وبغضاء لا تصاحبان في العادة الحقائق المألوفة ، فبين سطورها تتأجج بغضاء دينية عنصرية متغترسة عميقة الجذور ، قد خبثت بنجاح أمداً طويلاً ، وإن كانت في الواقع لتجيش وتفيض من إناء طافح بالنقمة والسخط ، مدرك تمام الادراك أن نصره النهائي أقرب .

٤ - تسعى المؤامرة لزعزعة كل مقومات المجتمع الحاضر ونظمه ، وتركز طليعة ضرباتها وأعنفها على الأمم المسيحية ، لأن المسيحيين أوسع الأديان انتشاراً ، وأممها أقوى الأمم وأوسعها نفوذاً ، ولها الزعامة والتوجيه

العالمي ، وإذا أمكن القضاء عليها كانت هزيمة بقية الأمم والأديان أسير وأسرع ، ولا تبقى حيثشذ الا الديانة والقومية اليهودية ، ولا بد لذلك من تسلط اليهود على الأمميين أو الجوييم^١ .

٥ - هدف المؤامرة تمكين اليهود من الاستئثار بحكم العالم وثمراته ، لأنهم شعب الله المختار لزعامة الجنس البشري ، فما خلق العالم إلا ليكونوا هم سادته وأوصيائه ، ومن حقهم وحدهم استعباده وستخيره بكل الوسائل ، واحتكار كل سلطة ومنفعة فيه ، وليس لمن عداهم من الأمم إلا السمع والطاعة ، واحتمال الخسف والهوان ، والرضا بأحط الأعمال ، والقناعة بما يجود به اليهود من فضلات الرزق .

٦ - تتحقق سيادة اليهود على الأمميين باقامة مملكة يهودية استبدادية تحكم العالم كله ، يكون مقرها اورشليم (القدس) أولاً ، ثم تستقر في رومة^٢ إلى الأبد ، ويتعاقب على عرشها حكام من ذرية ملكهم ومسيحهم داود ، وكل حاكم من هؤلاء يربي تربية خاصة على أيدي زمرة مختارة من حكماء صهيون ، ولا يصل إلى العرش إلا إذا اجتمعت له كفايات خاصة ، فإذا توج كانت ذاته مقدسة لا تمس .

لأنه سيكون بطريرك العالم وملكه معاً ، وسيكون مستشاره طائفة من أعظم الساسة الموهوبين ، ولا يجوز له ان يملك شيئاً خاصاً به ، لأنه وحده يملك كل شيء في العالم ويتصرف فيه كما يشاء .

٧ - ترى المؤامرة ان جميع نظم الحكم الحاضرة فاسدة ، ومن واجبها زيادة افسادها في تدرج حتى تسقط في الوقت المناسب لقيام المملكة اليهودية العالمية لا قبله ولا بعده ، وان الأخيار بين الناس قلة نادرة ، وسائرهم أشرار ، فالقوة وحدها هي الوسيلة الناجحة في السياسة ، وأن حقوق الشعوب افكار لخداعها لا حقائق تقبل التنفيذ ، وأن السياسة ليست من عمل الشعوب ولا عمل العباقره الذين لم يخلقوا لها من الأمميين ، وإنما السياسة أو الحكم صناعة سرية سامية مقدسة لا يحسنها الا نخبة ممتازة موهوبة من اليهود ، دربوا عليها تدريباً تقليدياً ، وكشفت لهم أسرارها التي

(١) يسمي اليهود من عداهم (الجوييم) ومعناها الكفرة والانجاس والوثنيين والبهائم .

(٢) يلاحظ انها عاصمة الرومان قديماً والكنائكة حديثاً .

استنبطها حكماء صهيون من تجارب التاريخ وعبره خلال قرون طويلة ،
وهم يتناقضونها في الخفاء ، وعليها يربون ملوكهم ومن يحيطون بهم من
المستشارين .

٨ - ترى أنه ينبغي أن يساس الناس كما تساس قطعان البهائم بل الوحوش
أي بالعنف : وأن كل الأممين حتى الزعماء الممتازين فيهم إنما هم قطع
شطرنج في أيدي اليهود ، ومن اليسير إغراؤهم وتسخيرهم بالارهاب أو
الرشوة . . . ، وأن قيام حكومتهم العالمية يجب أن يسبقه تمزيق الأوطان
والقوميات ، وهدم الأديان ولا سيما المسيحية ، وافساد أنظمة الحكم في
كل الأقطار وإزالة الحكومات ولا سيما الملكية ، وأن يتوسل لذلك بشتى
الوسائل المناسبة : ومنها إغراء الملوك وسائر الحكام باضطهاد الشعوب ،
وإغراء الشعوب بالتمرد على سلطة الحكام والقوانين والعرف والتقاليد ،
وذلك بنشر مبادئ الحرية والمساواة ونحوها مع تفسيرها تفسيراً خاصاً يؤدي
الجانبين ، وبمحاولة إبقاء كل من قوة الحكومة وقوة الشعب في حالة عداء
مستمر للأخرى . وتوجس وخوف دائم منها . . . ومن هذه الوسائل إفساد
حكام الشعوب وزعمائها . والتسلط عليهم ، ومحاربة كل نبوغ يظهر بين
الأممين مع الاستعانة في ذلك كله بالمال والنساء والدسائس والمناصب
ونحوها . بل القتل في الخفاء إذا لم تنجح وسيلة غيره .

٩ - ترى أنه ينبغي لها إثارة حروب عالمية وأهلية بالقضاء بذور الخلاف
والبغضاء بين الأمم عن طريق الجماعات والأندية السرية والعلنية من كل
لون . ومنها السياسية والدينية والفنية الثقافية والرياضية . . . والمحافل
الماسونية وغيرها ونقل الدول من حالة التسامح إلى التطرف الديني و
السياسي فلاشتراكية فالاباحية فالفوضوية ، مع استحالة تطبيق مبادئ
الحرية والمساواة : وكل هذا مع المحافظة على وحدة الأمة اليهودية ،
وحمايتها من كل التعاليم والاتجاهات الضارة . ويلاحظ في الحروب أن
تكون ضارة بالغالب والمغلوب : وألا تعقب تغييرات اقليمية حتى يستمر
النزاع الاقتصادي بين المعسكرات المتناحرة ، ولا يستفيد من ذلك إلا اليهود
الذين يتاجرون مع المعسكرات جميعاً ، ويساعدونها على الاستمرار في
الحروب حتى تخر لاهثة منزوفة القوة .

١٠ - ينبغي لليهود - لأنهم المحتكرون للذهب - أن يسيطروا على كل وسائل الطبع والنشر والصحافة والمعاهد الثقافية والمسارح وشركات السينما ودورها ، وعلى العلوم والقوانين والمضاربات وغيرها في كل أقطار العالم ، وإن الذهب الذي يحتكرونه هو أمضى الأسلحة لاثارة الرأي العام والاضرابات والانقلابات وفساد الشبان ، والقضاء على الأخلاق وفضح مساوئ الأديان والقوميات ونظام الأسرة وسائر القيم الانسانية ، وإغراء الناس بالشهوات واشاعة الخلاعة والانحلال حتى تستنزف قوى الاممين فلا يجدوا مفرأ من أن يركعوا تحت أقدام اليهود ، ويجب أن يكون لهم وكلاء وأنصار بين كل الهيئات والطبقات من أكبر الملوك والزعماء والبرلمانيين في قمة القيادة إلى أخط المربيات والخدم في البيوت والأندية للتجسس على الأسرار ومعاونة اليهود على تنفيذ ما يريدون ، ويختار الوكلاء من ذوي المخازي التي لا يعرفها الا اليهود ، فيظلون خاضعين لسلطان الخوف من التشهير .

١١ - ترى أنه ينبغي وضع أسس الاقتصاد العالمي على أساس الذهب الذي يحتكره اليهود ، لا على أساس قوة العمل والثروات الأخرى ، مع إحداث الأزمات العالمية على الدوام ، عن طريق استطلاع أسرار الحكومات والهيئات المالية والمضاربات في المصافق حتى يحيط الخراب بالجماعات والأمم ، فتضطر إلى الاستعانة باليهود لانقاذها من عثراتها ، وترضى بسلطانهم العالمي صاغرة مغتبطة .

١٢ - نشر الاشاعات المتناقضة ، وترويج المذاهب والنظريات المبهرجة المتضاربة عن طريق الصحافة والكتيبات واستغلال الأسماء الضخمة ، في كل مجالات النشاط الانساني ولا سيما المجالات الفكرية ، حتى تسلط الفوضى على العقول ، وتختلط عليها الأفكار ، فلا تميز خطأ من صواب ، وتغرق في بحران من البلبلة والاضطرابات ، وتعمى عليها الاتجاهات فتصاب بالمسخ والعقم ، فيما أن تشل ارادتها وتموت ، وإما أن تطلب الخلاص من محنتها ، ولن تجده إلا في الخضوع المطلق للاستبداد اليهودي العالمي ، وإذا شعرت أمة بالدوار فعلى اليهود خنقها قبل أن تستعيد أنفاسها ، ثم استعبادها الى الأبد بأعنف الوسائل .

١٣ - اليهود شعب الله المختار مشتتون في كل أقطار العالم ، وهذا التشتيت ضعف في ظاهره ، ولكنه في الحق مصدر قوتهم العظمى : وهو الذي وصل بهم إلى أعتاب السلطة العالمية : فمن خلال تشتتهم تمكنوا من أن يتسللوا الى كل جهاز في كيان الأمم : ويمتصوا دماءها ، ويتعاونوا متفرقين على تسخيرها واستنزاف قواها ، ولن تتمكن أمة من التخلص منهم مهما قاست من شرورهم إلا بالقضاء على كيانها كله في الوقت نفسه ، وهذا ما يجعل الأمم حريصة على رضاهم طوعاً وكرهاً .

١٤ - ينبغي لليهود توطيد سلطانهم في أوربا أولا . فإذا تمردت عليهم فلهم أن يؤدبوا بأمريكا أو الصين واليابان . ولهذا يجب أن يكون نفوذهم في هذه البلاد قويا مرهوباً .

هذه بعض مضامين البروتوكولات ولا أدعي انها خلاصة لها ، وإذا كان هناك موجب للاعتذار عمن اختارني لهذا التلخيص فبعض معاذيره أنني كنت المترجم الوحيد للبروتوكولات كاملة إلى العربية ، وأعترف بأنني هممت أن أعذر عن التعقيب بتلخيصها مع معرفتي بفضله وتقديرى إياه قدره ، ولكني لم أفعل ، ولعله خير ، ومما جعلني أهم بالاعتذار أنني أضيق بكل خلاصة لا تغني عن أصلها ، والبروتوكولات من هذا الطراز ، وحسبنا هنا الإشارة إلى أنني حين ترجمتها قد اضطررت كي أقربها إلى أذهان قرائها بالعربية إلى أن أضيف إليها مقدمة وهوامش عدة في معظم الصفحات ، فجاءت الاضافة أطول من النص كله ، وهذا مع الحرص على تجنب الفضول محافظة على تماسكها سلسلة .

وآفة الخلاصات أنها تغل العقل ، وتمنعه الاستقلال والاجتهاد ، وتحرمه متعة الجهد ومنفعته ، والجهد في رأيي اساس الاجتهاد لغة وعملا ، فمن لم يجهد لم يجتهد ، ومن حرم الاجتهاد حرم فرديته وخسر نفسه . وقد أصل هذه العادة في نفسي كثرة قراءاتي وتنوعها بين المطولات وخلاصاتها بأمهر الأقلام . حتى صرت لا أكتفي بأمهر الخلاصات لأي تأليف ما اتسع عقلي ومالي ووقتي لاستيعاب الأصل بكل دقائقه ، وقد دلتني تجاربي على أنني كنت الأربح في كل حال ، وزاد هذه العادة تأصلا في أغوار نفسي كثرة

تجاريبي وتنوعها خلال اشتغالي الطويل بالتعليم ولا سيما تعليم الأدب وأطيافه من جوهر كالنور . غاية في الخفاء والظهور فند تكون الدقائق أعون على الفهم من الجلائل حتى صرت اعتند أنه لا سبيل بغير الالمام بالدقائق في كل ما له اتصال بالنفس الانسانية - الى تصور حثيثة أو ظاهرة نفسية ؛ وفهمها وتذوقها والحكم عليها حكماً صواباً أو فريباً من الصواب . إلا أن يكون الأمر رمية من غير رام ؛ وقد يصيب غير الرماة ويخطيء الرماة ولكن هذا ليس بحجة على تعلم الرمي بل هو من موجباته . وإني لأومن إيماناً راسخاً عميقاً بأن أطول المسافات في المعرفة وقراءة الكتب المحكمة هي أقصر المسافات وهذا نقيض ما يبدو للنظرة العاجلة أو السطحية ؛ وأرى أن العقاد كان حكيماً ملهماً يقرر حقيقة علمية واقعية ؛ لا شاعراً يفيض خياله بصورة شعرية فحسب - حين قال :

ليست خلاصة كل شيء غنية

عنه ؛ وإن كانت خلاصة ماهر

فالشهد - وهو خلاصة الأزهار لا

يغنى العيون عن الربيع الزاهر

وبهذا الاعتذار الذي لم أجد مناصاً من الاستطراد اليه في هذه « الرسالة الأخوية » مصارحاً إياك بما أصرح به نفسي كما تقضي الأخوة - استودعك الله متمنياً لك خير ما يتمنى خلصاء الأخوة من البدء إلى الختام .

محمد خليفة التونسي

عَبَّاسُ مُحَمَّدٍ
العَقَّاسُ

النَّازِيَّةُ وَالْأَدِيَانُ

دار الكتاب اللبناني - بيروت

النازية والاديان

هذه سلسلة من ثلاث محاضرات اذاعها من محطة الاذاعة المصرية الكاتب الكبير والنائب المحترم الاستاذ عباس محمود العقاد ، وقاد في مستهلها ان الذي اوحى اليه باذاعتها قراءته رسالة لطيفة الحجم عنوانها « الاسلام والنازية » للدكتور فوزاد حسنين علي مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية .

والاستاذ العقاد اذا تناول موضوعا قتله بحثا واستقصاء وألم به جملة وتفصيلا ، ودعم رأيه باسناد قوية تحمل القارىء على قبولها في غير تردد . والاستاذ موفق دائما من هذه الناحية اكبر التوفيق . وفي المحاضرات الثلاث التي تطالع القارىء في هذه الكراسة الصغيرة الحجم ، مثل رائع على المام الاستاذ العقاد بالموضوع الذي يتناوله بالبحث المام المدقق الخبير ، وعلى وضوحه في بيان ما يقصد الى بيانه للناس ، وعلى قوة تدليله وسلامة منطقته .

خص الاستاذ العقاد المحاضرة الأولى بالكلام في نظرة النازي الى الآديان عموما فكان قوى الحجة فيما بين من أن القوم يعالجون الدين كما يعالجون قوة سياسية تحول بينهم وبين اغراضهم فالمسألة عندهم « ليست مسألة فلسفة ولا بحث عن الحقائق العليا في الوجود وليست مسألة آراء تثبت على التمهيص والاستقرار كما يريدون أن يوهموا اتباعهم المخدوعين »

وكان أول دليل قدمه الاستاذ العقاد على هذه الحقيقة هو من عمل هتلر نفسه ، فهو عندما كان يرى أن نجاحه السياسي متوقف على التزلف للاديان تزلفا للاديان ، ذلك أن انصار هتلر كانوا يرشحونه منافسا في زعامة الحركة النازية للقائد الكبير لدندورف وكان هذا القائد مكروها لدى رجال الدين لما اشتهر به من التطرف في الالحاد ، لهذا لم يتردد هتلر في ان يقول في كتابه « كفاحي » ان الحركة النازية لا ترمي الى القيام بدعوة اصلاح أو انقلاب في الدين ، ولكنها

ترمي الى اعادة تنظيم شعبنا من الوجهة السياسية وتنظر الى المذهبين الدينيين معا (البروتستانتية والكاثوليكية) نظرتها الى ركنين قيمين يبنى عليهما وجود شعبنا . ومن ثم تشهر الحرب على جميع تلك الاحزاب التي تغض من شأن هذا الاساس الذي تستقر عليه أخلاق الشعب وعقائده .

هذا ما كان يقوله هتلر قبل ان تقبض النازية على عنان الدولة فلما قبضوا عليه اصبح الاساس الذي كانوا يقولون ان اخلاق الامة وعقائدها قائمة عليه خطرا شديدا ينبغي ان يزول .

والواقع ان القوم بعد أن زال الخطر الذي كانوا يخشونه على زعيمهم من منافسه القوى ، بدأوا يتوقعون الخطر الشديد يحيثهم من ناحية العقائد الدينية التي تتناقض التناقض التام مع تعاليم النازية القائمة على القوة الوحشية والتجرد من جميع العواطف الانسانية .

يمثل هذا التدليل القوى الرزين يقدم الاستاذ العقاد آراءه الى الناس فلا تلبث ان تدخل الى عقولهم في غير استئذان .

وتكلم الاستاذ العقاد في المحاضرة الثانية على النازية والمسيحية فيين بطريقته المنطقية و الواضحة العوامل التي يلاحظها النازي في كرهه المسيحية فحصرها في ثلاث نقط : موقفهم من صاحب الرسالة المسيحية وموقفهم من الآداب التي جاء بها الدين المسيحي ومن الأخلاق التي بشر بها السيد المسيح وتابعوه الى هذا الزمان .

وبين الاستاذ ان سبب بغض النازية السيد المسيح انه منسوب الى السلالة السامية وهم يشهرون بالساميين ويجردونهم من جميع الفضائل ، فلا يستقيم في المنطق ان يشهروا بالسامية وان يدينوا بدين جاء به رسول من سلالة الساميين . وقد أشار الاستاذ الى ان بعض الكتاب الذين لم يعيبوا المسيحية ذهبوا في تبرير موقفهم الى الزعم بان السيد المسيح من سلالة آرية .

وعلل الاستاذ كره النازيين الكنيسة بانهم يريدون ان يخضعوها لنفوذهم واطماعهم وهي تأبى عليهم ذلك لأن لها اتباعا من الأمم الأخرى ولا ضمان لديها على بقاء النازية . ولو ان الكنيسة خضعت للنازية ونفذت اغراضها لما اعلنت

عليها الحرب ولا استعملت اداة للطغيان كغيرها من الادوات .

وعلى الاستاذ العقاد كراهة النازيين الاداب التي جاء بها السيد المسيح والاخلاق التي اوصى بها بان اخص هذه الاخلاق هي الرحمة والحكم النازي قائم على القسوة والوحشية . ولا يطبق النازيون الرحمة لانهم يأمرون ناشتهم وزعانفهم بقتل الخصوم جزافا بغير حساب

ومن الادلة القوية التي برهن بها الاستاذ العقاد على هذه الحقيقة انه لما كان سير نيفل هندرسون سفيرا لبريطانيا في برلين القى خطابا في الجماعة الجرمانية الانجليزية التي انشئت اذ ذاك لتحسين العلاقات السياسية بين الدولتين ، فنشرت الصحف الالمانية خطابه برمته في اليوم الثاني الا مقطوعة واحدة من قصيدة اميركية راجت ايام المعركة الانتخابية التي همى وطيسها في أيام الرئيس ولسون وهي المقطوعة التي يقول فيها الشاعر على لسان احدى الأمهات :

« من ذا الذي يضع البندقية على كتف وليدي ليقتل بها عزيز ام غيري ؟ » فقد حذف الرقيب هذه القطعة ، وظهر من أسباب حذفها أن النازيين يخشون الرحمة خشيتهم العدو المبين .

ليس هذه دليلا قاطعا حقا على أن النازيين قوم وحشية قلوبهم وانهم أعداء الرحمة الالقاء .

وبمثل هذا التدليل المستقيم دلت الاستاذ العقاد في محاضرته الثالثة على العوامل التي تدفع النازيين لكره الاسلام ومقته اشد المقت . اذ الاسلام عندهم لا يعدو ان يكون ثمرة من ثمرات السلالة السامية التي يشهرون بها وينكرون فضائلها ، واذا كانوا قد انكروا المسيحية التي هي دين وطنهم - لانهم نسبوها الى المصادر السامية - فالاسلام اولى بانكارهم لهذا السبب قبل غيره من الاسباب .

وفي الجملة قد حوت هذه المحاضرات الثلاث من الادلة على كره النازية الاديان ما لا سبيل الى التشكيك فيه . فهي على صغر حجمها رسالة وافية بالغرض الذي وضعت له . كفيلة بانارة الطريق امام اعين هؤلاء الذين تخدعهم الدعاوة النازية باكاذيبها ووسائل تضليلها ، حتى اذا خدرت اعصابهم وحملتهم على الاستكانة اليها ، سطت عليهم فافتروستهم افتراس الذئاب الجائعة .

فليقرأ الناس هذه الرسالة وليعوا ما حوت من براهين منطقية واضحة ومن
حجج دامغة تقطع الشك باليقين .

النازية والاديان للنائب المحترم الاستاذ عباس محمود العقاد

- ١ -

حضرات السادة والسيدات :- قرأت للدكتور فوزاد حسنين علي مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية - رسالة لطيفة الحجم عنوانها « الاسلام والنازية » يرد بها على الداعية الألماني فون رولف بيك Von Rolf Bekh الذي أوسع الأسلام والمسلمين طعنا وثلبا في مقالته عن الاسلام ، وهي احدى مقالات يعني باذاعتها هؤلاء المبشرون بما يسمونه « العقيدة الجرمانية الجديدة » . كأنما العقائد في عرف هؤلاء القوم شيء يرتبط بالحدود الجغرافية والهيئات الدولية ، ويتلون بألوان الخرائط ورسوم البلدان .

ففي رسالة هذا الداعية الألماني أن الاسلام دين ذلة وخنوع ، وأنه ثمرة من ثمرات العقل السامي الذي يحتقره النازيون ويلصقون به أقبح العيوب ، وأنه قد ضلل العالم منذ قرون ، ولا يزال خطرا على العالم في مقلب الأيام ، إذا لم تبادره العقيدة الجرمانية الآرية بما يصده ويكف أذاه .

وهذا الذي يقوله النازيون عن الاسلام مثل من الحملات المتوالية التي يحملونها على الأديان كافة ، ولا سيما المسيحية واليهودية ، فهما أيضا دينان ساميان ، الا فيما يزعمه بعضهم عن أصل المسيح وبولس الرسول ، وأنها من غير السلالة السامية كسائر العظماء الذين نبغوا في أرجاء العالم كله ، وان ولدوا في الشرق أو الجنوب .

ويسأل السائل : لماذا هذه الكراهية للاديان عند النازيين ؟ ولماذا هذه الحملة على الاسلام وغير الاسلام ؟

فيجب أن نذكر دائما ان المسألة عند هؤلاء القوم ليست مسألة فلسفة ولا بحث

عن الحقائق العليا في الوجود ، وأنها ليست مسألة آراء تثبت على التمهيد والاستقرار كما يريدون أن يوهمو أتباعهم المخدوعين . ولكنهم في الحقيقة يعاملون الأديان معاملتهم لقوة سياسية تحول بينهم وبين أغراضهم السياسية ، وطريقتهم في معاملتها طريقة المناورات الحزبية أو طريقة المراوغة والهجوم بين الخصوم والخصوم فيكتبون عن الاسلام والمسيحية كما يكتبون عن فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا والولايات المتحدة ، ويتبعون في مجاملتهم للدين أو جلتهم عليه أساليبهم في الدعوة الى مسألة دانزيج أو مسألة المستعمرات ، وأساليبهم في بلاغات التكذيب أو بلاغات التوكيد .

فلهذا تختلف كتابتهم عن الدين بين زمن وزمن على حسب اختلاف مركزهم من النفوذ والسطوة والأمل في كسب الأنصار وفرصة النكاية بالخصوم .

فيقول هتلر في كتابه « كفاحي » ان الحركة النازية لا ترمي الى القيام بدعوة اصلاح أو انقلاب في الدين ، ولكنها ترمي الى اعادة تنظيم شعبنا من الوجهة السياسية ، وتنتظر الى المذهبين الدينيين معا نظرتها الى ركنين قيمين يبنى عليهما وجود شعبنا . ومن ثم تشهر الحرب على جميع تلك الاحزاب التي تغض من شأن هذا الأساس الذي تستقر عليه أخلاق الشعب وعقائده . .

كان هتلر وأصحابه يقولون هذا يوم كانوا ضعافا يطمعون في كسب الأنصار من رجال الكنيسيتين الكاثوليكية والبروتستانية ، ويوم كانوا على الخصوص يرشحون هتلر منافسا في زعامة الحركة النازية للقائد الكبير لدندورف ، لان هذا القائد الكبير كان مكروها بين رجال الدين لما اشتهر به من التطرف في الاتحاد .

فلما قبض النازيون على عنان الدولة أصبح الأساس الذي كانوا يقولون أن أخلاق الأمة وعقائدها قائمة عليه ، خطرا شديدا ينبغي أن يزول ، وراح زعماءهم من أمثال أمراهن Ammrelahn وليوالدLewald وجروسGross ينادون بوجوب سحق الأديان والاكتفاء بما يسمونه عقيدة الجرمان ، ولهم يزل هتلر بعد هذا على طريقة المداورة وانتهاز الفرص ومعاملة الدين معاملته لدولة من الدول او لقوة من قوى الخصوم السياسيين ، فقال في حديثه مع راوشننج Rawchning أن جميع الأديان سواء كائنا ما كان الاسم الذي تنتحله لنفسها ، وكلها لا مستقبل لها ولا سيما بين الجرمان خاصة على التحقيق . وربما لجأت

الفاشية الإيطالية الى مصالح الكنيسة اذا طاب لها ذلك ، وهكذا أفعل أنا لامراء . ولم لا ؟ مصالح الكنيسة لن تمنعني ان استأصل المسيحية جذورا وفروعا والقضاء عليها في البلاد الألمانية » .

تلك هي الحقيقة الكبرى في موقف النازيين من الأديان كافة ، ولا اكتراث لما وراء ذلك من عناوين الفلسفات والمذاهب والبحوث ، فما كان شيء من ذلك ليجد أو لتسمح به السيطرة النازية لو كانت العقائد الدينية مؤاتية لأغراضهم السياسية التي يسعون اليها ، ومطالبهم الفكرية التي يفرضونها على الأمة ، فانما هي فرص ومناورات يدورون فيها كما يدورون بين الدول والأحزاب .

وليست العقيدة الجرمانية الآرية التي يغطون بها الامسألة فرص ومناورات من هذا القبيل ، فالبلاد التي يصبغونها بالصبغة الآرية هي البلاد التي فيها الحديد والموارد الصناعية والزراعية التي يحتاجون اليها ، مضافا الى ذلك مواقع الحرب وخطط الهجوم والدفاع وهكذا اشتملت الآرية الجرمانية على السويد والنرويج والدنمرك والبلجيك وهولنده وفرنسا الشالية والدولة النمساوية القديمة ، وتجاوزت ذلك مع مناجم الحديد والمعادن الأخرى في بلاد التشك والبولونيين والاكرايين وليسوا بالآريين . ولكنهم ينفعونهم بما عندهم من الخيرات والموارد الطبيعية ، ووجب من أجل ذلك أن يكون الآريون سادة العالم ليأخذوا الأقطار الآرية باسم القرابه ويأخذوا الأقطار الأخرى بحجة السيادة ويصبح الدين الجديد دين حق ودين فلسفة معقولة ، وما هو في لبابه الا دين المصلحة والمطامع التي تجمع بين السطوة والثروة في برنامج واحد .

وقد اخترع النازيون الدين الجديد لانهم لا يستطيعون أن يعملوا عملهم الا اذا تركوا ضيائر الناس في أيد غير أيديهم ، وتركوا عقائد الناس توافقههم تارة وتخالفههم تارة أخرى ، فلا غنى لهم عن شعب يطيعهم في سره وجهره وفي تفكيره وهواجس ضميره . وليس أدل على سوء عمل النازيين من حاجتهم الى تكميل ضيائر الشعب وتخسيرها لهم فيما يسوقونها اليه . فهم يريدون سفك الدماء وسلب الأمم والفتك بالخصوم واستباحة الأرواح والحقوق ، فلا بد لهم من دين غير هذه الأديان القائمة جميعا ، لانها على اختلافها ، لا تختلف بينها في تحريم هذه الاوزار واستتكار هذا العدوان . ومن هنا أصبح الدين الجديد كأنما هو ديوان من دواوين

الدولة أو جزء من أموال خزانها وأسلحة دفاعها ومجومها أو أصبح كما أسلفنا مساحة من الأرض يمكن أن تصبغ على الخرائط بلون من الألوان .

وقد كان ذلك شأن الاستبداد البروسي من أقدم عصوره الى احداثها في أبان الثورة الفرنسية وما بعدها ، فكان المستبدون البروسيون حريصين في كل عصر من العصور على تكبيل الضمائر واتخاذ عقيدة الاستبداد عقيدة للجسم والروح على السواء ، وغاية الفرق بينهم وبين النازيين أن آل هوهنز لرن لم يكن في استطاعتهم أن يهدموا الكنيسة لان نظام الدولة ونظام المجتمع معها كانا قائمين على أساسها . فلما شاعت الافكار الحديثة بين المثقفين والمتعلمين أرادوا أن يكبلوها ويستغلوها من طريق الفلسفة والتاريخ ، بعد أن أعياهم تكبيلها واستغلالها من طريق الكنيسة . فظهرت في رعايتهم وتحت اكنافهم مذاهب الفلاسفة الذين يقдسون الدولة ويجعلونها قوام الحق والخلق السليم ، وراجت على أيديهم ديانة فكرية يوشك أن تقيم الحكام في مقام الأرباب المعصومين .

فهي شنشنة قديمة في المستبدين البروسيين ، وليس الدين النازي الجديد الا الطبعة العصرية من فلسفة آل هوهنز لرن او فلسفة الدعاة الذين ظفروا منهم بالخطوة دون سائر الدعاة من الباحثين والأدباء .

وربما سأل سائل . . لماذا لم يصنع النازيون ما قد صنعه المستبدون الأقدمون ؟ لماذا لم يعقدوا بينهم وبين رجال الدين محالفة تجري على تبادل المنافع وتبادل التأييد والتمكين كما فعل بعض الطغاة في عصور الظلام ؟

وجواب ذلك أن النازيين لا يتسنى لهم ذلك « أولا » لأن المعارف الحديثة والعلوم التجريبية تأبى على العقول أن يحتكرها رجال الدين في تفسير مشيئة الله وما هو من إرادته في أسرار خلقه وقوانين وجوده . « وثانياً » لأن الأديان بطبيعتها عامة بين الأمم الانسانية والنازيون يعملون لعصبية وطنية خاصة لا تشترك فيها شعوب أخرى . وقد صرح بهذه العلة بعض دعائهم النابيين فقال رينولدكروس (Rninhold Krause) أن المسيحية عالمية في شعورها . ومن المستحيل أن توفق بين اعترافك بالريخ الثالث وقولك إن طاعة الله مقدمة على طاعة الانسان .

وهو يعني بذلك أن الجرمانى الذي يعترف بالريخ الثالث ينبغي أن يطيع هتلر

ولا يطيع الله إذا تعارضت الارادتان .

ولست اخال أن أحدا يعسر عليه تعليل هذا الولع الشديد من المستبدين بتكبييل الضمائر أو بمحاربة الأديان إذا حالت بينهم وبين تكبييلها على ما يحبون ، فإن المستبد الذي لا يطاع ليس بمستبد ولا قادر على الاستبداد ، والرعايا الذين يسمعون وحي العقيدة يعصون من يأمرهم بغيرها . فلا اتفاق ولا مصلحة بين الاستبداد وبين استقلال الضمير .

وفي هذه الخللة يتناقض الاستبداد والديموقراطية كما يتناقض القطبان المتقابلان . فمن مصلحة الاستبداد أن يموت الضمير ، ومن مصلحة الديموقراطية أن يبلغ أقصى مداه من الحياة والاستقلال . ولا خسارة على الديموقراطية في اطلاق الضمائر وتحويلها من الحرية ما ترضاه حتى في أوقات الهول والفرع وأزمات الفتن والحروب . فقد بلغ من حرمة الضمير في إنجلترا أن يبيح صاحبه الامتناع عن القتال ، ولم تكن هذه الحرمة المقدسة حائلا بين الأمة وبين تمام الآهة في أخرج الأوقات .

وجملة القول أن النازيين ينكرون الأديان لسبب واحد . . وهو أنهم يريدون تكبييل الضمير وتسخير الشعب الألماني فيما يأباه كل دين وتعافه كل عقيدة . وتلك علة موقفهم من الأديان على اختلافها ما دامت لهم مآرب لا تلائم مصالح الانسانية قاطبة ، وفي الحديثين التاليين نعرض للكلام عن موقفهم من الاسلام والمسيحية بشيء من التفصيل .

حضرات السادة والسيدات :- حديثنا الليلة عن النازية والمسيحية من سلسلة الأحاديث الثلاثة عن النازية والأديان .

وقد قلنا في الحديث السابق أن موقف النازية من الأديان عامة هو موقف المناورات الحزبية والاجراءات الحكومية وانهم لا يعارضون الدين من الأديان أو يحملون عليه وعلى رجاله لانهم يبحثون عن الحقائق العليا والاسرار الكونية ، ولكنهم يعارضون كل دين بمقدار ما يعرقل مطامعهم السياسية ، كأنهم يعارضون دولة من الدول أو حزبا من الأحزاب ، أو كأنهم يعالجون مسألة من مسائل السياسة التي يتناولها السفراء والوزراء .

هذا هو موقفهم من المسيحية والاسرائيلية ، وهذا هو موقفهم من الاسلام عقيدة وأمة . ولن يكون لهم موقف غيره مع دين من الأديان .

أما المسيحية - وهي موضوع حديثنا الليلة - فهم يلاحظون في كراحتها ومقاومتها ثلاثة امور :-

الاول - موقفهم من صاحب الرسالة المسيحية عليه السلام .

والثاني - موقفهم من الكنيسة وهيئاتها .

والثالث - موقفهم من الآداب التي جاء بها الدين المسيحي ، ومن الاخلاق التي بشر بها السيد المسيح وتابعوه الى هذا الزمان .

وهذه المواقف الثلاثة تقتضيهم أن يحاربوا المسيحية كما يحاربون خصومهم السياسيين .

فهم اذا نظروا الى شخص السيد المسيح وجدوا أمامهم رسولا منسوبا

السلالة السامية التي يشهرون بها ويجردونها من الفضائل العالية ، فلا يسعهم أن يجمعوا بين التشهير بالساميين وتعظيم السيد المسيح وما جاء به من الأدب والرسالة ، ولا يستقيم لهم أن يدينوا بالعقيدة المسيحية وينكروا كل ما صدر عن الأمم السامية من العقائد والثقافات والأفكار .

لهذا يعيرون المسيحية من أصلها ومعدنها . ومن لم يعبها من كتابهم ودعاتهم ذهب في نسبة السيد المسيح مذهبا أعجب وأشد إغالا في الإنكار والجحود . فزعم أن السيد المسيح من سلالة الآريين ، وأن الأوصاف التي وصف بها وجهه وشعره ولون بشرته تدل على أنه من بعض الجرمانيين الذين نقلتهم الدولة الرومانية إلى فلسطين . وكلا القولين لا يرضى المؤمنين .

أما موقفهم من الكنيسة فهو موقف الذي يريد أن يخضعها لنفوذه ويسخرها لأطباعه . فأما والكنيسة مضطرة إلى رفض الخضوع للنازيين لأنها غير متوقفة عليهم ، ولها اتباع من الأمم الأخرى ، وليس لديها ضمان بدوام النازية في بلادها - فالنازيون إذن يعلنونها الحرب كما يعلنون الحرب على العقيدة التي تستمد منها الكنيسة سلطانها وحجتها في الولاية الدينية .

وشأنهم مع الكنيسة الكاثوليكية التي هي خارج بلادهم ، كشأنهم مع الكنيسة الانجيلية التي تقوم بين ظهرانيهم : - تسخير في المطامع السياسية والمناورات الحكومية ، أو حرب وعداء في الجهر والخفاء .

وقد عارضهم كثير من القسيسين الانجيليين الذين لا ينتمون إلى كنيسة روما ولا إلى مرجع في البلاد الخارجية . لأنهم رفضوا أن يجعلوا الزعامة الهتلرية عنصرا من عناصر الإيمان وركنا من أركان الحياة الرومية .

وقضية القس نيمولر Niemoeller لا تزال عالقة بالأذهان ، فقد أهانوه وحاكموه لأنه أبى أن يكره ضميره وضامير أتباعه على الإيمان بما يملونه عليهم املاءهم للأوامر العسكرية ، وكانت لقضيته ضجة في العالم وفي ألمانيا نفسها أثارت أناسا من كبار القواد والسراة حتى بين المشايخين للمطامح الجرمانية .

وربما خيل إلى بعض الناس أن نيمولر هذا ناسك من النساك المتبتلين الذين يعارضون الحكومات لأنهم يعكفون على الروحانيات فينسبون في سبيلها

مقتضيات الحكم وخفايا السياسة .

فمن تخيل هذا فليعلم أن نيمولر قس على الطريقة الجرمانية التي قلما نرى لها مثيلا في الامم الأخرى .

فانه كان قائداً لغواصة في الحرب العظمى الماضية ، وبلغ من نخوته الوطنية أن قواد السفن الحربية الألمانية قبلوا تسليم سفنهم للانجليز وذهبوا بها الى « سكابافلو » لايداعها هناك في انتظار الفصل في مصيرها ولكنه هو رفض أن يذهب بغواصته لتسليمها وأصر على رفضه وانتهى باعتزال الخدمة في الأسطول . ثم اشتغل بأعمال المصارف وما إليها ، حتى اتجهت نيته الى دراسة العلوم الدينية فدرسها وخرج من الكلية اللاهوتية قساً لضاحية داهلم Dahelm في برلين .

فالرجل لم يعارض النازيين لأنه جاهل بشؤون الدولة أو لأنه ضعيف النخوة الوطنية ، فانه في الحقيقة أصدق نخوة وطنية من هتلر وجوبلز وجورننج الذين يتخذونها تجارة ويعبثون بالوطن كما لعبثون بالدين ولكنه عارض النازيين لأنهم يفرضون على الضحايا ما ليس يقبله رجل له ضمير ، ويحسبون كل فضيلة انسانية أو عقيدة نفسية العوبة في أيدي الحكام ومناورة من مناورات الاحزاب .

تلك هي علة موقفهم من السيد المسيح ومن الكنيسة المسيحية سواء منها الأجنبية والوطنية ، والكاثوليكية أو الانجيلية .

أما موقفهم من الآداب التي جاء بها السيد المسيح والاخلاق التي أوصى بها الناس فذلك هو الأساس الذي تبنى عليه كراحتهم لدينه ، وكراحتهم لكل دين يأمر بالعدل والاحسان .

فالرحمة هي أخص الأخلاق التي اشتهر بها عيسى عليه السلام واوصى بها مريديه وأتباعه . والرحمة هي الحائل الأول بين النازيين وبين ما يريدون من الفتك والغيلة واستباحة الدماء والحرمان .

وكيف يطبقون الرحمة وهم يريدون ان يأمرؤا ناشئتهم وزعانفهم بقتل الخصوم جزافا بغير حساب ، وكيف يطبقون الرحمة وهم يدبرون الخطط لاذلال الضعفاء وسلب الأوطان ؟ وكيف يطبقون الرحمة وهم لا يعترفون بحق الحياة

لمن يقف لهم في طريق .

فأكبر ذنب للأدب المسيحي عندهم أنه يوصى بالرحمة والاحسان وفي زعمهم أن « الشرف » هو الفضيلة التي يعارضون بها الرحمة كأنها نقيضان لا يتفقان . مع أن الرحمة زينة الرجل الشريف ، وليس من شرف أرفع من شرف الرجل الذي ينهأ شرفه أن يدوس الضعفاء ويستبيح من ليس له نصير .

وليس معنى مناداتهم بالشرف أنهم شرفاء ، ولكن مناداتهم بانكار الرحمة معناها أنهم غلاظ القلوب ، وأنهم لجأوا الى كلمة الشرف ليقولوا أنهم بذابوا فضيلة بفضيلة ولم يأتوا بدينهم الجرمانى الجديد خلوا من جميع فضائل الانسان .

حدث لما كان السير نيفيل هندرسون - المعروف بين المصريين - سفيراً لانجلترا في برلين أنه ألقى خطابا في الجماعة الجرمانية الانجليزية التي أنشئت يومئذ لتحسين العلاقات السياسية بين الدولتين ، فنشرت الصحف الألمانية خطابه برمته في اليوم التالي تحية له ومجاملة لقومه ، إلا مقطوعة واحدة من قصيدة أمريكية راجت أيام المعركة الانتخابية التي حمى وطيسها في أيام الرئيس ولسن . وهي المقطوعة التي يقول فيها الشاعر على لسان احدى الامهات : من هذا الذي يضع البندقية على كتف وليدي ليقتل بها عزيز ام غيري ؟

فقد حذف الرقيب هذه المقطوعة التي استشهد بها السفير لاستمالة قلوب الأمهات والنساء عامة الى الدعوة السلمية ، وظهر من أسباب حذفها أن النازيين يخشون الرحمة خشيتهم للعدو المبين وأنهم يستكثرون حتى على الامهات أن يرحمن أعزاء الامهات .

ومثل هذه المقطوعة قد راج بين الناطقين بالانجليزية فلم يخشوا منها خطرا على شجاعة أبنائهم ولا على حمية الجند الاميركيين والانجليز في حماية الذمار ، فان الرحمة لا تمنع الانفة ولكنها تمنع العدوان والحيلة التي يريدونها النازيون .

انما ينكر النازيون أدب الرحمة والاحسان . لانهم قد بيتوا النية على الفظاظة والاجرام ، ولم يفهموا أن يجعلوا النازية حزبا سياسياً فجعلوها عقيدة جديدة تكفل لهم غاية ما يشتهونه من الغدر والقسوة وإنقياد الاتباع بغير ندم ولا تبكيت

صمير ، لانها عقيدة تصيب الضباط بالشلل فلا تقوى على المخالفة والاباء .

قال بول شنبيل Paul Schnabel أحد أساتذتهم في جامعة هال Halle إن النازية ضرب من الدين لانها لا تنتظر من أتباعها أن يقتنعوا بها بل تطلب منهم أن يعتقدوها .

وقال الدكتور فرانك Frank أحد وزراء العدل النازيين « ان هتلر متفرد . كذلك الله . فهتلر والله شبيهان » . وقال الواز سبانيل Alois Spunill زعيم النازيين في وادي السار . . « إن هتلر مسيح جديد . . أعظم وأقدر من عيسى بن مريم ! » . وقال كرل كيرل Kierl القس المسخر للنازية . . أدولف هو روح القدس الصحيح » .

وهذه أمثلة من مئات الاقوال التي تفيض بها الكتب والخطب والمقالات الصحفية بين النازيين ، وهي أمثلة نفهم منها لماذا احتاجوا الى محاربة الاديان . فليس بين هذه الاديان دين يمهّد لهم طريق البغي الذي سلكوه ، ولولا ذلك لتركوها وشأنها وساروا في طريقهم سياسيين وطنيين غير محتاجين الى اختلاق دين جديد .

فحملتهم على المسيحية أشبه شيء باحتيال اللصوص على اخلاء الطريق أولا من الحراس والرقباء ، ثم الانقضاض على الفريسة في أمان !! وليست نظرتهم الى الاسلام بأسلم من نظرتهم الى المسيحية فكلتاها نظرة احتيال وتدبير اغتيال ، وموعدنا ببيان ذلك حديث تال » .

حضرات السادة والسيدات :- في حديثنا الاول عن النازية والأديان قلنا ما فحواه أن مسألة الأديان عند النازيين مسألة مناورات سياسية وليست مسألة بحث عن الحقائق الكونية .

وفي حديثنا الثاني وصفنا موقفهم من الدين المسيحي : سواء في نظرتهم الى صاحب الرسالة المسيحية او الى الكنيسة ورجال الدين عامة أو الى الآداب والأخلاق التي بشر بها السيد المسيح ، وخلاصة هذا الموقف من جميع جهاته أنهم يحاربون المسيحية كما يحاربون عقبة من العقبات الدولية ، أو خطة من خطط الأحزاب .

وفي حديثنا الليلة نتكلم عن موقفهم من الاسلام ، وهو في لبابه لا يختلف مما تقدم ، مناورات وفرص وأحوال تتحول على حسب المطامع والتزوات .

ولموقفهم من هذا الدين وأصحابه ثلاثة جوانب تتلاقى في الاساس والغاية ، ونريد بها الى جانب النظر الى الاسلام من حيث هو عقيدة نفسية وقرائن اجتماعية ، وجانب النظر الى المسلمين من حيث هم شعوب وحكومات يعاملها النازيون أو يرجون أن يعاملوها . ثم جانب النظر الى الاسلام والمسلمين كما يمثلونه في بلادهم للأمة الالمانية عامة او للطائفة النازية على التخصيص .

فالاسلام من حيث هو عقيدة نفسية ليس بالتنزيل الالهي في رأى النازيين ، والا لأمنوا وأوجبوا على أنفسهم أحكامه وعباداته .

فهو اذن عندهم ثمره من ثمرات السلالة السامية التي يشهرون بها وينكرون فضائنها . وحكمها عندهم كحكم كل عقيدة صادرة من بلاد الساميين بلا استثناء واذا كانوا قد أنكروا المسيحية - التي هي دين وطنهم - لانهم نسبوها الى المصادر

السامية ، فالاسلام أولى بانكارهم لهذا السبب قبل غيره من الاسباب . بل هم قد استطاعوا أن يرجعوا بنسب السيد المسيح الى الجرمان على عادتهم في نسبة كل عمل عظيم الى الآريين ، ولكنهم لا يستطيعون أن يتحملوا مثل هذه الاوهام في نسب محمد عليه السلام لأنه نسب عربي صريح من أبويه ، لا موضع فيه لتشكيك أو التباس .

فالاسلام على هذا ما أن يكون تنزيلا سماويا في رأي النازيين ، وهم يكذبون اذا وصفوه بهذه الصفة وهم لا يؤمنون به ولا يوجبون أحكامه وعبادته .
واما أن يكون عملا من أعمال البشر ، وحيث ينعتونه بكل ما نعتوا به الافكار السامية وكل ما أنكروه على جميع الساميين .

قال هتلر في الفصل الحادي عشر من كتابه « كفاحي » بعنوان السلالة والشعب : الآري وحده هو صاحب المرتبة الاولى من بني الانسان اذا قسمناهم الى ثلاث مراتب : مرتبة الذين ينشئون الثقافة ، ومرتبة الذين ينقلونها ، ومرتبة الذين يهدمونها . فهودون غيره الذي أقام الاسس ورفع الجدران لكل بناء من أبنية الثقافة الانسانية ، وانما مظهر البناء وطلاؤه هو كل ما يعزى الى مختلف الشعوب الاخرى .

ثم لاح له أن نهضة اليابان القوية قد تناقض ما يقرره من هذا الرأي الشامل فقال . . وليس بحق - كما يبدو لبعض الناس - ان اليابانيين قد أخذوا الاداء الفني من أوروبا فأضافوه الى ثقافتهم الاصلية ولكن الحق أن الصناعة الاوربية والثقافة الاوربية معا قد صبغت هناك بصيغة الحضارة اليابانية . وليس أساس المعيشة اليومية في اليابان الحديثة تراثا وطنيا على ما يتراءى من الملامح الخارجية التي تبده أنظار الاوربيين لما بينها وبيننا من التباعد . انما أساس معيشتهم اليومية ، أي جهود الآريين فاذا اتفق من اليوم أن انقطع أثر الآريين في حياة اليابان ، أو فرضنا انهيار كل من أوروبا وأمريكا ، فقد يلبث التقدم الصناعي والعلمي في اليابان فترة اخرى ، بيد أن المعين سينضب في خلال عشرات قلائل من السنين » . .

وهذا حكم الزعيم النازي الأكبر على كفاءة العقل الياباني لأنه يخالف العقول

الآرية . فليس للساميين نصيب أكرم من هذا النصيب بين النازيين ، وهم كما تعلم لا يبلغون من القوة السياسية والنهضة العلمية في العصر الحاضر مبلغ أهل اليابان .

والعبرة في حكم هتلر على أهل اليابان عبرتان : احدهما هذا الرياء الذي لا يمنع هتلر ان يعامل الأمم كل يوم بميزان ، وتستوي في ذلك جميع الاجناس .

والعبرة الأخرى أنه يحصر المزايا الانسانية والحقوق الأدبية في سلالة الآريين ، ويجرد من عداها من أشرف المزايا والحقوق . فلا أمل لأمة في الكرامة الانسانية على يديه .

أما الجانب الذي ينظر فيه النازيون الى المسلمين فهم خادعون فيه لا محالة . وأخدع ما يكونون حين يظهرون الاشفاق على المسلمين من الظلم والسيطرة الأجنبية . لأن النازيين يحرمون الشعب الالماني من الحرية السياسية فكيف يسمحون بها للمسلمين الساميين ؟ ولأن النازيين يستكثرون على أقطار أوروبا التي يحكمونها أن تكون لها صناعات كبرى وثروات مستقلة ، فاذا حكموا الشرق فكيف يبذلون له ما يضمنون به على القارة الأوربية ؟؟

هذا خداع لا نطيل في تنفيذه وتبيين خفاياه . فكل اطالة في هذا الصدد سوء ظن بالعقول .

على أن سوابق هتلر والنازيين عامة تجيز لنا أن نقول . . أن قضية فلسطين كانت أوفر القضايا الشرقية حظا من لغط النازيين ومن دعواهم الغيرة على المسلمين ، ومع هذا لا نستبعد على النازيين إن كتب لهم النصر أن يصالحوا اليهود على الخروج من المانيا لاحتلال فلسطين وما جاورها فليس هذا بأعجب من مصالحتهم الشيوعيين بعد أن وسموهم بأنهم حثالة المجرمين ، ولا بأعجب من مشاركتهم اليابان في بناء النظام العالمي الجديد بعد أن قال فيهم الزعيم النازي انهم عالة على حضارة الأوربيين والامريكيين ولا بأعجب من اثارته اليابان اليوم على الولايات المتحدة وهي دعامة الثقافة الانسانية التي تقتبسها الاجناس

الصفراء ، ولا تحسن الاقتباس !

وبينا ينادي النازيون المسلمين أنهم في خطر ، وأنهم قادمون اليهم لانقاذهم من جميع الأخطار ، اذا بهم يتحدثون بينهم عن المسلمين فيقولون إنهم هم الخطر على الحضارة الأوروبية ، وأن اليقظة الاسلامية يجب أن تقبر في مهدها قبل ان يستفحل امرها ويتفاقم شرها ، وقبل أن يتسنى للمصلحين في تركيا وايران ومصر والبلاد العربية أن ينفضوا غبار الركود عن ذلك الدين القديم !

وتلك هي خلاصة الرسالة التي ادرنا على موضوعها هذه الاحاديث الثلاثة ، هي رسالة الداهية النازي « رولف بك » عن الاسلام .

ومن المعقول أن يكون للنازيين كلامان - لا كلام واحد - عن المسلمين والاسلام .

فالكلام الذي يقولونه للمسلمين هو كلام تعليق وخداع واستغفال وفيه شيء من معنى الثناء أو توخي الرضاء .

أما الكلام الذي يقولونه لأتباعهم وتلامذتهم عن المسلمين ، فينبغي أن يكون على نقيض ذلك . . ينبغي أن يكون قدحا في آداب المسلمين لانهم بغير ذلك لا يقنعون أتباعهم وتلامذتهم أن بلاد الاسلام غنيمة مباحة للآريين ، وان فتح الآريين اياها نعمة على الشرقيين والغربيين ، وان تركها في أيدي أبنائها خطر على العالم الأوربي في المستقبل كالخطر الذي استهدف له فيما مضى ، وان ابناء تلك البلاد لا يستحقون ما يفيض فيها من الخيرات . فانها خيرات ضائعة او معكوسة ما لم يتداركها ابناء الشمال وهي لهم مال حلال !

وعبث أن تناقش الآراء التي في رسالة « رولف بك » مناقشة النقد والاستدلال بالحجة والبرهان . فهذه الرسائل وأمثالها لا تكتب في المانيا لتمحيص رأي أو للبحث عن حقيقة . وغاية ما يقصدونه بها غرض موقوت يتقلب مع الاحوال .

الا اننا نتخذ منها مثلاً من الأمثلة للدلالة على مبلغ السخف في أساليب هؤلاء النازيين الفكريه ، او على قدرتهم احياناً على تضليل أنفسهم في فهم اخلاق الشعوب ، وقد يتوقف على فهمها الصحيح نجاحهم في ميادين الحرب والسياسة .

فرسالة « رولف بك » مفتحة بصورة بدوي ساجد على الرمال الى جانب جملة في الصحراء وهي عنده مثل الذل والضراعة وتمريغ الكرامة الادمية في العبادة ، ومن أجل ذلك لا يستغرب المؤلف ان يبرغ المسلم وجهه بين يدي الأجنبي المستعمر كما يبرغه في سجدة الصلاة .

وهنا السخف كله في استنباط الأمور والقياس عليها . اذ الواقع ان هذه المسافة الشاسعة بين الخالق وهي التي تجعل المسلم عزوفاً عن افناء نفسه في طاعة مخلوق مثله ، وعلى نقيض ذلك دين الآرية الجديدة - دين النازيين - الذي يسول لابنائهم عبادة هتلر وعبادة كل زعيم فمن دان بعبادة الانسان فمن السهل ان يعبد انساناً من فاتحي بلاده ، كما يعبد انساناً من صميم الجرمان .

وعلى هذا يقاس سائر ما في مثيلاتها من السخف والزيف والاستخفاف بالحق والعقل والضمير . بل يقاس على مواقفهم في شؤون السياسة . فان الذين يسخرون المقدسات لاغراضهم أو يخترعون المقدسات اختراعاً - لن يقولوا في السياسة قولاً يسلم من الغرض المتقلب ويحسن الاطمئنان اليه .

عَبَّاسُ مُحَمَّدٍ
العَقَّادُ

هتُلف في المِيزانِ

دار الكتاب اللبناني - بيروت



هتلر یو صبح نښه

مُقَدِّمَةٌ

فى هذا الكتاب ما أنا بقاض ، ولا يسرنى أن أكونه
لأننى لأحسن التسوية بين الخصمين فى قضية الطغيان والحرية الانسانية .
وأحمد الله أننى خصم قديم فيها منذ نيف وثلاثين سنة ، أى فى السن التى
يراع فيها بعض الناس بمظاهر السطوة والافتحام ، والتى يخيل إليهم فيها أن
الشجاعة والبغى شئ واحد ، وأن العزة هى إذلال الآخرين ، وأن بعد الذكر
هو حسب الانسان من المجد ، ولو كان ذكراً بالفتك والشر والايذاء .
فمنذ نيف وثلاثين سنة كان لى شرف الخصومة فى هذه القضية الخالدة ،
وكنت أبحث فى أعماق نفسى فلا أحس فيها غير المقت والازدراء لأولئك الذين
سموهم عظماء التاريخ لأنهم طلبوا المجد والشهرة من طريق الغزوات والفتوح ،
وقاسوا عظمتهم بمقدار احتقارهم « للانسان » .
وقد صدرت فى مصر كتب ومجالات أشاد أصحابها يومئذ بتمجيد هؤلاء
العظماء وفى طليعتهم نابليون الأول ، فكتبت ^(١) أقول :
« . . . معظم مثل نابليون فى عيون الحمل بقدر استهائته بأرواح الناس ،
وتكبر قيمة حياته بمقدار استصغاره لحياتهم ، وليس هو من قبيل أولئك العظماء
الذين يكبرون وزان ما لهم من المقدرة على تهذيب الناس واصلاح شئونهم ،
وليس فى طاقة العامى أن يتصور كيف أن رجلا يمت الألوفا لا يكون أهلاً
للالجلال والتبجيل

(١) الجريدة فى السابع من شهر يوليو سنة ١٩١٢

« . . . نابليون رجل من مجانين المطامع ، أولئك الذين تملك عليهم الآثرة عقولهم فلا تدع فيها موضعاً لغير أطماعهم وشهواتهم . لا يدور بخلدكم إحساس لغيرهم أو أمل غير أملهم ، فلا يحسبون أن في الوجود أرواحاً تجب صيانتها غير أرواحهم ، أو أن لسواهم أملاً يحرص عليه كما أن لهم أمانى وآمالاً

« . . . لقد جعلوا نابليون مثلاً لقوة الإرادة ، ويظهر أنها أقل صفات نابليون قبولاً للنزاعة في رأى الناس . على أنى لا أعلن رجلاً يأتى مثل هذه الأعمال مطلق الإرادة أو مختاراً بأتم معنى الاختيار

« فالإرادة عند جماعة السيكولوجيين قوتان : قوة دافعة تغرى صاحبها بالاقدام وتهون عليه العوائق ، وتكون هذه القوة على نهايتها عند المحنون الذى لا يكاديههم بأمر إلا فعله ، ولا يتضح له نهج إلا سلكه ، غير متدبر فى العواقب ولا حاسب حساب العوائق

« وقوة مانعة تعتمد بالنفس عن كل ماتهم به فلا يكاد صاحبها يقدم على أمر لفرط توجسه وكثرة ما يمثل له وسواسه من أسباب الفشل والخيبة ، وهى عند المرورين الموسوسين على أشد ما تكون

« والإرادة الصادقة هى الموازنة بين هاتين القوتين ، والدائرة بينهما آناً إلى هذه وآناً إلى تلك ، كما تقضى به الحال ، وأتم أشكالها حسن الترجيح بين الدواعى والموانع ، وتقدير عامل الاقدام فى موطن الاقدام ، أو عامل الاحجام فى موضع الاحجام .

« وما كان نابليون قوى الإرادة بهذا المعنى ، ولكنه كان رجلاً قوياً طموحاً الأمل شديد اندفاع المطامع ، حتى لقد ينسى وهو ناهض إلى أمسه ما لا ينبغي أن ينساه المحرب الحكيم ، ولولا ذلك ما صرعت مطامعه صرعات ، آخرها تلك الصرعة التى أوقعت فى يد هدرن لو »

ثم ختمت ذلك الفصل قائلا :

« إن من طبع المرأة الضعيفة والولد الصغير أن يستكينا إلى القوة حيث كانت وهما اللذان يعجبان بالقوي ولا يطيقان أن ينظرا أثر قوته في نفع النوع الانساني والاضرار به . أما الناقد الاجتماعي فيجب أن يكون أبعد من ذلك نظراً وأصدق حكماً .

« وما أشبه أخلاق الجمهور بأخلاق المرأة والطفل . فانه لينتظر من يتأله عليه فيعبد ، وقد كان ذلك شأنه مع نابليون

« كان هذا الرجل يسبح في لجة من الدم والناس تنظر إليه فلا يعنيه من أمره إلا أن يشاهدوا براعته في السباحة .

« كان يهدم المدن ويدمر الأقاليم ويدك الممالك وهم ينظرون من كل ذلك إلى خبرته بصف الربمات العسكرية ، ودربته على تنظيم المواقع وإطلاق النيران « لقد مضى زمان تلك العظمة . وحق على الكتاب في هذا المصر أن يعودوا الناس إكبار العظمة التي يجمل بهم إكبارها . . . »

* * *

هذا ونابليون هو نابليون .

والفرق بينه وبين طغاة الحرب الحاضرة كالفرق بين المارد والأقزام .
والخطر منه وهو في حوزة التاريخ ممتنع كل الامتناع ، إلا أن يكون خطر القدوة والإيحاء .

فالיום والخطر قريب ، والعالم قد مضى عليه مائة ونيف وعشرون سنة بعد حروب نابليون ، والناس يحق لهم أن يربحوا ولا يخسروا من تجارب هذه السنين ، لا يطيب لي أن أقضى اليوم حيث خاضت بالأمس ، ولا أرى من واجب الكاتب أن يحكم ويقول : هذه أسباب الحكم ، بل أرى واجبه الذي لا واجب

له غيره أن يخاصم ويقول : هذه أسباب الخصومة ، وأن يتحرى الصدق في خصومته والاستقراء الصحيح في بيانه ، لأن الخصم الصادق في قضية الطرفين والحرية الانسانية أعدل من القاضى الذى لا يميل هنا أو هناك في هذه القضية والخصومة الصادقة هي التى أعد بها القارىء في هذه الصفحات ،

الفَصْلُ الْأَوَّلُ

مخلوق الطُّرُوف والمَصَادِفَات

مقدمة

كثيرا ما يكون النظر فى حركة عالمية أو حرب عالمية ، بمثابة النظر فى حياة رجل واحد هو الرجل الذى ابتعث تلك الحرب أو اقترنت باسمه تلك الحركة ، كما هى الحال فى اقتران اسم هتلر بالحرب العالمية الحاضرة وهنا الصعوبة الأولى !

فما هو المقياس الذى نرجع اليه فى تقدير رجل من رجال الحوادث أو رجال التاريخ ؟

تختلف المقاييس هنا أشد اختلاف ، ولكن ما من خلاف قط فى أن للمقياس الذى يعتمد عليه الذهن العلمى أو يعتمد عليه جماهير الدماء من الناس — هو أبعد المقاييس قاطبة عن الصواب وعن الانصاف لأنهم معطلون الرجل بمقدار السيطرة التى فى يديه ، أو بمقدار الضجة التى يثيرها من حوله

والخطأ ظاهر فى كلا المقياسين

إذ الوصول إلى السيطرة مما يتاح ، فى أيام القلاقل خاصة ، لأناس لا خطر لهم فى سائر الأيام ، وليست لهم قيمة انسانية رفيعة إذا وزنوا بميزان الأخلاق والفضائل التى يعتز بها « بنو الانسان »

وقد وصل « باجي سقا » وهو ابن سقاء قاطع طريق إلى كرسى الامارة في بلاد الأفغان ، ووصل قاطع طريق آخر يجهل القراءة والكتابة إلى رئاسة الدولة في بلاد المكسيك وهو فرانسيسكو بانشو (١٨٧٧ — ١٩٢٣) الذى اشتهر باسم فيفايلا^(١) وشغل العالم الجديد فى أيامه عن كل بطل وكل كوكب من كواكب الشهرة السياسية أو الفنية

وعلىنا أن نذكر أن الكفاءة الضرورية للوصول إلى السيطرة لاتقاس بحجم الدولة التى يسيطر عليها الرجل . فالروسيا ، مثلاً ، عدتها وعدة البلاد الخاضعة لها زهاء مائة وثمانين مليوناً من النفوس الآدمية ، ولا يازم مع هذا أن يكون ستالين أقدر من مصطفى كمال بضع عشرة مرة . . . لأن الترك أقل عدداً من الروس بهذا القدار

بل يتفق كثيراً أن يكون الوصول إلى السيطرة فى البلاد الصغيرة أصعب من الوصول إليها فى الدول الضخام ، كما يتفق كثيراً أن تكون قيادة الزورق الصغير أصعب من قيادة السفن « الراسيات فى البحر كالأعلام » ومتى وصل الرجل إلى السيطرة فى دولة كبيرة فإسهل مايشغل العالم ويثير الضجيج ويملاً الاسماع ! وما أعسر التغلب عليه واجلأه عن مقعد الحكم ومرجع التصريف والتدبير !

ان الذى يحاربه يومئذ ليحارب الدولة بأسرها ، وانه ليجتاج إلى ثورة جأحة لاتندفع اليها الشعوب فى كل لحظة ، ولا تجازف بها إلا فى حالة القنوط . وربما بلغت الشعوب حد القنوط بعد أن يكون حاكماً المسيطر عليها قدفارق الحياة فلا ضخامة الحوادث إذن ولا ضخامة الدولة ولا اتساع مدى السلطان بالمقياس الصحيح لكفاءات الرجال

(1) Francisco Pancho , Viva Villa

وأما المقياس الصحيح أن تفصل بين فعل الرجل وفعل الظروف التي لا فضل
له في خلقها ولا يد له في توجيهها ، وإن نقله من ظروفه لنعرف ما هو مستطيع أن
يعمل وهو بعيد عنها

أو المقياس الصحيح هو أن تقيس ظل الرجل بعد نزوله من رأس القمة التي
هو واقف عليها . فلعله لو وقف على الأرض ولم يقف على رأس تلك القمة لما ألقى
من الظل بعض ما يلقيه سائر الناس

وما نعرف أحدا من الحاكين بأمرهم في عصرنا هذا قد أفادته « الظروف »
مثل ما أفادت أدولف هتلر زعيم النازيين على التخصيص
فهو بحق مخلوق « الظروف » والمصادقات : لو انتقل من بيئته أو من زمانه
أو من جيله لما تخيلتَ له شأننا كهذا الشأن الذي انتهى إليه

ملحوظة الظروف والمصادفات

فلو رجعنا إلى موازين الدماء لما كان مصطفى كمال شيئاً إلى جانب أدولف هتلر . قياساً إلى الفارق العظيم بين ما يقدر عليه حاكم الألمان وما يقدر عليه حاكم الترك في مجال السياسة العالمية

لكن الواقع أن القياس معكوس ، وأننا نجحف أبلغ الاجحاف إذ نسوي بين الزعيم التركي والزعيم الألماني فضلاً عن ترجيح هذا على ذاك ، لأننا في هذه الحالة نسوي بين من يعارض التيار ومن يحمله التيار ، وننسى أن مصطفى كمالاً يحج والدنيا كلها عقبات وسدود في وجهه ، وإن أدولف هتلر نجح والطرق كلها مفتوحة بين يديه

فما من طائفة ولا حادثة وقعت في ألمانيا خلال الجيل الماضي إلا أفادت هتلر على عمد أو على غير عمد

وما من شيء كان عائقاً له إلا كان في الوقت نفسه عائقاً لألوف من ذوى الجاه والسلطان يسعون لرفعه عن الطريق ، ويستفيد هو من سعيهم بغير مجهود كان الألمان جميعاً يطلبون تبديل الحال التي كانوا عليها بعد الحرب العظمى وكانوا في ذلك فريقين :

فريقاً يريد تبديل الحال للعود إلى ألمانيا القديمة : المساندة التي تسيطر على الدنيا وتناهب للغارة الكبرى كرة أخرى ، وهم أصحاب المصانع والضياع والقادة والضباط ولا سيما الصغار منهم الذين ضاعت وظائفهم بضيايع الجيش الألماني كما

ضاعت عليهم أحلام المجد والخيلاء

وفريقاً يريد تبديل الحال لبناء الدولة الألمانية على أساس جديد ، وهم الفقراء والأوساط والعمال ، ودعاة الحرية وأعداء العهد القديم

وكلا هذين الفريقين كان يضرب بمعموله في أساس النظام القائم ، ويفتح من وراء كل ضربة يضربها ثغرة في السد الذي كان يصد النازيين ويحمى عليهم مدارج الصعود

كان المحافظون من الأغنياء حاققين ، لأنهم فقدوا ما كان لهم من الجاه في الدولة القديمة ، وأصبحوا على خطر من الشيوعية والاشتراكية وسائر المذاهب الحمراء .

وكان الأحرار من أوساط الناس حاققين ، لأن هبوط أسعار النقد ضيّع ما ادخروه وضيّع ما يكسبون من رزق ضئيل
وكان العمال حاققين ، لأنهم لا يجدون عملاً وقد بلغ عاطلهم في بعض السنوات سبعة ملايين .

وكان المظنون — أو كان الواجب — أن يحارب الشيوعيون هتلر وأشياعه كما يحاربون ألد الخصوم

غير أنهم جروا على حماقتهم المبهودة في إثارة الديمقراطيين والاشتراكيين المعتدلين بالعداء قبل كل عداء ، لأنهم يخشون من دعوتهم أن تنزع منهم جميع أنصارهم . ولا يخشون كما اعتقدوا ، في ذلك الحين ، أن يهجرهم أنصارهم ليلحقوا بالنازيين والمتشددين من أحزاب اليمين

واتفق من غرائب المصادفات في الوقت الذي ظهر فيه هتلر أن رجحت كفة ستالين في روسيا على كفة تروتسكي المبشر بتعميم الدعوة الحمراء في أنحاء العالم ، فقررت حكومة « السوفييت » أن تنفض يدها من الشيوعيين في البلاد الخارجية

فلا تدمر بالمال والمعونة ولا تساعدوا بالدساتير ونشر الدعوة ، فما هي إلا أسابيع معدودات حتى نفذت أموال الشيوعيين الألمان بحجرت صناديقهم عن اطعام العمال العاطلين وعن بذل الاجور والمرتبات للوكلين بشئون الحزب والداعين إلى نشر مبادئه حيث يقدرون لها الرواج والافئاع . فتحولوا الوفا الوفا إلى معسكرات النازيين : إلى المعسكرات التي كان ملوك الصناعة في تلك الآونة يتربعون صناديقها بالآلات والامداد ، ويهيئون لها شراء المعدات والأجساد بالاطعمة والأزواد ! وأعجب من هذا أن نجىء المعونة بعد المعونة لهتلر وأشياعه من موظفي الدواوين وهم أيدي الحكومة وعيونها والمفروض فيهم أنهم أنصارها وأعوانها على أعدائها . ولكنهم كانوا — إلا قليلا — جنود العهد القديم وتلاميذ الاستبداد ، فبذلوا لهتلر وأشياعه قصارى ما استطاعوا أن يبذلوه ، وما هو بقليل

فلما قضى القضاء على هتلر بالسجن خمس سنوات (١٩٣٣) لأنه شهر السلاح في وجه الدولة وأقدم على العصيان — لم تمض عليه نسمة شهور في السجن حتى عفى عنه خلافاً لأحكام القانون التي تحرم العفو عن كل مجرم عائد سوماً قبل ذلك في العقوبة ولم ينب عن مقارفة الاجرام ، وكان هتلر قد حوكم وحكم عليه قبل ذلك بالحبس ثلاثة « أشهر » وقوة التنفيذ .. فلم تحل هذه السابقة دون العفو عنه مرة أخرى . بعد شهور قضاها فيما يشبه معيشة القصور . بل لم يقبل المحلفون توقيع



معلم وزملاؤه في السجن (تلا حفظ مدينة الزمر التي كانت أمامه)

الحكم إلا بعد أن أكد لم رئيس المحكمة أن العفو صادر لاحالة ، فلا ضرورة
لاظهار القضاء بمظهر الخالف لنص القانون الصريح

ولما تبين أن « الجنسية الألمانية » لا تشمل له لأنه رعية الحكومة النمساوية
احتالت وزارة برنويك على الأمر بتعيينه في وظيفة « شرفية » تسمى وظيفة
الاستشارة في تلك الحكومة Regierungsrat ليصبح الماني الجنس بحكم
التوظيف ، وفاقاً لدستور فيمار الذي يشمل بالجنسية الألمانية كل أجنبي يشغل
وظيفة في حكومات الولايات ، أو حكومة الريخ الكبرى

ويبدو من هذا وأشباهه مبلغ الاعضاء والاملاء الذي حف بهتلر وأشياعه وهم
ينشرون دعوتهم ويهددون خصومهم ويستكثرون من أذنانهم ، أمنين مطمئنين
لايجازفون ولا ييأسون من المعونة عند الحاجة اليها . لأن دستور فيمار قد النى
حكم الاعداء فلا خوف منه .. ثم لا خوف من السجن الذي يعقبه العفو بعد قليل

ثم آتت الدسائس في حاشية المارشال هندنبرج مابدأته الحوادث والازمات ،
فانتقلت بهتلر من شغب الطريق إلى ديوان الاستشارة

وكان المارشال الكبير قد وهن واستسلم ، وثقلت عليه وطأة السنين ،
فأصبح أرجوحة تتردد بين رجلين من دهاة زمانه : أحدهما أمين سره القديم
الجنرال فون شليخر الذي قيل فيه أنه أحق بقيادة البحر « لبراعته في ارسال
القذائف تحت الماء » . . وثانيهما فون يابن الذي كان يساكن الرئيس هندنبرج
في قصر واحد ، وقيل فيه أن قدرته على خداع المحترسين منه العارفين بخداه أكبر
من قدرته على خداع الوائمين به المطمئنين اليه ا

كلا الرجلين كان يريد ان يضرب منافسه ويقضى على تفوذه وأن يستخدم



هريجور شترامر مؤسس «النازي» في ألمانيا الشمالية
وأحد ضحايا هتلر في المذبحة المشهورة

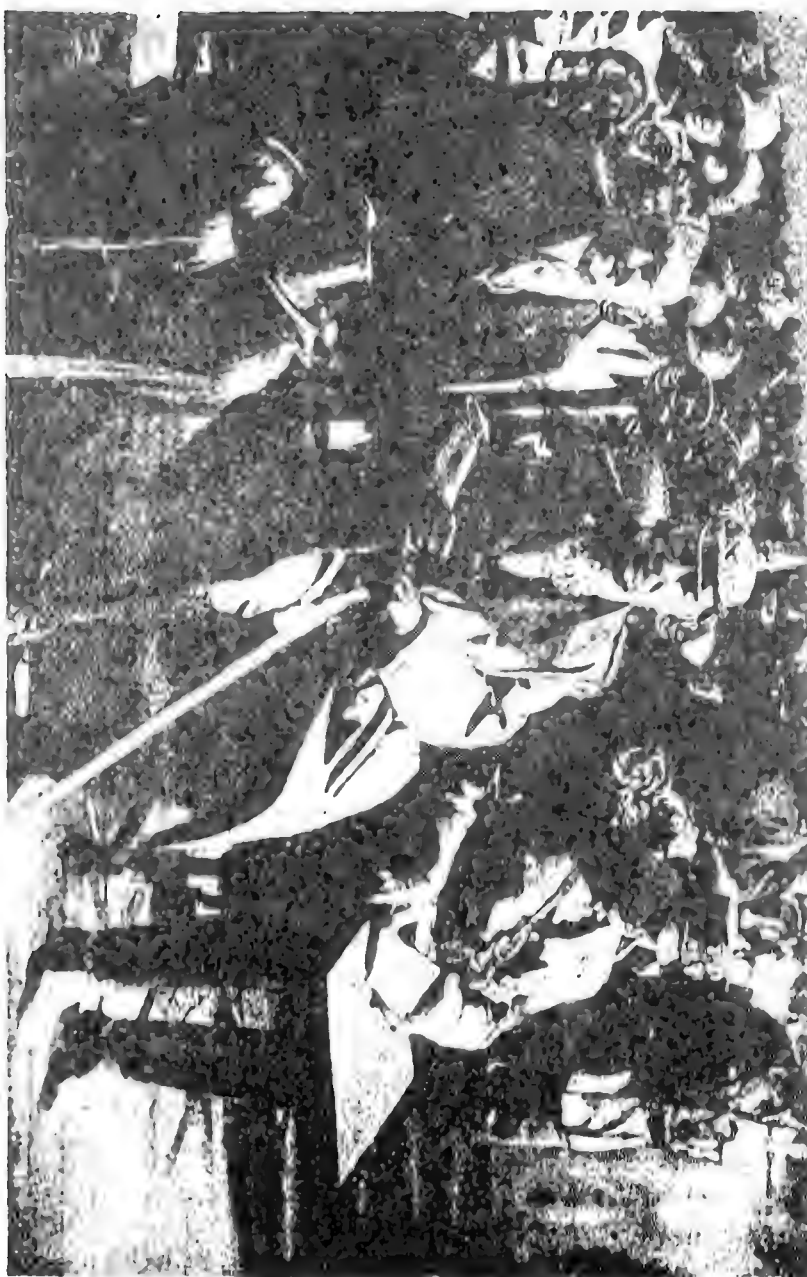
النازيين في مأربه لأنه لم يكن يستطيع أن يستخدم الديمقراطيين والاشتراكيين
وسائر أحزاب الوسط والشمال

وكلاهما كان يريد سوء بالنازيين ويضر لهم الغدر وأن يشطروهم شطرين بعد
ارتقاؤهم مناصب الاحكام ، ثم يضرب أحدهما بصاحبه متى سنحت له سانهة قريبة
وكثيراً ما كانت تسنح في تلك الأيام

لكنهما كانا مختلفين في الأسلوب وان اتفقا في نية الغدر والوقيعة ، فكان
فون شايجر ينوى أن يرشح نفسه للاستشارة ويندب زعيماً من كبار زعماء
النازيين لوكالة الاستشارة ، ثم يتقدم إلى الريشتاج فيقسم النازيين عاجلاً أو
آجلاً بين هتلر وبين الزعيم النازي الآخر (وقد وقع الاختيار على جريجور
شتراسرمنشء حزب النازي في المانيا الشمالية) ... فينجل الريشتاج ويعاد
الانتخاب ويخرج النازيون فريقين ضعيفين يزيدهما هو ضعفاً بسلطان الحكومة
الذى يقبض عليه بكتائديه ، وهو مستشار الدولة

وكان فون باين يريد أن يكرر ما حدث في انجلترا من ترشيح المستر رمزي
ماكدونالد لرئاسة الوزارة رجاء أن يضعف حزب النازي كما ضعف حزب العمال
في البلاد الانجليزية ، فاقترح على المارشال الهرم أن يدعو هتلر إلى تأليف الوزارة
مع اثنين أو ثلاثة من انصاره الذين يرضاهم المارشال ، وقنع هو بوكالة الاستشارة
معتقداً أنه يملك زمام الأمور بسيطرته على المارشال وتأليه مع سائر الوزراء

ولما طال التنافس بين الخصمين فكر فون شليخ في الانتفاض واثتمر
بالمارشال مع بعض القواد العسكريين وبعض رؤساء العمال الساخطين على النازيين
وأحزاب اليمين . فاتفقوا على تدبير إضراب عام يجتمع فيه العمال وحامية بوتسدام
ويرحفون على برلين فينخذون من ذلك ذريعة للحجج على الرئيس الشيخ وإعلان



« حالة الطوارئ » والقبض على دفة الحكومة باسم الضرورة القصوى التي تقتضيها المصلحة الوطنية

ونمى الخبر الى فون بابين الساهر على حركات خصمه فأبلغه الى المارشال وأقنعه بوجوب الاسراع الى دعوة هتلر وإقامته على رأس الوزارة ، ولم ينس خطئته الأولى التي أراد بها أن يحتفظ بأعنة الأمور في يديه ، فاشتراط أن تكون له وكالة الاستشارة وأن يكفى في مجلس الوزراء بعضوين اثنين من النازيين وهما الدكتور ولهم فريك والكابتن هرمان جورجيج وقد كان له ما أراد !

إلا ان الحوادث قد خالفت ما قصد من تديره ، فجرت الانتخابات الجديدة بإشراف المستشار هتلر على الطريقة النازية المعبودة ، وصدرت المراسيم بجل جماعات الشيعيين ، واشتد المرض بالمارشال الهرم فاصبح لا يعي ما يقول ولا ما يقال بلسانه ، ثم مات وتبوأ هتلر مكانه باسم زعيم الأمة ومستشار الدولة ، وأفلتت الأعنة من يدى فون بابين فاقاد لسائقه

على أن الدسائس ، من شليخر أو بابين ، لم تكن هى جماع البواهب التي أكرهت هندنبيرج على قبول هتلر فى رئاسة الوزارة ، وعلى إبقائه فيها بعد ذلك الى أن كان منه ما كان . فقد أكرهه على قبوله باعثن آخران ، قد يصح أن يقال أنهما باعثن شخصيان

أهم هذين الباعثن أن هندنبيرج كان يحذر المغالين من المحافظين أحزاب اليمين ، لأنه كان يعلم أنهم يكيدون للنظام القائم ويسعون الى إعادة الملك سيرته الاولى فى سلالة هوهنزرن ، وكان هندنبيرج - على تفوره الفطرى من هدم نظام يقوم هو على رأسه - لا يحب فى تلك الآونة أن يواجه العالم بالتحدى والمناجزة وما يتبعهما لاحالة من تضايف الدول على ألمانيا وذهاب كل أمل فى تخفيف قيودها

واحسان الظن بمقاصدها . فاذا لم يكن بدٌ من الخيار بين المالكين أو الشيوعيين
أو النازيين الذين لا يرحبون برجمة آل هوهنزلرن — فهؤلاء النازيون أولى
بالتجربة ! ولا سيما اذا تكفل بكبحهم زملاؤهم في الوزارة من أصدقاء الظاهر
أعداء السريرة

والباعث الثانى هو فضيحة الضياع الشرقية كما كانوا يسمونها فى تلك
الايام ، وخلاصتها أن الحكومة خسرت أموالا كثيرة من خزانة الدولة بُذلت
جزافا لاناس من أصحاب الضياع الواسعة فى روسيا الشرقية معظمهم أصدقاء أو
أقرباء أو جيران للرئيس ، وتهامس بعض النواب بهذه الفضيحة ثم لفظوا بها
وطلبوا التحقيق فيها ، وثارت الثوائر حولها لوفرة المأزومين والمفلوكين والمتطلعين
إلى قليل المال يجرمونه وهم يسمعون بالحكومة تكييله جزافا لكبار الزراع
وأصحاب الضياع

فغضب الرئيس على شليخر لأنه لم يفلح فى اسكات تلك الأصوات ومداواة
تلك الفضيحة ، وبدا له ان الحكم على طريقة النازيين بالقمع والارهاب وقطع
الأسنة وكم الأفواه خليقٌ أن يريجه من لفظ اللاغطين وزعم من زعموا أنه قد أخذ
لنفسه بعض ما قيل انه أعطاه الجيران والأصدقاء ، وهو زعم ظالم تكرر على أسنة
الشيوعيين ولم يثبت قط بالقول الوثيق .

ويرى بعض المطلعين ان هندنبرج ما كان ليطلق أيدى النازيين فى قمع
الشيوعيين وحل أحزاب المعارضين لولا انزعاجه الدائم من فضيحة بروسيا
الشرقية وأقاويل أحزاب الشمال .

فهذا وذاك وغير هذا وذاك من دسائس الحاشية وطوارئ الزمن وقد مهدت
كلها الطريق لهتلر ووضعت السلم تحت قدميه حيث يريد وحيث لا يريد .
فاذا قلنا ان زعيما كصطفى كمال قد هجم على التيار اللججى فشقته بالعزيمة التى

تروضه والأيدى الذى لا يباليه فماذا صنع أدولف هتلر فى تياره !
لبس فيه عوامة النجاة ، ولم يدفع موجة واحدة من أمواجه ، بل ذهب مع
الموج إلى مدى وثبتين من الساحل ، ثم وثب إلى الساحل فى أمان .

أفكاره وأفكار غيره :

وكما حملت الحوادث هتلر على اثاباجها إلى ذروة الحكم حملته كذلك الأفكار السياسية التي نشأت في قومه على عهده وقبل عهده نجيل أو جيلين : فلم ينتكر قط فكرة واحدة من تلك الأفكار التي شاعت بين الشعوب الجرمانية وكان لها شأن في توجيه هذه الشعوب وجهتها الأخيرة ، ولم ترجع إليه صيغة واحدة من الصيغ التي دارت على الألسنة وكان لها شأن في اذكاء النخوة القومية واقتناع السود . وما أسهل ما يقنع « عقل » السود ؟ ! انه ليبحث عن يقنعه ، بل يبحث عن يخدعه ، ولا يهرب إلا ممن يفتحون عينيه ويرشدونه إلى الحق الصراح .

فالجامعة الجرمانية^(١) التي تغنى بها هتلر قد ظهرت في موطنه خاصة وقبل مولده بنحو ثمانين سنة ، ودعا إليها الفيلسوفان هرذر Herder وفيخته Fichte أوائل القرن التاسع عشر فأطنبا ما أطنبا في . رايها الجنس الجرمانى وفضله على سائر الأجناس البشرية وانه هو دون غيره شعب الله المختار المهيأ بالفطرة لمناجاة الأرباب ومكاشفة الأسرار ، وان لغته دون غيرها هي لغة الحكمة والفلسفة والعلم بمقائق الأشياء ، وان حكومته دون غيرها هي الحكومة التي قدرتها عناية الله لقيادة الأمم قهراً أو بالارشاد والاعراء ، وما من كلمة تغنى بها هتلر في هذا المعنى إلا ومرجها إلى محاضرات فيخته الأربع عشرة التي ألقاها (سنة ١٨٠٧)

(١) Alldeutachtum

ووضع بها — من الوجهة الفلسفية — أساس تلك الدعوى التى يدعيها الجرمان .
ثم ظهرت دعوة هر كلاس Her Class قبل الحرب الماضية وتجاوبت
أصدائها فى صميم البلد الذى نشأ فيه هتلر ونعنى به Linz من الأقاليم النموية
واقترنت بهذه الدعوة دعوة مشابهة عرفت باسم أوربا الوسطى تارة (١)
وباسم الزحف على الشرق تارة أخرى (٢) وشرحت شرحا وافيا فى كتاب فردريش
نومان Friedrich Naumann الذى كان يزعم كما زعم هتلر من بعده أن
التهام أوربا الوسطى قديتأنى بمجرد الارهاب والاستعداد من غير حاجة إلى قتال.
أما قداسة الجنس الآرى فقد بشر بها الكونت دى جوينو الفرنسى فى
كتابه تفاوت الأجناس البشرية عند منتصف القرن التاسع عشر قبل أن يولد
هتلر بنحو أربعين سنة ، وتبعه الانجليزى هوستون ستيوارت شميرلين Houston
Stewart Chamberlain الذى تبحر من وبنى بينت فاجنر الموسيقى الكبير
وألف كتابه أساس القرن التاسع عشر مشيدا فيه بالعرقية الجرمانية راداً فيه كل
حضارة وكل عظمة انسانية إلى ذلك ينبوع الذى لا ينبوع غيره — فى رأيه —
للمحضارات والعقريات

والحركة النازية نفسها بمجملتها وتفصيلها ظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر
على يد رجل يشبه هتلر من وجوه كثيرة وهو Vater Jahn الخطيب المتهوس
الذى نظم فى المانيا فرق القمصان الرمادية والأندية الرياضية ، وبلغ من جنونه أنه
أشار بأقامة السدود بين ألمانيا وفرنسا وبغرس الآجام التى تملأها الضياع
والسباع على حدود الأمتين صيانةً للدم الجرمانى الطهور من التلوث بأوشاب الأمم
الاجنبية ! وكانت الدعوة « التوتونية » على لسانه تقابل الدعوة الآرية على
لسان هتلر ، فكان يوصى أتباعه الشبان أن يتجسبوا على آبائهم فى البيوت

(1) Mittleurope (2) Drag Nach osten

وزملائهم في المدارس ليردعهم بالبطش والقسوة اذا خالفهم في دين العصبية الجنسية Volkstum وطالما صاح كما يصيح النازيون اليوم أن الشرف هو السلاح وأن من لا سلاح له فلا شرف له Wehrlos ehrlos وأن العنف أساس الخلق والكرامة ومناط الحكم والسياسة .

وعلى 'جهل هذا الرجل وفراغ عقله لم تتورع جامعات المانيا أن تهدي اليه ألقاب الشرف العلمية والفلسفية ، ولم يتورع الأدباء والشعراء أن يهدوا اليه الدواوين والمصنفات ، تمجيداً له واعترافاً بسداد آرائه !! مما يدل على خليقة مستقرة في دخيلة النفس الجرمانية أن تهتز لأمثال هذه الصيحة ، وأن تلبى أمثال هذه الدعوة ، ولا سيما بعد الهزائم والازمات .

ويقول فيلسوفهم تريتشكه Treitschke في تحليل ذلك : « إن هذه الحركة العامية ذات جذور متأصلة في قرارة الخليقة الجرمانية ، فان قومنا طالما حنوا الى معيشة القطرة الأولى ، فكلما جاش في عروقهم الدم تبيغت نفوسهم بدفعة العنف الطاغية ! »

كذلك عداوة اليهود لم يكن هتلر أول دعايتها والناخبين في ناراها : بل كانت مذابح اليهود في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية أقدم من مولده بمئات السنين ، وكثيراً ما اقترنت تلك المذابح بأيام الضنك والجماعة وشح الأموال . لأنها أيام ثور فيها الحفاظ ويضطرب فيها الحكم وتؤمن عواقب العبث والاعتقال .

كذلك الصليب المعقوف « شارة النازية » لم يخترعه هتلر بل اقتبسه من الجنود الألمان الذين عادوا به « من فنلندة » بعد ان حاربوا فيها الجيش الأحمر ، ولم يتغير منه إلا لونه الأزرق فقد سوده النازيون .

على ان حركة القمصان في ألمانيا الحديثة إن هي إلا نسخة مستعارة من حركة القمصان في ايطاليا الحديثة بإشارات وشاراتها . مع فارق واحد في تميته .

وهو أن السلام الروماني في روما معقول . أما في جرمانيا فهو حركة يد بغير مدلول
ولم تكن الفلسفة النازية من مبتكرات العصر الحديث ولا سيما في حملتها
على الديمقراطية ووصفها الحاكم الجدير بأمانة الولاية . وإنما هي حكاية أو
محاكاة للحكم التيموقراطي Timocracy الذي ذكره افلاطون وقال أنه نظام
بسند الدولة إلى من لهم عزم وحماسة ولا يسندها إلى ذوى رأى أو ذوى السيادة
وأتمه يقوم على « الارادة » ولا يقوم على الرغد الذي تتوخاه حكومات الشعب أو
على الرشاد الذي تتوخاه حكومات العلية والسروات

وصفة الرجل « التيموقراطي » كما لخصها أفلاطون « أن يكون غليظا في
معاملة العبيد خلافاً للرجل المهذب الذي يترفع عن هذا الخلق ، وأن يخضع للسلطة
ويحب القوة والمجادة ، وألا يتذرع إلى طلب الحكم بالفصاحة وما إليها بل يطلبه
لأنه مقاتل تفوق في أعمال القروسية واجالة السلاح . وهو كذلك محب للرياضة
والطراد »

* * *

وأعجب مما تقدم أن هتلر لم ينشئ الحزب الذي أصبح رئيساً له بعد ذلك بل
أنشأه دركسلر Drexler وبضعة من رفاقه ، وأنه لم ينشئ فرقة واحدة من
فرق الجيوش الأهلية التي راجت بعد الحرب الماضية لأحزاب اليمين وأحزاب
اليسار ، كفرقة القمصان البنية أو فرقة الحرس السوداء أو غيرها من جيوش
اليمين . بل أنشأها ارنست روه Ernest Roehem وفرايزر سلدت Franz
Seldte وبعض الضباط القداماء

وكان اسم الحزب الذي رأسه هتار حزب العمال الألمانيين ، فندب من قبل
الحكومة للتجسس عليه كما قال في كتابه ، ثم اقترح على أثر انضمامه إليه أن



هتلر وأصحابه قبل زهو النجاح

يسمى الحزب الاشتراكي الثوري ، محاكاة للاشتراكيين انشوريين في روسيا الحمراء . فنفر زملاؤه من هذه التسمية ووقع اختيارهم بعد البحث والمشاورة على اسم « الوطنيين الاشتراكيين » ليتوسلوا باسم « الوطنيين » إلى اجتذاب أنصار اليمين ، وباسم الاشتراكيين إلى اجتذاب أنصار الشمال ، وليصبح الحزب بهذه التسمية قابلاً لاستغراق الألمان جميعاً في يوم من الأيام
فن أي وجه نظرت إلى الرجل لم يسمعك أن تحسبه زعيماً لألمانيا لأنه خلاق

حوادث أو خلاق أفكار ، ولم يسمعك أن تحسبه زعياً لأنه أقدر من فيها وأشرف
من فيها ، وغاية ما يسمعك أن تقوله على التحقيق أنه تقلد زعامتها لأنه « أنسب »
من غيره لظروفها ، و فرقٌ عظيم بين الأقدر والانسب ، لأن المرء قد يناسب
الظروف لنقص فيه كما يناسبها لخصلة من خصال الكمال والاعتدال

رو. فطحي :

أشاعت الدعاية النازية بعد احتلال وادي الرين والنمسا أن زعيمهم لا يخطئ*
ولا يتردد ، فاذا حان الموعد المقدور فلا يستأخر ساعة ولا يستقدم : كل شيء في
أوان وكل شيء بحساب

فلننظر الآن ماهو ذلك الحساب : هل هو حساب عويص بعيد عن التقدير
أو هو داخل في تقدير من يريد ؟

كل ما حسبه هتلر « أولا » أنه يستطيع أن يهزم النمسا وأمثالها إذا أراد فتح
بلادها و « ثانياً » أن الدول الاوربية الكبرى لا تقدم على حرب عالمية في كل
لحظة . قبل هذه معضلة وهل هذا حساب ؟

من البديهيات أن ثمانين مليوناً يهزمون سبعة ملايين ، ومن البديهيات
كذلك أن دول العالم لا تهجم على الحرب العالمية في كل ليلة ونهار
فأين هو الحساب ؟ وأين هي السياسة ؟

إنما الحساب الصحيح أن يمضى هتلر في سياسته دون أن يوقظ خصومه ودون
أن يلجئهم إلى هزيمة الحرب التي تردوا فيها .

أما أن يضرب النمسا في سنة ١٩٣٨ وتقع الحرب في سنة ١٩٣٩ فليس بشيء
يعجز عقول الساسة المدبرين ، وليس هو سياسة ، وإنما هو فعل سلاح

فإن كان قد فعل ما فعل وهو يعتقد أن الحرب لن تكون ، وأن الدول لن
تقدم عليها فذلك تقيض الواقع ، وذلك أفشل الحساب

وما من وزير فى الدنيا يدخل فى تقديره أن يحارب وأن يتورط فى الحرب العالمية وألا يبالى عواقب هذه الورطة ثم يعييه أن يفعل كما فعل هتلر فى النمسا وبوهيميا وغيرها

وأفضل الحاسبين يستطيع أن يفعل كما فعل هتلر إذا كان كل حسابه أن يؤخر الحرب سنة واحدة . ثم تأتى لالمحالة !

من الذى يعجز عن مثل هذا النجاح ؟

من الذى يعجز بثمانين مليوناً أن يهزم سبعة ملايين !

كل المسألة إذن هى : هل يؤدى هذا الهجوم إلى الحرب أو لا يؤدى إليها وهاهو ذا قد أدى إلى الحرب عياناً لامن باب الظن والترجيح ، فأين هو الإعجاز فى التقدير والتقدير ؟

هذا هو العجز بعينه فى عمل السياسة ، وهذا هو سوء الحساب وليس هو باتقان الحساب

ولننظر مرة أخرى فى تقديرات هتلر وأصحابه قبل الحرب لنرى هل هى مثال السداد والاتقان ، أو هى خطأ ومجازفة من وجهة النظر النازية فضلاً عن وجهات النظر الأخرى

فلماذا لم يضرب دانزيج بدلاً من ضرب التشيك قبل مؤتمر ميونيخ ؟ لم يكن لبولونيا ضمان من دفاع فرنسا وبريطانيا العظمى فى تلك الآونة ، ولم تكن على استعداد للقتال وحدها كما ظهر بعد ذلك فى الحرب الحاضرة

فإذا ضرب دانزيج واتفقت الدول على خطة مثل خطة ميونيخ فإنه لقابض إذن على زمام بولونيا وبلاد التشيك وجاراتها جميعاً فى مرافق التجارة والصناعة والاقتصاد ، فلا تقوى إحداهن على رد كلمة ولا على رفض اقتراح

ثم لماذا لم يقبل ما اقترحه الرئيس روزفلت وارتضاء سياسة الحلفاء من عقد المؤتمر الدولي الذى يفصل فى جميع مسائل الخلاف ؟

ألا يجوز أن تختلف الدول فى ذلك المؤتمر فيواجهها مختلفات بدلا من مواجهتها متفقات ؟ ألا يجوز أن ينتزع من أنصار التسليح فى الدول الديمقراطية حججهم الكبرى التى أقاموها على رفضه التحكيم فلا سبيل إلى معاملته اذن بغير التسليح ؟ ألا يجوز أن يعذره الرأى العام فى الدنيا بأسرها إذا لجأ إلى الحرب لأنه قد أكره عليها أكرها بعد أن جرب وسائل الاقتناع فلم يبلغ بها ما أراد ؟

كل اولئك كان جائزا ، وكان خيرا مما اختار

وكل ما هنالك من اعتراض على هذا الرأى أن إطالة الزمن فى المؤتمرات ربما مكنت الدول الديمقراطية من زيادة الاستعداد

فماذا صنع هو الآن ؟ هل منع ذلك الاستعداد ؟ وهل استفاد شيئا من المبادرة بالحرب قبل تمامه ؟

كلا . بل خسر أشياء كثيرة ؛ خسر الوقت الذى كان يزداد فيه استعدادا بالتكوين والتخزين

وخسر الفرصة التى كان يوقع فيها الخلاف بين أنصار التسليح والدعاة الى نزع السلاح ، فلا يجمعون كما أجمعوا — من جراء خطته الهجوماء — على ضرورة التسليح جهدا المستطاع

وخسر البلاد التى اضطرت الى تركها للروسيا فى أوروبا الشرقية وشواطئ البحر البلطى ، وقد كان طامعا فيها لأمراء

وربما قيل أنه لا يبالى عواقب ذلك لأنه على يقين من خراب الروسيا بعد موت ستالين ، أو بعد الثورة الداخلية التى يتوقعها كثيرون

فان قيل هذا فقد كان أخرى أن ينتظر ذلك اليوم فيستريح من الحرب

الحاضرة ومن سر السمة التي جلبها على نفسه بصدقة الشيوعيين

الحق أننا لانصرف في الحاكين بأمرهم رجلا أفضل حسابا من هتلر في هجومه كل مرة على خطأ واحد يدفعه من ورائه الى أخطاء ، ولقد كان ذلك دأبه قبل ولاية الحكم وبعد ولاية الحكم ، ولا يزال دأبه الى الآن

قبل الحكم أخطأ الحساب حين ظن أن الفرصة سانحة لقهر خصومه يوم عيد العمال (مايو ١٩٢٣) فاختلس السلاح من مخازن جيش الهجوم ليضرب به العمال المتظاهرين ، ثم عاد الى تسليمه مدعنا لتهديد الضابط لوسو Lossow معترفا معه بما في هذه الحماقة من العجلة والمجازفة

وأخطأ الحساب من نوفمبر في تلك السنة حين ظن أن الفرصة سانحة لقلب الحكومة فجمع جنوده وأزمع أن يقتحم ديوان الدولة ميونيخ ، وهو يعمل نفسه بولاء الحراس الحكوميين ويعتمد أنهم ينطلقوا النار على المقتحمين ... ثم خاب ظنه فكان أول الماربين عند انطلاق النار ، وابتد بعد هذه المجازفة الأخرى عشر سنوات يستعيد ما أضاع من ثقة ومن أنصار

وأما بعد الحكم فقد يكون في تفاصيل عمله خطأ وصواب . لكن الأساس الذي قام عليه العمل كله خطأ لا شك فيه ، وهو اعتماده هنا كما اعتمد في ميونيخ على أن خصومه لا يطلقون النار . . فقد ظن أنه يراوغ ويرaug الى غير انتهاء ، وأن الدول الديمقراطية تقبل التخدير بعد التخدير الى غير يقظة . فلم يصدق حسابه هنا ولا هناك

وقبل أن نسأل : لماذا اختاروه ؟ ينبغي أن نسأل : من الذى اختاره ؟
وما معنى اختيارهم إياه ؟

هل معناه أن ثمانين مليوناً من الألمان اجتمعوا قبل نيف وعشرين سنة
فجمعوا أعواد رجالهم فرداً فرداً فلم يجدوا بينهم أحداً أصلح من هتلر للزعامة
الألمانية ؟

هل معناه أن مؤسسى حزب النازى كانوا يملكون السيطرة على الأمة
الألمانية بأسرها فيختارون من يشاءون ثم لا يقدر أحد على أن يرفض لهم أمراً
ولا يسهه إلا أن يفرغ للزعامة التى ندبوه لها وهو يحمل مصيره ومصيرها ؟
هل معناه أن مؤسسى حزب النازى أصحاب ميزان لا يختل ولا يخطئ ، فى
وزن الرجال فمن اختاروه للزعامة وجب أن يكون أفضل قومه بغير جدال ؟
كلا بالبداية ! .. لا هذا ولا هذا ولا ذاك

فليس معنى اختياره قبل عشرين سنة أن الأمة الألمانية اختارته ، أو أن
المؤسسين لحزب النازى فرضوه على تلك الأمة ، أو أنهم ورتوا الرجال جميعاً فلم
يخطئوا الميزان

وإنما معناه الواقع أن خمسة أو ستة من المشتغلين بالسياسة نظروا فى متناول
أيديهم فوجدوا هتلر موافقاً لهم وموافقاً للشروط التى يطلبونها

ومتى عرفنا تلك الشروط عرفنا قيمة ذلك الاختيار ، وعرفنا أن معظمها « سلبى » يستلزم النفى أكثر من استلزامه الاثبات ، أو يستلزم فى الزعيم المطلوب تجرداً من صفات معلومة ، ثم يأتى بعد ذلك دور المزايا التى ينبغى أن يتحلل بها ويرجح بها على رفقائه

فالشرط الأول ألا يكون من طبقة النبلاء والأسرياء ، لأن نوبة السخط على هذه الطبقة قد بلغت أشدها بعد الحرب العظمى ، فهرب أمراء الولايات وقامت فى دسوت الحكومة جمهرة من الصناع والمتوسطين ، وأصبحت كل حركة سياسية يتولاها زعيم من النبلاء والأسرياء متهمة بالرجعة الى القديم المكروه

وظل هذا الشعور غالباً على نفوس الألمان زمناً طويلاً بين أحزاب الشمال وأحزاب اليمين على السواء . فكتب الكاتبين روم صديق هتلر يقول : « لا ارتداد إلى العهد البائد . لارجمة . لامعونة لنا تنتظر من أصحاب السعادات الدائرين ، وإعما رجال عمل من جميع الطبقات ، وشبان قبل شئ . . . »

وهتلر كان فقيراً من طبقة أبناء الموظفين الصغار ، وكان فى ذلك الحين لا يكاد يعدو الثلاثين ، وكان من صف الجند فوق رتبة الجندى بقليل

والشرط الثانى أن يكون خالياً من الروابط الاجتماعية والأواصر البيتية التى تقيد بنزعة من النزعات ، أو تحول بينه وبين التفرغ لحياة المظاهرات وخطب الأرصفة والميادين

وهتلر لم يكن يخسر شيئاً بالتفرغ لهذه « الصناعة » التى هى خير من البطالة والفراغ ، ولم يكن ينقطع عن واجب بيتى أو واجب أبوى أو بنوى ، لغربته وجفاء أهله وعجزه عن الزواج ، فهو يربح كثيراً من صناعة السياسة ولا يفقد الكثير ولا القليل .

والشرط الثالث أن يكون موافقاً للبيئة البافارية وهى بيئة محافظة قريبة إلى أحزاب اليمين ، لأن البافاريين تابعون للكنيسة الكاثوليكية ونفوذ الكنيسة بينهم عظيم . وبلادهم أصلح من غيرها للنشوء الحركات المعادية لأحزاب الشمال ، ثم هى بعيدة عن عاصمة الدولة الكبرى التى فيها سلطانها وهيلها وهيلمانها ، فلا يسهل تهديد النظام القائم فى برلين كما يسهل فى ميونيخ وهتلر كان كاثوليكياً فى نشأته وإن لم يكن من المتبعدين ، وكان مجنداً فى جيش بافاريا ورائداً من رواد ميونيخ التى كانت تعد فى حينها عاصمة المصورين والموسيقيين ، وقد كان هتلر كما نعلم يتعاطى حرفة التصوير

* * *

والشرط الرابع أن يكون « مهاودا » زملائه أولاً يكون من أصحاب « الشخصيات الخفيفة المهيبة المرهوبة » التى يخشون اجتياحها وطفانها وقد كان هذا الشرط متوافراً كل التوافر فى هتلر أيام نشأة الحركة النازية . فيجب أن ننسى هتلر الذى يصل الآن بقوة الدولة وقوة الزعامة التى لا منازع لها ولا نجاة لمن يعصها ، ثم نذكر هتلر الذى كان قبل عشرين سنة محتاجاً إلى كل شئ من مطالب المعيشة ومطالب السياسة ، وكان مشهوراً بالدهان والملق لمن فوقه ولمن يملكون أسباب نجاحه

وليس معنى هذا أن هتلر محروم من العزيمة والارادة فهو فى الحقيقة صاحب عزيمة وصاحب ارادة . ولكنها من نوع غير ذلك النوع الكاسر الذى يروع الناس لاول نظرة ، وامل عزمته أشبه ما تكون بعزيمة المرأة الدؤب اللعاح التى تصل بالدأب والالاح والعناد إلى ما تريد ، فهى لا تصدم من يراها أول مرة كما يصدمه المردة القهارون من أصحاب « الشخصية » الغالبة ، بل لمل الناظر يلحظ عليها التردد والجنوح إلى اللف والمراوغة ، فيحسبها طوع يديه حين تمزب الأمور

وقد أشار هتلر نفسه إلى شهرته بالتردد حين وقف في الريشستاغ على أثر
مذبحة روم ورفقائه لتسويغ ما فعله فقال إن للتأمرين قد غرم به ما زعموه من
« عجزه عن البت السريع عجزاً لا يشفيه إلا أن يضعوه أمام الأمر الواقع »
وهذا ظن المشراء به وقد تسم الذروة التي يستوى عليها الآن . فكيف بما
كان عليه أيام الابتداء أيام الشك والترقب والافتقار إلى الأعداء
إن تاريخ الزعامات السياسية لحافل بأمثال هؤلاء الذين يختارهم زملاؤهم لأنهم
أسلم جانباً وآمن شراً وأطوع قياداً ، ثم تتبدل الأحوال دفعة واحدة يوم يستقرون
فينقلبون ذئاباً على من حسبهم ناعجا لا تفتك ولا تخيف

* * *

تلك خلاصة الشروط « السلبية » التي كانت ترشح الرجل لزعامة النازيين ،
وهي الشروط التي تستلزم صفات مفقودة وقلما تستلزم صفات موجودة
أما الشروط التي تدخل في باب « المزايا » الموجودة فهي الخطابة والحماسة
والذكاء والاهتمام بالسياسة والالمام بالمعارف العامة ، وكانت موفورة في هتلر لأنه
خطيب جهورى الصوت شديد الإيمان بالعصبية الجرمانية عظيم اللد في الخصومة
الحزبية ، ذكي اللب لم يبادىء الأحزاب المختلفة منذ صباه ونشأته في النمسا التي
كانت كأنها « برج بابل » من الدعوات السياسية ، تعالى فيه الصيحات بين
المحافظين أنصار البلاط والأسر المريقة ، وبين الأحرار طلاب الاستقلال في
الانقطار المختلفة التي كانت خاضعة لآل هابسبرج ، وبين أشياع الكنيسة
ومعارضيه ، وبين الاشتراكيين على اختلاف المذاهب والألوان ، وبين أعداء
السامين وأعضاء المحافل للماسونية والأندية السرية ، فكان حسب الرجل الذكي
أن يفتح أذنيه ويفقه ما يسمع ليجمع له من المعارف العامة والحجج المتقابلة
والدعائيات المتناقضة ما يكفى لسلوك الطريق في حركات الجماهير

وكان اجتماع هذه الشروط مع الشروط الأولى من أندر الأشياء ، ولا سيما في متناول النازيين وهم مبتدئون مستضعفون لم يبلغوا بعد مبلغ الهيمنة على عقول السواد ولا مبلغ الزلفى عند العلية وذوى الجاه والمال ، فلما التقى هتلر بالافراد القلائل الذين كان يعرفهم وكانوا يعرفونه لم يكن عجباً أن يرحبوا باختياره واجتماع ما اجتمع فيه من شروط الزعامة الحزبية ، فهو طلبتهم فيما يستطيعون بين تلك القيود.

ولم يكبر الحزب قليلا حتى شمر رجاله أن زعيمهم في حاجة الى كثير من التشذيب و « التنجير » كما يقول العامة ، فأشار زميله فيدر Feder بتميين مرافقه من الضباط العسكريين يدر به على تنظيم أوقاته وتقسيم ساعاته ، ونصحه آخرون بالاقامة في برلين فترة من الزمن لأصلاح لهجته الريفية بالمعاشرة والتردد على معاهد فن الالتقاء ، وتقدم شيئا فشيئا فوكل به شاخت معلما يلقنه أصول الاقتصاد وانتقى له الدكتور والترفك Walther Funk الذى خلف شاخت في مركزه بعد وصول هتلر الى رئاسة الدولة . واتخذت مسألة تحضيره جانباً فكاهياً يشبه تحضير الممثل لدوره المرسوم... ولم يكن هذا مجازاً أو استعارة بل كان وصفاً حقيقياً لما تعهده به من التدريب والتعذيب . فقد كان معلمه الاكبر في بداية الحركة رجلاً مشغولاً بالاعراج المسرحى والرواية التمثيلية ، وهو الكاتب الالمى البراق ديتريش ا كارت Dietrich Eckart الذى كان اسمه آخر كلمة خطها هتلر في كتابه « كفاحى » على سبيل التحية والتمجيد ، والذى اشتهر بالنزعة الآرية وبغض اليهود واتقان الهجاء اللاذع فيما يكتب وينظم . وقد ازداد علما بمعنى اختيار هتلر للزعامة إذا علمنا الشروط التى كان ا كارت ينشدها في زعيمه وهى « ألا يكون ضابطاً لأن الناس أعرضوا عن الضباط ، وأفضل من ذاك صانع في كسوة جندي صغير ، وليس من اللازم اللزب أن يكون ذا رأس كبير ، لأن السياسة أسخف شغل في الدنيا ، وكل بائعة من نساء

السوق في ميونيخ تعي مقدار ماوعاه السادة في فيار ، ولخير من ذلك أن يكون الزعيم غيباً مزهواً يحسن الرد على الجماعة الحمر (الشيوعيين) ولا يجري من كل رجل كرسى ترتفع لضربه . . . وتغام الوصف المنشود أن يكون أعزب غير ذى أسرة فنجتذب اليها النساء »^(١)

ويقول الذين عارضوا أسلوب هتلر في كتابه وفي خطبه بأسلوب اكارت هذا أن هتلر قد اقتبس منه عبارات بحروفها وكلمات نموذجية من الفاظه التي طالما ردها في صحيفته ورسالاته ، وأنه اقتدى به في الكتابة والخطابة ، واحتذى حذوه في الرأي والطريقة

على أن الدكتور جورج شوت Dr Georg Schott أقدم المثقفين معرفة بهتلر يقول في وصفه « إنه تقيض رجل الدماغ . إنما هو رجل القلب ، رجل الدم ، مذيع الأحلام »

وللدكتور شوت هذا كان هتلر يقول : « ليس كل منا نحن جميعاً إلا يوحنا صغير . . . إني أرقب المسيح »

وطالما قال هتلر للقائد « لودندرف » إنه لا يريد الرئاسة ، وحسبه أن يصبح نافخ البوق . . . لأنه أحس أن القائد الكبير أخرى أن يتبوأ مكان هندنبرج ، وأنه هو حسبه أن يتبوأ معه مقعد المستشار . وقد استقال هتلر فعلاً من زعامة النازي بعد سجنه ، وتولاه في تلك الآونة يأس عظيم فأزعم أن يصوم في السجن صيام ما كسويني . ليسلك نفسه مع الشهداء . . . ولولا أن الحركة نامت في حينها نومة طويلة ولم يدع الأمر إلى انتخاب رئيس آخر لكان من الجائز أن تنطوى صفحة هتلر وهو مسجون

فزعامة هتلر على النازيين هذا معناها :

(١) من كتاب ترجمه هتلر لمؤلفه كوزراد هيدن Heiden

معناها أنه وافق المطلوب في حدود الطاقة ، وأنه لما استقر في الزعامة لم يسهل
اجلاؤه عنها ، ووجب أن يرأس الوزارة حين وجب أن يدعى حزبه إلى الديوان

ومالنا بعد هذا وذاك لانتصر مسألة الزعامة الألمانية كلها بكلمات ؟ . . .
لقد تأتى المدعو « هاوسر » Hausser في ابان تلك الفترة أن يظفر بستين
ألف صوت في انتخاب رئيس الجمهورية ، وأن يطبع صحيفة تبيع مائة ألف
نسخة ، وأن يكون له اشياع ومريدون يعدون بالآلوف .

ومن هاوسر ؟

هو رجل لا تدرى أجنون هو أم عاقل ؟ ودجال هو أم درويش ؟ فقد كان
يسمى نفسه المهدي المنتظر ، ورئيس الولايات المتحدة الأوربية ، وينادى بأنه
هو الحق وهو السبيل وهو الحياة

ومن يدري ؟ فلمله لو اتفقت له مصادفات كمصادفات هتلر ، وكان للدراويش
نصيب من السياسة المصرية لغاز بلقب القوهرر وسبق هتلر اليه ، لأنه هو أيضا .
كان يدعيه ويطلب من هتلر مبايعته عليه . . . وكم في الأيام من مضحكات . . .

إن ورقة النصيب لاتساوى عشر مليم ، ولكن كراتٍ ثلاثا أوأربما تنفق في
دولاب الأرقام كافية لاعطائها قيمة الالوف من الجنيهات
وكذلك تنفق أربع صفات أو خمس صفات متفرقات فيصيح الفرد من الافراد
في قوة عشرات الملايين

وليس حتما من أجل هذا أن يعد هتلر فردا كسائر الافراد
وإنما الذي تقصده أن تنبه المدهوشين المستعظمين حين يسألون : أجندي لم

يرتق إلى صفوف الضباط يرتقى آخر المطاف إلى ذلك المكان الرفيع ؟
إذ ليس لهذا الاستعظام موضع صحيح . لأن الرتبة الصغيرة لم تكن هي العقبة
التي كان عليه تذليلها ، بل كانت هي المزية التي ذلت أمامه جميع العقبات ، وهي
الصخرة التي قام عليها جميع ذلك البناء

سياسة هتلر :

من الأوهام الشائعة أن ألمانيا لم تنجح في ضم السار والرين والنمسا وبلاد
السوديت ، ولم تحطم ماحطمت من قيود معاهدة فرساي ، إلا بفضل القوة القاهرة
التي أضفها عليها هتلر في مدة حكمه .

وهذا خلاف الواقع المؤيد بالأسانيد

فإن هتلر قد احتل وادي السار بعد الاستفتاء المتفق عليه ولما يمحض على
إهلاله التجنيد الإجباري غير ثلاثة أشهر ، ولم يكن خط سيجفريد مبنياً في ذلك
الحين .

ومضطفي كمال لم ينفق جزءاً من ألف من ربوات الملايين التي ألقها هتلر
على التسليح ، واستطاع مع ذلك أن يفتح الآستانة فتحاً ثانياً وفيها جيوش
الحلفاء ، وأن يعيد إليها الحصون التي منعت إقامتها بعد هزيمة الحرب العظمى ،
وأن يلغى الامتيازات الأجنبية والمعاهدات التي سبقت ألمانيا الحديثة ونشأت
من أيام سليمان الكبير

ولما أغار هتلر على النمسا كانت غارته هذه تضارب السياسة الإيطالية
والسياسة الروسية كما كانت تضارب السياسة الفرنسية والسياسة الانجليزية ، ولم
تكن دولة واحدة في أوروبا الشرقية أو أوروبا الوسطى تستريح إلى وقوع النمسا
في قبضة السيادة النازية ، فهل يقول عاقل أن هتلر قد نجح في غارته بقوة تفوق
هؤلاء جميعاً في ميدان القتال ؟

كلا . ليست المسألة إذن مسألة القوة والاستعداد ، ولم ينجح مصطفى كمال ولا هتلر فيما صنعاه لأنهما أقوى من الدول التي كانت تأبى ماصنعه ، وإنما سر المسألة كله صموبة الاقدام على حرب عالمية سواء كان المقدم عليها من الحكام الدستوريين أو من الحكام المستبدين

فالذى صنعه هتلر إذن هو أنه غير هذه الحالة بسياسته الخرقاء ، وجعل الصعب سهلا على الدول في مدى ثلاث سنوات . . . وما ثلاث سنوات في تواريخ الامم وحوادث الدنيا ؟ ؟

فهتلر لم يكن قويا يوم أحجمت الدول عن حرب به ، ولم يكن ضعيفا يوم نقضت عنها الاحجام ولم تجد بين يديها مناصا من الاقدام . بل كان أضعف ما كان وهي محجمة عنه ، وكان أقوى ما كان وهي مقدمه عليه

فليست القوة اذن هي التي أكرهت الدول على تركه وشأنه يفعل في السار والرين والنمسا والسوديت ما يريد

وإنما كانت هناك حالة إغضاء فغيرها هتلر بحالة المقاومة والعداء

فان كان هذا ما أراداه فقد نجح

لكنه يكون في هذه الحالة أخرق من عرفت الدنيا من ساسة الأقوام ، لأن أحداً من الساسة الراشدين لا يعمل بيديه ولا يبذل كل ما يملك لتأليب أعدائه عليه ، ولو كان على يقين من الظفر الأخير ، فكيف والظفر مجهول ؟ وكيف وهو بعد تحقيقه لا يضمن لصاحبه النجاح فضلا عن دوام النجاح ؟

كلا ! أنت سياسة هتلر هي التي أتاحت له أن يفعل ما يشاء ، بل سياسة هتلر هي التي جمعت الخصوص على منعه ، وأقنعت الأمم — قويا وضعيفا — أن كل مسلك مع هذا الرجل غير المقاومة والمصادمة لا يفيد

وليس بصحيح أن ألمانيا انتظرت مكتوفة اليدين حتى أراحها هتلر من
أثقال المعارك والقيود التي فرضتها المعاهدات

فقد أعلنت الحكومة الألمانية في سنة ١٩٣١ أنها لا تدفع شيئا من المعارك
والتعويضات ثم جاء مؤتمر لوزان فأعفاها منها كل الاعفاء .

وقد تمت في ديسمبر سنة ١٩٣٢ قواعد الاتفاق الخامس على التسوية بين
ألمانيا والولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا في شروط التسليح والضمان

واستطاع المستشار هنريش بروننج Heinrich Bruning أن يتفق مع
مندوبي إنجلترا والولايات المتحدة وإيطاليا على إباحة توريد السلاح وتحسين
الحدود وزيادة الجيش الى ثلثمائة ألف في وقت السلم ، وإجازة تدريب الجنود
المرابطين الى جانب الجيش القائم ، ومد الخدمة العسكرية الى خمس سنوات . .
ولم تبق إلا موقعة السفير الفرنسي لابرانم الاتفاق . فما الذي حال دون إبرامه
قبل استقالة بروننج من استشارة الريخ ؟

المعجب أن الذي عطل هذا الاتفاق هو فون باين وأصحابه الذين كانوا
يميلون لاسقاط بروننج ودعوة هتلر الى الوزارة ! . . فانهم اجتمعوا بسفير
فرنسا وأبلغوه أن بروننج ذاهب لا محالة فلا فائدة ترجى من تضییع تلك
المهبات على وزير يوشك أن يستقيل ، وأن « أناسا متطرفين » يوشك
أن ينهجوا في ألمانيا سياسة العداء والتحدى فلا يحسن التمعيل بتلك المهبات
قبل جلاء الحال (١)

وكأنما أحس هؤلاء الأساسة أن نجاح بروننج يقضى على آمالهم ويفض
الشعب عنهم ويمجنح بألمانيا الى طريق غير طريقهم فأفسدوا عليه وعلى أمتهم

(١) كتاب فرانز فون باين تأليف Blood Ryan

الامر ، وأحبطوا عمله ليقتنوا الشعب بضرورة التحدى والعداء

وصفوة القول أن استنزاف الثروات والجهود والتسليح والتهديد لم يكن لازماً لقضاء مطلب من المطالب النافعة ، وأنه على فرض نفعه لم يكن مضمون العواقب مأمون المصير

فليس من الحق أن مصالح المانيا أو مصالح العالم تستلزم تلك الأعمال العنيفة التي لا يسلوها هتلر ورقاؤه . ولكن من الحق الذي لا شك فيه أن تلك الأعمال جميعاً توافق طبائع اناس مفسطورين على المعجزة والقسوة والغدر وتمرد الذليل الذي يرضيه أن يهدد ويتوعد ، ولو لم تكن ثمة ضرورة للتهديد والوعيد وكل عمل من أعمال هتلر ورقائه نستطيع أن نفهمه إذا فهمنا الحاجة إلى المعجزة والقسوة والغدر والتمرد وسائر تلك الصفات ، فليس في عمل منها إذن قليل ولا كثير من الفموض

لكننا لانستطيع أن نفهمه إذا قيل أنه لازم للمصالح العالمية والمطالب القومية كائنة ما كانت . لأن لزوما مشكوك فيه ، ونجاحها كذلك مشكوك فيه

وإذا كان التفسير الجامع المانع للأعمال المتفرقة المتعددة هو التفسير الصحيح القريب إلى المعقول ، ففما تقدم بيان حقيقة البواعث الباطنة التي تستفز أولئك الناس إلى الجرائم التي يقتربونها ثم يزعمونها من مصالح العالم أو مصالح الالمان

وإنك تسأل : لماذا اعتدى هتلر على الضعفاء وقتل الخصوم والاصدقاء واختار الارهاب والارغام دون الاقتناع والارضاء ؟ ؟ فإذا أجبت : انه فعل ذلك لانه مجرم النفس لم يجد عملا من تلك الأعمال يناقض هذا السبب في بدايته أو منتهاه

ولكنك واجدٌ مئات النقاوض إذا قيل لك أنه قد فعل ما فعل لجد ألمانيا
أو لجد الآريين ، أو لأشباه هذه التملّات ، ولا ينفي هذا أن أعماله ليست كلها
جرائم وفظاعات ، فان المجرمين يعملون في حياتهم أشياء كثيرة غير الاجرام ، ولا
يتنفسون الاجرام شهيقاً وزفيراً في اليقظة والنّام



هتلر يخطب

الفَصْلُ الثَّانِي

مَطَالِبُ الْمَانِيَا وَشِكَايَاتُهَا

مطالب ألمانيا وشلاياها :

إلا اننا نبحث مطالب المانيا وشكاياتها بحثاً منفرداً عن الاعتبارات السابقة لنرى مقدار ما تنطوى عليه من الحقيقة ، ومقدار ما تثيره من السخط المقول في نفوس الألمان ، وأولها الشكاية الكبرى بل الشكاية الجامعة لكل الشكايات ، وهي معاهدة فرساي .

لقد أكره الألمان عامة والنازيون خاصة من تعديد مساوىء فرساي ومظالم فرساي وجرائر فرساي حتى خيل إلى الناس ان هذه المعاهدة كان ينبغي أن تكتب لمصلحة المغلوب لا مصلحة الغالب ، ولسلامة المانيا لا سلامة خصومها . ولم يقتصر نقد فرساي على الألمان والنازيين ، بل تعداه إلى الانجليز والفرنسيين والأمريكيين ، ومن وقفوا في الحرب الماضية موقف الحيدة بين المعسكرين ، وقد كان هؤلاء الناقدون ممن يعتقدون حقاً ان معاهدات السلام اشتملت على جميع تلك المساوىء التي أحالوها عليها ، أو ممن يعارضون حكوماتهم وينصحون بسياسة غير سياستها ، فيحبون أن يلقوا على عواتقها تبعات الحوادث والمشكلات المالية ويمنون الشعوب مستقبلاً خيراً من الماضي الذي يسألون عنه تلك الحكومات . هذا أو يكون الناقدون لمعاهدات السلام ممن يسخرون أقلامهم للنازيين وأشباه النازيين ، ليساعدوهم على التغيير والتبديل وتحقيق المطالب والمقترحات . وليس وجود هؤلاء المأجورين بالغريب إذا ذكرنا الملايين التي كان النازيون وأمثالهم يبدرونها في جميع الأقطار .

ومعاهدة فرساي قد اشتملت ولا شك على اخطاء كثيرة وعيوب كبيرة ،
أكبرها فيما نعتد خطأ المغارم والتعويضات التي فرضتها على الألمان . فان هذه
المغارم والتعويضات خطأ من الوجهة الاقتصادية الفنية وإن كانت عدلا من
وجهة الجزاء والحساب ، لأن الألمان اذا حاولوا أن يؤدوها تقدا لم يجدوا المال
بغير تجارة خارجية ، واذا أغرقوا الأسواق الخارجية بمصنوعاتهم وبضائعهم كانت
خسارة الظافرين من جراء هذه المنافسة أعظم من خسارتهم بفقد التعويضات ،
واذا أرادوا أن يؤدوها عيناً وبضاعة كسد ماعند الظافرين من عين مماثلة.
وبضاعة مشابهة للبضاعة الألمانية

ومثل هذا الخطأ وشيك أن يظهر ، وقد ظهر . فابتدأ الظافرون باصلاحه
على طريقة داوس Dawes ثم على طريقة يونج Young وكلتاها ترمى الى التقييط.
والاعفاء والتأجيل ، ثم عدلوا بته عن المطالبة بالفسروع والاصول واكتفوا بما
أخذوه ، وهو نحو الثمن من المطلوب مما أعانهم على تعمير الخرائب وتجديد العالم
بضع سنوات ، وانتهت هذه المسألة في مؤتمر لوزان (سنة ١٩٣٢)

فسألة التعويضات كانت خطأ ولم تكن ظلما ولا عنتا من الظافرين ، اذ
ليس بالمعقول أن يغرم هؤلاء الظافرون ماغرموا من تكاليف الحرب ومن
تخريب الأرض وتدمير المناجم ودور الصناعة ثم يعمرها هذا الخراب بأموالهم
وجهود أبنائهم والامان المهزومون ناجون في ديارهم لم تخرب لهم مدينة ولم يتعطل
لهم مرفق أو صناعة ... ولو جاز هذا لكانت الهزيمة في الحروب خيرا من
الانتصار

كذلك أخطأت معاهدات السلام في تقسيم بعض البلاد وترسيم بعض

الحدود ، ولكنه لم يكن بالخطأ الذي لا يقتصر ولا بالخطأ الذي يسهل اجتنابه في مثل ذلك العمل الجسيم

فقد كانت أمام المؤتمرين مسائل متراكمة لا تخلص من ناحية إلا اشتبكت من نواحي شتى : ان خلصت من ناحية اللغة والجنس اشتبكت من الناحية الجغرافية ، وان خلصت من هذه جميعاً اشتبكت من ناحية التجارة والثروة ، وان خلصت من هذه وتلك اشتبكت من ناحية الخطط الدفاعية والمواقع العسكرية ، وان خلصت من نواحي اللغة والجنس والتجارة والدفاع اشتبكت من ناحية النزاع بين الدول الكبرى على مناطق النفوذ أو على مرامي السياسة العالمية أو على الاحقاد التاريخية أو ماشاء كل ذلك من المقد المؤرّبة التي لا تحصى . فاذا أخطأت المعاهدات فهو خطأ مفهوم ليس في وسع أحد — حتى هذه الساعة — أن يدل الدنيا على صواب في موضعه يقنع جميع الشاكين وينصف جميع المظلومين ويبطل جميع المنازعات

وقد رأينا أمثله مما فرضه الالمان الغالبون على روسيا في معاهدة « برست ليتوفسك » وعلى رومانيا في معاهدة بوخارست وعلى المغلوبين الآخرين الذين لم يبرموا معهم صلحا ولا سلاما فاذا الرحمة كل الرحمة فيما فرضته فرساي وأتقذه الحلفاء من الشروط ، واذا الالمان يقولون ويفعلون دائماً كما قال غليوم الثاني في مبدأ الحرب اللاضية : ويل للمغلوب !

ولو أننا نظرنا الى فرساي من حيث الأثر الواقع في المانيا لوجدنا أن فرساي هذه كانت خيرا للالمان من فرساي التي خرجوا منها منتصرين في حرب السبعين فقد كان قصارى ما بلغه الالمان في حرب السبعين أن خرجوا منها أمارات متفرقات على كل امارة منها عرش وتاج وفي كل منها حكومة ودستور . . . فأصبحوا بعد فرساي الحديثة دولة واحدة لا فوارق فيها بين الامارات

وقد لبث الألمان المنتصرون أربعاً وأربعين سنة حتى استعملوا للحرب الماضية ولم يلبث الألمان بعد فرساي الحديثة عشرين سنة حتى أصبحوا على أهبة القتال في عدة سابقة لم تكن تملكها دولة منتصرة في الحرب الماضية

سأل « الجنرال » جورنيج سفير بريطانيا العظمى السير نيفل هندرسون عند ذهابه لأول مرة إلى نورمبرج (١٩٣٧) : من من الدول كان أعظم ربها في الحرب العظمى ؟

فأجاب السفير : إنها هي إيطاليا لأنها ضمت إليها حدودها الجغرافية والعسكرية ثم الأمم المستقبلية بعد إيطاليا

فقال جورنيج : « كلا . بل هي ألمانيا . إذ هي لولا تلك الحرب ولولا الهزيمة فيها لكانت وحدتها ضرباً من المحال »

وهذه هي الحقيقة التي لا يجملها زعماء النازيين ولا ينبغي أن يجملها أحد ممن يعرضون بالنقد لمعاهدة فرساي الأخيرة

على أننا نقارن بين فرساي الأولى وفرساي الثانية فيخطر لنا سؤالان لا فكاك منهما وهما : لماذا انهزمت فرنسا في فرساي الأولى فانهت من الهزيمة إلى تحطيم الاستبداد وتعزيز الحرية والحكومة الديمقراطية ؟ ولماذا انهزمت ألمانيا في فرساي الثانية فانهت إلى هدم الديمقراطية وتمكين صرح الاستبداد ؟

للأمر سر غير فرساي وكل ما انطوت عليه معاهدات السلام ؟

للأمر سر مكشوف هو طبيعة الاستبداد ومطامع المستبدين في البلاد الألمانية ولا سيما البلاد البروسية

فقبل فرساي كانت المطالب التي تطلبها ألمانيا الآن محققة بأجمعها ولم يكن لمظالم فرساي ولا لمعاهدة فرساي أثر

كانت معها دانزيغ ، وكان معها مجاز دانزيغ ، وكانت معها المستعمرات ،

وكانت معها شواطئ البحر البلطى ، وكانت معها الازاس والورين ، وكانت معها عواطف الشعوب التى انقلبت إلى الشك فيها بعد قيام الحركة النازية
فماذا أغنى عنها كل ذلك ؟

لم يغن شيئاً ولم يمنعها أن تنادى بالسيطرة العالمية ، وأن تعمل لبسط هذه السيطرة على الأصدقاء والأعداء

ففي سنة ١٩١١ لم تكن هنالك مظلة من مظالم فرساي ولاهزيمة كاذبة أو صحيحة، ولكن الجنرال فردريش فون برنهاردى Friedrich Von Bernhardi ألف يرمثذ كتاباً عن « المسانبا والحرب القادمة » أوجب فيه الحرب على قومه وعقد منه فصلاً عنوانه « السيطرة العالمية أو السقوط »

وكان مكسيميليان هاردن Harden كاتب صحيفة دى زكوفت Die Zukunft يقول قبل ذلك بسنة في صحيفته ^(١) « نحن خلقنا الحرب . فلنصنع الحرب صنماً قبل فوات الأوان »

وكان الدكتور كلاس رئيس العصبة الجرمانية يقول قبل الحرب الماضية بسنة : (إن قوة ألمانيا العسكرية تستخدم حينما نتعرض نحن أو يتعرض جيراننا للمنافسة من ذوى النيات السيئة ، وإن شعبنا الذى يسرع فى نموه يجب أن يقرر حقه فى الوجود وأن يبسط يده على أرض جديدة فى أوربا الشرقية الجنوبية على الخصوص)

وكان كارل بيترز Karl Peters مدير الاستعمار السابق يقول حوالى ذلك التاريخ : (ماذا كان بسمارك صانعاً لو كان معنا الآن ؟ لقد كان دائماً على استعداد

(١) ٧ أكتوبر سنة ١٩١٠

للمغامرة باضرار الحرب العالمية في سبيل تحقيق مراميه ، ولا مناص لألمانيا من أن تكون على استعداد لمثل ذلك في كل حين »

وكانت صحيفة الجامعة الألمانية دي بوست Die Post تنذر بريطانيا العظمى (في سنة ١٩١٢) أن ترك للألمان الحرية المطلقة في السياسة الأوروبية وتقرم على كل تضخم لقوتهم في القارة — أى أوروبا — سواء نشأ هذا التضخم من محالفات مع دول أوروبا الوسطى أو من الاغارة على فرنسا ، وألا تعارض سطات ألمانيا الاقتصادية في البلقان أو آسيا الصغرى ^(١) »

وكانت صحيفة « من برلين إلى بغداد » تملأ الآذان قبل أن يتعلم هتلر معنى التوسع والامتداد

وكان هتلر يحلم في صباه — كما قال في كتابه — بسطوة الجرمان وسيطرة الدولة الجرمانية دون أن يكون باعته إلى ذلك غيظه المحتدم من فرساي ومظالمها الصحيحة أو الفترة

وقفاة الألمان فضلا عن صحافتهم وأقوال ساستهم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين طائفة كلها بهذه النعرة التي لاينكرها القوم ولا يسعمهم أن ينكروها : القوة ! ومعنى القوة الغطرسة ! ومعنى الغطرسة السيادة والعدوان . فهم ظلموا معاهدة فرساي ولم تظلمهم معاهدة فرساي ، ولعل الحلفاء قد باثوا في الثقة بألمانيا ولم يبالغوا في الحذر منها والتشديد عليها ، فلو وفها عنها بعض الترفيه لعجل ذلك بالحرب الحاضرة ولم يؤجلها ، ولحسبته ألمانيا غفلة من الظافرين ولم تحسبه لهم في سجل الحسنات

(١) تراجع هذه الشواهد وكثير من أمثالها في كتاب « وثبة ألمانيا » لمؤلفه

ارنست هامبلوش nGermany Rampant by Ernest Hambloch

نظرة أخرى في المطالب الألمانية

ونستقصى الموضوع من جانبه الذى تمثله الدعوة النازية فنفرض أن المطالب الألمانية لم تكن مطلوبة قبل معاهدة فرساي ، وننظر إلى الذرائع التى يتذرع بها النازيون فى يومنا هذا إلى تحقيق تلك المطالب . فهل هى ذرائع صادقة ؟ وهل هى مما يؤخذ على ظاهره ؟ أو يمكن أن يجاب والعالم مطمئن إلى عقابه ؟

أهم المطالب التى سبقت الحرب الحاضرة هى ما يسمونه فسحة العيش Lebensraum والمستعمرات القديمة ، ثم دانزيج وبجازها

* * *

فسحة العيش

ويريدون بفسحة العيش أرض الزراعة « اللازمة » لميشة الألمانين فى القارة الأوروبية ، وهى مسألة يقول هتلر فى كتابه أنها لا تُحل بالمستعمرات ولا تعالج فى الكرون ! ولا محيص فيها من النظر إلى التخوم الأوروبية التى يقطنها الفلاح الألمانى وقد ضاق به وطنه ، وشح عليه قَاطَته ، ووجب أن يتوسع أو يموت

فهل تشكو المانيا كثرة السكان وازدحامهم فى الحقيقة ؟ وهل حالما فى ذلك أسوأ من أحوال الأمم الأوروبية الأخرى ؟

كل ما يصنعه النازيون يدل على أنهم يشكون قلة السكان ولا يشكون
كثرتهم وازدحامهم في المدن ولا في الريف

فهم يشجعون النسل ويبذلون معونة الزواج ، ويقيدون الهجرة من بلادهم
ويسعون في طلب الأيدي العاملة من إيطاليا والمجر وبوهيميا ومورافيا وبولونيا
وغيرها ، ويعلمون أن بروسيا الشرقية تتسع للمليونين من الألمان النازحين من
الأقاليم البلطية بعد التسليم فيها للروسين

وقد نشر معهد العمل الألماني تقريره قبل الفارة على بوهيميا ومورافيا فقال انه
« على الرغم من وفرة العاطلين الذي وجدوا العمل في سنة ١٩٣٨ بشق النفس
لا يزال نقص الأيدي العاملة شديدا ، واننا إذا قدرنا النقص في أوائل سنة ١٩٣٨
بخمسة ألاف من الصناع والمستخدمين فهو على تقدير الوزير سيروب Syrup
للسنة المقبلة لا يقل عن مليون »

وفي الوسية الأولى من الوصايا العشر التي نشرها في منتصف شهر ديسمبر
سنة ١٩٣٤ وسموها وصايا غزوة الانتاج « ان ألمانيا فقيرة في مساحة الأرض
ولكنها غنية بسكانها غنية بجميع الموارد التي تكفل لها اطعام أبنائها في هذه
المساحة المحدودة ، واخراج الخامات الصناعية بمقادير عظيمة »

* * *

واذا قارنا بين نسبة السكان على حسب المساحة والتعداد فمساحة ألمانيا
... / ٢٦٨ ميل مربع ونسبة السكان فيها على هذا نحو ٣٦٦ في الميل

ومساحة بلجيكا ٧٧٥ / ١١ ميل مربع ونسبة السكان فيها ٧٠٧ في الميل

ومساحة فرنسا ٦٥٩ / ٢١٢ ميل مربع ونسبة السكان فيها ١٩٧ في الميل

ومساحة هولندا ٦٩٨ / ١٢ ميل مربع ونسبة السكان فيها ٦٧٤ في الميل

ومساحة بريطانيا العظمى ٩٨/٠٠٠ ميل مربع ونسبة السكان فيها ٤٨٨

في الميل

فألمانيا اذن أوسع مساحة من بلجيكا وهولندا وبريطانيا العظمى ،^(١) ولو أضفنا إلى مساحة بلادهم مساحة مستعمراتهم لما تغير وجه المسألة بهذه الإضافة ؛ لأن أبناء هذه الأمم القاطنين بالمستعمرات بضعة ألوف لا تقدم ولا تؤخر في الحساب . وقد اثبتت الاحصاءات عن سنة ١٩٣٧ ان القادمين إلى تلك الدول أكثر من النازحين عنها ماعدا هولندا وإيطاليا . ولم يكن المهاجرون الالمان في جميع المستعمرات الألمانية يتجاوزون عشرين ألفا على أكبر تقدير : أى نحو العدد الذى كان يعيش في باريس او لندن من الألمانين

فالصيحة بما يسمونه « فسحة العيش » أن هى إلا صيحة مصطنعة تخفى وراءها مواطن مكتومة غير ظواهرها المكشوفة

وحقيقة الأمر هى أن النازيين يريدون زيادة السكان ليتمكنوا من فتح الأرض وانتزاعها من أبنائها ، ولا يحتاجون إلى الأرض كما يزعمون لأنهم يشكون ازدحام السكان .

أوكا قال هتلر : « اننا الآن نعد ثمانين مليوناً من الجرمان في القارة الأوروبية ، ولكن صواب سياستنا الخارجية هذه لا يتقرر ولا يثبت حتى نصبح في مدى قرن واحد مائتين وخمسين مليوناً يقيمون في هذه القارة ولا يقيمون فيها معصورين كأنهم الارقاء في خدمة العالم . . . »

وكأنما مشكلة « الفسحة » المزعومة هى في أدمغة هؤلاء الناس : كيف

(١) الحرب البتراء تأليف أريك مور ريتشى

The Unfinished War by Eric Moore Ritchie

نعتدي ؟ وكيف نبليغ العدد الذى يتيح لنا الاعتداء ؟ وليست هى مشكلة الزحام
أو التعاون بين الأمم على تذليل العقبات وفض المشكلات

وسبب الاعتداء حاضر على كل حال . ومن الضرورى أن تموت اليوم كل
أمة يطعم النازيون فى أرضها ، لأنهم ينتفرون بعد مائة عام من يصلون إلى الدنيا
من مواليد النيب الجبولين ١ وهم بالقياس إلى ما كان عليه آباؤهم قبل مائة
عام لن يزدوا عند حلول الأجل المقدور على مائة مليون

ولو كان النازيون صادقين فى شكوى الزحام لكان قبيحا بهم أن يعتبروا
قتل جيرانهم حقا مشروعا لا يعارضهم فيه معارض ، وان يعتبروه الحق الوحيد
الذى يحق للعالم أن يلتفت اليه ، أو الحل الوحيد الذى لا يفكرون ولا يفكر
العالم فى غيره . فكيف والصيحة كما رأينا كاذبة ؟ وكيف وهم لا يشعرون
بالضيق من كثرة السكان بل يشعرون بالضيق من قلتهم واحتياجهم الى المزيد ؟

المستعمرات :

أما المستعمرات فتراد للاغراض التالية وهى : تصريف السكان ، أو تصريف السلع والمصنوعات ، أو جلب الخامات ، أو المآرب العسكرية والخطط الحربية .

فأما تصريف السكان فقد رأينا قلة غناء المستعمرات جميعا فيه . ولا سيما المستعمرات الألمانية القديمة التى لم يكن منها ما يصلح لسكنى البيض غير إفريقية الجنوبية الغربية

فكل من رحل الى المستعمرات الألمانية من أهل المانيا لم يتجاوزوا عشرين ألفاً يسكن مثلهم كما قدمنا فى عاصمتي فرنسا وانجلترا

وليست الولايات المتحدة ولا الأقاليم الجنوبية من أمريكا مستعمرات نازية أو مستعمرات لدولة أوربية ، ولكنها قد اتسعت لعدة ملايين من الألمانين يعيشون فيها على حال لا يستبدلون بها المعيشة فى أحسن المستعمرات

وأما تصريف السلع والمصنوعات فلا يعقل عاقل أن الهمج الافريقيين يستنفذون من السلع والمصنوعات ما يساوى نفقات يوم واحد من الحروب الحديثة وأما الخامات فليس منها فى المستعمرات التى كانت تطالب بها ألمانيا غير قليل من المطاط والنحاس ونزرة من الأطعمة ومادة الغذاء . وقد دلت الاحصاءات الالمانية نفسها على أن الحد الأقصى الذى بلغت الواردات من المستعمرات إلى ألمانيا لم يتجاوز نصفاً فى المائة من جملة وارداتها

ولنضرب المثل بمستعمرة واحدة لتوضيح هذه الحقائق المحصورة بالأرقام ،
أو لتوضيح دخائل النيات التي يخفيها النازيون وراء دعوى المطالبة بالمستعمرات
فستمرة الكامرون يسكنها مائتان وواحد وثمانون من البيض الأوربيين :
منهم مائة وستة وسبعون ألمانيا ، وواحد وستون بريطانيا معظمهم موظفون ،
وأربعة وأربعون من أجناس أخرى معظمهم قس ومبشرون

وقد عرضت مزارع الكامرون للمبيع (١٩٢٥) فاشترها الألمان الذين
كانوا يمشون في المستعمرة قبل الحرب الماضية وأوشكت أن تنحصر في أيديهم
تجارتها صادرة وواردة كما جاء في احصاء سنة ١٩٣٧

فأصدر الألمان ما قيمته ٤١٩٩٤٦ رجنيا انجليزيا من جملة صادرات
تساوى ٥٢٦٨٥٤ رجنيا . ولم تزد قيمة الصادرات إلى الجزر البريطانية عن
٣٣٧٠٠ رجنيا

واستورد الألمان من بلادهم ما قيمته ٧٧١ ر٧٦ رجنيا من جملة واردات
تساوى ٨٤٣ ر٣٢٨ رجنيا . ولم تزد الواردات من الجزر البريطانية عن
٣٩٢١٠ رجنيا

ولا ننس أن خامات المستعمرات جميعا قلما تبلغ جزءا من ثلاثين جزءا من
خامات البلاد الحرة ، وإن أمما كثيرة اصغر من أن تكره منافسا أو تقتحم سوقا
تفجر في العالم وليس لها مستعمرات كالسويد والنرويج وسويسرة ، وإن الولايات
المتحدة لا تملك كندا ولكنها مع هذا تصدر إليها ثلاثة أضعاف الصادرات
الانجليزية ، وإن رؤس الأموال البريطانية في الأرجنتين أكبر من نظائرها في
جميع البلاد التابعة لبريطانيا العظمى

فالساسة المتوجسون من خفايا النيات التي يواربها النازيون في اطوار

مسألة المستعمرات معذورون إذا أيقنوا أن الغرض المطلوب إذن هو العدوان
المسكرى والترصد للحروب والغارات

وحسب القارىء أن يلقي نظرة على مواقع المستعمرات الألمانية القديمة
ومواقع حلفائها ليعلم ما يهدد العالم من أخطارها . فليس أسهل من إحصاء مسالك
البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي والبحر الأحمر على من يملك مكامن القواصم
والأنعام في تلك المستعمرات ، أو يملك مراكز الطيران على جميع الشواطئ
الافريقية ، وبعض الشواطئ في المحيط الهادى وما يليه

وليس أسهل من تهديد القارة الافريقية برمتها سواء في منابع النيل أو في
جوف الصحراء إذا أعيدت هذه المستعمرات إلى الأيدي النازية ، وثبت للقبائل
الافريقية التي تقهر الحسوسات ولا تشغل بالها بما عداها — أن النازيين هم
الغالبون وانهم يأخذون كل ما يريدون

عندئذ لا يأمن أحد في افريقية أو في العالم بأسره تهديد النازيين . ومن
الذى يقول ان النازيين لا يهددون وهم قادرون على التهديد ! . . . الذى يقول
ذلك لا يؤمن على مصائر شعوب

ومن العبث أن نضيع الوقت في تنفيذ ما يزعم النازيون إذ يقولون انهم
يطالبون بالمستعمرات لأنهم يأفون أن تعزى اليهم جريمة الحرب وان تضع
مستعمراتهم عقوبة لهم على تلك الجريمة . . . كأن النازيين ينجلون من الحرب
وهم يعمدون بها ويؤلهونها ويقدسونها في جميع ما يكتبون ، أو كأنما كان هتلر
ينسى هذه القصة يوم كتب « كفاحه » وقال فيه ان الخطورة في سبيل المستعمرات
من أسخف الحماقات ، أو كأن فتح النمسا وهى بلاد أوربية لا يمدل في هذا
للعن سيطرة ألمانيا على الجاهل الافريقية ، أو كأن استيلاء اليابان على بعض

المستعمرات الألمانية لا يضرها كما تضرها المستعمرات التي في أيدي الأوربيين
(الآريين أو أشباه الآريين !)

فهذه تعلات تقال ولا يصدق أحد أن الساسة يقصدونها حقاً حين
يغررون بها جماهير الشعوب ، أو أنهم يجازفون بخراب العالم من أجلها
ويعصرون على هذه المجازفة سنيناً بعد سنين ، ولو صدقوا في ذلك لكانت
وصمتهم بالصدق فيه أشد وأقبح من كل وصمة يفتريها عليهم الأعداء

دانزيج :

أما مسألة دانزيج — وهى سبب الحرب المباشر إذا أخذنا بأقوال اللسان — فكل مايدكره النازيون أنها كانت ألمانية ويجب أن تعود إلى حكومتها الأولى . ثم ينسون ماعدا ذلك من الدعاوى والمصالح والتواريخ القريبة والبعيدة. ينسون مثلاً أنها لبثت من منتصف القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر مدينة حرة فى ظل السيادة البولونية ، وانها ضُمت إلى بروسيا بعد هزيمة نابليون الأول على خلاف مشيئة أهلها ، وان حياة بولونيا تتوقف على دانزيج ولكن حياة ألمانيا لاتتوقف عليها ولو عُرِزَتْ عنها كل العزلة ، وهى حقيقة عرفها الساسة الألمان من قديم الزمن وعبر عنها ملك بروسيا فردريك الثانى أحسن تعبير حين قال « ان القابض على مصب نهر القستولا هو أقوى فى بولونيا من الملك البولوى الجالس على عرش فرسوفيا »

ولم تكن سيطرة ألمانيا على دانزيج ضميعة فى نظامها الحديث الذى قررتة المعاهدات بعد الحرب الماضية ، فقد كان الأمر فيها لمجلس الشيوخ والحكومة المسؤلة أمامه ومعظم أعضائهما المانيون ، ولم يكن لبولونيا من الأمر فيها إلا القسط الكافى لضمان صادراتها ووارداتها وريدها ، ثم لا ولاية لها عليها . بل الولاية لعصبة الأمم التى تندب حاكم المدينة وترجع اليه فى العلم بأحوالها

ولم يحدث قط أن تعرضت بولونيا للمواصلات الألمانية فى المجاز البولوى المشهور المراقبة المهربات التى قد تحمل الى بلادها ، ولم يطلب النازيون استفتاء الشعب فى ذلك المجاز لمعرفة رأيه فيما يحكمه الا على شريطة أن يحكموه سنة ثم

يجرى الاستفتاء المطلوب ! ومعنى ذلك أنهم يحتاجون الى سنة فى الحكم النازى
المهود لىضمنوا جلاء من فى المجاز من البولونيين واستدعاء من يخصهم من
النازيين . . . ثم لا يضمنون هذه النتيجة الا أن يكون الحكم فى أيديهم ساعة
الاستفتاء ، وأن يكون كل مقيم فى المجاز عارفا ما سيصيبه إذا اختار بولونيا ،
وهو يرى بعينه أن اختياره إياها لا يفيد

فليست « دانزيج » هى بيت القصيد

إنما بيت القصيد هو خنق بولونيا ومن يجاورها من أمم أوروبا الوسطى . فلا
تجد تلك البلاد منفذا لتجارها فى غير الأرض الألمانية من الشمال أو الجنوب :
ففى الشمال دانزيج وفى الجنوب النمسا ، ولن يدخل الى تلك البلاد أو يخرج منها
شئ الا باذن النازيين !

ومتى استعبدت أوروبا الوسطى للنازيين هذا الاستعباد قصير أوروبا الشرقية
وما وراءها معروف . ومصير الخطط النازية كذلك معروف ، ففى خطط تجمع
فى خطة واحدة ، وهى استعباد كل من يُبتلى لهم بحوار ، أو يقف لهم فى طريق
وعلى الرغم من هذا جميعه لم تكن الحرب ضرورة قاسرة ولا ضرورة غير
قاسرة ، لأن أنصار السلام من سياسة الامم فى أوروبا وأمريكا تعبوا وهم يقترحون
حلول المفاوضة والتوفيق ، قليل لهم أن الحل الوحيد هو قبول مايريد النازيون
ولو كان فى قبوله الفناء

ولمن شاء أن يأخذ المطالب النازية على ظاهرها ، أو يأخذها على باطنها
الذى قلما يستره حجاب

ففى على ظاهرها لا تلجئ الى الحرب ولا يكون المقدم على الحرب من
أجلها الا مجرما يجازف بسلام أمته وسلام العالم لغير ضرورة
وهى على باطنها تسعى حثيث للسيطرة على العالم وتهديد من فيه من الأقوياء

والضعفاء على السواء . فهل لابد من هذه السيطرة ؟

وهل الحرب طريقاً التي لا مخرج منها ؟

هل هي طريق السيطرة على العالم حتى لو انتهت بالانتصار ؟

نفرض أن السيطرة على العالم غاية لا مخرج منها فهل الحرب وسيلة لا مخرج منها ؟ وهل هي وسيلة مضمونة ؟

وماذا لو فشلت الحرب ؟ وماذا لو امتدت وطالت ولم تغش ؟ أكل هذا لا يدخل في الحساب ثم يقال أن السياسي الذي يهجم على هذا كله يحسب ولا يخطئ الحساب ؟

أن الرجل الذي لا يعرف له سياسة غير هذه السياسة لا يعرف أن يسوس لأن الأمم إنما تحتاج إلى السياسة لاحتياجها إلى اجتناب هذه الشرور أما إذا كانت لا تحتاج إلى اجتنابها فما أغناها عن السياسة والسواس ! وإذا كانت سياسة هتار قد اضطرت به إلى ورود هذا المورد الويل فبئس ما فعل ، وساء نصيبه من السياسة

أما إذا كان مختاراً يملك الحرب والسلام ثم لا يبالي أن يخوض الحرب ويعرض عن السلم فالمصيبة أعظم : المصيبة خطل وإجرام وهوس مجتمعات

فهد ألمانى

ذكرنا طرفا من الأسباب التى هيات النجاح لهتلر وجماعة النازيين فى الأمة الألمانية ، فنضيف الآن أن هذه الأسباب على كثرتها وقوتها لاتسفى بلوغه النجاح الذى بلغه لولا السبب الأكبر الشامل المحيط بها جميعا ، ونعنى به خلة راسخة فى الأمة الألمانية تفتح آذانها واذعانها لقبول الدعوات التى من قبيل الدعوة الهتلرية

ففى اعتقادنا أن هتلر لم يكن لينجح ذلك النجاح فى تطويع أمته لو كانت هذه الأمة غير الألمانين . لأن الأمة الالمانية العظيمة بمن نبغ فيها من فطاحل الأدباء والشعراء والفلاسفة والعلماء والمخترعين ليست بالأمة العظيمة فى كل شىء . بل لعلها مصابة بقصور شديد سلت منه أمم دونها فى عدد النواىغ الافذاذ ، وهو قصورها فى التربية السياسية وضعف ايمانها بالحرية

ولا يخفى أن التربية السياسية تحتاج إلى شىء غير نبوغ الافذاذ وانجباب العبقرين ، لأنها مسألة مرانة متسلسلة فى بنية الشعب بجميع طبقاته وعناصره ، ينتقل فيها خطوة بعد خطوة ودرجة بعد درجة ، بالتدريب العملى والحوادث الفعالة فى تركيبه وتأليفه . فلا تبلغ منه التربية السياسية مبلغ العادة إلا إذا تعودها . ولا يحىء التعود بالأقوال والمغات ، وأن وُجد القائلون والواعظون ، فكيف وهم لا يوجدون ؟

ويرجع قصور الألمان في تربيتهم السياسية إلى أصول تاريخية بعضها قديم وبعضها حديث أو قريب من العصر الحديث

ففي العصور الغابرة كانوا قبائل غازية لاتعرف الاستقرار وآداب العمار . وإذا لجأت إلى الاستقرار فأنما تستقر بالتناوب سنة للقتال وسنة للرعى والزراعة : فيقاتل في هذه السنة من كانوا يزرعون ويرعون في السنة السابقة ، ثم يذهب الزارعون والرعاة إلى القتال ولما يطل عهدهم بالسلم بضعة شهور . وقد وصفهم يوليوس قيصر في حالتهم تلك فقال : « انهم قلما يبالون الزراعة لأنهم يعيشون أكثر ما يعيشون على اللبن والجبن واللحوم ، وليس لرجل منهم أرض يملكها ولا حدود تفصل ما بينه وبين غيره » وقال : « انهم يحسبون من شرف الدولة أن تقفر الديار من حولها دليلا عندم على الشجاعة التي تقضى جيرانهم فلا يجسرون على الاقتراب منهم » . . . « وان الاوصية لا عيب فيها إذا قورفت بعيداً عن ديارهم ، بل ربما حسبوها نافعة لتدريب الناشئة ومنع الاخلاذ إلى الكسل والراحة »

ووصفهم المؤرخ تاسيتوس فقال : « انهم إذا هدأوا واستراحوا تطوع كثير من نبلائهم للقتال في صفوف القبائل التي تشن غارة من الغارات ، وأنهم لا يقدرّون بغير العدوان والحرب أن يمونا اتباعهم وحاشيتهم الكثيرة ، ويعتمد هؤلاء الاتباع على كرم رؤسائهم فيما يركبون من خيل أو يشهرون من رماح ، ولا ينالون أجرا غير ما آدب الطعام الغليظ وان لم يكن بالقليل . فالحرب والفنمية نغز أولئك الرؤساء ، وليس من السهل أن تقنعهم بالحرب وانتظار الغلة كما تنعمهم بالمهجوم والمبارزة ، بل من دلائل الوهن عندم أن تطلب برق الجبين ما أنت قادر على أخذه بالدم المراق . . . » ووصفهم المؤرخ جان فرواسات Froissart في أواخر القرن الرابع عشر فقال « إنهم شعب جشع يجنح أبدا إلى العنف والتهديد والاعتداء ،

لارحمة عندهم إذا غلبوا ومعاملتهم لاسرام سينة قاسية »

وهذه خلة كانت شائعة في كثير من الأمم وهى على حالة البداوة والهمجية بيد أن الألمان قد انتقلوا منها إلى حالة تشبهها ولم ينتقلوا إلى حالة الحكم المسؤول والشورى الدستورية كما انتقل بعض الأمم الأخرى رحلة بعد رحلة . نخرجوا من همجية البداوة الأولى إلى نظام الاقطاع الذى لا يعرف علاقة بين الحاكم والمحكوم غير علاقة الأمر بالمأمور ، ولا يعرف علاقة بين الولاية والولاية غير علاقة القاهرة بالمتهور ، أو علاقة الحرب والتربص والانتقام .

وكانت ولاياتهم متعددة وتكاثر كلما نشبت الحروب وانقطعت الوشائج والارحام . فزادت في نهاية القرون الوسطى على ثلثائة ولاية لانضع السلاح يوما خيفة جيرانها وأبناء جنسها أو خيفة الجيوش الجارفة التى كانت تشق أوروبا من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق أو من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب إلى الشمال . فان موقع الألمان في الرقعة الوسطى من قارة أوروبا تركهم عرضة لكل مغير وجعاهم متوثبين أبداً للاغارة على من حولهم من الغافلين أو المستضعفين ، فعاشوا في ساحة حرب لا رأى فيها للرعية إلا كراى الجندى المطيع ، ولا عهد فيها بين ولاية وولاية إلا كعهد المغلوب للغالب أو الغالب للمغلوب .

وظلوا على هذه الحالة الى ما قبل حرب السبعين ، فلم تنقص ولايتهم عن مائة وسبعين في أيام الثورة الفرنسية ، ثم انتظموا في علاقة تشبه الوحدة بالقياس إلى ما كانوا عليه من التفرق والصراع . ولكنهم لسوء حظهم وقعوا في زعامة هى شر الزعامات ، فسلخوا زمام الدولة لامارة لم تكن لها مزية على سائر الامارات غير وفرة العدد ووفرة السلاح ، وهى بروسيا آخر القبائل الجرمانية حضارة وأقلها نصيبا من الأدب والمروءة . فسارت بهم على سنتها وباعدت ما بينهم

وبين «التطور» في سبيل الشورى ومعاملات السلم والمودة ، وتركهم في سياستهم لا يعقلون إلا «وجهة نظر واحدة» هى وجهة النظر التى يأمر بها السيد المطاع ، ولا يعرفون حق المعارضة لفرد من أفراد الرعية لأن المعارضة منه عصيان ، ولا لدولة من الدول الأجنبية لأن المعارضة منها عدااء وقتال

وليشوا كذلك إلى ما بعد الحرب الماضية التى خرجوا منها دولة واحدة قليلة الفواصل والحدود . فلم تنقض عليهم عشر سنوات حتى انكفأوا إلى نظام المسكر وأدب الفارة والاعتقال

وازن بين تربية كهذه لاجل فيها لرأى الأمة فى سياسة داخلية أو خارجية ولا أدب لمن يتربى عليها غير الطاعة أو العدوان ، وبين التربية السياسية التى فرضتها على خصوم الألمان مواقع الجغرافية ووقائع التاريخ فالانجائز مثلاً أبناء جزيرة مستقرة قرية

فهم لهذا آمنون ، وهم لهذا تجار . ومن هنا بطل فيهم طفيان العسكرية ونشأت فيهم خلائق الشورى والتفاهم والأخذ والعطاء

وهم أقوياء ولكنهم يبيعون ويشترىون ، فلا مناص لهم من السمعة ومن الثقة ومن الارضاء ، إذ التاجر لن تنسيه قوته أن يرضى عميله وشريكه ، ولن يستغنى — وان استغنى — عن التفاهم والقبول

وقل ماشئت عن أسرار الحرب الحاضرة وأسباب الحوادث القريبة على تناقض الروايات والتعليقات ، فهلا شك فيه أن تربية الألمان القديمة هى التى جعلتهم يأنفون من مفاوضة الأمم الصغيرة ، ويستكبرون أن يجلسوا مع بولونيا أومع غيرها إلى مائدة واحدة لفض للشكلات وتبادل الآراء ، لأنهم ينظرون إلى المفاوضة نظارة العسكرية الذى لا يعرف المفاوضة إلا لاملأء الشروط أو الخضوع لمن يملها . ومما لاشكك فيه أن تربية الانجليز القديمة هى التى جعلتهم يفارضون

الكبير والصغير ، وعوّدتهم أن يروا لمفاوضهم حق الشارى على البائع وحق البائع على الشارى ، فى مجال الأخذ والعطاء

تلك الخلة الألمانية معلومة لكبار الأدباء الألمان سواء منهم الآريون وغير الآريين ، فأديبهم الكبير « جيتى » يقول

« ان امام أبناء وطننا بضعة قرون أخرى تنصرم قبل أن يترقوا إلى منزلة من الحضارة تجعل الناس يقولون أنهم كانوا برايرة منذ عهد بعيد »
وشيلر زميل جيتى يقول « أيها الجرمان ، عزيزا عليكم أن تصبحوا أمة ، فكونوا رجالا فذلك ميسور »

وهينى أشهر شعرائهم الفئائيين يقول : « يوم يتبدد رمز المسيحية الوديع يفور مرة أخرى جنون الفزاة الأقدمين الذى يطنب فى التفتى به شعراء الشمال ، وتهب الأرباب الصخرية من مراقدها فى الآكام المهجورة نافضةً عن اهدابها غبار ألف عام . وهب معها اله الرعد والبرق ثور يحمل مطارقه الهائلة ليهوى بها على محاريب الآلهة المسيحية : يومئذ تسمع جهنم من الضوضاء لم يسمع لها مثل قط فى تاريخ العالم كله ، ويومئذ تعلم أن الرعد الجرمانى قد تهادى إلى مدهاه ، وان الصيحة يومئذ لتسقطان النسر ميتا فى علاه ، ولتسمعنها الأسود الناكسة فى أقصى الآجام الأفريقية فتختبئ فى كهوفها ، ولتشهدن ألمانيا فى ذلك الموعد مشهدا تحسب الثورة الفرنسية عنده موقف غزل وغرام . ولتطلعن العالم كأنه على سلاسل عريضة الصراع لينظر إلى مشهد هذا العراك الجنونى فى ساحة ألمانيا . . . »

قالها هينى قبل مائة سنة فصدقته الأيام ، ولو قالها اليوم لقالوا نبوءة شاعر كذاب من سلالة اسرائيل !

ونيتشه نبى القوة عندهم يقول : « الجرمان كالنساء . لا يسبر غورهم لأنهم بلا غور . . . وهذا كل ما هناك . فلا يقال عنهم أنهم ضحل لهذا السبب عينه . اماما

يسمى العمق فى ألمانيا فهو فى لبابه قص فى اخلاص المرء لنفسه ، أو هو بمثابة
أمة تأبى أن تقف من طبيعتها موقف الوضوح والصراحة . ألا يحسن أن نضع
كلمة الجرمانية رمزاً متفقاً عليه للدلالة على هذه الآفة النفسية ؟ »

وطالما ألم جيتى ألماً شديداً للنظر فى أمور هذه الأمة التى تتقن التفاصيل
وتنسى الشمول والتى « يبدو فيها أفراد أجلاء وتبدو هى أمة زرية »

إلا أن الاختلاف الذى لاحظناه لا يمد من الشذوذ ولا يخرج على القياس
المعقول . لأن البربرية وقوة العقل والطبع لا تتناقضان ، فيجوز أن ينشأ الأفراد
المتندرون فى غمرة البداوة كما ينشأون فى أوج الحضارة ، وأن تملأ الصفات الفردية ،
وتهبط الصفات القومية . أما التقيضان المستغربان فهما أن تصمد الأمة على حكم
الأستبداد وأن تتقدم فى أطوار التربية السياسية وخلائق الحرية التى تواتبها
فى تصريف تبعات الحكم ومشاركاته ، وهذا هو جانب القصور فى تربية الألمان

ومن المشاهدات التى لا تستغرب بعد ما تقدم أن الألمان على كثرة ما أفادوا
العالم فى أبواب العلم والفن والصناعة لم يفيدوه شيئاً فى باب العلم السياسى والاصول
الدستورية ، فلام فى أطوارهم الشعبية تقدموا وراء القيادة العسكرية وأنظمة
الميدان ، ولا هم فى كتابات فقهاءهم ودارسيهم ساهموا بقسط قيم من التفكير
فى هذا الباب ، وغاية ما ساهموا به أنهم قدسوا الدولة وأقاموها على أساس « القوة
الحاصلة » وجعلوا مخالفتها أشبه بالكفر والشيطنة منها بالجريمة التى يماقها القانون
فالدولة عند فيلسوفهم الكبير هيجل هى مساك الحق وخلاصة التاريخ
وصورة المشيئة الآلمية . . . وماشا كل ذلك من نعوت تلحق الدولة بعالم الغيب
فى عرف المتصوفة

والقانون عند فقهاءهم هو « سر العنصر » أو لهاب الروح القومى

Volksgeist وليس هو بالعدل المطلق الذى يعم جميع الأقوام ولو فى المبدأ والقاعدة فبيما كانت الدول تعلن فى الحرب الماضية أن محاكم الغنائم فيها تطبق قانون الأمم وشريعة المنطق الانسانى كانت المانيا تعلن أنها لا تطبق إلا الشريعة الألمانية التى تستمدّها من الدولة الألمانية ، وبما كانت الشعوب المختلفة تبنى اعترافها لعصبة الأمم على أسباب المصلحة أو على خشية الاخفاق والاصطدام بالوقائع المنظورة كان الالمان يخلطون بذلك سببا فلسفيا يقوم على فكرة العنصر والقوم ، فلا عدل فى اجتماع عصبة الأمم لانها مجموعة أجناس المشرق والمغرب وسلالات البيض والصقر والسمر والسود ، وانما العدل أن تقوم على جنس واحد أو أجناس متقاربات ، وأن تعترف بالتفاوت بين السادة والمُسودين والاقوياء والضعفاء أى أن تبطل معنى العدل فجعله اعترافا بمجاوز الظلم لمن يقدر عليه وتحرّيه على من يعجز عنه ليس إلا ... وما أبعد الفرق بين قولك أن الظلم هو العدل والانصاف وقولك أن العدل مطلوب محبوب ولكنه متعذر التحقيق ، ولا بد من رياضة الطباع عليه

وهذا التفاوت بين اقدار الشعوب يسرى على الرعايا الالمان فينقسمون الى آريين وغير آريين وينقسم الآريون الى عريقين فى الآرية يحملون جواز المراقبة Gröss Ahnenass ومحدثين فى الآرية لا يثبتون من النسب فيها أكثر من جد واحد ولا يحملون الأجاز المحدثين Ahnenspiegel وهو لا يسمح لهم بالانضمام فى الحزب ولا فى جماعاته المختارة^(١)

وكان أناس يخالون أن حذقة الالمان فى تفضيل أنفسهم على العالمين قد بلغت قصارها خلال الفترة التالية لمهد بسمارك وحرب السبعين ، فاذا بالنازيين يدخرون

(١) كتاب الحق والقوة لمؤلفه الفقيه الالماني الدكتور فردريش رويتير

Firedreick Roetter

من هذا المعنى مالم يكن يخطر على بال .

فليس التفاوت باديا باقيا بين القوم الجرمان وسائر الاقوام الآدمية وكفى ...
كلا . بل هناك تفاوت بين حيوان آرى وحيوان أجنبي وبين فاكهة عريقة وفاكهة
هجينه ، وبين بذور رفيعة تنبت في تربة الشمال وبذور خسيسة تنبت في تربة
الجنوب ، فمن المحقق كما يقول الجنرال لندورف ^(١) أن الأرنب ليس بحيوان
آرى ، وحسبك سببا جينه الالم . وحماده أنه مهاجر يحظى بمخافة الضيف . أما
الحيوان الذى لاشبهة في ملامحه الجرمانية فهو الأسد ، وهو من أجل ذلك المانى
في دار غربة »

بل التفاوت بين السلالة الآرية والسلالات الأخرى تفاوت في تركيب
الجسد ووظائف الأعضاء وخصائص العترة البشرية .

« فغير الآريين لهم أسنان وفكوك عليها تشبه في ضيقها ومنظرها خراطيم
الحيوان ، وحركة الفكين بين أهل الشمال تسمح بمضغ الطعام والقم مقفل على
خلاف الأجناس الأخرى التى تُسمع لمضغها أصوات كأصوات العجماوات . وللم
الشمالى عدا هذا فضائل شتى يمتاز بها كامتياز اللون الأحمر بإثارة الشعور ، فان
لونه المتهوج القانى يفرى بالقبلات ، وفم الشماليين من أجل هذا مركب صالح في
تركيبه للتقبيل . أما غير الشماليين فهم عراض الشفاء غلاظها ينمون بذلك
وفتحات المنخرين على الشهوة وعلى التعبير المازى المضطفن وعلى حركة
الارتشاف التى تنبى بالانفماس فى المتعة الراضية ، وهم يفرطون فى التحدث
بمساعدة الأيدى والأرجل مما لا يرى فى حديث أهل الشمال الذين يتكلمون
أحيانا وأيديهم فى الجيوب . ولن تبصر فى غير المرأة الشمالية ذلك النهى الكاعب
المكين المستدير الذى يبرز للنظر حتى حين تلقى بذراعيها إلى الجنين . وخلاصة

(١) فى 'Am Qelle Deutscher kraft' أى من منبع القوة الجرمانية

القول ان غير الشماليين ينزلون في مرتبة بين طبقة الانسان الشمالى وطبقة الحيوان من فصيلة فوق فصائل القردة العليا . فليسوا هم باناسى" يقابلون الصفات الحيوانية بالصفات الانسانية ، ولكنهم حاقمة وسطى في الطريق أخرى بهم أن يسموا شبه بشر» « وإذا سأل سائل ما بال غير الشماليين وهم أقرب رحماً إلى القردة يتناسلون من الشماليين ولا يتناسلون من القردة ؟ فالجواب ان الدليل لم يبق بعد على ائهم وفصائل القردة لا يتناسلون ! » (١) .

وليس المهم أن يؤمن النازيون بهذا الهراء ايمان اليقين ، بل المهم انهم يعملون به عمل المؤمنين . ولا ندرى وايم الحق أيهما أقبح بالمرء : أن يصدق هراءاً كهذا فهو مسلوب التمييز في شؤون الأقوام ومسائل السياسة ، أو أن يدعيه ولا يصدق به فهو خادع محتال .

* * *

أمة تروج فيها هذه الدعوات حينما ظهرت ليس بمعجيب أن يعلوها أضراب هتلر وجوبلز وهيس وجورينج متى أيديهم المصادقات واندفع بهم تيار الحوادث والأزمات ، وليس بمعجيب أن تكذب تلك الأمة على عقولها وهي تكذب على أعينها فتصدق أن هؤلاء صفوة الآريين وهم على تقيض الشمال التي يزعمونها لأبناء الشمال . فالرجل الشمالى في زعمهم « أصهب رائع المنظر فارغ الطول بين الرجلين رقيق وسيم » وهتلر اثوى جنوبى السحنة لا روعة لمرآه ، وجوبلز أعرج دميم ممسوخ الوجه والقامة ، وهيس أسمر من مواليد الأسكندرية ، وجورينج ضخم بدين جدته فرنسية ولكنهم يهتفون للألمان بما يعجبهم

(١) كتاب الأصول الحديثة لبحث الأجناس تأليف هرمان جوش اقتباس

مجلة الناشيون في ٦ فبراير ١٩٣٥ .

The New Bases of Racist Research by Hermann Gauch

فهم مصدقون ولو كذبتهم العيون !

لقد أكبر بعض الكتاب الأوروبيين من هتلر أنه « صنع المعجزة » وأعاد إلى الألمان الثقة بأنفسهم وقد شارفوا على الذلة والانحلال .

فهل جاء هتلر قومه برسالة الثقة بالنفس أو رسالة الاستخفاف بالآخرين ؟

ان الواثق بنفسه لا يلقى حقوقه في الحرية ولا يبنى حياته على التسليم والأذعان ولا يصيح على الابراج والشواهي أنه واثق وأنه يقسم أنه واثق !

كلا . إنما يفعل ذلك من لا ثقة له بنفسه ولا قدرة له على تمييز رأيه ، وليس الاعتداء على الآخرين من صفات الواثقين ، ولكنه من صفات من لا يعرفون الحقوق ولا يدرون معنى الحرمات .

وهتلر قد علم شبان قومه خلائق معلومة لا صعوبة في تعليمها ، بل الصعوبة في اقتلاعها وتبديلها لأنها من نوازع الممجية وخلائق القطعان .

قال لهم البسوا الكساوى والشارات التي تحبونها ، واخرجوا في الشوارع صفوفًا صفوفًا ترعقون وتتوعدون ، واضربوا اليهود واضربوا الشيوعيين واضربوا الديمقراطيين واضربوا النازيين الخائفين اضربوا اضربوا اضربوا ولكم المجد والفخار وعلى فرائسكم المسبة والعار .

ولقد عاش أبناء آدم مائة قرن يعاقبون من يضرب ويقيدون يديه ويعيبونه بالشر والرديلة ولا يزال الضرب مغريا يهون فيه العقاب والتأنيب .

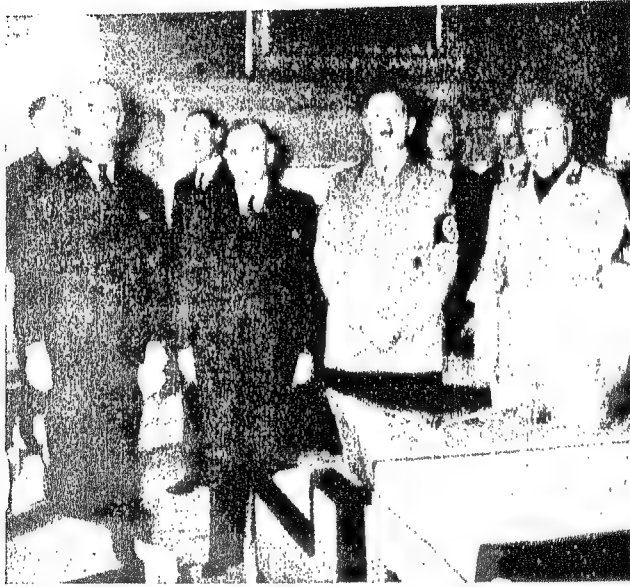
فاذا جاء هتلر وجمله شرفا يبوء المعتدى بفخره ويبوء المعتدى عليه بوصمته ونكره فأين هي المعجزة وأين هي الخليفة الكريمة التي تكتسب بالمشقة والرياضة وهداية الزعماء ؟

هذا اندفاع مع التيار وليس وقوفا في وجه التيار ، وتلك هي النكسة

والامحذار وليست هى الوثبة والافتدار ، وما فى هذه الزعامة الرخيصة مسحة من العظمة ولا لمحة من الابتكار .

ألقوا وجودهم من ناحية وألقوا وجود الآخرين من ناحية أخرى !
كبحوا حريتهم العالية على الأحرار ثم أشبعوا نفوسهم المكبوحة بشهوة العدوان على حرية الناس . فكانوا خاسرين فى الصفقتين ، غادرين بحرماتهم وحرمان من يعتدون عليهم . وبس التعليم ان كان هذا الصنيع فى حاجة إلى تعليم .
إنما المعجزة أن تعلم المرء الكرامة فلا يهدر حقوقه ولا يهدر حقوق غيره ،
وإنما الرجل الكريم كما قلنا فى كتابنا عن سعد زغلول من « يسوءه أن يتعرض الآخرون لغضاضة مهينة كما يسوءه أن يتعرض هولئك الغضاضة ، ويعاف الذل حيث كان ولو لم يمسه فى كبريائه ، وذلك هو الفرق بين الكرامة المحمودة والفترة الذميمة . فان الفترة الذميمة هى التى تستريح إلى اذلال الآخرين ولا تقار على كرامة إنسان ، وهى التى لا تميز بين الكبرياء بحق والكبرياء بباطل ، ولانلوم الناس لأنهم اعتدوا عليها مبطلين بل لانلومهم لأنهم عرفوا لأنفسهم كرامة ولو كانت صادقة وعلى صواب . ولهذا يستخذى المتفطرس حين تصدمه القوة من سواء ، ولا يزداد الكريم إلا انتصاراً لكرامته حين يمسا من يتناول عليه » .

وهكذا « معجزات » هتلر فى شتى مراميها لاتستمد قوتها من رفيع الصفات كما تستمدها من وضع الفرائز والشهوات ، ولا تعتمد على الاقتحام كما تعتمد على الاتباع والانسياق ، ولا تروعك بالبطولة كما تروعك بالمدورة والاستغلال ، ولا تروض الظروف بل تركيبها وهى روضة ذلول ، ولا يرتفع بواحدة منها إلى مرتبة النواذر الأعلى بل يظل حيث كان فى زمرة الأواسط وأبناء المصادفات



هتلر مع شامبرلين ودلاديه و موسولينى



هتلر مع شامبرلين وهندرسون السفير البريطانى

الفَصْلُ الثَّالِثُ

نَفْسٌ هَتَمَ

نفس هتله

صرفنا معظم الكلام فى الفصل السابق إلى بيان « الظروف » التى هيات لهتلر ماتهيأله من النجاح فى قومه ، لنعزل بين أعماله وضجتها الخارجية ، ونعلم ماهو حقه وما هو حق الحوادث ، ونوازن بين ماهو من فضل الكفاءة وما هو من فضل المكان الذى ارتفع اليه ، ومخلص من ثمة إلى سبر أغواره وأغوار أعماله فنسلكه فى مسلكه الصحيح وتقييمه حيث ينبغى أن يقوم

وسنصرف الكلام فى هذا الفصل إلى دراسة طبائعه وأخلاقه وبواعث تفكيره وهواه ، فيكون سؤالنا فى هذا الفصل : لماذا اختار هذا الطريق ؟ وقد كان سؤالنا فى الفصل السابق : كيف تمهد له هذا الطريق ؟

وفى هذا العصر الذى شاع فيه علم النفس واتصل فيه طب العقول وطب الأجسام يندر أن يشتهر انسان بما يثير النفوس دون أن توضع نفسه هو موضع الفحص الطبى والدراسة العقلية ، ليتبين الباحثون دلالة أعماله ويتعرفوا نصيبها من الصحة والاستقامة أو نصيبها من المرض والشذوذ

وهتلر فى رأى بعض الأطباء مصاب بآفة نفسية يسمونها « شيزوفرنيا » Schizophrenia أو ما يُعبر عنه فى العرف الدارج بازدواج الشخصية ، وهى آفة تنشأ من الوراثة القديمة والحديثة ومن فرط النشاط فى الغدة الدرقية على نحو يغلب فى النساء المريضات ، واليه يرجع احتياج الشعور عندهن وطفيان الحس على أفكارهن

وقد لوحظ على هتلر كثير من عوارض هذه الأنوثة المريضة لأنه يبكي ويمرح حين يشاء ، ويفضب ويصخب لأتفه الأشياء ، ويشعر شعور سامعيه أبدأ ثم لا يزودهم يوماً بزيادة من الفكر المقنع والروية المادنة في غير سخط واحتياج ، ويشبه المرأة في تركيب جسمه لضيق كتفيه وضخامة ردفه ، وقلة العضل في تكوين أعضائه مع عنايته بتصفيف طرته وتنميق أظافره ، وندرة ما يبدو عليه من دلائل الرجولة في اتصاله بالجنس اللطيف ، وكثرة ما يعهد من كيد وولعه بالايقاع وإثارة الشحنة والغيرة بين المحيطين به على نحو ما تصنع المرأة المتبوعة بين المحيطين بها ، وهذا إلى صبره الطويل على كل ألم في سبيل الظهور والزينة والمتعة بالتفاف الأنظار ، كوقوفه خمس ساعات ممدود الذراع أمام الموابك التي تحببه وتوىء إليه ، وهو نوع من الصبر يعهد كثيراً في النساء ولا يعهد في الرجال .

وصاحب الشخصية المزدوجة يتناقض في تفكيره وشعوره كأنما تصدر أفكاره وأحاسيسه من مصدرين أو من شخصين مختلفين : فهو حيناً شديد الرأي وحيناً شديد الخطل ، وهو تارة وديع لين وتارة شرس عنيد ، وساعة يحجم ويتردد وساعة أخرى يهجم ويتعسف ، وقد يعالج الأمور علاج الحالم المؤمن ثم لا يلبث أن يعالجها علاج المتشكك الذي لا يقنع بغير الواقع الملموس .

ونشرت مجلة الموضع الطبية Lancet في أوائل السنة الحاضرة بحثاً عن المستيريا النفسية عدد فيه الكاتب عوارضها وعلامات هذه العوارض في نفس هتلر وأعماله ، فقال ان المريض المصاب بالمستيريا ذكي متعدد الشواغل وإن كان لا يتعمق في واحدة منها ، مولع بالأسرار لبق في التسلل إلى مكائن الأهواء ، قادر على تجديد الصور في خياله وحده وربط الشئ من الأفكار بروابط غريبة وسطحية لا تنفذ إلى اللباب ، وأنه مستعد بالفطرة للتغاضي عما لا يوافق

ولا يرضى لباناته ، وانه جامع النفس في حبه وبغضه ، متقلب في أطواره وميوله
تدور خواطره كلها على محور واحد هو نفسه وما يتقزز به حسه ، ويفتأ من أجل
هذا متشوقا إلى الثناء متعلقاً بدواعي العرور . منهوما بما يلفت الأنظار ويغلب
الأفكار ، وتساعده على ذلك قدرة على الايحاء إلى من حوله والايحاء الباطنى إلى
صhibه ، فيحظى بينهم حظوة قلما ينالها من عروا من قدرة الايحاء والايحاء .
وتتعطل فيه مراكز الحس فيصاب بضرب من الباردة ويكل أحيانا عن
الاحساس بالجوع والتعب والسهاد ، وهو ما يلوح للناس في هيئة الجلد والدؤب
والثبات .

ويشفع الكاتب كل صفة من هذه الصفات بما يدل عليها من كلام
هتلر أو من عاداته المعروفة وحركاته المشهورة ، فيحكم عليه بالمرض المستعيرى
وزيف التكوين .

أما الطبيب الذى امتحن هتلر فى السجن — وهو الدكتور برنشتينر
Brinsteiner — فقد نفى عنه المرض العقلى وبوادر الجنون وقال : « ان النظر
فى حالته النفسية وطريقة سلوكه أظهر لنا انه لم يصب بضرر من جراء نشأته وتعليمه
وحياته الأولى ، وان الانقلاب الذى حاوله فى الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٣
وطالما قيل فيه انه حماقة وجنون قد يسهل رده إلى اختلال العقل واضطراب
ميزان التفكير . ولكنك إذا سمعت من هتلر نفسه بواعث الانقلاب وتعليقاته
انتهيت إلى الجزم بأنه كان مالكا زمام رأيه أثناء تلك الحركة من بدايتها إلى
انتهائها ، وانه لا محل فيها لاختلال التفكير مع احتمال النقص والخطأ فى الباعث
والتعليل » .

وعلى خلاف هذا رأى الدكتور ماكس فون جروبر Max von grober
الأستاذ فى جامعة ميونيخ ، فانه يقول ان تعبير وجهه لا يدل على رجل يملك

زمام شعوره ، بل فيه دلالة على اضطراب واهتياج » .

وللطب العقلي مدرسة أخرى غير مدرسة اللباضع والمقاير ومستشفى المجاذيب على طراز البيمارستان القديم ، وهي مدرسة التحليل النفساني على مذهب فرويد ومذاهب تلاميذه الذين اقتبسوا منه أساس الفكرة وان ناقشوه في أجزائها أو اختطوا لأنفسهم بعد ذلك خطة جديدة

فهذه المدرسة أيضا كلمتها بل كلماتها في مزاج هتار وتركيب عقله وسريرة أخلاقه فمنهم من يقول أنه رجل مكبوت الفرائز الجنسية لعله في تكويته يدل عليها أنه لم يتزوج ولم تعرف له صلة مألوفة بالنساء ، فهو من ثمة يرى في حب السطوة والقسوة منطلقا لفرائزه المكبوتة بنفس به عن ذلك السكبت الاليم

ومنهم من يقول أنه كان طفلا مدللا ألف التدليل من أمه والشدّة من أبيه ، فنشأ مضطرب الاهواء ، يغلب عليه التدليل حينما فلا يطبق المعارضة ولا يزال ينتظر من الدنيا التليق والمواقفة كأنها مطالبة باشباع نهمته من هذه العادة ، ويغلب عليه الامتناع تارة أخرى فيحب التمرد والانتقاض والتأثر لنفسه مما أصابه في طفولته وصباه

ومنهم من يقول هذا وذلك ويزيد عليه أن محنة الفقر والتشرد في الشباب الباكر قطعت ما بينه وبين الناس من رحم ومحبة وعودته سوء الظن وضعف الثقة بالمودّة والوفاء ، فأصبح غير صالح لمبادلة الأفراد عطفًا بعطف واخاء باخاء ، وانحصرت علاقاته بيني الانسان في صورة الجماهير والجماعات ؛ فأما ان يحيا في الحركات السياسية التي تقوم على الجماهير والجماعات وإلا فليست له حياة ! وأما أن يستئيس في طلب الحركة السياسية وإلا فليس في بيئته الفردية متسع للعطف والشعور ، وكل ما تنسج له تلك البيئته الفردية بمزمل عن السياسة قائما هو والخيبة والنضوب

ومنهم من يرجع الى الوراثة من والديه ، ومن جهة أبيه خاصة ؛ لانه كان رجلا مزواجا تموت له الزوجة فلا تنقضى أشهر حتى ينساها ويبنى غيرها ، وكانت أم هتلر ثلاثة زوجاته بنى بها وهى فى نحو السابعة عشرة وهو فى نحو الاربعين ، وولدت هتلر وهى فى التاسعة والعشرين وهو فى الثانية والخمسين . وقد مات بضربة فالج ، وقيل أنه مات وهو يتعاطى الخمر فى حانة

ويلاحظ هؤلاء النفسانيون أن هتلر - على افاضته فى بعض أخبار صباه - يقتضب الكلام اقتضايا عن أبيه وأهله ، ولا يبدو عليه الارتياح الى هذه السيرة فيما يكتبه أو يتحدث به لتأبيه وخاصة رفاقه . فى الأمر لاشك سر مجهول غير ماهو معلوم مما تقدم ، وفيه الكفاية للدلالة على انحراف الصفات الموروثة .

ويربط بعضهم بين هذا السر المجهول فى نشأة هتلر وبين تكرار الكلام فى كتابه عن الامراض السرية و « سوط عذابها » المنصب على أبناء زمانه ، ويتساءلون ولا سبيل عندهم الى اليقين : ألا يجوز أن يكون اختلال الفريزة الجنسية واهتياج الدماغ عند هتلر متصلين بسر من تلك الأسرار ؟

* * *

هذه الدراسات النفسانية والطبية كثيرة مستفيضة فى جميع اللغات الأوربية لا ضرورة لحصرها ولا للاستشهاد بأكثر من النماذج التى استشهدنا بها للامام بما يقال فى سبيلها

ولسنا نريد أن نمول عليها وحدها دون التعويل على ما يتركها من الوقائع الواضحة التى لا تحوجنا إلى مشرحة الطبيب أو معجم المصطلحات الفنية

ففى اعتقادنا أن أصدق الأوصاف العلمية فى دراسات النفوس هى تلك الأوصاف التى تستغنى عن المصطلحات وعن لفظة للعامل والمشرحات ، لأن الأخلاق الانسانية لم توضع فى مجمع علمى ولم تنقرر بعد الكشف الطبى على من

وضموها في الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة . فقد كان في ملايين الملايين الذين وضموها أناس يجوزون امتحان الأطباء وأناس لا يجوزونه ولا يحسبون من الأقوياء ولا الأصحاء . وانما وُضعت أخلاق بنى الإنسان بتجاوب الشعور وتجاوب الأحقاب والأعقاب ، فلا كما ولا شك هو النفس العاطفة القادرة على مجاورة من حولها وما حولها مجاورة متصلة مستقيمة فيما تؤديه وفيما تتلقاه

فإذا امتحن الأطباء رجلا فلم يجدوا عيبا في وظائف جسده ولا في محس أعصابه وعضلاته ثم ظهر أن هذا الرجل يحس بالغضب ولا يحس بالرضا ، أو يشعر بما يؤلمه ولا يشعر بما يؤلم غيره ، أو يقدر على ادراك عاطفة ويمجز عن ادراك عاطفة مثلاً ، فالوصف الصادق لهذا الرجل أنه ناقص وإن قال الأطباء انه لا نقص فيه

ثم هو ناقص وإن لم ينجم عن نقصه ضرر ، كما نحكم بالنقص على الجهاز الكهربي الذي يسمعون الأحاديث في وقت ولا يسمعون في وقت آخر ، ولو لم تكن هنالك فائدة من السماع أو ضرر من عدم السماع

فذلك الأخلاق الصالحة نفس صالحة للشعور قادرة على التلقى والأداء ، وقد تنفعنا البحوث الطبية في التعليل والتفسير إذا عرض لنا ما يوجبنا إلى تعامل وتفسير . أما إذا كانت الأخلاق الماثلة أمامنا غنية عن تعليلها وتفسيرها فهي إذن مفهومة مدروسة بغير حاجة إلى معمل أو امتحان

وستتوخى هذه الشئنة دون غيرها في دراسة نفس هتلر وتقسيم عمله وكلامه : تتوخاها لوزن الرجل لا لترجمة حياته ، فان وقائع التراجم تتشابه وتكرر في الوف السير ، وتشابه وتكرر في سيرة الرجل الواحد ، ولا تميزه إلا طائفة محدودة من وقائمه وأقواله

التربية والنشأة:

كان أبو هتلر المسمى ألواز (Alois) ثمرة « غير شرعية » من بنت فلاحه ورجل مجهول .

وكان يحمل اسم أمه شيكلجروبر Schicklgruber إلى أن بلغ الأربعين من عمره ، فقيّد في السادس من شهر يناير (سنة ١٨٣٤) باسم الرجل الذي ظن أنه أبوه وهو جوهان جورج هيدلر ، وقد صُحِف هذا الاسم على الألسنة فأصبح هتلر كما ينطق الآن .

وتزوج ألواز بثالثة نسائه « كلارا » أم هتلر وهو في نحو الأربعين وهى لم تتجاوز بضع عشرة سنة كما تقدم ، وكانت خادمة لزوجته الأولى ثم فرت إلى « فيينا » وهى صبية صغيرة ، وعادت إلى موطنها بعد فترة مجهولة الأخبار ، فخطبها أبوه .

وتربية هتلر من مولده إلى شبابه تربية صالحة لتفسير حياة رجل جامع النزعات متناقض الأحوال ، لأنها لم تجر على استواء واحد بين تدليل الأم وصرامة الأب ، وهى صرامة كانت تشدد وتعنف كلما لمح من ابنه رغبة فى احترام التصوير والعيش فى معيشة الأباقي والتشرد ، وهو يعده لوظائف الحكومة ويرشحه لمستقبل رتيب .

وكانت أمه أصغر كثيراً من أبيه كما تقدم ، ولكنها على صغر سنها كانت متوعكة شاكية كما قال هتلر فى كتابه ، ولم تكن قوية العزيمة لأنها كانت تضعف عن تأديب ولدها والاشتداد عليه ، وقد ماتت فى نحو السابعة والأربعين ، وهى سن لا تدل الوفاة فيها على صحة وافية .



أبو هتلر وأمه

ولم يكن أبوه متين البنية ولا كان قدوة في الوفاء وضبط النفس وبراءة
النشأة . بل كان عرضة لنوبات الفالج تعتريه من حين إلى حين ، وكان سريع
الزواج بعد وفاة زوجاته ، وكانت ولادته كما تقدم في غير مهد الزفاف المشروع .



هتلر الطفل

فهل ورث هتلر ما يورث من
هذين المزاجين ؟ لقد كانت أمه تقول
له في طفولته أنه صريع القعر
Mondsüchtig وهي كلمة تقارب
عندنا كلمة « المجذوب » (١)

والذين عاشروه مجمعون على زقه
وسرعة بكائه وكثرة هياجه وتقلب

أطواره، ويقول روشننج Rauschning

(١) كتاب البيت الذي بناه هتلر لمؤلفه الدكتور ستيفن روبر برتس

Stephen H. Roberts

رئيس مجلس الشيوخ السابق في داتزيج أنه يتخبط ويتشنج ويستيقظ من نومه وهو صائح مدعور كأنما يهرب من أعداء ، والشائع عنه الآن أنه لا ينام ليلة بغير دواء مرقد إلا إذا كان مبيتته في برختسجادن حيث يهدأ بعض الهدوء^(١) فاذا أضيف إلى الأثر الوراثي في الجسد أنه نشأ وهو يعلم مولد أبيه في غير مهد الزواج لم يكن من شأن ذلك أن يعزز فيه ضوابط الأخلاق أو يدعم فيه الثقة بنزاهة الآداب .

ومات أبوه وهو يناهز الثانية عشرة فأصبح عالة على أمه الأرملة بضع سنوات ، ينظم في الدراسة فترة وينقطع عنها فترات ، وسرعان ما أصيب في معيشة الطواف والتشرذم بمرض صدرى أغفاه من الدرس ومن التجنيد ، فتت له بغيته من ترك الدراسة واجتناب الامتحان .

وحاول أن يلتحق بمدرسة الفنون في عاصمة النمسا فلم يقبله الأساتذة لأنهم لم يلحوا في صورته مسحة من ملكة المصور الصانع

وكثيرا ما ظلمت مدارس الفن نابقا في صباه ثم أنصفته الدنيا وعرف قدره بعد حين . إلا أننا لا نعتقد أن أساتذة فينا ظلموا هتلر حين ردوا صورته ويئسوا من فلاحه ، إذ ليس أدل على صواب رأيهم من اعراضه الباك عن الفن واستغراقه في السياسة ، وهو مالم يحدث قط في تاريخ فنان عظيم مفطور على الخلق والابداع في عالم الفنون

فلما ردت مدرسته فينا قنع بالنقش والتخطيط وبدأ له في بعض هواجسه أنه على مثال «ميكال انجلو» بناء ومثال وليس بمصور لوحات وناقش ألوان ، وساوره من المرارة والظن ما يلحق بالغرور المصدوم ، فامتلات جوانحه بالسخط والانكار

(٢) راجع كتاب « اتى أعرف هؤلاء الدكاتورين » لمؤلفه وارد پرايس Ward Price وهو أحد المعجبين به

ثم ماتت أمه وهو في نحو الثامنة عشرة عاجز عن كسب رزقه بسعيه واحتياله .
فأوى إلى بيوت الصدقة ومدّ يده بالسؤال ، واجتهد في جمع قوته بنسخ الصور
وتقشّر تذاكر البريد ، فلم يظفر من هذه الصناعة بظائل ، ولجأ أحيانا إلى جرف
الثلج في الشتاء وحمل الحجازة في العمارات ، وهو الرجل الذي كان يعتقد أنه
خليفة ميكال أنجلو على هندسة البناء

وتقضت شببته وليس فيها أثر من رحم القرابة أو انس الصداقة، فضى عليه
في الحرب العظمى أربع سنوات لم يكتب رسالة ولم ترد إليه رسالة ، ولاحظ
زملاؤه أنه كان يرقب توزيع الرسائل والهدايا بشيء من الحرد والتمرر ، فيأبى أن
يأكل معهم من أزوادهم حردا وتمررا في الحقيقة لأنفة وعزة ، لأنه لم يأنف أن
يأكل خبز الصدقة وأن يبسط اليد بالسؤال

وكانت علاقته بالنساء ولا تزال مخفوفة بالقرابة والغموض . فلم يتزوج ولم
يعاشر معاشر أزواج . وقيل انه لا يزيد على لمس زنود الحسان والجلوس إلى
جانبيه ، وانه لا يتعلق بماطة من قبيل الألفة والمحبة

والحادث الوحيد الذي يذكر في ترجمته من قبيل المحبة القرامية قد يزيد
القرابة والغموض ولا يجلوها ، ونعني به حادث انتحار الأنسة جريت روبال
Grete Raubal بنت أخته التي كانت تعيش معه في مسكنه . فكيفما كانت
العلاقة بينهما فليس شغف الرجل ببنت أخته وانتهاء هذا الشغف بالانتحار مما
ينفي الزيف والنشور ، بل هما خليقان ان يثبتاهما أيما اثبات

وجملة ما يفهم من هذه الأحوال أنها أحوال رجل زائع الطبيعة، ناضب العاطفة
منقطع الصلة « الشخصية » بينه وبين أبناء جنسه ، مستعد للبغضاء وليس بمستعد
للمودة والوفاء



« موقوف هتلر مع فتاة »

كتب هتلر إلى صديقه وزميله روم في ذكرى الثورة النازية الأولى خطاباً
يقول فيه : « يهز نفسي في هذه الذكرى الأولى — يا عزيزى ارنت روم —

أن أشكر لك خدماتك التي لا تنفى للحركة الوطنية الاشتراكية والأمة الجرمانية
جمعاء ، وأن أؤكد لك مبلغ حمدي للعناية الالهية التي أتاح لي أن أدعو رجلا
مثلك صديقي وزميلي . »

وبعد أشهر قليلة قتل هتلر هذا الصديق والزميل ومئات من رجاله شر قتلة ،
ووصمه بكل رذيلة من الرذائل التي كان يعلمها ويمتدح عنها بين أصحابه ، ولأنه
أن يفخر بالصدقة والمالاة للعزيرارست روم . ولم يتقدم هتلر بوثيقة واحدة
تسوغ تلك الجزرة الجائحة فيما بين يوم وإيلة ، مع استيلائه على أزمة البحث
والتحقيق في البلاد الألمانية بأسرها .

وكان هتلر يقول عن القائد فون بلومبرج انه هو الصديق « الذي لو تركني
لقدفنت بنفسى من النافذة » ثم ترك هو فون بلومبرج لسبب يدعو إلى
التساؤل الكثير : وهو انه تزوج من فتاة قيل عنها انها سهلة الاخلاق تعمل في
خدمة هيمار رئيس الجواسيس المشهور .

وموضع التساؤل الكثير هو أن هتلر وجورج حضرا الزفاف بل كانا شاهديه
الوحيدين . فهل يعلم هيمار بحقيقة الفتاة ولا يخبر رئيسه قبل الزفاف وهو الرجل
الذى يتتبع خطواته ويتأثر حركاته في ذهابه وإيابه ؟ وهل يغتفر هتلر هذه الزلة
لرئيس الجواسيس ولا يغتفرها للزوج الخدوع ؟ وهل كان القضاء على مستقبل
بلومبرج هو حل المسألة الوحيد ؟

أيا كان ذنب روم وبلومبرج وعشرات الأصدقاء الذين اقلب عليهم هتلر مثل
هذا الانقلاب فهناك أمثلة أمامنا على هوان الصداقة عند الرجل وليس ، هناك مثل
واحد على صداقة واحدة بينه وبين انسان من الناس غير صداقة المتأمرين المشتركين
في مكيدة واحدة .

ولم تؤثر في سيرته من طقوله إلى أيامه هذه مائة واحدة من مآثر اللطف

والنبيل وكرم السجية ، وليس في كلامه ولا عمله إلا العدا و «التعاون» على الانتقام والايذاء . ولم يهد فيه قط انه غلب فظهر منه العفو والرحمة بمخلوبيه من الأفراد والأمم ، وكل ما في نشأته الأولى يدل على ان خلق القدر فيه ليس بغريب روى بعضهم انه يحب الكلاب والمصافير والأطفال ، ويحمل صورة أمه حيث سار



منزل مع كلبه

والكلاب التي شوهدت معه أكثرها كلاب حراسة ، فهي أخرى أن تدل على حبه لنفسه وحذره من أبناء جنسه .

وحبس المصافير قد يدل على كل شيء إلا العطف عليها . لأن أم المخلوق الذي

ركب الله له جناحين لنزع القضاء وهو محبوب في شبرين ، أمر لا يحتاج إلى خيال كبير .

على انه لا حب الكلاب والعصافير ، ولا حب الأطفال والحنين إلى ذكرى الأم ، بالعلامة على العطف السليم ما لم يقترن بقرائن النبل ومكارم الخلق وفضائل السماحة .

فكثير من « المستيريين » يأتفون الحيوان ويتعهدونه بالتربية ، ما تقع وما ضر وما أكرم وما خبت ، حتى الأفاعى والثعابين . ولا يُعوّل لهم فيما وراء ذلك على مودة وشعور وثيق .

فان لم تكن ألفة الحيوان مقرونة بشواهد الرحمة حيث وجبت الرحمة فهي دليل على فقر الشعور لا على وفرة وغناه ونبل مغزاه . لأنها دليل المعجز عن كسب المودة بمجهود عظيم . فلماذا غابت أدلة البر كلها ولم يبق لها من دليل في نفس هتلر إلا البر بذكرى أمه ؟ وإلا ما يقال من مودته للطفل والكلب والعصفور وهي الخلائق التي يشتري مودتها ولا تكلفه من جانبه مودة . إنسانية كبيرة ؟ ؟ سبب واحد يفسر ذلك أوضح تفسيرا وأصدق تفسير ، وهو أن المودة الإنسانية في نفسه ضعيفة ، وانه لم يكسب إلا مودة الأم التي تحب ابنها لغير فضيلة فيه ، ومودة الأطفال والعصافير والكلاب التي تمنح مودتها بغير جهد عظيم .

فالتعلق بالأم وبالطفل وبالعصفور وبالحیوان الأليف علامة نبل النفس وغزارة العاطفة إذا كانت علامة من علامات كثيرة ، أى إذا عمت شواهدا وفاضت ينابيعها حيثما جرى مجراها . أما إذا انحصر الأمر في هذه العلامة الواحدة فهو على نقیض ذلك دليل الأنانية وشح النفس والمساومة الرخيصة على كسب العطف والولاء بأرخص الأثمان ، فضلا عما يكون له من الطبيعة المستيرية التي لا تستغرب منها أشباه هذه البدوات .

أين العدو الذى عفا عنه هتلر ؟ أين الصديق الذى يدخر له بقية من الخير
بعد انقلابه عليه ؟ أين الأمة التى غلبها فأظهر لها دخيلة من دخائل نفسه غير القسوة
والعطسة والتنكيل ؟ أين هو الشاهد الواحد الذى يرىنا انه يقسو مضطراً
ولا يبحث عن القسوة حينما أتاحت له لذته وجنوحه اليها ؟
إذا رأينا هذا ورأينا معه ألفتة للمصافير والكلاب فهنا عاطفة سليمة وهنا
شعور نبيل . أما إذا بحثنا عن الماطفة وعن الشعور فلم نر لهما أثراً فى غير المصافير
والكلاب فتلك هى وسوس المستيريا وعوارض الأنانية ، ونقص التركيب .

مجماعة :

يلبس هتلر نوطاً واحداً على صدره هو نوط الصليب الحديدي « الذي يقول بعضهم أنه من الطبقة الأولى ويقول الآخرون أنه من الطبقة الثانية » و يروى أتباعه أنه استحقه بعمل من أعمال الشجاعة النادرة في الحرب العظمى ، وهو أنه هبط مع زميل له على اثني عشر جندياً فرنسياً خندق قريب من الخطوط الألمانية فساقيهم الى الاسر جميعاً بسلاح واحد : وهو الرامية التي يحملها الجنود

والرواية لم تثبت قط في سجل من سجلات الحرب الالمانية ، ولا نخالها قابلة للاثبات ، فهي أقرب الى الهزل منها الى الجد الرصين ومما يلفت النظر في أمر هذا النوط الذي يعتز به هتلر اليوم أنه لم يذكره قط في كتابه الذي ذكر فيه ما هو أهون وأصغر من هذا الشرف البارز ، وأنه لم يترق قط الى رتب الضباط مع افتقار الجيش الألماني الى الضباط المترقين من صفوف الجند المتعلمين في مراحل الحرب الأخيرة

وقد وقع الاختيار على هتلر للراولة في مكتب الفرقة المتطوعة فلم يكن من الذين يحضرون حرب الخنادق في جميع الملاحم . وثبت أن الاصابة التي انتقل من جرائها الى المستشفى قبيل انتهاء الحرب كانت أهون كثيراً من الاخطار التي تعرض لها غيره . لأنها كانت إصابة بالغازات المدممة Lachrymatory gas

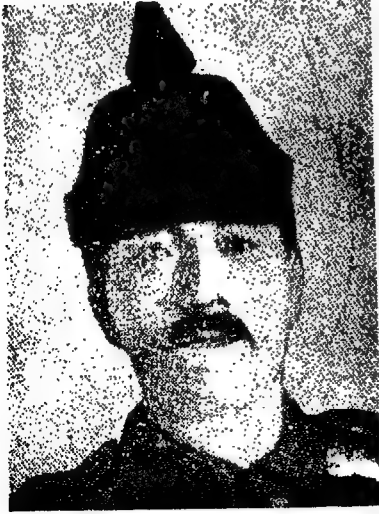


هتلر مع زميلين

التي لا تستلزم الالتحام في الهجوم ، ولو أنه أصيب بأقوى من هذه الغازات لما
سلم نظره ولا زالت آثاره كل الزوال كما ثبت من امتحان عينيه
وربما كان في قصص هتار عن الحرب العظمى أكاذيب كثيرة لأكذوبة
واحدة أو أكذوبتان . فانه يكذب في الأمور التي لا خطر لها كقوله مثلاً أنهم

كانوا يتغنون في الفرقة المتطوعة أثناء معركة الايبر بنشيد « المانيا . المانيا فوق الجميع » مجازاة لمن كتبوا عن الحرب من بعيد . وقد حقق الدكتور فريدولين سولدر Fridolin Solleder مؤرخ الفرقة أنها كانت تنغنى بنشيد آخر عنوانه

الحراسة على الرين Die Wacht am Rhine



ويذكر هتلر غير ذلك من الأحاديث التي تحيط به - أشكوك ولا تقل عن هذه الشكوك !

على أن الحرب العظمى شيء بعيد، والحديث عنها عرضة للنسيان والمناقضة والادعاء ، وفي تاريخ هتلر واقعة مؤيدة في المحاكم والسجلات بشهادة الشهود والحاضرين ، وهي واقعة ميونيخ التي حاول بها إسقاط الحكومة ثم صدمته طلقات النار من حراسها فلاذ بالفرار

قال شهود العيان في تلك الواقعة أن هتلر كما كان في الحرب الماضية

لندورف وجورنيج صمدا لطلقات النار ، فأسر لندورف وجرح جورنيج ثم نجا بنفسه الى ماوراء الحدود . أما هتلر فسرعان ما سمع الطلقة الأولى حتى طرح نفسه على الأرض فجأة بغير احتراس ، فأنحلت كتفه لشدة الوقعة وتقرر ذلك في الكشف الطبي الذي أجري عند اعتقاله . وكأما كان يحسب حساب الفرار قبل الهجوم فأوصى سيارته أن تلحق به وركبها وحده دون أن ينتظر فيها انقاذ أحد من زملائه في تلك المخاطرة

وقد كان فرار هتلر حقيقة لا تقبل الجدل ولا الاعتذار ، فلما أكثر خصومه تعمييره وتبكيته خطر له بعد بضع سنوات ان يرحض عنه مسببها ويقطع جريرتها ،

فصعد يوما على منبر الخطابة وإلى جانبه غلام ناشئ قدمه إلى السامعين وقص عليهم أسطورة له لا تقبل التصديق : خلاصتها أنه كان قد وجد الغلام في الطريق — وكان طفلا يوم هجمة ميونيخ — فأشفق أن تصيبه النار وحمله مهرولاً لينقذه من الموت ، ونسى هتار أنه كان مخلوع الكتف في ذلك اليوم ، وأن العظام المخلوعة لا تطيق اللبس الرقيق فضلا عن حمل الأطفال والعدو بهم عدة أمتار ، ونسى أن قصة الغلام كانت مجهولة كل الجمل لا يشير إليها أحد من المدافعين عنه في الفترة بين يوم الهجوم ويوم الخطاب !

وقصارى القول أن شجاعة هتار لم تثبت قط ثبوت اليقين ، ولم نعل قط على مظنة الشك والانكار ، ولم نعرف لها مؤيدا من مسلكه الطويل في قيادة الامة الالمانية ، وهو يحيط نفسه بالحراس والجواسيس ويوشك أن يتحصن من أقرب المقرين ، مما لم يمهله نظير في سرايب أجبن القياصرة والحواقين .

مبلغ صدقة :

ولاعلم بمبلغ الصدق في خلق الرجال السياسيين لا يصح أن نسأل : هل كذبوا أو لم يكذبوا ؟ فان الرجل السياسى قد يكذب وطبعه صادق ، وقد يلجأ إلى الكذب حين يلجأ اليه وهو مغضوص مغضوب كما يفعل الانسان وهو يتجرع الدواء الملقمى ، لضرورة من ضرورات الداء

وانما يكون السؤال : ماذا يكلفه الكذب ؟ هل يكذب وهو مستريح أو يكذب وهو مكره متبرم ؟ وهل يسترسل في كذبه أو يقتصد فيه اقتصادا على قدر المصلحة الموقوتة ؟ وهل يتجاوز الحد في اختلاقه أو يكتفى بكتمان الحقيقة وتلوينها بغير لونها ؟

فالسياسة كالحرب خدعة ، وليس كل كلام يقوله السياسيون صادقا جد الصدق في حرفه ومعناه . فيجب ألا تحكم على السياسى بكذب كلامه بل الواجب أن تحكم عليه بحالته وهو يكذب ، فان هذه الحالة هي التى تبين لنا هل هو رجل صادق يشذ في كذبه أو هو رجل كاذب يطرد في قياس عاداته حين يختلق ما يختلق من الأكاذيب والأراجيف

فاذا رجعنا إلى هذا القياس مع هتلر فكيف نجده في كذبه ؟ انه لم يكذب قط كما يتجرع المرء الدواء البكريه ، ولم يكتف قط من الكذب بمقدار معقول ، ولكنه يكذب كمن يكرع من شراب لذيد يعب منه عباء ويخشى أن تنزع كأسه من يديه . . . !

فانظر مثلاً إلى قوله عن روسيا : « ان دولة واحدة فقط هى الدولة التى
اشتهرت من الاتصال بها أية صلة على الاطلاق . تلك الدولة هى روسيا الشيوعية »

١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٧

أو قوله عنها : « سنمضى عهد المسألة مع جميع أمم العالم ما عوملنا معاملة
الانصاف . إلا فى الشرق فلن ندخل فى عهد من هذا القبيل ، إذ أن الجرمان
لن يناخوا عن البلاشفة ، ولن يخطوا خطوة واحدة فى مثل هذا الكفاح .
ولخير لى أن أشنق نفسى من أن أطأ بقدمى هذا الطريق الويل « مايو ١٩٣٥

وانظر إلى قوله عن المعاهدات « ان المانيا لن تسلك سبيلاً غير السبيل التى
رسمتها للمعاهدات ، وستبحث الحكومة الألمانية جميع المسائل الاقتصادية
والسياسية فى نطاق المعاهدات وعلى حسب مقتضاها وليس فى الألمان
من يفكر فى غزو أمة من الأمم « ٢٧ مايو سنة ١٩٣٣

وانظر إلى قوله : « ان زعم الزاعمين أن الريخ الألمانى يدبر الخطة لا كراه
الحكومة النمساوية لهو زعم سخيف لا برهان عليه وانى لأدفع بكل قوة
ذلك الادعاء الذى تدعيه الحكومة النمساوية عن تدبير غارة أو شروع فى غارة
على بلادها . وما فتىء الريخ الألمانى على استعداد لبسط يد المودة والتفاهم
الصحيح فيما يكفل حرية الألمان النمساويين ، وهو على أتم استعداد — وقد انتهت
مسألة السار — لرعاية ميثاق لوكارنو حرفاً ومعنى غير قانع برعايته من حيث
المعنى وكفى ! « ١٣ يناير ١٩٣٤

وانظر إلى قوله : « ان عهد المفاجآت قد انتهى اليوم » أو إلى قوله عقيب
ضم السويد أن ألمانيا لا تطلب بعد الآن أرضاً فى القارة الأوربية .
أو انظر إلى عشرات من أمثال هذه التصريحات التى لا يقتصد فيها أقل

اقتصاد ولا يعني بها الا تقيض معناها كعهوده لأصحابه وعهوده لجاراته من أمثال الدنرك وبلجيكا وهولنده وغيرها . فهل هى كلام رجل يكذب مكرهاً مقتصدا أو هى كلام رجل يكذب بغير حساب ولا يبالي أن ينقض فعله أقوى توكيداته وأقسامه ؟

وليس هذا شأنه فى وعوده « الخارجية » وحدها ، بل هو شأنه فى جميع الوعود والتوكيدات

فقد أكد لمدير الشرطة ووزير الداخلية فى ميونيخ أنه لا يعمد إلى انقلاب ما عاش ، فلم تمض أيام حتى عمد إلى انقلابه المشهور وأكد للرئيس هندنبرج أنه يؤيد الوزارة القائمة بعد الانتخاب فنقض توكيده فى اليوم التالى لظهور النتيجة الانتخابية

وأكد للأمة الألمانية أنه فى غنى عن تكرير مذابح برتلماوس اكتفاءً بأحكام القضاء ثم أدار الذبح فى أنصاره وخصومه بغير تحقيق ولا محاكمة ولا إعلان أسباب

ولا موجب فى الواقع لاحصاء أكاذيبه وتسجيل نقائضه بعد أن أعلن بلسانه شريعة الكذب فى انجيل دعوته حين قال : « ان الألمانى لا يدرك على الاطلاق أن الأمة لابد أن تخدع وتضلل للظفر باخلاص الدهماء أو حين قال « ان من دواعى تصديق الأكذوبة مبلغ ضخامتها ، فان الدهماء فى سذاجتهم ليقعون فريسةً للأكذوبة الكبيرة قبل الأكذوبة الصغيرة »

ولقد نفى المذيعون الألمان روايات روشننج التى نقلها عن هتلر ونسوا ان الرجل لم يقل إلا بعض ما نقلوه أفعال الزعيم وأحاديثه وعاداته فى تقص وعوده . فمن هذا الذى نقله روشننج أن هتلر قال له بعد توكيد من توكيداته المشهورة : « اننى على استعداد لتوقيع كل اتفاق وضمن كل حد وتأمين كل من شاء بميثاق

من الموثيق ، فان التخرج من استغلال هذه الأمور هو فكرة باهية . . . »
فهل كذب روتشنيج في الرواية ؟ ليكن . . . فهو مع هذا لم يزد مثقال
ذرة على ما علم الناس من أفعال هتلر وعاداته التي يعلنها للملأ في بلاده وغير
بلاده ، ولا يفضي بها سرا لصفوة الزملاء وراء الجدران
فهو رجل يستمرىء الكذب غير مقتصد فيه وغير مبال بعقباه ، وليس
الكذب عنده جرعة دواء مكروه ، ولكنه شراب سائغ يعب فيه ظمآن



هتلر في نوبة سوداء

غربة الأطوار :

يراد الانسان على بعض الأشياء

ويريد هو بعض الأشياء

والاشياء التي يراد عليها ويساق اليها ليست هي التي تكشف لنا دخیلة
نفسه وحقیقة أطواره ، لأنها صادرة من غيره

وانما تنكشف لنا دخاله وأطواره من الأشياء التي يريدنا هو حسب
مشيئته ووفق مناه ، وبخاصة ما كان منها في معيشته البيتية التي يخلو فيها لنفسه
ويتصرف فيها بوحى هواه

وهنا تبدو غربة هتلر في كل شيء : في مسكنه ومطعمه وفرجته وسلواه .
فيبدو لنا عقل نصفه في النور ونصفه في الظلام ، أونصفه في ضحوة الواقع ونصفه
في غياهب الأحلام والأوهام : انسان يهرب | انسان يلوذ بالفرار . . . ومن ثم
يبدو لنا أيضا أنه فيما يرتعى اليه من ضجة السياسة ودوي الحركة ومواكب
الجیوش ومظاهر السطوة انما هو انسان هارب ، لائذ بالفرار

قال السفير الفرنسي في برلين — ميجو فرانسوا بونسيه — من خطاب
كتبه إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ العشرين من أكتوبر (١٩٣٨)
« لما طلب المستشار الألماني في السابع عشر من أكتوبر أن اذهب اليه
بأسرع ما أستطيع ، وضع رهن مشيتي طيارة من طياراته الخصوصية ، فركبتها
في اليوم التالي إلى برختمجاردن يصحفي الكابتن ستهلن ، ووصلت اليها حوالى

الساعة الثالثة بعد الظهر ، ومنها أخذتني سيارة لم تذهب بي إلى (أوبر سالز برج) حيث يسكن الفوهرر ، بل ذهبت بي إلى مكان عجيب يجب أن يقضى فيه أيامه عندما يروق الهواء

« والمكان يلوح على البعد كأنه مرصد فلكي أو صومعة صغيرة محطوطة فوق أعلى القمم هناك على ارتفاع ستة آلاف قدم ، وتلتف الطريق إليها مسافة تسعة أميال مقدودة في الصخور ، تشهد الجراة في نحتها بمهارة مهندسها طود كما تشهد بمجهود المال الذين فرغوا من هذا العمل الضخم في مدى سنوات ثلاث

« وتنتهي الطريق أمام سرداب يفضى إلى الجبل وينطلق عليه باب مضاعف من الشبهان ، ويؤدي في طرفه الآخر إلى مصعد عريض مصفح بالنحاس يرتقى رأساً إلى ثلاثمائة وثلاثين قدماً حيث يقم المستشار . وهنا تبلغ من الأعجوبة غايتها القصوى ! فيرى الزائر أمامه بناء ضخماً متيناً يشتمل على رواق عمدان رومانية ، وعلى بهو مستدير تحيط به النوافذ والمطالات ويبرز فيه موقد كبير تشتمل فيه الأحطاب الضخام ، وأمامه مائدة يحدق بها نحو ثلاثين كرسيًا ، وتنفتح على الجوانب أبواب حجرات شتى مؤثثة بالمقاعد المريحة الوثيرة

« ويطل الزائر من كل جانب كما يطل من الطيارة الحلقة على مشهد متلاحق من الأطواد ، وتترامى له على البعد - وراء منظر كأنه المدرج الرحيب - بلدة سالزبرج والقرى التي تحف بها ، بشرف فوقها على مد البصر أفق من القمم والشواهد والمروج والآجام كأنها تتشبث بالسفوح

« وفي الجيرة الملاصقة بالمكان حائط ينبثق أمام العين انبثاقاً مفاجئاً يخيل اليك أنه قائم في الفضاء بغير عمد ولا أساس

« وكل أولئك يبدهمك وهو مغدور في شفق الخريف كأنه شيء أبد مفعم يقرب من البحران . فيعجب الناظر ويتساءل : أفي يقظة هو أم في منام !

ويود لو يدرى هل ذاك حصن مونسلفات الذى يأوى اليه فرسان الآنية المقدسة ؟
أو هو صومعة جديدة فى جبل آثوس تحيى ناسكا يتعبد ويسترسل فى التفكير
والعبادة ؟ أو هو قصر اتينيا يرتفع فى قلب الجبال الأطلسية ! أو هو تجسيد لبعض
تلك الرسوم الخارقة التى كان فكتور هوجو يخطط بها هوامش روايته عن حكام
الجرمان ؟ أو هو خيال مليونى لايدرى ما يصنع بأمواله ؟ أو مباءة عصابة يركنون
اليها ويجمعون فيها الذخائر والكنوز ! هل هو خاطر عقل سليم أو هو خاطر
إنسان معذب بجنون العظمة وهواجس الشوق إلى التفرد والسيادة ؟ أو ليس هو
إلا خاطر إنسان ملكته المخاوف والظنون ! »

« على أن هناك مسألة واحدة لا يُغضى عنها ولا تقل عن المسائل الاخريات
قيمة عند من يدرسون هتلر من الوجهة النفسية ، وهى أن مداخل البيت وخبائاه
ومنافذه كلها تحميها الجنود ومكان المدافع الرشاشة »

قال السفير : « واستقبلنى المستشار بحفاوة ومودة ، وكان يبدو متعبا شاحب
السحنة ، ولكنه لم يكن فى يوم من أيامه الهائلة ، ولعله كان فى فترة هدوء
واسترخاء ، فأخذنى توأ الى إحدى نوافذ البهو الكبير ، وأرانى المنظر واستراح
لما شاهده على من سمات الاعجاب التى لم أحاول اخفاءها ، وتبادلنا بعض التحيات
والجملات ، ثم جرى بالشأى فى إحدى الحجرات القريبة ، وبدأ الحديث على
أثر خروج الخدم وإغلاق الأبواب بيننا نحن الثلاثة ، وأعنى بالثالث هر فون
رو وبتروب الذى لم يشترك فى الحديث إلا فى مناسبات قليلة لم يكن يزيد فيها
على توكيد ملاحظات القوهرر .

« وكان ادولف هتلر مستاء من ذبول الاتفاق فى ميونيخ ، فقد كان يعتقد
أن اجتماع الاربعة الذى أزال شبح الحرب وشيك أن يفتتح عهدا من عهود

المسألة والعلاقات المتحسنة بين الأمم ، ولكنه لا يستطيع أن يرى شيئاً من ذلك
قد حدث . . .

«ان غيوم الأزمة لم تنقشع ، ويوشك ان لم تتحسن الامور أن تغدو شرّاً مما
كانت في مدى فترة قصيرة ، لأن بريطانيا العظمى تصلّ صليها بالانذار والدعوة
الى السلاح ، وتلك مناسبة انتهزها القوهر للانطلاق في حملة من الحملات
الكلالية الموهودة في خطبه شنها على تلك الدولة وعلى أثرها وإيمانها الصباني
بتنوقها ورجحان حقوقها على حقوق غيرها . ثم سكنت جائشة القوهر بعد
قليل . . . »

هذه البدوات التي وصفها السفير الفرنسي ليس فيها مبالغة ولا اختراع : لان
عش القوهر معروف مشهود مكرر الوصف في أقوال الكتاب ، لاخفاء به ولا مثيل
له بين مساكن العقلاء . وقد بلغت تكاليف بنائه وتأثيثه وتعبيد طرقه الملايين
من أرزاق شعب يشكون باسمه الضنك والفاقة ، فهو وليد التفكير المتسلسل الدائم
وليس بالنزوة التي لاتلبث أن تطرأ حتى تزول

ومثل هذا الولع بالاغراب في المسكن والاستكانة إلى المناظر المسحورة لا يعهد
في غير من أدمنوا الحدرات أو شوهدت عليهم أعراض الخبل والانتكاس .
ففي تاريخ بافارياء الحديث ملك من هذا القبيل كان يزين الأشجار بالمصاييح
المستورة ويحف الغرف والمنازه بالسراديب المسحورة . ثم طبق عليه الجنون فأت
في إحدى نوباته وقيل انهم قتلوه .

وفي توارينخ الملوك الممجين أو انصاف الممجين « قلمة » كهذه القلمة
المتلرية بناها الملك الزنجي خريستوف الذي استقل زمناً في أوائل القرن التاسع
عشر بالسيطرة المطلقة على جانب من جزيرة « سان دومينجو » ... قد عن له

أن يفرد بقصر لا نظير له في قصور الملوك ، فأمر ببناء قلعة المشهورة على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم ، ولبت المهندسون يعملون فيها خمس عشرة سنة ولأء ورفعوا جدرانها من ثمانين إلى مائة وثلاثين قدما وعرضوها من عشرين إلى ثلاثين ، وأحاطوها بثلاثمائة وخمسة وستين مدفا من الشهبان على عداد أيام السنة : كل يوم مدفع لا يتكرر في سائر الأيام !! ثم شل هذا الطاغية فأيقن بزوال ملكه واقتراب يوم هلاكه ، فأعد لنفسه قذيفة من الذهب أطلقها على صدره من مسدسه يوم هجم الثوار عليه .

يا للتدبر من ساخر قدير ! فهذا القدوة الصالحة لزعم الأريين وصفوة المجلس الأشقر زنجي أسود منتكس الخليفة ، وليته زنجي سليم !

ولا شك ان النزعات « المسحورة » التي من قبيل نزغات هتلر لا تنشأ بين يوم وليلة . فهي داء قديم قد لازمه في شبابه وكن في طوية نفسه وامتزج بأفكاره وآماله . وقد روى هانيش Hanisch زميله في صباه وشريكه في بيع تذاكر البريد : ان هتلر شهد يوما وهو في الحادية والعشرين شريطاً من شرط الصور المتحركة عنوانه « النفق » يخطب فيه رجل يلقي خطبته في نفق ويصبح بعد ذلك زعيماً البلاده . فالتهب هتلر شوقاً إلى محاكاة ذلك الزعيم وخطر له أنه يفتتح زعامته بفاتحة فخمة لو تسنى له أن ينشئها بخطبة يلقيها في نفق من الأنفاق . وتحدث بهذه الأمنية الساحرة إلى زملائه فضحكوا منه وأثقلوا عليه المزاح^(١) .

وهناك اليوم قصور تبني ثم تهدم في برلين ، وشوارع توسع جوانبها على الرغم من جدة المباني التي تشرف عليها ثم لا يكون لتوسيعها من سبب إلا أن تصبح أوسع ميالاتها في أوروبا وأمريكا ، ومكاتب يباهون بجلب الخشب لها من ثمانى

عشرة مملكة ، ومظاهر شتى من مظاهر السوق والروعة لا يضنون بالمال عليها
وكلها فيما نظن وليدة الطبع للنتكس وترجمة ذلك « الخطاب في النفق » الذى لا
يزال يُترجم فى عالم السياسة كما ترجم فى عالم البناء .

نعم لا يزال يُترجم فى عالم السياسة ليوقع العالم فى نجاهيل لا جد لها من
جراه هوسة غالبة .

وإلا فاهو « صرح الدولة الجرمانية التى تسود العالم بأسره » إن لم يكن نسخة
فى عالم السياسة من قصور ألف ليلة أو من صومعة الجبل التى وصفها السفير ؟
انه لصرح يهرب به العقل المصروع من عالم الصواب والرشاد إلى عالم الجنون
والبدخ والتهاويل .

انه ناطحة سحاب أو مخبأ فى سرداب ، أو حجاب لا يستر ما وراءه من التبلبل
والاضطراب .

وشأن هتلر فى الطعام كشأنه فى السكن من الولع بالغريب والجري على سنة
الاخراج المسرحى ، والتعاطف بأمثال الاشاعات التى تشاع عن كواكب الصور
المتحركة فيما يأكلون ولا يأكلون ، وفيما يلبسون ويخلعون .

تارة يقال انه صائم عن اللحوم ، وتارة يقال انه لا يستنزل الوحى إلا بأصناف
الجوز والبذور ، ويوماً يقال انه ترخص فأباح نفسه البيض وحساء البجاج ،
ويوم ينقضى على هذا فيقال انه عاد فحرم على نفسه ما أباح . وهكذا دأبه فى
التبغ والجمعة وسائر المرطبات .

اخراج مسرحى لا أكثر ولا أقل

فان كان وراء الاخراج المسرحى حقيقة فهى شئ تافه لاغرابة فيه ولا موجب
فيه لكل هذه الأقاويل .

رجل يصاب في صدره فتيةً فيدرج على كراهة التدخين ، ورجل لا ينام أحياناً من أثر المستيريا والاجهاد فيهبجر القهوة حيناً لبستدرج النوم، ويشربها حيناً لأنها لن تضيره مع السهاد .

ورجل يرث بنية الفالج والنوبات ويقضى السنوات وهو لا يدرك الوجبة الواحدة في اليوم أو الأيام المتوالية : فيعتريه عسر الهضم ويتقلب في اختيار المأكولات ، ويعي بكأس من الشراب الشديد .

وكل هذا مألوف لا غرابة فيه ، ولكن كيف يتفق هتلر والمألوف ؟ وكيف ينجل إلى الناس ان هتلر يأكل كسائر الناس ؟

إذن تنقلب المألوفات فاذا هي رياضة ونسك واتصال بعالم الغيب وترقع عن ضعف الآدميين أبناء الفناء .

وإذا أنالته البساطة ماتئيله الفخفة من التحويل واللفظ والاستغراب فلا ضير إذن من البساطة المسرحية على شريطة أن تكون شيئاً يطاق : كسوة تخلع ثم تلبس بعد ساعات ، وليست كوخا يسكنه ما عاش ، أو مكتباً يشاهد فيه أيان ذهب إلى الديوان .

وان الناس إذ يشهدون هتلر في كساء بسيط ليقولون : انظروا وانظروا واعجبوا اعجبوا ... أكثر مما يقولون انظروا أو اعجبوا لهتلر في الطيالس والفراء . لهذا تأخذ البساطة نصيبها من مظاهر هتلر ، ويكون فيها أجنّ بالفخفة والاغراب مما يكون في الحلل والحلى المسومات .

ونظرة خفية إلى تقاض النفس الانسانية ترىنا ان بساطة هتلر في الكساء وغرابة هتلر في البناء هما عنوانان لصفة واحدة ، أو هما فرعان لجذع واحد : هو الغرور والادعاء .

فهتلر البسيط في كسائه لا يتشبه بعلمية النبلاء في لباسهم الفاخر لأنه يعلم أنهم

يترفعون عنه ويعتزون عليه بالحسب والعراقة فيتحداهم ويأبى أن يعترف لهم بأنه
نسى أصله إشاراً لأصولهم ، أوبأنه دونهم في القدر لأنه يتشبه بهم ويود لو نشأ
على غرارهم .

ولكنه لا يصنع هذا الصنيع في بناء الصوامع والقصور ، فلماذا يتفخم هنا
ويتبسط هناك ؟ ولماذا يختلف فعله في كسائه من فعله في مأواه ؟

لأنه خليفة « ميكال انجلو » في عبقرية النحت والعمارة ! فالناس
لا يقولون إذا رأوه في الصرح المشيد : « ذاك هو المحدث الذي يتشبه بالمعرقين ! »
بل يقولون : « ذاك هو الفن العبقرى ! وتلك هى التريخة النادرة التى تتجسم
للعيان بمعجاز بارثها القدير ! » .

وكلاهما غرور ، وكلاهما ادعاء !

فالرجل ناشز فى تبسطه واغرابه ، هارب من الواقع فيها يدعيه ولا يدعيه ،
متملق بالقصور المسحورة والأبراج الخرافية سواء بنى فى عالم السياسة أو بنى فى
عالم المعمار .

كفارة الزهنية:

والشهور عن زعماء السياسة أنهم لا يعملون كل ما ينسب اليهم ، ولا يكتبون كل ما يكتب بأسمائهم ، وهتلر ليس بالاستثناء من هذه القاعدة
ففى برلين مكتب برئاسة سبير Speer أستاذ العمارة « ينفذ » ما يوحى به الزعيم من الخواطر والرسوم فى إقامة المعاهد وفتح الطرق والميادين
وقد يختلف المختلفون فيما هو لهتلر وما هو لمكتب التنفيذ من تلك الخواطر والرسوم . فكثيرا ما يكون الفضل كله للمكتب فى ابتداء الرسم وانجازه ثم يقال أنه من عمل الزعيم أو الرئيس ، وكثيرا ما يعرب الزعيم أو الرئيس عن رغبته بكلمة واحدة ثم تأتى التفاصيل بعد ذلك على يد أعوانه ، وهو لا يدرى بها إلا عند انجازها والاحتفال بآرازها

هذه أمور شائنة لا يجملها المطلعون عليها فى الدواوين . إلا أن الحقيقة الراسخة من وراء كل جدل وكل مرأى هى أن الفنان الموهوب لن يترك فنه ليعقد مصيره بالسياسة وغيرها من المطالب كائنا ما كان نصيبه منها ، لأن الهبة الفنية كالوظيفة العضوية التى لا تقبل الإهمال ، ولا تزال فى الحاحها على صاحبها كالهيام القلبى فى إلحاحه على الماشق المتلىء بالحياة ، فلا هو يفغل عنها ولا هى تمهله الى زمن طويل وهذه الحقيقة وحدها — بنجوة عن جميع الأقاويل وجميع الاسانيد — هى الحكم الحاسم فى كفارة هتلر الفنية ، أو فيما يدعيه من مواهب التصوير والبناء . فهى لن تمدو الطبقة الوسطى بحال ، ولن تتجاوز نصاب التذوق الشائع

بين مصطنعى النقد والموازنة فى الفنون، حتى لو اسندنا اليه جميع الرسوم التى تحمل اسمه فى متحف العمارة بمدينة ميونيخ

ومن خصائص هتلر أنك لا تجد فيه صفة واحدة « خالصة » للعظمة وصخو العقل والطبيعة . فكل صفاته النفسية والفنية ملتبسات بين الاضطراب والسلامة ، وبين المهبوط والرجحان

مثال ذلك أنه يعجب بالموسيقى الكبير « فاجنر »

وفاجنر هو الموسيقى الذى يعجب به المجانين والمقلد... فقد كان راعيه الاكبر الملك لدفيج البافارى مخبولا مات فى خبله ، وتتفق الآراء بعد ذلك على أن فاجنر هو موسيقى المردة والغيلان « والشخصيات » المنتفخة التى تقرب من التشويه ومن المسخ الكريه : يسمعه الماقل فيعجب لحسن تمثيله هذه « الشخصيات » المعجبية وحسن تمبيره عنها بالاصداء والألحان ، ويسمعه المجنون فيلمس من سريره موضع التشويه والانحراف ، ويرى نفسه مفهوما على نحو من الانحاء وهتلر ينكر « موسيقى الجاز بند » وما شابهها من فنون النحت والتصوير

الحديث التى يتزعمها يعقوب ابشتين Jacob Epstein

ولكنه ينكر كل شئ حسن أو قبيح مصدره من الزوج كتلك الموسيقى ، أو كفن النحت والتصوير الذى تزعمه أبشتين واخوانه فى الطريقة... فان أبشتين له عند هتلر سيدتان لاسيثة واحدة . لأنه اسرائيل فهذه هى السيثة الاولى . . . ولأن تماثيله قريبة فى طريقتها من طريقة الأصنام الافريقية! فهذه هى السيثة الثانية وقد أبى هتلر أن يصفح الاوائل السابقين من الزوج فى الالعب الرياضية العالمية وهم ضيوف بلاده . فاذا كانت العابهم لا ترضيه وهى ألعاب الرياضيين فى جميع الأمم البيضاء أو السمراء فهل ترضيه موسيقاهم وهى شئ يجوز أن يختص بالزوج دون سائر الشعوب ؟

وعلى هذا النمط يصحو ذهن هتلر وصحوه مقسم بين العوج والاستقامة ، وبين العلة والعاقبة ، فلن يفهم أبدا على وجه الصحة وحدها في حال من الأحوال وما يقال عن التصوير والموسيقى يقال من باب أولى عن الكتابة والتأليف . . . فان أحدا من أتباع هتلر لا يدعى له ملكة الكتابة الموهوبة ، ولا يثنى على أسلوبه ثناءه على أسلوب بارع أو جميل ، وإن حسبوا كتابه « كفاحي » انجيلا للنازيين

والشائع — حتى في أمر هذا الكتاب — أن تفكيره مستمد من الجنرال كارل هوشوفر Karl Haushofer صاحب مذهب السياسة الجغرافية أو « سياسة الجغرافية » التي تعد من مبتكراته ، والتي يتولى إدارة معهدا الأعلى بمدينة ميونيخ Geopolitics

وإن هس Hess كاتب هتلر الخاص قد اشترك في تأليف كتابه وتنقيحه ، وأصبحت له حصة فيه يمطاها كل عام ، وقيل انها لا تقل عن خمسة آلاف جنيه لكن الطابع المتلوى مع هذا موجود متكرر فيما ينسب الى هتلر من خطاب أو رسائل أو أحاديث

فليس هو عالة على أعوانه ومساعديه ، وليست اللهجة الغالبة في كتاباته لهجتهم المتفرقة بل لهجته هو التي تتكرر على وتيرتها المعبودة ، في كل خطبة وكل رسالة وكل حديث

وفي اعتقادنا أن الرجل لا يخلو من عبقرية ، وهبة ذهنية لكننا خلقاء أن نحترس في فهم معنى العبقرية هنا لنفهم منها ما نريد في هذا السياق

فعند جهرة الناس أن العبقرية هي أعلى مراتب الذهن وأرفع طبقات التفكير وهذا خطأ

فإنما المبقرية حالة تصاحب كثيرا من المراتب الذهنية ، وتشاهد في كثير من الصناعات : فهناك الفيلسوف المبقرى والتجار المبقرى ، وهناك القائد المبقرى والخدام المبقرى ، وهناك عبقرية الاصلاح وعبقرية الاجرام ، وهناك عبقریات لانهاية لها في أرفع الصفات وفي أوضع الصفات ، كأنما هي حالة الاتقاد التى تشترك فيها جميع الأجسام على درجات مختلفة من الحرارة

ولا يلزم أن تكون الفكرة المبقرية « احسن » فكرة من قبيلها ، بل كل ما يلزم أن تكون الصبغة المبقرية باديةً عليها وهذه الصبغة مما يصعب تعيينه وتوضيحه ، ولكننا نقر بها بعض التقريب ونوضح مانعنيها بها جهد المستطاع

فالمبقرية أقرب إلى الغريزة والبداهة منها إلى التفكير السبب والقياس
المدرّوس

ولها خاصة الحماسة والتوهج والرغبة ، فلا يباشرها الانسان وهو كاره أو طامع في الجزاء ، بل يباشرها كأنه مقبل على رياضة شائعة ومتاع محبوب والمبقرية تضل من يراقبها أشد التضليل ، لأنها تفاجئها بالمتناقضات وماهى في باطن الأمر بالمتناقضات ، إذا نحن نظرنا إلى بواعثها ولم ننظر إلى عوارضها وأشكالها

فالمبقرية شخصية

والمبقرية طلاقة من القيود

كل عمل يعمله المبقرى فقيه مسحة من لوازمه الشخصية لا محالة ، فهو من ثم مطرّد على قياس

وكل عمل يعمله المبقرى فهو خارج فيه على القيود ، نأثر على القواعد والمصطلحات . فهو من ثم لا يطرّد ولا يفتأ مخالفا للمتوقع والمألوف

وها هنا التناقض الظاهر

ونخطو خطوة وراء هذا التناقض الظاهر فترى « مفتاح الشخصية » الذى

يفسر لنا كل تقيضة ويعلل لنا كل مستعص على التعليل

مثال ذلك غريزة الهجرة فى الطيور ، وقد قلنا أن العبقريّة أقرب إلى

الغريزة منها إلى التفكير

فالهجرة لها — ولا ريب — غاية واحدة هى طلب الغذاء والسلامة من برد

الشتاء ، وبوحى هذه الغاية يهتدى الطير إلى الأوقات والمسافات هدايةً لُدنية لا

تجاريها فى الدقة أرصاد الملاحين وآلات الفلكيين

لكنها مع هذه الدقة سبب الغرق والمهلك لألوف الألوف من أسراب

الطير ، التى ما تحركت إلا ابتغاء السلامة والغذاء

ومثال آخر غريزة التئاسل ودوام الاتصال بين الجنسين

فلماذا يستأثر الرجل بالمرأة ؟

طلباً للذرية لامراء

وماذا يصنع الرجل الذى يرى ابناً له يخونه فى زوجه ؟

انه يقتله أو يهيم بقتله !

وهنا التناقض الظاهر :

فهو يقتل ذرية حاصلة إذ هو يطلب الذرية المجهولة المشكوك فيها

ولكنك مع ذلك تفهم معنى هذه النيرة واستقامتها مع الطبيعة ، وترى

ما وراء التناقض الظاهر من القياس المستقيم

وهكذا تناقض العبقريّة : أنما هو تناقض فى الظاهر ، واستواء عند الرجوع

إلى أسرار الشخصية الخفية

وهذه هي خصائص العبقرية التي حاولنا تقريبها وتوضيحها منعاً لخطأ
الخطئين إذ يفهمون أن العبقرية هي أرفع مراتب العقول ، وإن الفكرة العبقرية
هي « أحسن » ما تجود به الأفكار

كلا ! ليست العبقرية بأرفع مراتب العقل ولا هي بأحسن ضروب التفكير
ولكنها « حالة » على الوصف الذي قدمناه توجد في الذروة كما توجد في
الحضيض ، وتنتظر في الترياق كما تنتظر في السم الزعاف

وعبقرية هتلر هي عبقريته في إدراك الجماهير ومراوغات السياسة . فافهمه
في هذا الباب هو شيء بمعزل عن الاطلاع ، وعن الخبرة المألوفة ، وعن الدرس
والتعليم ، وهو شيء أقرب إلى تفاعل المواد وتبادل الأثر في الأجسام . فمن
الجماهير يعلم ماتريده الجماهير ، وفي وثبة الساعة يفعل ماتدفعه اليه وثبة الساعة .
وبينا هو مهتدف إلى المسافات الطويلة بهداية كهداية الطير المهاجر بلا خريطة ولا
أبرة مغناطيسية ولا دليل ، إذا هو يفرق كما يفرق الطير في اللجة التي يراها بعينه
ولا يقوى على اجتنابها

ويدعونا إلى اعتقاد العبقرية السياسية أو العبقرية الشعبية في هتلر أن
سياسته لها طابع ، وأنها تتسم بحماسة الرياضة ولا تتسم بقيود الشغل وحدود
النظام ، وأنه يهجم هجوما يخيل اليك أنه بالغ به الغاية المنشودة ، ولعله هو العقبة
المهلكة التي تنكّل به أشأم النكول عن تلك الغاية

وفي تفكير العبقرى أبداً حساب « حسبة مجهولة » كالحسبة التي يرمز لها
الرياضيون بحرف « س » ويرمز لها جماعة التطور بالحلقة المفقودة

هناك أبداً حسبة تنقطع فيها سلسلة التفكير ولا تنتظم إلى النهاية : أونهايتها
القصوى هي « أن قلبي يحدثني بهذا » وكفى !

وهتلر عندما يذكر « العناية الإلهية » كأنها لا تريد إلا ما يريد نيم على

غرور عظيم ولكنه لا ينم على الفرور وحده بذلك ، ولا يختار في الحقيقة ما يقول
اذ « العناية الالهية » في عرفه هي الكلمة التي يسد بها فراغ تلك الحسبة
المجهولة أو الحلقة المفقودة

يسأل نفسه : لماذا أريد هذا ؟ أو لماذا سيتم ما أريد ؟ ثم يعيه الجواب
الصريح

يعيه الجواب لأن هناك أسبابا يجعلها ولا يستطيع تنظيم حلقاتها الى نهايتها ،
فكلمة « العناية الالهية » تسفه اذن في سد هذا الفراغ
وقد يقال إن هتلر مغرور حين يتخيل أنه سينجح في الحرب لأنه يريد ذلك
والعناية الالهية لا تريد إلا ما يريد

ولكن هتلر يقول أيضا في كتابه إن العناية الالهية قيّضت له أن يفهم في
شبابه لماذا فشلت أحزابٌ مُنسوية ونجحت أحزابٌ أخرى ، وأنها علمته أن
حركات الجماهير لا تتم بغير اشتراك الجماهير ، وإن الانقلاب القومي لا يضطلع به
العلية دون السواد فأى لغز من الالغاز في هذه البدهة التي ظن هتلر أن
العناية الالهية تسوقها اليه ؟

كل ما هنالك أنها الحلقة الناقصة في سلسلة الافكار المسببة ، يملأها بما
يرضى غروره ولا يدعوه الى اعترافٍ بالجهل أو بالضعف عن النفاذ الى كنه
حوادث اليوم ، وقضايا التاريخ

وكلمة « العناية الالهية » هي اللعام الذي يربط به هتلر ما تفكك من
تفكيره ومقدماته ، فنقرأ كتابه أو تتبع خطبه فلن يرى أمامه بناء كاملاً
متناسقاً إلا إذا صدق دعواه أن العناية الالهية تريد كل ما يريد
أما إذا شك في هذه الدعوى فليس أمامه بناء قائم . وإنما هو ركام فوق ركام

كفارة الخطيئة :

في كل شهرة خطابية منافذ المبالغة والاطناب لابد منها في كل زمان ، وفي زماننا الحاضر خاصة

ومنافذ المبالغة والاطناب هذه تأتي من مصادر متعددة : بعضها برىء وبعضها متهم ، ومنها المقصود المدبر ، ومنها الذى يحدث على غير قصد وتدير فأول مصادر المبالغة والاطناب جمهور السامعين ، وهم كدأب الجماهير يحبون أن يتأثروا وأن يخلقوا لانفسهم دواعى الحماسة والنفالة ، وأن ينوّموا أذهانهم تنويماً يسهل لهم أن يعتقدوا ما يحبون اعتقاده ، وأن ينساقوا في موجة من الشعور لا تطيق الحدود ، ولا تقف دون الاعجاب الكامل . لأن الوقوف عند حد من الحدود المعقولة يفسد الحماسة ، وليس افساد الحماسة مما تطيقه الجماهير وهى ، أى الجماهير ، طبقات في هذه الخليقة : ترتفع أو تهبط ، وتعتدل أو تجمع مع الشطط ، على حسب موقفها من الخطيب وموضوع الخطابه فاذا كان موضوع الخطابه نكرة قومية أو شهوة عدائية يشترك فيها الخطيب والسامعون ، فالجمهور في هذه الحالة على استعداد للحماسة والاطناب بغير مقدرة كبيرة في الخطيب

وإذا كان السامعون مرؤسين لذلك الخطيب أو أتباعا متشيعين لحزبه ، يكرهون النض منه لأنهم يحسبونّه غضا منهم ، ويحبون اكباره لأن كبره منسوب اليهم ، فهم اذن أكثر استعداداً للحماسة والاطناب

وإذا كانوا فوق هذا صفارا ناشئين يفورون بحرارة السن الباكرة ، فأحرى بهم وهم جماعات وجماهير أن يستسلموا لما يسمعون ، والا يحشموا الخطيب معجزة الابداع ، ليستجيش بها قلوبا هي من قبل ذلك لا تهدأ من الجيشان فأدنى الجماهير إلى التسليم هو جمهور صبية ناشئين يصغون إلى زعيم يفخرون به نغز العصية ، ويسمعون منه صيحة الكبرياء الوطنية . . . وهذا هو جمهور هتلر في جميع المواقف ، إلا القليل الذي لا يذكر

وقد شهد الناس في مصر مجامع يحتشد لها السامعون زرافات زرافات من جميع الطوائف والاسنات ، ليسمعوا كلاما يملونه ويحفظونه ، من خطيب لا يعجب السامع بصوته ولا بآيائه . . بنية الاجتماع في الواقع لا بنية الاستماع ثم تتكرر الدعوة وتتكرر الاقبال وتتكرر التصفيق الذي لا باعث له الا الرغبة في شيء يثير الشعور ويدفع السامة و « يبرر » للجمهور وجوده وسميه وانتظاره ، ويربحه من الحكم على « وجوده » بالفناء . والفناء كرية إلى كل موجود ، جمهورا كان أو غير جمهور !

وفي وسعنا أن نشهد كل يوم حشدا من الناس يبذلون من مالهم ليستمعوا إلى ممثل مضحك مشهور في دور من الأدوار . فما هو إلا أن يلفظ الكلمة الأولى حتى ينفجر السامعون بالضحك والقهقهة ، وربما سأل أحدهم جاره : ماذا قال ؟ بعد أن يكون قد ضحك مع الضاحكين !

فالمصدر الأول للمبالغة والاطناب في شهرة الخطباء هو إبرا المصاد وأخلاها من الفس وفساد الذمة ، وهو دفاع الجمهور عن وجوده حيث انتظم له وجود

* * *

والمصدر الثاني وسط بين البراءة والاثام ، وبين الاندفاع والتدبير : وهو مصدر الرواة وكتاب الاخبار

فان الصحيفة الاخبارية لتتعمد التهويل والاغراق في وصف حادثة هينة
لا تستحق الالتفات اليها . لأنها تريد من القراء أن يلتفتوا ، وتعيش من
التفاهم إلى ما تكتب ، لا من تعويدهم أن يهملوا الأخبار التي تستحق الاهمال
والكاتب الذى يسافر الف ميل لينقل خطبه يلقيها أحد الزعماء في يوم
مشهود مرتقب المصير من المغرب الى المشرق - قد يفقد وظيفته إذا قنع بما دون
السحر والاعجاز في وصف ما سمع وما رأى ، ومالبث الناس ينتظرونه ويتكهنون
به منشوقين متلهفين !

وقد تنفق الرواية الأمانة في الصحيفة الرصينة فيقرأها العارف المسؤل
ويعرض عنها طالب المناظر والعناوين ، ممن ينظرون إلى مسرح السياسة كما
ينظرون إلى مسرح التمثيل ، وهم جبهة القراء والنظارة في كل مكان ، فيتواتر النبأ
المبالغ فيه وينقطع النبأ الذى يحرض على الصدق والاناة : وينتهى الأمر برواج
الكذب والتلفيق ، وبالشك فى الصدق والأمانة

فبالغة السامعين ومبالغة الرواة ملازمتان لكل شهرة سياسية فى كل زمان
ولا سيما زماننا الحاضر : زمان النشر والاذاعة ، وزمان التشوف إلى الجدة والغربة
ودفع الملل والسامة

* * *

ويأتى بعد مبالغة السامعين ومبالغة الرواة مصدر آخر من مصادر التهويل فى
الشهرة الخطائية قائم على النية السيئة والخطوة الرسومة ، ونعنى به مصدر الدعوة
المسخرة والأقوال المأجورة ، وهو سلاح يعتمد عليه النازيون خاصة فوق اعتمادهم
على سلاح الميدان

وجميع هذه المبالغات قد بلغت فى تعظيم شهرة الزعيم النازى اقصى مايتاح
لشهرة أن تبلغ على الاطلاق : فاهتمام النازيين بالدعوة المسخرة قد جاوز كل اهتمام ،

وجهورهم أقرب الجماهير الى التسليم والاستسلام ، وحلة الاقلام ما فتشوا عدة أعوام
يتنافسون في اشباع نهمة القراء بين جميع الاقوام

* * *

فمن الطبيعي اذن أن تكون حقيقة هتار الخطابية أقل كثيرا من شهرته
التي أذاعها الدعاة والصحفيون والسامعون من أتباعه ومريديه ، وأن يدخل في
حساب شهرته كثير من المبالغة والاختراع و « الإخراج »

ونحن في عصر نسمع فيه الخطباء و نرام على بعد ، ونحكم على المتكلم في برلين
أو موسكو أو واشنطن حكم راء و سامع ، فما على اللذيع ولا على الصور المتحركة
من بعيد

وقد رأينا هتار وسمعناه

فهو ولا شك خطيب مبين ، ولكن لاشك كذلك أنه ليس من ملوك
الكلام في عصرنا الحاضر ؛ وأنه لا يعد من طبقة الخطباء الذين يخاطبون كل
جمهور ويتكلمون في كل قضية و يروضون عصي الامماع ، ولا نخاله يحسن القول
بضع لحظات في موضوع غير الموضوع الذي يقلبه منذ عشرين سنة ، أو بين أناس
غير الذين يوافقونه في الجملة ، ولا يخالفونه — ان خالفوه — إلا في التفصيل

فليس هو في إفاضة بريان ، ولا في بادرة لويد جورج ، ولا في مهابة سعد
زغلول

ولكنه أقرب الى الممثل الذي كرر دوره حتى حفظه ووعاه ووقع فريسة
له فلا يقدر على تبديله

تخيله مثلا غير غاضب ، أو غير متكلم في مظالم ألمانيا المزعومة ؛ أو غير
مطئن الى آذان سامعيه



هتلر بين الوجوم والغضب الخطابي

وتخيله واقفاً في لندن أو في موسكو أو في القاهرة يفاجئ السامعين على غير معرفة باسمه ، ولا عهد بموضوع كلامه

إنه اذن ضائع لا محالة

وعليه الأكبر أنه لا يُقنع ولا يُقِيم الدليل ، وأنه ما خرج قط على عادة واحدة تتردد في جميع مواقفه وموضوعاته ، وهي إثارة الحفائظ وإضرار الكراهية ومواجهة السامعين من جانب الشعور المتفق عليه بينه وبينهم . . . وفيه اجتهداه في اقناع من هو قانع ؟ وإيمان من هو مؤمن بغير برهان ؟

ومرجع هذه العادة عنده الى علل كثيرة : بعضها أصيل عالق بطبعه ، وبعضها حديث طارئ عليه من حوادث حياته وعصره

فالحديث الطارئ عليه هو هذا الذي ذكرناه ، وهو أنه تعود في أيامه الأخيرة على الأقل أن يخاطب أناساً لا يحاسبونه ولا يجسرون على حسابه ، ولعلهم لا يريدون أن يحاسبوه لاتفاق الشعور بينهم وبينه

والأصيل العالق بطبعه أنه فقير في العاطفة الشخصية ، غنى في العاطفة الشعبية ، أي العاطفة التي تربط بين الفرد والجمهير

والعاطفة الشخصية هي التي تربى عادة المساجلة والمحادثة ، ومواجهة العقل للعقل ، والنفس للنفس ، والاصفاء في موضع الاصفاء ، والاثبات بالحجة الصاعدة في موضع الاثبات

فالرجل المفطور على عاطفة يساجل بها العواطف ، وفكرة يقابل بها الأفكار ، يقول ويسمع ، ويستميل الفرد بالوسائل التي يستمال بها الأفراد ، مرةً بالايحاء ومرةً بالدليل ومرةً بالشرح المفهوم ، وفي كل مرة بتبادل الثقة والاعتراف بحق المناقشة والاعتراض .

أما الرجل الذي نضبت نفسه من جانب العاطفة الفردية ، والتي ليس عنده

ما يبادل به مودة بمودة أو فهمًا بفهم أو خاطراً بخاطر ، والذي انقطعت جميع
الوشائج بينه وبين إخوانه من أبناء آدم إلا الوشيجة التي تكون بين الواحد
والألوف أو بين الداعية والجمهور — فذلك رجل محدود القدرة على التحدث والتفاهم
وعلى الاصغاء والاقناع ، محتومٌ عليه أن يجد جمهوراً يستمع له . ويكتفى منه
بالاستماع ، أو أن يتخيل نفسه قائماً بين جمهور وإن كان في مجلسه أفراد قليلون .
لهذا اشتهر هتار بالتدفق في أحاديث السياسة ساعة بعد ساعة دون أن يقف
أو يتمهل أو يسأم التكرار . فان لم يتدفق في أحاديث السياسة فهو بين حكاية
نادرة أو إعادة ملحة مطروقة ، أو سرد تاريخ قديم ، فان لم يكن هذا ولا ذاك
فليس في مجلسه إلا السكوت والوجوم .

فهتار الفردُ « معدوم »

أما هتار الموجود فهو البوق الذي ينفخ في الجماهير أو يردد صدى الجماهير .
وانظر إلى صوره وهو في مواقف التفاهم والتحدث ترأمامك صوراً فاترة
باهتة تنطق بالتكلف وتقص الحياة وتبعث في نفس ناظرها الريبة والنفور .
أما الصور التي يحيا فيها وتلبسه الحركة والشدة فهي الصور التي ينقطع فيها
التفاهم ويشور فيها الغضب وتنتأجج فيها البغضاء .
وماذا ترى في هذه الصور ؟

إن الخطباء الحماسيين جميعاً ليفضبون ، وأنهم جميعاً ليحركون الغضب في الجماهير .
إلا أن الفرق بين غضب وغضب لفرق عظيم ، وإن الاختلاف بين حماسة
وحماسة ليفوق الاختلاف بين القوة والمرض ، وبين الجلال والمهوان .
رأينا سعد زغلول وهو غاضب في خطبه رأينا غضباً كأنه السيف يصول به
القارس على قرنه ، ويعرف كيف يصول .

ورأينا هتار وهو غاضب في خطبه فماذا رأينا ؟ رأينا غضباً كأنه الدمل



متلرمع السفير البريطاني

المفتوح ينفّس عن ضغينة كامنة كأنها القيح المحبوس . فهو فرصة الألم والتذاذ
الألم في وقت واحد ، وهو علاج للتنفيس عن داء ، وليس بالسيف في أيدي
الأقوياء

هو نوبة مصروع وليس بوثة صارع
وهو منظر تزور منه العيون ، وليس بمنظر تود العيون أن تمتلئ منه

وهو رقصة الممجي في حومة الدم أمام أوثنان النعمة والتشفي ، وليس برقصة
الفارس في حومة البرجاس

وقد جمعنا في هذه الصفحات صوراً عدة لهتلر وهو يخطب ، أو وهو يغضب ،
لأنه في الحقيقة قلما يخطب إلا ليغضب . فأية صورة من تلك الصور ياترى يستطيع
القارئ أن يكتب تحتها مثلاً « هذه صورة هتلر يزأر أو يزجر ؟ »

إن هذا الكلام ليكتب تحت صور كثيرة لمصطفى كمال أو لسعد زغلول ،
ولكن هتلر — على عنايته بصوره واتخاذ رساما خاصا يتبعه في جميع المحافل
ويوزع في أقطار العالم ألوف الصور بل عشرات الألوف منها — لا توجد له
صورة واحدة تخيل إلى الناظر هيئة الأسد المزجر أو الأسد الفاضب ، وكلها بلا
استثناء مما يصح أن يكتب القارئ تحتها : « هتلر يعوى » أو هتلر « يلطم » ...
ولا جناح عليه

* * *

ومن المقول أن رجلاً كهذا يجب حلقات الخطابة التي يزين فيها لشياطين
غروره وحقدته كما تزين المرأة الجنونة لشياطين الزوارر، ويستريح فيها للهباج
والتهبيج كما تستريح تلك المرأة لصرعة الرقص وجلبة الطبل ورؤية الذبائح وهي
تتخبط في الدماء

ومن المقول جداً أن يكره مواقف المفاوضة والتفاهم لأنها تطلعه على عجزه
وتكشف له عن خواء طبعه ، وتخرجه منها وهو في رأى نفسه أقل من حوله . .
إلا أن يلجأ إلى التهديد بالحرب كما يفعل في معظم أحاديثه ، فهو إذن في موقف
الاملاء وليس في موقف المفاوضة والاقناع

وقد سُجلت كلماته في المفاوضات التي دارت بينه وبين سفراء الدول ورؤساء
الحكومات فاذا هي عبرة العبر واضحوكة الأضاحيك : لا يكون فيها إلا ممثلاً

بـراوغ ، أو مهددا يتوعد ، أو منكراً لما يقال على طريقة الأطفال والنساء
الجاهلات : إني أنكر هذا لأنى أنكر هذا ، ولا مزيد . .

ناقشه مستر شامبرلن رئيس الوزارة الانجليزية فى الشروط التى فرضها على
حكومة براغ وأوجب عليها فيها أن تخلى الأرض المطلوبة وأن تبدأ الاخلاء فى
الساعة الثامنة من صباح السادس والعشرين من شهر سبتمبر (١٩٣٨) وأن تنتمه
عند انتهاء اليوم الثامن والعشرين

فقال له مستر شامبرلن أن هذا املاء « انذار نهائى » بغير حرب ، وبغير هزيمة ،
على أمة قبلت المطالب وقبلت الاحتلال

واختار شامبرلن كلمة « املاء » عمداً لأن هتلر يذكرها كلما ذكر معاهدات
الصلح ومعاهدة فرساي على الخصوص ، ويعتبرها موجبا لفسخ تلك المعاهدات
فما زاد هتلر على أن قال : « كلا ، ليس هو إملاء » وأشار إلى رأس الورقة
قائلاً : « انظر . . . إن الورقة مكتوب عليها كلمة مذكرة . . »

وهو كلام يقال للابسى القمصان فى ساحة الخطابة فيقبلونه ويسيفونه ،
ولكنه لا يقال فى مفاوضات وزراء وسفراء
فالخطابة هى الميدان الذى يغلب فيه هتلر بهذا الأسلوب ، ولن يغلب به فى
ميدان آخر

وقد حذق من الخطابة ما يُحذق بالمرانة ومساعدة السامعين المستعدين
للاصغاء والتصديق ، وأهمه تدفق الكلام وسهولة التعبير

ولم تزوده الطبيعة من أدوات الخطابة الفطرية الا بزاد واحد وهو انقطاع
الصلة النفسية بينه وبين الأفراد واضطراره من أجل ذلك الى مواجهة الجماهير
للشعور بالحياة ونشاط الاحساس . ومتى نشطت نفسه ودبت الحركة الى ذهنه
فلا يتندر أن يلهمه الموقف بعض الخواطر البارعة التى يمثل بها أعداءه فى صورة



هتلر في حياته العادية

مزرية أو صورة تستفز السخط والامتناع ، وكلها من ولائد الكراهية وليس
فيها صورة واحدة وليدة عطف أو عناية بالآخرين
ويختلف الناقدون في صوته اختلافا لا يتبين الحقيقة فيه من يسمع الصوت
منقولاً بالذباغ ، وهو ينقل بعض الأصوات على أصلها ويعرض بعضها للتخريف
وبعضها للتصين
فن الناقدين من يعيبون على صوته خشونة تصك الآذان ، ويقولون أنه
أجرى العملية الجراحية في حنجرته لاصلاح هذا العيب
ومنهم من يعجب بما في صوته من العمق ورنه التجويف ، ويعدّه من اصالح
الأصوات الخطابية لنقل الشعور الجارف والتهويل على السامعين
وسواء كان العيب الذي يعيبه اولئك الناقدون صحيحاً أو غير صحيح فالمهم
في صفات الاصوات أن تؤلف بالتكرار ، وأن يكون لها طابع ولون معروف ،
وعندئذ قد يصبح العيب حلية مرغوبا فيها مع النجاح والتوفيق .

عصرنا هذا هو عصر الزعماء غير مدافعين بين جميع عصور التاريخ
فقد شهدنا فيه كل ضرب من ضروب الزعامة على اختلاف شروطها ومقوماتها،
وشهدنا فيه كل ضرب من ضروب الحركات الشعبية وكل جماعة من الجماعات التي
تدين بالطاعة لزعيم

شهدنا زعماء من طراز سعد زغلول ومصطفى كمال يقودون الانبعاث بهيئة
«الشخصية» الأمرة وظلمة السيد المطاع

وشهدنا زعماء من طراز غاندى تحف بهم هالة القداسة ويأتم بهم الناس كما
يأتمون بناسك الحراب

وشهدنا زعماء من طراز «دى فاليرا» يعيدون عهد القديسين المقاتلين بالصبر
والثقة والمقاومة

وشهدنا زعماء من طراز موسوليني يسرى منهم النشاط الحيوى إلى أتباعهم
كما تسرى الحرارة فى الأسلاك

وشهدنا زعماء من طراز لنين يقنعون من يقنعونهم بقوة الفكر المتعصب
والمنطق المنحرف واللدن العنيف

وشهدنا زعماء من طراز شيان كاي شيك يقررون زعامتهم بصرامة العزم
وحصافة الذهن ومثابرة الصبر والعناد

وشهدنا زعماء كايين السعود يجمعون أكبر ما يجتمع فى أبناء قومهم من

الصفات . فيفهم الناس أن ابن السعود أكبر العرب لأنه أكبر عربى فى طبائع
الأمة العربية كما نعرفها الآن

وكل هؤلاء الزعماء يراهم المتفرسون للتوسمون فلا يحارون فى أسرار زعامتهم
ولا يجدون أنفسهم مضطرين أن يسألوا : لماذا كان هؤلاء زعماء ؟ لأن الإيمان
باستحقاق سعد زغلول ومصطفى كمال وغاندى ودى فاليرا وموسوليني ولنين.
وشيان كاي شيك وابن السعود لمنزلة الزعامة فى أقوامهم هو أسهل كثيرا من
الشك فى ذلك الاستحقاق

فآخر ما يخطر على البال أن يرى المتفرس المتوسم رجلا كسعد زغلول أو
غاندى على بعد ما بينهما من التفاوت ، ثم يخرج سائلا : لا أدري والله ما الذى
جعل هذا من الزعماء ؟ . . . أنه لا يسأل هذا السؤال لأن حيرة الشك هنا
لا يحيك له فى خاطر

أما الذين رأوا هتلر — وقد رآه أكثرنا فى الصور المتحركة — فكلمهم على
ما نعتقد يسألون : أين سر الزعامة فيه ؟ لماذا يستهوى الجماهير ؟ وأى شيء



(هتلر وجوبلز)

يعوضه عن هيبة الزعماء ؟
وعندنا نحن أن سر
الزعامة فى هتلر أنه هو « واحد »
مكبر من جماهير النازيين ،
أو أنه هو « مكبر الصوت » الذى
يعيد فى الساحة الواسعة اصدااء
أفراد متعددين ، لا يُسمع
الواحد منهم الا إلى أمد قريب

فهو رجل يستطيع كل فرد من أتباعه أن يتمثل فيه نفسه مجسماً معظماً
بهذا التمثيل . ويقول في وعيه الخفى : انظر . انظر . هوذا أنت . هوذا نموذج
منك فى نطاق كبير

وهتلر من أجل هذا ضائع «المعالم الشخصية» لأنه فى صميمه ولبابه مجموعة من
ملامح الجمهور وليس بفرد عظيم له ملامح فرد عظيم

ولو وضع فى وسط خمسة أو وسط خمسين أو وسط خمسمائة لكان حيرة
الحائر فى الانتقاء والاستخراج ، لأنه صورة لا تتميز من سائر الصور إلا إذا
انتزعتها من بينها لتكبيرها

فكل خصلة فى رجل الشارع فهى فى هتلر أضخم وأجسم ، ولكنه يلبسها
كما يلبس الممثل دوره فلا يناقضك « بشخصية » مقررة تثير المقاومة والناظرة ،
ولا يشعرك بالفضاضة أن تجلسه على كرسى الرئاسة ، لأنك أنت الذى اجلسته
عليه وأنت الكاسب عند الموازنة بين نصيبك ونصيبه ، فأنما هو « شخصية
مسرحية » وأنت الحقيقة الحية على كل حال

وانظر الفارق مثلاً بينه وبين بسمارك ، أو بينه وبين هندنبرج ، أو بينه
وبين مولتكة ، أو بينه وبين أصحاب القيادة السياسية والحربية فى أمة الألمان
على الأجمال

فليس واحد من هؤلاء « شخصية مسرحية » تقوم على الثوب الذى تلبسه
لتمثل به الأمة بأسرها

نعم انهم المانيون فى الصميم ، والمانيون فى الخلق والسحناء ، ولكنهم
المانيون ينفردون بملامح لا تنفجر فى ملامح السواد ، وليسوا بالقتاع الألمانى
الذى تتساوى فيه الوجوه

ماذا يبقى من بسمارك إذا نزعته عنه جلباب قومه ؟

يبقى كثير

وماذا يبقى من هتلر إذا جردته من ذلك الجلباب المسرحى أو من تلك الصبغة

العمومية ؟

لا شيء

ولا شيء يبقى منه أيضا إذا عزلته عن الحركة النازية فى أوانها المعلوم
ودواعيها المسبوقة . « فهتلر غير النازى » لن يكون له وجود . وبسمارك موجود
ولو لم يطرق باب الديوان

قال كارل شتيبانك Karl Stepanek الممثل الذى رأى هتلر على القرب
وكان هتلر يشهد رواياته ويخلق عليه الجنسية الآرية على الرغم من نشأته التشكية :
« دخل القوهرر فقال هيل ! ... تحية النازيين . إني معتبب بحضورك إلى .
فأجبته : هيل ! ورفعت يدي بالتحية المعهودة

« ثم لفظ ببعض كلمات دارجة وسيل التفكير بادية عليه ، أما عيناه اللتان
اشتهرتا بلون الحديد فكانتا تنظران خلالى ولا أقول تنظران إلى . وطالما سألتنى
أناس من الانجليز عن تينك العينين ماهوما لونهما ؟ فالحق أقول أننى ما استطعت
قط أن أعطيها لونا بين الألوان الرمادية أو الزرقاء أو الخضراء . إن فى تحديقهما
ولا شك شيئا غير مقبول ، فإن وصفه بعضهم بالمغناطيسى فهو فيما رأيت أقرب إلى
تحديق الذين ينامون منه إلى تحديق الذين يُنيمون »

وقال السير نيفيل هندرسون السفير البريطانى الذى كانوا يلقبونه فى إنجلترا
« بالنازى » لفرط رغبته فى مسالة الألمان : « ^(١) ألفت أن اسمع كثيرا من

(١) من كتابه اخفاق مهمة Failure of a Mission

الألمان — ولا سيما النساء — يترنمون بأشراق سياه وعينيه خاصة ، وكنت افظر اليهما فأرى فيهما سخونة وغضبا . إذ لم يكن من حظي أن أراه إلا في المناسبات الرسمية . بيد أنني على الرغم من أعماله ومساعيه التي لا يستطيع الاقلال من شأنها — لست أرى مناصا من المصارحة بما أبقاه في نفسي من الأثر عند المقابلة الأولى أو بعدها . وذلك أنه لم يشعرني قط بأية سمة من سمات العظمة

« ولقد كان يسحر شعبه كما هو بين بغير حاجة إلى بيان ، وكانت له قدرة على الخلافة إذا أجمع النية عليها ، فأنها كانت إحدى بضائمه ومخزونات ، وكان لها أثر شهدته غير مرة . وإن لم يكن لي منه نصيب

« على أنه في حالاته المعقولة كان يربكني أحيانا بسداده وحسن تدليله . فإذا سارت سورته ، وهي الحالة التي كان لها أبلغ السلطان على قومه ، فكل ما كنت أصبو اليه ساعثئذ أن أرجوه تهدئة نفسه

« ورأيت منه كثيرا من اعتزاز القطرة وتأدبا حيما لقيته ، ولكني طالما تساءلت وما برحت أسأل : كيف صعد إلى هذه المرتبة ؟ وكيف احتفظ بسلطانه على الأمة الألمانية ؟ وجواب السؤال الثاني فيما أعتقد أن الألمان يحبون أن يسوقهم الحاكم المستبد ، وأن حزبه ليس بقادر وقد حصل على زعيمه أن يبدله الآن . فلا حيلة له في ابقائه حيث هو إذا أراد أن يتقى الهدم والدمار »

وقال السير نيفيل في موضع آخر : « هذه القدرة على خداع النفس واقناعها قد كانت جزءا موصولا بخططه وتديراته ، وقد ساعدته على اضرام عواطفه واقناع شعبه بما يريد على تصديقه . ويخيل إلى أنه إذا وقف غدا بين يدي الديان فلسوف يجادل يومئذ جدال المؤمن في ظاهر الأمر بأنه كان حرياً أن يهضم أوروبا من أهوال الحرب لو قبل البولونيون شروطه المعقولة السخية ! »

وزارته الرحالة المعروفة «روزيتا فوربس» Rosita Forbes فوصفت مظهره

بالتفاهة في أحواله المادية وقالت : «^(١) يستطيع هتلر دائماً أن يلوح لك في مسحة البساطة والبراءة على آتمها ، وأن يحس ما يقوله في ساعة قوله ، وفي تلك الساعة على الأرجح لافي غيرها . ! وهو لا يصطنع المعرفة الغزيرة ، بل يتكلم في سهولة بالغة . وعيناه — إذا لزم موقف الدفاع — تشفان عن بعض الخلو والفراغ ، ولكنه يمسك لك ما يحسه متى اهتم بموضوع الحديث بكل ما يبدو لك من ملاحظه وسائر كيانه . . . »

وقال الأستاذ ستيفن روبرت ^(٢) « إن المانيا الجنوبية طالما أنجبت الحالمين وتبّاع الخيالات ، على مثال ملك البجع لدفيج البافاري ، نلا تزال بينهم نزعة القرون الوسطى لاتفارقهم . وهم يعيشون في عالم كأنه الوم بين جبال كأنها الخرافات التي لا ترى رأى العيان ، وكأنما الحقول والبيوت التي لهم تخريج مسرح وتصوير ستار . »

ثم قال : « وهتلر واحدٌ منهم : ابن فلاح يزيد تعليمه قليلا على تعليم كل ابن فلاح ، ولكنه يستوى الآن في مكان يعلو على متناول الخيال في أعجب ما عندهم من قصص الجان

» وفي الحق انه لا يخلو أبدا من هيئة انسان مدهوش بعض الدهشة ، وقد نهى زميل من كبار أطباء العقول لازمني في رحلة نورمبرج إلى هيئة هتلر وهو يشد نفسه من حين إلى حين في المحافل الكبرى ليكفّ عن الأحلام ، كأنما هي حالة من حالات الشخصية المزدوجة ، فهو لا يحب أن تبرز فيه صفات الفلاح الشائعة بين جمهرة الفلاحين ، ولا يفتأ مذكّرا نفسه بتمثيل دور الزعيم أو نصف الآله بين شعب عظيم ، ونهى ذلك الزميل إلى علامة أخرى من

(١) من كتاب هؤلاء الرجال اعرفهم These Men I knew

(٢) Stephen . H . Robert صاحب كتاب البيت الذي بناه هتلر

The House that Hitler Built

علامات هذه الخليقة ، وهى اسرعة إلى تبديل ملامح الرضى والاكتفاء التى
ترحف إلى وجهه أحياناً فى وسط المواقب الشعبية » .

هذه كلها ملامح رجل مطبوع على « الإيماء الذاتى » أو مزاج الاستحضار
الذى يستعين به الممثلون على تحضير الشخص والأدوار .

فهو أبداً شخص غير شخصه ، وهو أبداً لا بس قناع من صبغة خياله ، وهو
أبداً بين جمهور وعلى مسمع من هتاف وتصفيق ، وإلا فهو نكرة من التكرات .
ونحن نستفيد من أوصاف الذين راقبوه ودرسوه وقيدوا حركاته وسكناته
عليه ولكنه لا يخفى عنا إذا اختفت أقوال هؤلاء أجمعين ، لأننا كما قلنا
فى عصر الزعماء ، وفى عصر المذيع محبوب الفضاء ، والصور المتحركة تتردد فى
الأرجاء ، وليس لنا محيص من المقابلة بينه وبين زعماء الأمم فى زمانه ، وليس
فى وسعنا بعد هذه المقابلة أن ننسب إليه صفة « ذاتية » كالصفات التى تتجلى فى
أمثال سعد زغلول ومصطفى كمال وغاندى وموسوليني ، ولا أن ننسى القارق بينه
وبينهم فى مقومات الزعامة . فهو مكبر صوت فى ساحة عامة ، وليس منهم جميعاً
من تنحصر سيماء فى تكبير الأصوات .

أصحابه :

وربما كان أوفى الطرق وأقربها إلى دراسة نفس انسان أن تلم بسيرة أصحابه وأهوانه الذين يعمل معهم ويعملون معه ، ويحتاج اليهم ويحتاجون اليه .
فن هذا الالمام بسيرة أصحابه وأهوانه نعلم حقيقة العمل الذى يتفقون عليه :
هل هو مبرة يتفق عليها أناس كرام ، أو هو جريمة يتفق عليها أناس مخلوقون للجرام .

وليس فى وسع أقرب المقربين إلى هتلر وأرغب الراغبين فى الثناء عليه أن يطلق وصف « الأناس الكرام » على أصحابه الأخصاء : جورنج وريينتروب وجوبلز وهيملر واخوان هذا الطراز !

فكلهم من مرضى الظهور المشهورين بالنقمة والقدرة وسوء الدخلة وحب الشرور .

وكلهم ممن يعرفهم المعارف فيقول على الفور : ها هنا جريمة مدبرة ! ولا يخطر له على بال انها مأثرة من مآثر النبل والشم والفضيلة .

ولاحاجة إلى التوسع فى سيرة هيملر فحسبه انه رئيس الشحنة وقائد الجواسيس الذى ترجع اليه آثام الفيلة ومكائد الوقعة ووصمة التعذيب فى المعتقلات ، وافساد الأبناء على الآباء . والزوجات على الأزواج والاخوان على الاخوان ، سميًا وراء الفضائح وتستطفاً للأخبار واختراعاً للجنايات والأكاذيب ، وقياماً «بوظيفة نازية» لا يخطر على البال أن يضطلع بها رجل صادق شريف .



هينرل - - عين هتلر إلى لاتفيا وإلى جانيه ضابطان نمساويان

ولا حاجة كذلك الى التوسع في سيرة جوبلز فحسبه أنه مدير الدعاية النازيه
التي تقوم على الدس الخبيث والكذب الصريح ، والألمان أنفسهم على الرغم من
قسوة الرقابة عليهم يصفونه بأنه أ كذوبة تتحرك : وقف الممثل الهزلي لدفيج



جوبلز « الارى » يحرسه رجال الفحة

فئك Finkh مرة يقول معرضا به «: نحن الالمان نحب صيغة الجمع لغير داع »
فتقول مثلا إن الأ كاذيب قصيرة الارجل ... لماذا لا تختصر فنقول إن الا كذوبة
لها رجل قصيرة !

ولكننا نذكر الحقائق المقررة عن الرجلين اللذين يقبضان مع هتار على زمام
السطوة كلها في البلاد الالمانية ، وهما وينتروب المسئول عن السياسة الخارجية ،
وجورنج المسئول عن الجيش والطيران ، وفيهما ينحصر كل ما فى المانيا من قوة
السياسة وقوة السلاح

فالأول من صرعى الظهور وأمثلة « الانتهاز » الذين عُرفوا فى الاصطلاح
الحديث بنعت « الوصوليين »

لم يكن من أصحاب الالقاب ولكنه سعى عند عمه حتى تبناه ثم سعى عند المراجع الرسمية حتى قبلت وراثته اللقب بالتبني كما يورث بالبنوة الصحيحة ولم يكن من الأغنياء ولكنه وصل الى الثروة من طريق الزواج ، فأصدر الى أوتو هنكل Otto Hinckel صاحب الملايين من تجار الانبذة المعدودين وكان في نشأته ، وبعد الحرب ، يتجر بالنبيذ في المانيا الغربية حيث يعسكر الفرنسيون وجنود الحلفاء ، وهي تجارة كانت تقوم على التهريب برعاية «الاعداء» المحتلين للبلاد !

وكان سبب التعارف بينه وبين هتلر من « أليق » الاسباب باخلاق النازيين وطبيعة الحركة النازية

فقد كان رييتروب متوطا بالتجسس على الاحزاب البافارية في أعقاب الحرب للماضية ، وكان ضابطا يساعده في هذه المهمة ضابط آخر ، فكانا موضع الشبهة والارتياب بين العمال وصغار الجند لانتمائهما الى طبقة الضباط التي كانت كما أسلفنا متهمه النيات في عرف السواد من أبناء الطبقة العاملة

وكان من جراء ذلك أنهما بحثا عن « جندي » يؤدي عنهما هذه المهمة وينقل اليهما ما يسمع ويرى فعثرا بالطلبة المنشودة ، ولم تكن هذه الطلبة غير « هتلر » الذي كان مستعدا لكل صناعة من هذا القبيل في مقاهي ميونيخ

وعلى هذا النحو تم التعارف بين الرئيس والرؤس ، أو بين الرؤس والرئيس ورييتروب ، بعد ، هو موقع الميثاق الالماني الياباني لخمس سنوات وهو هو الساعي في ابرام المحالفة بين الالمان والروس !! وانه لعل لا يخلو من الدلالة على الأخلاق مهما يقل القائلون في تسويته باسم السياسة والمناورات الدولية أما جورينج فالثابت من الاوراق الرسمية في بلاد السويد أنه كان يتعاطى

المورفين بشهادة الاطباء والصيادلة أمام قضاة الأحوال الشخصية في مدينة
« ستوكهلم » سنة ١٩٢٦

وفحوى القضية أن زوجته السويدية طُلقَت من زوجها السابق فون كانتزو
Von Kantzow ولها منه ولد قاصر فاختلعا على الحضانة ، وجاء أهل الزوج
السابق إلى المحكمة يثبتون أن تربية الولد على خطر محقق بين الأم وزوجها
الجديد . . . لأن الأم مصابة بالنوبات المزمنة ، والزوج - وهو جورينج -
مصاب بادمان الخدرات وأعراض الجنون

وبعد تقديم الوثائق وسماع أقوال الخبراء والشهود قضت المحكمة بفصل الولد
عن الزوجين وتسليمه الى حضانة آخرين

وقد ثبت في المحكمة أن جورينج دخل مستشفى اسبودن Aspudden
بعاصة السويد في منتصف سنة ١٩٢٦ للعلاج من آفة الخدرات وعوارض
الجنون ، وأنه نقل منه الى مستشفى كاتارينا Katarina حيث كانوا يحجزونه
في حجرة مبطنة لقرط هياجه بعد تحريم المورفين عليه^(١)

وعجائب جورينج في حب الظهور ونشوز الأخلاق لا تحصى ولا تفرغ منها
فكاهات أهل برلين من نازيين وغير نازيين : حسبك منها انه يلعب بشبل أسد
وانه يبدل نيفاً وعشرين كسوة رسمية ، ويملا كل واحدة منها بالأنواط والأوسمة
والشارات !

والظاهر أن الآفة عامة بين زعماء النازيين على صور وأشكال . فكلهم جياع
إلى المظهر البراق ، وكلهم يعيشون في جو التمثيل والاحراج .

فالنافس الأول لجورينج - وهورييندروب - لا يكثر مثله في تبديل
الكسى وحل الأنواط والأوسمة ، ولكنه لا يعيش بغير تمثيل وتهويل سواء أقام في

(١) كتاب « جورنج أخطر رجل في ألمانيا » تأليف كورت سنجر

Kurt Singer

ببلاده أو تغرب عنها . . . ومن ذلك انه تولى وزارة الخارجية فأقام فيها حرسا من مائة وخمسين فتى يلبسون الكسوة الرمادية الخضراء ، ويرسلون الأهداب من الأكتاف ، ويصطفون كل صباح لأداء التحية في فناء الوزارة .

وروى مراسل « لايف » Life الأمريكية انه حضر مأدبة من مآكب ريبنتروب الرسمية وهو سفير في العاصمة الانجليزية ، فلما دخل الردهة الكبيرة بصربانه رودلف واقفاً على الشرفة وفي يده نسخة لم تفتح من كتاب « كفاحي » لهتلر يقلب فيها كأنه يقرأها وينعم في قراءتها !

ثم أدب ريبنتروب مأدبة أخرى في الخريف التالي تكريماً للكونت شيانو فحضرها المراسل مع الصحفيين المدعويين . قال : قرأت الفتى في وقتته الأولى ، وفي موضعه الأول ومعه الكتاب لم يفتح بعد ، وهو مقبل على قراءته بانعام .
وحكاية « هيل هتلر » والوقفة النازيه في بلاط لندن أعجب ما يروى من مهازل هذا التمثيل والاخراج !

وقد تساوى ريبنتروب وجورينج في استغلال الوطنية والاستفادة من محنة الأمة عند الحاجة .

فاحتلال الحلفاء لوادى الرين لم يمنع ريبنتروب أن يقنص الفرصة ويتجر هنالك بتهريب النبيذ .

وحماسة جورينج الوطنية لم تمنعه أن يعرض سمر المظلات الواقية للبيع في الأسواق الأوروبية ، فأنشأ في أيام الجمهورية الألمانية المرفوعة باسم الريخ الثاني مصنعاً لهذه المظلات بعاصمة السويد يعرضها لمن يشاء أن يشتريها من دول الأعداء والأصدقاء ، وهى تلك المظلات التى يعتمدون عليها الآن في غارات النرويج والميادين الغربية .

وقد حفظت نسخة الاعلان في دار المحفوظات السويدية وفقاً للقانون الذى يقضى في تلك البلاد بإبداع نسخة في المكتبات الحكومية من كل

ورقة مطبوعة . . . فكان جورينج لا يختص وطنه مخترعاته إلا إذا كان له نصيب من حكمه ، أما إذا كان يأثما من الحكم غريباً في بلاد أجنبية فليس لوطنه هذا الحق عليه .

وندع هنا ما أفشاه الصحفي سفتون ديملر Sefton Delmer عن ودائع الزعماء النازيين في المصارف الأوربية والأمريكية وتبلغ في تقديره سبعة ملايين من الجنيهاً .

فسواء ثبت هذا الخبر أو لم يثبت فالهدايا التي قبلها جورينج في عرسه (سنة ١٩٣٤) ولا يزال يقبل أمثالها تبلغ الملايين ولا شك فيها بين الألمان ... والأسهم التي اشتراها جورينج في البلاد الخارجية حقيقة لا تقبل الإنكار ، ومنها مائة سهم في شركة كبيرة يعرفها المصريون وهي شركة قناة السويس حُجز عليها (أي على الأسهم) بقرار من نيابة محكمة السين في منتصف شهر مايو (١٩٤٠) . . . وقس على ما ثبت بالأوراق والشهادات ما هو مزوي إلى الساعة في انتظار الإثبات .

إلا اننا لو قمنا الاختلاس ، وابتزاز الأموال عن هؤلاء الناس لظلوا على وصفهم الذي تنسكه الأخلاق والأذواق عصابة من مرضى الظهور ونهاري القرص وأصحاب الضراوة بالشرور .

فما هي القضية الشريفة التي يخدمها أمثال هؤلاء ؟ وما الذي يرحض عنهم وصمة هذه الشرور ؟ أيرحضها عنهم انهم أذكاء لبقون في التحيل ونصب الفخاخ ؟ لقد حيرت عصابات المهربين في الولايات المتحدة ذكاء الشرطة والمحققين ورؤساء الحكومة حتى اضطروهم إلى رفع الحظر عن المسكرات . فمن المجرمين أذكاء ومنظمون ، ولكن ليس من رجال الخير والنجدة والقضايا الشريفة فتاكون أشزار ، مجردون من فضائل النبل وسجايا الروءة .

ولولا أن العمل الذي يتولاه هتلر « جريمة انسانية » لما تولاه معه أناس بهذه الطباع .

تلخيص

وفجئ ما تقدم أننا أمام رجل أبتَر مدخول الطبيعة
لم تؤهله للخير ورائته ولا نشأته ، ولا صلة الارحام بينه وبين أهله ، ولا صلة
المودة بينه وبين صحبه ، ولا القدرة على كسب عيشه ، ولا النجاح والتفوق في
الفنون الجميلة التي ظن أنه مستعد لها بطبعه ، ولا الفرائز والمواطف التي ركبها
الله في تكوين كل ذكر وأنثى

والى جانب هذا لم يكن لطبيعته المكبوتة مصرف من الحركة الجسدية
والألعاب الرياضية التي تلهي وتشغل عن هواجس النفس المصدومة النافرة
وأشواق الجسد العاجز المحسور . لأن هتار على كل إطنابه في مدح الألعاب وتنشئة
الجيل عليها لم يولع قط بلعبة رياضية أو حركة جسدية ، ولم يشتهر كما اشتهر غيره
من الطغاة بغرام السرعة في ركوب الطائرات والسيارات ، أو غرام القروسية في
الصيد وتجربة السلاح ، أو ما شا كل ذلك من وسائل التنفيس والتفريج
ولو اقتصر أمره على هذا لكانت نهايته التي لاشك فيها إما الى الاجرام أو
الجنون ، وإما الى الخول والهزال ، ولما سمع به أحدٌ ولا كتب له اسم في سجل

التاريخ

ولكنه نشأ موهوب الذهن في فترة الزعازع الدولية والمفاجآت السياسية
واتفق له أنه كان « مختار » خمسة أو ستة في بدء حياته الحزبية : اختاروه
ولم يكن في وسعهم أن يختاروا من يشاءون كما يشاءون . ثم تكفل التاريخ

بالبقية الباقية ، وأصبحت الصعوبة بعد ذلك في اسقاطه ومحوه لا في ارتقائه
وتمهيد طريقه

كيف وصل هتلر إلى الزعامة ؟

وصل اليها لأنه كان « مختار » أولئك الخمسة أو الستة من البداية ، ولم يكن
من السهل اسقاط زعيم بعد اختياره

وكيف فعل بعد ذلك ما فعل في عالم السياسة الدولية ؟

فعله لأنه قبض بفضل تلك الزعامة على موارد أمة كبيرة كالأمة الألمانية ،
عندئذ ثمانون مليوناً وطاقاتها الحربية والسياسية والصناعية لاتفوقها طاقة أمة أوربية ،
وعقيدة الجيل الناشئ منها في طاعة « الزعيم » أنها مقدمة على طاعة الآله كما قال
مدير المدارس الدكتور رينولد كروس Reinold Kraus حيث كتب في صحيفة
دوتش تاجسيتونج « إن المسيحية عالمية في شعورها . ولكن الواجب هو تقديم
الوطن على العالم . فمن المستحيل أن تؤمن بالريخ الثالث ثم تؤمن بأن طاعة الله
مقدمة على طاعة الانسان »

ورجل يقبض على زمام ثمانين مليوناً من الخلوقات الآدمية هذه عقيدتهم
وهذه فطرتهم وذلك استعدادهم للطاعة العمياء ما الذى يستكثر عليه مما فعل ؟
ولماذا يستكثر عليه ؟ ولماذا تقف أمام فعله موقف اء عشة والا كبار .

لأنه كان متقيدا بدستور أو متقيدا بقانون أو متقيدا بعرف مأثور أو متقيدا
بمجاهدات سرعية أو متقيدا باجتناى الحرب أو بالسير فى طريق محدود لايتعاشاه
ولا يحيد عنه لكان العجب معهما من أن يستطيع ما استطاع . لكنه لم يتقيد
قط بشئ من الأشياء ، ولم يزل يأمر ويطاع فى كل ماأراد

(١) ١٩ - ٣ - ١٩٣٤ من صحيفة Deutsche Tageszeitung

بل نحن نخطيء إذا فهمنا أن المسألة هنا مسألة طاعة . لأنها في حقيقتها أكثر
جدا من الطاعة

المسألة هنا مسألة تعصب لزعيم يراد له التقديس والتمجيد ، ومسألة « ثورة
شعبوية » جامعة في سبيل التمسكين والتأييد ، أو هي « هوس » تسبق الطاعة إلى
المفاداة والمغامرة ، لأن غريزة الجماعات قد جاشت جيشانها ، فاندفعت كما يندفع
القطيع من الماشية في أثر الحيوان السابق ، ولو إلى الهلاك
أيقال إن هذا مطلب صعب على من يريده ؟

كلا . بل هذا أسهل المراكب وأوطؤها لمن لا يحسب حسابا ولا يتقيد بقيد ...
فليس أسهل من إثارة الشر في نفوس الجماعات الغاضبة المتعطشة إلى الانتقام ،
المهتاجة بصيحة الحرب والعدوان

وأنه لأسهل المراكب من الوجهة الاقتصادية والسياسية ، لا من الوجهة
الشعبوية ولا من وجهة النظر إلى غرائز الجماعة دون غيرها
تسلحوا أيها الألمان جميعاً !

هذه أسهل صيحة تصاح وأقننها بالاجابة والقبول :

يقبلها أصحاب المصانع لأنهم يروجون بها مناجم الفحم والحديد ومصانع السلاح
ويقبلها الضباط والجنود لأنهم يعتزون بها ويضمنون بها العيش والكرامة
ويقبلها العمال والصناع لأنهم يجدون عملا في صنع السلاح أو في حمل السلاح
ويقبلها الشيوخ المحافظون لما فيها من تعزيز النظام القديم ، ويقبلها الشبان
المتطرفون لما فيها من الحماسة والضحيج ، ويقبلها النساء لأنهن زوجات عمال أو
جنود أو أصحاب أموال ، ولأنهن معجبات بمظاهر الفروسية ومواكب الجنود في
كل زمان

فأنت ترى أنها ليست بمعجزة

بل هي تقيض المعجزة
إنها أسهل شيء يخطر على بال من يريد ، ولا مانع يمنعها إلا التفكير في
العواقب على الأمة الألمانية ، وعلى الأمم المجاورة لها وعلى العالم الانساني بأسره ...
وهذا ما لم يفكر هتلر فيه
لأنه مجرم يركب رأسه
لا لأنه رجل مقدم

وكل ما صنع هتلر فهو ضروري لغرض واحد : ضروري لاشباع غريزة الخلد
والنور والبطش والاحرام في نفس بتراء ممسوخة
وليس بضروري لغرض آخر كأننا ما كان
نعم ليس بضروري لسيطرة ألمانيا المزعومة حتى لو أمكن أن تسود ألمانيا
على الدنيا ، وهو مستحيل
وغاية ما هنالك أن « سيطرة ألمانيا المزعومة » هي الستار الذي يداري به
هتلر بشاعة إجرامه ، أو هي الخلد الذي ينم به وسواسه قبل اقرار الجريمة أو
بعد اقرارها

وإلا فكيف كان هتلر يطيق تلك الأشباح كلها لو صرح نفسه بالحقيقة ،
وأعلن نفسه أنه يهدر ما أهدر ويقتل من قتل لحض الاستمتاع بشهوة الدماء
ونهمة الأحقاد

إن القاتل ليرتعد من الوجع والرعب أمام شبح واحد وجثة واحدة . فكيف
بالجرم الذي يقذف بالمعالم كله في أتون النار . وكيف بالجرم الذي تترأى له
الرؤوس الطائحة من أصدقائه وأعدائه بالآلوف ؟ وكيف بالجرم الذي يقضى على
شعوب ويهتك كل حرمة مقدسة في الشرائع والآداب ؟

الجنون السريع أيسر ما يصيب المجرم الذى تطارده كل هاتيك الاشباح ،
ثم يصمد لها الليل بعد الليل والنهار بعد النهار ، بنير غدر فعال

وسيطرة المانيا للزعومة هى ذلك الخدر الفعال

فاقتل ياهتلر اذن واضرب وغامر وانتقم وأشبع ما بدالك من ضغينة وشر
وكنود ، فإ أنت بمجرم منهوم بالشر المستطير بل أنت بطل مشغوف بمجد المانيا
الموعد

هل ضمن مجد المانيا الموعد ؟ وهل ضمن السيطرة الالمانية على الدنيا ؟
كلا ! فسيطرة المانيا على الدنيا ولو انتصرت فى الحروب كافة مطلب لا يكون ،
ومصير غير مضمون ، ولا هو بعد ضمانه بأمون
ولكنه ضمن المطلب الذى لا ريب فيه ، وهو اشباع مافيه من شر متفرز
ومسخ متحفر ، وطبع مكظوم

وقد يقول قائل الآن انه استهان بالأرواح والحرمات وأقدم على الشر
المستطير فى سبيل خطة عظيمة هو واضعها وهو الكفيل بانجازها فى مكان الزعامة
على الأمة الالمانية ، أوفى المكان الذى يستطيع فيه أن يتمنى ويحقق ما يتمناه
لكنه مع ذلك فرح بالشر المستطير عند اعلان الحرب الماضية وتهلل له
وقال فى كتابه « ان تلك الساعات كانت نجاة لى من الضيق الذى كان يرين
على نفسى فى أيام شبابى . فلا يخجلنى أن أقول اليوم اننى قد أخذت بمجىء
تلك الساعة وركمت على ركبتى أشكر الله من أعماق قلبى لأنه أتاح لى العيش فى
هذا الزمان »

فهو يفرح بالشر المستطير وهو جندى من عشرة ملايين ، ويفرح به وهو
زعيم لا يشاركه أحد فى الزعامة ، وليس فى وسع نخيلة أن تتوهم أنه قد فرح
بالكارثة العظمى ذلك الفرح لأنه رأى امته منتصرة ورأى أنه سيجلس على

عرشها بديلا من آل هوهنزلرن وهم ظافرون ! أو رأى أمته منتصرة وهو يتنبا
الدولة النموية بالانهيار ، أو رآها منهزمة ثم تسلسات أمامه الحوادث إلى اليوم
الذى يشن فيه هذه الحرب الحاضرة . فذلك أوهام بعيدة من تحيل المتخيلين ،
وإما الصحيح من كل هذا أنه مجرم شرير يفرح بالشر حيث كان لأنه لا يعرف
الفرح بغيره فى عمل من الأعمال

وإيانا أن ننخدع عن كنهه الاجرام فنفهم أن المجرم ينوى الجريمة ويمترف
بينه وبين وجدانه باختيارها وتفضيلها ولو تسنى له اجتنابها
فان المجرمين ليمتقدون أنهم مكرهون ، وأنهم لولا الأيام والصروف لما
اقتروا قط ما يقتربون ، وما من نزيل من نزلاء السجون تسأله فيقول لك إنه
كان يأبى أن يعيش كما عاش فلان الضال السري وفلان العائل المكفول المونة بين



هتلر يسمع اعلان الحرب الماضية سنة (١٩١٤)

عياله وأهله ، وهتلر أيضا لو سأله لقال لك مخلصا أو غير مخلص أنه كان يود لو
تم له كل ما أراد بغير قتال

إننا لنبحث عبثا في سجلات التاريخ ووقائع الدنيا الماثلة بين أيدينا لو بحثنا
عن الجرم الذى يقول إنه خرب العالم وله مندوحة عن خرابه ، أو ظلم من ظلم
وسفح ما سفح لأنه يستريح إلى الظلم وسفك الدماء .

فإنكار الجريمة لا ينفى طبيعة الاجرام .

وكفى أن يكون الشرسهلا يواقعه المرء لأيسر ضرورة أو لضرورة موهومة .
لثبتت طبيعة الاجرام أيما ثبوت .

وما ضرورة داتزيج . وما ضرورة تأجيلها أو انتظار اليأس من المفاوضة فيها ؟
ليست بضرورة على الإطلاق

لكنهما مع هذا كانت أعزل على هتلر من معضلة الفاشية بسلام الدنيا
ومصير بنى الانسان

وسوَّغها السوَّغون فقالوا إنه قد أسرع إلى الحرب لأنه عاهد الروسيين على
التزام الحيطة وتقسيم الغنائم ، كأنهم ينسون أنهم يمنون بذلك تفسيريا واحدا
لا تفسير غيره ؛ وهو أن صاحبهم يتلف على ذرائع الشر والبغى فلا يرفضها ساعة
العثور عليها ، وليس يتلف على ذرائع الرقى والسلام

و بعد فسيطرة المانيا على الدنيا ليست حقيقة فى حيز الوجود ، وليست حقيقة
فى مستقبل الأيام ، وليست حقيقة تساوى أهوالها وخسائرها على فرض امكانها
لكنها حقيقة على صورة واحدة : وهى الاعانة على طوية الشر والبغى والتماهى
فيهما إلى أقصى مداهما . . فنى هذا ولا شك هى حقيقة وافية بنهاياتها ، مؤدية
إلى نتائجها

وليس فى تاريخ الرجل عمل واحد يستمعى على انسان متوسط الذكاء غير

مقيّد بالعواقب ولا بوازع القانون والاخلاق

فهو لم يصنع معجزة يوم اختاروه زعيمًا خمسة أو ستة من الفارغين للمشاغبات السياسية في ميونيخ . ولا سيما إذا ذكرنا أن هذه الزعامة لم تكن أمنية مرغوبا فيها ، للشك في مصيرها واستلزامها أن ينقطع لها صاحبها عن الأعمال والعلاقات وهو لم يصنع معجزة ببقائه في زعامته ، لأن خلع الزعيم ولو كان خصومه على هدى ، أصعب جدا من بقاءه في الزعامة ولو كان على ضلال

وهو لم يصنع معجزة باقتداره على مافعل وبين يديه موارد الدولة الألمانية وأمامه عالم لا يريد الحرب ولا يتفق على المقاومة وفضيلته الكبرى هي تقيصته الكبرى :

هي أنه ركب الدولار الجامح ولم يبال وخامة المركب ، لأن أسوأ العواقب لا يعنيه ولا يثنيه

فلنفكر ماذا يكون المصير والمآل إذا ما كانت الحاجة على التسليح مشغولة بالتأهب للقتال فالمصانع لا تخرج المدافع والدبابات أبد الأبد : دوراتها على السلاح سرمدًا مستحيل ، ووقوفها بعد دوراتها أعوامًا مستحيل ، لما فيه من اغضاب أصحاب المال ، واغضاب الملايين من العمال ، المتسكمين بين الجوع والسؤال والتحدث عن الحرب ليل نهار لا بد أن ينتهى إلى حرب عاجلة ولو لم تكن لازمة ولا ناجحة

وتربية الشعب على المفاجآت المسرحية تعودّه أن يترقبها ويتحفز لها ولا يطبق الفراغ منها ، وإلا فترت الحمية وخمدت نار الزعامة التي هي قوامها وعلّة وجودها وهكذا دار الدولار الجهنمي دورته المرهوبة ، ولم يكن عند هتلر إلا لعبة أخاذه يستطيها خيال الكتم لم يخلق للمظمة الفنية ، وطبيعة جارمة خوت من الرحم الانساني ، وعقل مخبول يومض فيه الذكاء ، ولكنه ذكاء في قبضة شيطان .



هتلر بین یدی دندبرج

الفصل الرابع

قضية اليوم

دار الكتاب اللبناني - بيروت

قضية اليوم :

ما هي إذن قضية اليوم ؟ ما هي القضية التي يعرضها النازيون على العالم للفصل فيها ؟ وأين هي مصلحة العالم من طرفي القضية ؟
ان هتلر يعرض على العالم قضية الطغیان والحريه الانسانيه ، أو قضية الايمان بالسلح وحده والايمان بشيء في الحياه وفي الحضاره غير السلح .
وهو لا يعرض على الناس قضية الطغیان ليقول لهم : أيها الاخوان . تعالوا وكونوا طغاة مثلي ولكنه يعرضها ليكون هو الطاغية المتحكم وهم العبيد المستسلمين .

وهو لا يؤمن بالسلح وحده ليقضى به في خصوصته مع بولونيا وأجلترا وفرنسا وبلجيكا وغيرها ثم يكتم به ويلقيه جانباً ويعترف بالحقوق والحرمات .
كلا ! بل هو يعتمد عليه اليوم مرة ويعتمد عليه غداً عشر مرات ، لأنه إذا بلغ به ما أراد زاد اعتماده عليه ، وأصبح أقدر على استخدامه مما هو الآن .
فهو قد عمل للحرب فجمع لها عدتها . . . وغيره لم يعملوا للحرب فلم يجمعوا لها مثل تلك العدة .

هل أصاب أو أخطأ في اشتغاله للحرب دون غيرها ؟
قل انه أصاب أو قل انه أخطأ فليس هذا مقطع القول الآن ، وإنما مقطع القول ان الذي ينصره أو يتمنى له النصر يخطيء كل الخطأ ولا يصيب في حقه ولا في حق العالم أقل صواب .

على ان العالم لو اشتغل للحرب وحدها كما اشتغل لها هتلر لكان معنى ذلك ان الهتلرية قد ربحت المعركة قبل دخولها ، وقد دان العالم بدين الطغيان وكفر بدين الحرية . وأصبح لزاما عليه أن ينقلب إلى معسكر ميدان لايتربى فيه الطفل ولا يعمل فيه الرجل ، ولا تفكر فيه العقول ، ولا تجمع الدولة مالا أو تنفقه ، ولا تبيح الحكومة شيئاً أو تحرمه إلا في هذا السبيل .

وبئس الوقاية من الهتلرية تلك الوقاية .

يقول هتلر للعالم :

« اعطوني حرية الانسان . . . اعطوني حقوق الانسان . . . اعطوني ضمان الرأى والروح . . . اعطوني تراث الماضى والرجاء فى المستقبل . . . اعطوني حقوق الفرد فى الدولة ألغيا ، واعطوني الدول الصغيرة أدوسها ، والدول الكبيرة أمزقها . . . وقواعد الطمانينة فى الأرض كلها أزعرعها وألقى القزع والقوضى والمصير المجهول فى مكانها . . . اعطوني كل ما نتمنّون ولا تسألونى ماذا تأخذون ! . . . لأننى آخذ ولا أعطى : آخذ الحرية التى عندكم ولا أعطى القوة التى عندى ، أو آخذ رجاءكم فى الحرية ولا أعطى رجاءكم فى القوة . إذ هى لى وحدى لا أعطيها أحدا حتى بين الألمان خلاصة بنى الإنسان . . . فكيف يعطاها غيرهم من الخلقين للطاعة والهوان ؟

يقول هتلر للعالم : اعطوني الحرمات والحقوق لأن ألمانيا لا تعيش فى الدنيا وللدنيا حرمات وحقوق ؟

فهل يصدق فيما يقول ؟ كلا . بل هو يكذب ويلغو . فما فى الأرض أمة تعيش قريرة راضية والدنيا مسلوبة الحرمات والحقوق .

وهبوه مع ذلك صادقا فعلام يدل صدقه ؟ يدل على أن مصلحة المانيا ومصلحة العالم تقيضان ، وان العالم لن يستريح وللألمان سطوة وشنان .

والواقع ان العالم — كذب هتلر أو صدق — لن يستريح والسطوة الهتلرية قائمة والدولة النازية دائمة .

فقضية الانسان اليوم هي أن تنهزم المانيا الهتلرية الهزيمة المبهمة التي لا قيام بعدها ، لأن انتصارها هو انتصار لمطالبها التي تبغها : ومبادئها التي تدن بها ، ومطالبها الصريحة التي لا تكتمها هي استغلال الشعوب الأخرى وإبترازها ، ومبادئها الصريحة التي تبشر بها هي سيادة القوة بينها وبين الدول ، وسيادة القوة بين الحكومة والرعية . . . وهل لأحد أن يطمع من حكومة ألمانية في حرية أوسع من الحرية التي يؤذن بها لأبناء المانيا نفسها ؟ كلا . فما للحرية وجود في عالم يسوده فرد مقدس معصوم يطلب من الناس ما لا يطلبه الخالق من المخلوقات .

كل ما هنالك مبادئ القوة ، ومعنى مبادئ القوة إلغاء التفاهم والتعاقد في السياسة الخارجية ، وإلغاء الشورى والانتقاد وضمان الحقوق والأرواح في السياسة الداخلية . فلا شيء غير طغيان السيد وإذعان الضعيف المحكوم لإذعان المستسلم الصامت الذي لا ينبس بشكاية ، ولا يطمع في إصغاء .

ليس يكفي أن تخرج المانيا من الحرب وقدقاتها النصر والاستعلاء ، بل يجب أن تخرج منها مهزومة عاجزة عن التهديد .

لأنها إذا ملست زمام التهديد بعد الحرب لم يلبث العالم أن يعود إلى ما كان فيه من الفرع الدائم والتسابق الأهوج في مضمار التسليح ، وأن يسرف إسرافه المهك في أهبة الهجوم والدفاع . فتذهب موارده في أعداد عدة التدمير ثم تضيق هذه الموارد بكل عمل مفيد من أعمال البناء والتعمير . ويعانى أبناء

الأمم جميعا ما كانوا يعانونه من الكساد وارهاق النفقات ، بغير أمل في تبديل هذه الحالة

ولا موضع المفاضلة بين خروج ألمانيا منصوراً أو موفورة القوة وبين خروج الحلفاء منصورين قادرين على المقاومة
فأقل ما يُرجى من انتصار الأمم الديمقراطية أن تبقى حالة الحرية كما كانت في السنوات الأخيرة ، وهى حالة أكرم وأسلم من كل حالة يتوقعها العالم بعد تسليط الألمان عليه

هذا أقل ما يرجى من انتصار الأمم الديمقراطية . أما أكبر ما يرجى من انتصارها فهو اتساع آفاق التفاهم والتعاون بينها وبين الأمم الضعيفة ، وهى خطة صالحة للأقوياء والضعفاء على السواء : يظفر منها الأقوياء بمودة لا يستهان بها وتخفيف فى النفقات الحربية هم أحوج ما يكونون اليه ، ويظفر منها الضعفاء بالعضد الذى يريحهم من أعباء الدفاع ، ويتيح لهم أن يوجهوا أموالهم وأرزاقهم وجهة الإصلاح والتعمير

وقد يخطر على بال جاهل أن خروج الدول الديمقراطية من الحرب مضغمة خائفة أصلح للعالم وأجدى على الأمم الضعيفة

فهذا الخاطر سخيف مأفون . لأن الدول المضغمة الخائفة لا تضمن تقرير السلام وإخافة المتربصين المتوثبين للشر وهم كثيرون : منهم المستبدون الذين تجنبوا الحرب فصانوا قوتهم للارهاب والنهب بغير حساب ، ومنهم الشيوعيون الذين يرقبون يوما يفرضون فيه مذاهب الهدم والكراهية على جميع الشعوب ، وأى فرصة ينتهزونها لترويج مذاهبهم كالفرصة التى يجدونها وهم آمنون سطوة الدول الديمقراطية الكبرى ؟ لعلهم يصيبون بين شعوب تلك الدول قسما تربة صالحة لالتقاء بذور الفتنة والتمرد والانتفاض ، متى وجدوها مضغمة خائفة

لا تقوى على إخافتهم ولا على علاج المشكلات المتراكمة في داخل بلادها
وقد يخطر لأحد أن مذاهب المذم والكرهية تشقي أناسا وتسعد
آخرين.... فإن كان المقصود أنها تسعد الحاكمين بأمرهم فذلك صحيح. أما إن كان
المقصود أنها تسعد الأيدى العاملة فليس أفضل من هذا الخاطر بشهادة العيان
فقد اتسع مجال التجربة للطغاة الشيوعيين جيلا كاملا فماذا صنعوا ؟ وماذا
أقاموا على الطبقة الفقيرة من فلاحين أو صناع؟ جمعوا على رأسها من الذل والارهاق
ما لم يجتمع في أمة حاضرة ، وجعلوا الدولة صاحبة رأس المال وصاحبة المرافق في
داخل البلاد وخارجها ، فأصبحت الطبقة العاملة من أجل ذلك محرومة حقها قبل
رأس المال وأصبح الاحتجاج أو الاضطراب في هذه الحالة تمردا على الدولة وخيانة
عظمى يعاقب عليها بالموت أو بالسجن الطويل ، وأصبحت السلطة التي يشكو منها
العامل هي السلطة التي يشكو اليها . بل أصبحت روسيا كلها سجنا كبيرا
لا يباح الخروج منه ولا الدخول اليه إلا كما يباح الدخول والخروج في السجون
ولا يكتم الشيوعيون هذا الاخفاق الذي لا سبيل إلى كتمانها ، فهم يعترفون
به ويردونه إلى كل سبب غير سببه الصحيح ، وهو سخافة المذهب الذي يجعل
تاريخ الانسان كله تاريخ « بنك » أبدى لا محل فيه لغير أطوار النقد وأسعار
المصارفات ، ولن يفقهوا هذا ولن يرجعوا عنه . لأن المسألة عندهم مسألة شهوة
لامسألة فكرة ، وهي في قلوبهم حقد على المحسودين وليست رافة بالمحرومين .
وسيمنون أنفسهم ما استطاعوا أن يهزم العالم ويتضعع فيتاح لهم الأمل المنشود ،
ويذكروا يومئذ ما لم يدركوه بعد الحرب الماضية التي خرج منها الظافرون وهم
متناسكون غير مضعضعين

* * *

ولهذا نقول أن قضية العالم هي انهزام المانيا وانتصار الدول الديمقراطية

وكما نقول أن كل نتيجة دون هزيمة ألمانيا لا تكفى ، نقول كذلك أن كل نتيجة دون انتصار الديمقراطية لا تكفى . لأن الشيوعيين والمستبدين هم المستفيدون دون غيرهم من هزيمة الديمقراطية أو من انتصارها على أعدائها انتصارا لا تحميه

إن النازيين يتقربون الينا نحن الشرقيين بحجة غريبة ، ويتقربون الى الأمم الأخرى بحجة أغرب وأدعى الى الريبة
أما الشرقيون فيذكرون لهم الشكايات التى يشكوها من الدول الديمقراطية ، والقضايا الوطنية المعلقة بين تلك الدول وبعض الشعوب العربية والشرقية
ومهما يكن من شأن هذه القضايا والشكايات فما لانزاع فيه أن المرء لا يحمى جرائم السل لأنه يشكو الزكام ، ولا يرضى بصولة النازيين وطريقتهم فى حكم البولونيين والتشكيين والنسويين والمولنديين وأبناء الشمال ، لأنه يلقى ما يسوءه من الدول الديمقراطية

فإن الفرق بعيد جدا بين من ينكر الحرية أصلا وفصلا وبين من يعترف بها ويماطلك فيها ، أو يخالفك فى مقدارها
ولا أمل على الإطلاق فى حرية أورخاء مع النازيين ، ولا يأمن على الإطلاق من بلوغ الحرية والرخاء مادامت للديمقراطية حجة قائمة

ما من شرقى يرضى للشرق بما دون الانصاف الشامل والحقوق الوافية ، وسيلبغ أبناءه لا محالة ما يتوقون اليه من انصاف ومنعة بفضل الجهود التى يقوم بها رجال كل بلد على حدة ، وفصل الجهود التى يتعاون عليها رجال الأمم العربية كافة . فمطلب الحرية والانصاف للأمم الشرق مطلب مفروغ منه ، ولا جدال فيه

إلا أننا حين ننظر الى النزاع الاوربي إنما ننظر الى المسألة من جانب الموقف الحربى والسياسة الخارجية ، وهى لا يمكن أن تكون إلا على وجه من وجوه ثلاثة : أن تقف الأمم الشرقية وحدها ، أو تقف الى جانب النازيين ، أو تقف الى جانب الحلفاء

فالوقوف وحدها فى حومة هذا النزاع العالمى لا يتأتى . اذ ليس فى أمم الشرق الأدنى أمة أقوى من فرنسا وهى لم تستغن عن المعونة الانجليزية ، ولا أقوى من بريطانيا العظمى وهى لم تستغن عن المعونة الفرنسية

وحسبنا أن تنخيل تركيا وقد وقفت أمام روسيا وألمانيا ونظرت الى خلفها فلم نجد من يحمى ظهرها ويملك العدة اللازمة لنصرتها . فإذا يسمها أن تصنع ؟ وماذا يكون المصير إلا أن يطفى الروس والألمان ومن معهم على كل أرض فى طريقهم ليقسموها أو يقتتلوا عليها ؟

بقى الوقوف الى جانب الحلفاء أو الوقوف الى جانب النازيين ، ولا ترددى المفاضلة بين الموقفين : قوم يسلون الحق ويؤجلون مواعده ، وقوم ينكرون كل حق لمن عدام فى خيرات الدنيا ولا ينتظرون من الساميين خاصة الا الخضوع لسيادة الآريين ، بغير أمل فى الخلاص أو فى تبديل الحال ، إلا أن تتبدل الأجناس ... وهيهات !

فالأمم الشرقية لاتعرف مصيرا هو أولى بخشيتها واتقائها وضياع آمالها من مصيرها مع النازيين ، إذا ملكوا زمامها بوسيلة من وسائل القتل والارهاب

أما الحجة التى يتقرب بها النازيون الى العالم مسوغين بها مطامعهم وملطفين بها من شرور عدوانهم فى أنهم لا يصنعون اليوم إلا ما صنعه الانجليز والفرنسيون فى الاجيال الماضية ، فلماذا يجوز الفتح للانجليز والفرنسيين ولا يجوز للنازيين ؟

ولماذا تنهأ بريطانيا العظمى مثلاً بالسيطرة العالمية ولا يفلها النازيون عليها ؟
فإذا سلمَ العالم هذه الحجة وجب أن يطلق الأمل في التقدم والتفاهم والسلام
أبد الآبدين ، وأن يجعل السيطرة العالمية قبلةً لكل دولة تشعر بالقوة وتمتدّ بالعدد
والعدة : يوم للامان ويوم للروس ويوم للطلّيان ويوم لأهل اليابان أو الصين أو
من شئت من البلاد ، ولا راحة للعالم في هذا الرجراج الصاعد الهابط بين قوم
قد استعدوا وقوم يستعدون ، أو بين عدة أقوام مستعدين في جيل واحد . . .
وذلك هو الجحيم بعينه للظافرين والمظفور بهم أجمعين
والحقيقة أن السيطرة على العالم خرافة أغبياء وستظل خرافة أغبياء إلى
آخر الزمان

والناس لا يملكهم واحد
مهما علا في ملكه واستطال
كما قلنا في توديع غليوم الثاني الذي ركب العرور قبل ربع قرن كما ركب
المتلربين في هذه الأيام
فالدنيا لا تسودها دولة في العصور الحديثة وإن تسودها دولة في العصور
المقبلة ، وما سادتها بريطانيا العظمى في أيامنا هذه ولا في أيامها الماضية . وأخرى
بالمستقبل أن يجرى على سنة أقوم من هذه السنة مادام للحضارة معنى والمصالح
المشتركة قدرة على كبح من يعدون عليها ، طمأنناً في سبيل الفتوح ، أو إشاراً
لمصلحة دولة واحدة على المصالح جمعاء
والأمم التي تدخل في الدولة البريطانية إما مستقلة كإفريقيا الجنوبية وكندا
واستراليا وزيلاندة الجديدة ، وربما كان سلطانها على لندن أكبر من سلطان
لندن عليها

وإما تابعة كالمستعمرات الإفريقية وما شابهها وليست سيادة الأنجليز لها
دليلاً على سيادتهم للعالم ، لأن البلجيكين والاسبانيين يملكون مثلاً . ولا ينفع

النازيين عند هذه الأمم أن يُجلى الانجليز عن أرضها . فاتها متى استطاعت
اجلاءهم فلن تفعل ذلك لتركع تحت أقدام النازيين ، وتقبل السيطرة ممن
يحسبون الأمم الأفريقية في زمرة القردة

و بين الأمم المستقلة والأمم التابعة أمم كأهل الهند يتقدمون في طريق
الاستقلال ، وقد تكون للنازيين مصلحة في الحلول من أهل الهند محل الانجليز...
ولكن ما هي مصلحة أهل الهند ؟ وما هي مصلحة العالم ؟ وما هي مصلحة الأمم
الغالبية أو الدول المغلوبة ؟ وما هي مصلحة الأمم الواقعة في الطريق ؟

على أننا لم نذكر الهند لنقرر هذه الحقيقة . فهي غنية عن التقرير ، وإنما
ذكرناها لنقول ان الحالة الحاضرة في الهند لا ترجع إلى العوامل الخارجية كما
ترجع إلى العوامل الداخلية ، وان بريطانيا العظمى لورفت يدها اليوم عن تلك
البلاد لما زالت جميع الحوائل بينها وبين قيام الحكومة الوطنية الشاملة ، ولا
قاربت الزوال

فهناك الأمراء الحاكمون في ولاياتهم وهم لا يتفقون ولا يرضون أن يحكمهم
مجلس في عاصمة بعيدة عن عواصم الامارات

وهناك المسلمون وهم كثرة في بعض الأقاليم وقلة في بعض الأقاليم الأخرى ،
ولو شملتهم حكومة واحدة لأصبحوا قلة ضائعة في جميع الأقاليم

وهناك المنبوذون وهم عشرات الملايين ينظر اليهم البراهمة نظرتهم إلى الرجس
الذي يفرقون من ظله ، ولا خير لهم في حكومة تضمهم هذا الوضع وتهملمهم
هذا الاهمال

وهناك اختلاف الأقاليم في الأجناس واللغات والأديان وعناصر الثروة
ومعادن التربة الزراعية ، مما لا يجتمع نظيره إلا في قارة من القارات الكبار
فسألة الهند المضال ليست مسألة السيادة الخارجية وحدها ، سواء كانت

عالمية أو مقصورة على بعض أجزاء العالم ، إذ لو فرغت كل سيادة عالمية في الدنيا لما فرغت المسألة الهندية ، بل لعلها تبدأ يومئذ من جديد

وأما المسألة في الهند أنها محتاجة إلى الانجليز كاحتياج الانجليز اليها ، وانها لا تنحسر إذا حالفت الانجليز مخالفة استقلال وكرامة ، كما تنحسر إذا انفصل الفريقان دفعة واحدة

فالعلاقة الوحيدة الصالحة للتوفيق بين أمتين في زماننا هذا هي علاقة المصالح المشتركة والمعونة المتبادلة ، ولو كانت بريطانيا العظمى أقوى مما هي اليوم اضعافا مضاعفات لما استطاعت أن تقيم علاقاتها مع الأمم المتصلة بها على غير هذا الأساس

أما السيطرة على العالم في زماننا هذا فأوجز ما نقول فيها أنها خرافة أغبياء ، وأنها قد بطلت اليوم كل البطلان ، ونرجو أن يكون بطلانا سرمديا لاروجة فيه

وهنا مفترق الطريقتين في قضية اليوم :

طريق الايمان بالقوة الحيوانية تبقى اليوم كما كانت بالأمس وتبقى إلى آخر الزمان كما كانت في أول الزمان ، فلا تبديل لها ولا رجاء في التبديل ولا خير فيه لو كان إلى تحقيقه سبيل ، وسيسود القوى العالم وينبغى أن يسوده وألقه راغم . ولا عبرة بما يتعلل به طلاب المثل العليا من الآمال والأحلام

وهذه طريق النازيين

وطريق الايمان بشريعة في الحياة غير شريعة القوة الحيوانية : وهي شريعة الحق والانصاف والأمل في تقدم الانسان إلى سنن في المعاملات بين الأمم والافراد وراء سنة الكهف والغابة

وهذه طريق الديمقراطيين

ويقول النازيون أن شريعة القوة حقيقة لا ريب فيها ، وأن الانسان لا يغالط نفسه في وجودها إلا لعلته على حد قول أبي الطيب . فالدول الديمقراطية تنادى اليوم بشريعة القوانين والعهود وتنكر سياسة البطش والارهاب لأنها شبت وامتلات فلا حاجة بها إلى مزيد من السطوة والسيادة ، والأمم الضعيفة تنادى بشريعة القوانين والعهود لأنها تطمع في المساواة بينها وبين الأقوياء على أحكام هذه الشريعة

وكل ما يقال عدا ذلك فهو كاذب وأوهام

وعندنا أن هذا القول على فرض صحته لن ينفع النازيين ولن يشفع لهم بين يدى العالم . فإذا كانت المسألة كما يقولون مسألة مصلحة وليست بمسألة حق ، فقد كفى خذلاناً لقضيتهم أن تكون مصالحهم هم ومصلحة العالم تقيضين ، وأن يكون نجاحهم أول خطوة في خذلان من عداهم من شعوب الدنيا ، حتى شعوب الدول التى ندين بالقوة ولا تدين بالعدل والانصاف ، فان نجاح النازيين يضير تلك الشعوب كما يضير الدول الديمقراطية الكبرى ويضير المستضعفين

على أن المسألة هنا ليست مسألة مصلحة وحسب كما يقول النازيون . فشريعة القوة وشريعة الحق موجودتان لاشك فيهما ، والخصومة بينهما قائمة على أمور مشهودة وليست قائمة على أوهام وأكاذيب ، واحتياج الحق إلى القوة لا ينفى هذه الحقيقة ، لأن القوة أيضا تحتاج إلى الحق فى عملها وفى دعواها

ونحن لانكر شريعة القوة والارهاب وننصر شريعة العدل والقانون لأننا أمم ضعيفة تحسب حساب مصلحتها كما يقول النازيون ، بل نحن ننكر تلك وننصر هذه لأن بينهما فرقا صحيحا بل فوارق جمة فى جميع الأمور : فوارق يجب أن يحرص عليها القوى كما يحرص عليها الضعيف ، ويظهر أثرها فى الضمائر

والأخلاق والمقول كما يظهر في المرافق التي تتناولها السياسة خارجية كانت أو داخلية.

وفيما يلي تلخيص بعض هذه القوارق التي تدعونا إلى تفضيل شريعة القانون على شريعة القوة ، أو تفضيل الديمقراطية على النازية وما إليها ، سواء بلغنا شأن القوة العسكرية أو فنحن بما نحن فيه

بداية القضية

إن قضية الحرية الانسانية لم تُطرح للفصل فيها اليوم في إبان الحرب الحاضرة
أو أثناء الأزمات المتعاقبة التي تقدمتها

ولكنها طُرحت للفصل فيها منذ بضع عشرة سنة ، أى من اليوم الذى.
نصدى فيه المستبدون للحكم وهم يعلنون جبهة أنهم يستبدون لأن الاستبداد فى
الحكم هو الواجب وهو الصواب ، وأنه هو النظام المفضل على نظام الحرية فى كل
شعب وفى كل آونة ، ولم يقولوا كما كان يقال من قبل أن الاستبداد
ضرورة موقوتة الى أيام معدودة ، ثم تعود الحرية الى مجراها وترجع الشعوب
الى شوراها

يومئذ بدأت قضية الحرية الانسانية فى القرن العشرين ، ووجب أن يتوقع
الناس النهاية من تلك البداية

وبدا لنا يومئذ أن نعالج الموضوع من نواحيه القريبة اليينا عسى أن ننبه ولو
الى بعض الخطر ، وأن نجعل ولو بعض الشبهات . فكتبنا رسالتنا عن « الحكم
المطلق فى القرن العشرين » وصدرناها بفصلين نعيدهما فى هذا المقام ونحن نقارن
بين الاستبداد والحرية ، لأن وجه المسألة لم يتغير بين أمسه ويومه ، ولم تزل

الدعاوى هى الدعاوى والآراء هى الآراء ، سواء من جانب الحرية الانسانية أو
من جانب الطفيان

بدأنا الرسالة بفصل سألنا فيه : « هل فشلت الديمقراطية ؟ » ثم أجبتنا
السؤال بفصل تال عنوانه « لم تفشل الديمقراطية » . . . وهذان هما الفصلان
ننقلهما توطئة للمقارنة التى سنعتقدا بين الديمقراطية والنازية على النحو الذى تمثل
فى النزاع الحاضر، ونرجو أن نصل بذلك بين بداية القضية قبل بضعة عشرة سنة
وبين أعقابها التى استطردت إليها فى هذه الآونة

هل فشلت الديمقراطية

كان الاستبداد المطلق مقدساً في زعم رجال الدين الذين كانوا يستعينون به على حفظ مكانتهم وقضاء ما رزهم ، وكان هو يستعين بهم على تقرير نفوذه وشمول سلطانه على الضمائر والأجسام ، وكان لحق الحكم مصدر إلهي يتلقاه الحاكم المستبد من السماء فلا يسأل عنه ولا يكون للشعب إلا أن يطعمه كما يطعم خالقه ، ويؤمن بحكمته التي تخفى عليه كما يؤمن بأسرار حكمة القدر . فالحكومة رسالة سماوية معصومة على هذه الأرض الخاطئة ، والشك في الحكومة كالشك في العقيدة . . . كلاهما كفر يعاقب عليه بالحرمان السرمدى من رحمة الله

كان هذا هو مصدر الحكومة المستبدة الى ما قبل القرن الثامن عشر . وكان الايمان به عاماً شائعاً لا يشك فيه إلا أفراد معدودون من أحرار الفكر يخفون آراءهم كما يخفى المجرم جريمته والآثم وصمة عاره ، فلما انتقل سلطان الحكم من المستبدين الى مشيئة الشعوب انتقلت القداسة معه الى المصدر الجديد ، وأصبح حق الحكم مقدساً — مرة أخرى — من طريق الشعب لا من طريق الصوامع والكهان . وتغير النظام القديم ولم يتغير قلبه الذي صنعتته العادات المتأصلة والمصالح المتشعبة والمقائد للورثة

وربما بدأت هذه القداسة الشعبية على سبيل المجاز في التعبير يلجأ اليه دعاة النظام الحديث للمقابلة بين أساس الحكومة الفائرة وأساس الحكومة الحاضرة ، ثم أضيفت الى هذا المجاز حماقة الفكرة الناشئة وروح الأمل في المستقبل ، والنقمة

على الماضى . فأصبحت القداسة الحديثة عقيدة فى الضمير يشوبها من الابهام كل ما يشوب العقائد التى تستعصى على متناول العقول

أصبحت الديمقراطية عقيدة مقدسة فى العرف الشائع فجاءها الخطر من هذه الناحية فى عصر الشك والسخرية من جميع « المقدسات » . . . وسمع الشاكرون والساخرون بهذه « المقدسة » الجديدة فعملوا أن هناك شيئاً طريفاً يظهر ون فيه براعة التفنيد وقدرة التصغير والتقييد ، فأسرعوا إليه فى جد ووقار ، وأعنتوا أنفسهم كثيراً ليقولوا ان الديمقراطية شئ لم يهبط على الارض من السماء وأن القداسة هنا مجاز لاحقيقة له فى العلم والاستقراء ... فكان الجاحدون لقداسة الديمقراطية والمؤمنون بتلك القداسة المنزهة عن الشوائب بمنزلة واحدة من الفهم والسداد ، لأن قداسة الديمقراطية لم تكن مسألة علمية ينحسرها الناقدون المحصون على هذا الاعتبار من جانب القبول أو من جانب الانكار ، فالذين يضعونها هذا الموضع ينظرون إليها من أضيق حدودها التى يعرفها المجازيون والجهلاء ولا ينظرون إليها من أوسع الحدود التى يحيط بها من يعرف حقيقتها ويقيسها بمقياسها الصحيح . وإذا كان التكلم الذى يقول ان الماء العذب شهد حلو المذاق مخطئاً فى صيغة التعبير العلمى فأشد منه امعاناً فى الخطأ والنفلة عن الحقيقة من يحمل الماء العذب إلى المعمل الكيمى ليثبت أن الماء ماء وليس بشهد حلو المذاق ، كما يقولون فى لغة المجاز

فى أواخر القرن التاسع عشر ظهرت « السيكولوجية » أو علم النفس وتفرعت فروعه وكثر الاشتغال بتطبيقه على الأفراد والشعوب ولعل أغرب ما استقر به الناس من قضايا هذا العلم وصفه لأطوار الجماعات والأساليب التى يُجرى عليها فى تكوين عقائدها وتوجيه أهوائها وتسيير

حركاتها واثارة خواطرها . فقد جاء هذا الوصف بعد شيوع الديمقراطية في العالم الحديث بأكثر من جيلين ، فلاح لمعظم الناس كأنه غريب وكأنه مخالف للمقرر في الأذهان أو لما يجب أن يتقرر في الأذهان ! ولو أنه جاء قبل ذلك بمائتي سنة أولو أنه تقدم في عصر الإصلاح مثلاً لما وقع من الأفكار موقع الغرابة في شيء ولا أحاط به ذلك السحر الذي يحيط بكل هجمة مخالفة للمألوف ، ثم لجأت الديمقراطية حتماً في سياقها الطبيعي دون أن يتخيل إلى أحد أن حقائق علم النفس تمارض الحكم الديمقراطي أو تمارض حكم الشعوب . لأن الديمقراطية كانت نتيجة لازمة لفساد حكم الاستبداد ولم تكن نتيجة لجعل الناس بالسيكولوجية وخطئهم في تفسير حركات الجماعات . فلو علم الناس في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر أن حركات الشعوب غير مقدسة ولا مزهية عن عيوب الطبيعة البشرية لما كان ذلك مانعاً لوقوع تلك الحركات في أوانها ولا واقعاً للأظمة العتيقة من التداوى والسقوط . ولكن «السيكولوجية» ظهرت بعد الديمقراطية فنشأت غرابتها من ثمّ وكان استغراب الناس إياها وهما متولدأ من الوم القديم الذي تطرق إليهم من تقديس الشعب بعد تقديس العواهل المستبدين . فلولا الخرافة الدائرة خرافة المستبدين الألهيين لما وجدت خرافة الشعوب الألهية ولا اتخذت أطوار الجماعات التي استعرضتها مباحث العلماء النفسيين دليلاً على بطلان الديمقراطية ، ولا قيل إن نظامها قائم على أساس واهن لأنه قائم على مشيئة الشعوب وهي مشيئة لا توصف بالمعصية . وقد يما عرف الناس من أطوار الأفراد أنهم يطعمون ويستأثرون وأنهم ينفقون للهوى ويخضعون للشهوات وأنهم عرضة للخطأ الكثير والضللال البعيد وأنهم غير معصومين بحال ، فلم يكن هذا العلم بأطوار الأفراد هو الذي قضى على حكومة الفرد ، ولم تنقوض النظم الأولى الا حين تعذر التوفيق بينها وبين أحوال الرعايا ومطالب الأمم .

لم تنقُص على الديمقراطية سنوات حتى خيبت آمال الحالمين فيها وخيبت
آمال أولئك المظلومين الذين صوروا زمانها المترقب في صورة الفردوس الأرضي
أو العصر الذهبي الذي تغنى به الشعراء وتحدثت به الأساطير . فلا ظلم ولا
اجحاف ولا تمييز بين القوى والضعيف أو القريب والبعيد : كأنما صوت الشعب
المنطلق من غيابات الأسر نعمة ساحرة كنفات «أورفيوس» يتجاور في سماعها
الليث والحمل والضاريات والنقاد ، ومتى كان كل هذا منتظراً من الديمقراطية
فلا جرم ينبغي فيها الظن ويحكم عليها الحاكمون بالقتل بعد أول صدمة مع وقائع
الحياة وعثرات التجربة الأولى ، وهي لا تخلو من النقائص ولا تسلم من الاضطراب
فلم يكن أقسى على الديمقراطية ولا أظلم لها من غلاة المؤمنين بها الذين
كانوا يكلفونها مالميس يكلفه نظام في هذه الدنيا . أية كانت قواعده من الصحة ،
ونيات القائمين به من الصلاح

هذه كلها أسباب يصح أن تسمى بالأسباب المصطنعة للشك في حقيقة النظام
الديمقراطي والأخذ فيه بالعرض دون الجوهر المقصود

على أنها ليست بجميع الأسباب المصطنعة التي يمكن أن تعدد في هذا المقام .
فهناك أسباب مثلها دعت إلى الشك في حكومة الشعب قلما تتجاوز العرضيات
إلى دخائل الأمور... فمنها أن عيوب الحكومة الشعبية مكشوفة ذائعة للاستفاضة
علاقاتها واشتراك المئات والألوف في دعواتها وأعمالها . فليس لها حجاب من
الفخامة والروعة كذلك الحجاب الذي كانوا يسترون به عيوب الحكومات
للمستبدة ويتعاون فيه الكهان والمداح والبلاطيون على التزيين والتزويق ، وخلق
بهذا التكشف أن ينفض من فضائلها بعض الشيء

وان مجرد القول بان الشعوب لا تصلح للديمقراطية لدليل على أنها درجة
عالية يجب أن تتوجه إليها آمال المصلحين وطلاب الكمال ، في حين أن القول

بجبل الشعوب واضطرابها من أجل ذلك إلى الحكم المطلق دليل على مصلحة
الحكام المطلقين في بقاء ذلك الجبل وتخليد هذه الحالة التي بها يخلدون

ومما يضعف جانب الحكام المطلقين في دعوتهم هذه أنهم يعيرون على
الجاهير أطوارها ليتخلصوا من ذلك إلى تركية الحكم الدكتاتورى أو الحكم
المطلق ... مع أن التجارب الكثيرة — والتجارب الحديثة منها على الخصوص —
قد أظهرت أن الدكتاتورين الصالحين هم رجال الشعوب وثمره تلك الأطوار ، وأن
الجاهير لا تعوزها البديهة التي تقطن بها إلى مقدرة القادة وتوليهم إعجابها وتخصم
بثقتها وأقبالها وتسلمهم زمامها حتى حين يجترئون على عاداتها التي تغار عليها
وتغضب للمساس بها إذا مسها من ليست له تلك القدرة وذلك الإعجاب . فإذا
احتاجت الجماهير إلى المصلح النافذ في إصلاحه فليس أقدر على هذا المطلب من
زعيم شعبي تبرزه البديهة الشعبية ، ولا أسرع منه في حث غريزة الامم ومغالبة
ما فيها من العيوب ، وكأن هذا المصلح هو الزوج المحبوب الذى يطاع لأن طاعته
سرور ويقاس مقدار حبه بمقدار المشقة التي تبذل في اطاعة أمره . وقد يكون
الزوج زوجا بالصيغة الرسمية ولكنه لا ينال هذه المكانة ولا يأمن الرياء والخيانة
إذا تكفلت له الصيغة الرسمية بالطاعة الظاهرة .

وعبث ولا ريب أن تعاب أطوار الجماهير وأن يقتصر الأمر فيها على النقد
والزراية وهى هى الاطوار التي لازمتها في كل ما تمخضت عنه الانسانية من
الثقافات ، وفي كل من تمخضت عنهم من الدعاة والمصلحين

فأصلح الطبائع لاهياء الشعوب هى الطبائع التي بينها وبين الشعوب مجاورة
في الشعور ومسالجة في عناصر الحياة . وإذا كانت الشعوب تخطئ في عرف
العلماء فليس عرف العلماء هنا هو المقياس الذى يرجع اليه في تقدير الدوافع
والنتائج ، لأن الطبيعة لا تستشير العلماء فيما تعمل وفيما تريد . بل ليس العلماء

أنفسهم بنجوة من الخطأ على حسب مقياسهم ، لأن أخطاءهم قديما وحديثا في تصور الحكومات النافعة أكثر وأكبر من أخطاء الشعوب كلها مجتمعات .

للديمقراطية عيوبها ولكنها عيوب الطبيعة الانسانية التي لا فكاك منها . وقد يكون لهذه العيوب في مجموع الحضارات الانسانية فضل كفضل الحسن . المصطلح عليها إن لم يزد عليه

ولا تقارن الديمقراطية بحكومة المثل الأعلى المنشودة في الخيال والموصوفة في الاحلام . إذ هذه الحكومة لا موضع لها في عالمنا ولن يكون لها موضع . ولكنها تقارن بالنظمة الأخرى في جهاتها وينظر الى عيوبها بصدق وإخلاص وتقدير لجميع الظروف فلعل هذه العيوب بعض لوازم الحسنات التي لا يستغنى عنها أو لعلها طارئة يزيلها المزيد من الديمقراطية . . . إذ كان من الحق أن محاربة الديمقراطية لم تر لها فيما مضى ولا يرجى أن تزيلها فيما بعد

وكذلك لا يصح أن تقيس الديمقراطية على أسس الأغراض التي أعلنها دعاؤها والآمال التي عقدوها عليها لان هؤلاء الدعاة لم يخترعوها ولا يتأتى لهم أن يحدوها ويسيطروا عليها — وإما تقاس مزايها بالضرورات التي أدت اليها أولاً ثم بالفوائد التي نجمت عنها فملا ولا تزال تنجم : فهي بلا ريب قد أوجدت للمصيبات الحزبية مخرجا غير الفتن الدموية ، وأقنعت الشعوب بأن عليها تبعه في الحكم وأنها قادرة على تبديل الحكم ، فضعفت فيها نزعة الثورة بقدر ثقتها من الاشتراك في الحكومة والقدرة على تبديلها ، وهي في مدى خمسين سنة قد صاحبت في عالم الصناعة والعلم تقدما لم تبلغه الانسانية في خمسين الف سنة ، وكلما ازداد هذا التقدم صعب على الناس أن يؤمنوا بتلك الخرافة التي كانت تهيب لفرد واحد أن يملكهم له ولا بنائه هن بعده ملك السيد للعبيد .

* * *

يقول بعض الباحثين — (ومنهم الاستاذ ساروليا الذى ألقى محاضراته فى هذا الموضوع على طلبة الجامعة المصرية) — إن الحكم النيابى تراثٌ إنجليزى غير قابل للتعميم فى الأمم الأخرى . ويضرب « ساروليا » المثل بالأمة الفرنسية التى لا تستقر فيها الوزارات طويلا لاختلاف الأحزاب وصعوبة التوفيق بينها إلى زمن طويل ، ويعتبر ذلك الاختلاف من أعراض الحكم النيابى ومن الدلائل على أنه لا يصلح لكل أمة... ولو كان الحكم النيابى هو الذى خلق العصبية الحزبية فى فرنسا لكان قول الاستاذ وأمثاله صحيحاً فى هذا المعنى وكانت فيه حجة من بعض الوجوه على الحكومة النيابية ، ولكن الواقع أن العصبية الحزبية لم تنفأ تمزق فرنسا كل ممزق فى عهود حكامها المطلقين ، ولم يخلُ جيلٌ واحد فى تاريخها من فتنة على وراثته العرش أو فتنة على المذاهب الدينية أو فتنة على التحط والافلاس أو نزاع بين التاج والنبلاء أو حروب تثار لاختفاء هذه المنازعات ، حتى توطدت فيها الديمقراطية فأنحصرت « العصبية » فى مناوشات الأحزاب وسكنت الثورات وبطلت المجاعات ، ولم يمنحها اختلاف الأحزاب أن تهاجم بعد الحرب العظمى وأن تستفيد من سمعة الديمقراطية أنصارا لا ينكر أفادتهم لها مفكر ، وأن توسع مستعمراتها وقد كانت تفقدها فى عهد الملوك الشموس ، وأن تكون هى وزميلاتها المنتصرات عنوانا لانتصار الحرية الشعبية وآية على أن حكومات الشعوب تحتمل من الصدمات ما لم تحتمله حكومات القياصرة والطفاة . فأنكسرت روسيا والنمسا وألمانيا وكان نصيبهن من التماسك بعد الحرب على قدر نصيبهن من الحرية والمشاركة فى الشؤون العامة بين الشعب والحكومة ، وخرجت الأمم من تلك المحنة بعبرتها التى لاتضيع

وقد فعل تراث الحكم النيابى فعله فى إنجلترا كما فعله فى الأمة الفرنسية ، فوفاها الثورات والخصومات الدامية وكانت وشيكة أن ترتطم فيها مرتين فى

القرن التاسع عشر عند الخلاف على تقسيم الدوائر الانتخابية وتعديل شروط الانتخاب ، وهو في جوهره أشد من الخلاف الذى أفضى إلى الثورة الجائحة في عهد الاستبداد

ومن النظريات التى أذاها بعض المؤرخين — وفي طليعتهم فلندرس بترى العالم المشهور فى الأثرىات المصرية — أن الحكومة الشعبية كانت هى الدور الأخير من أدوار الدول فى التاريخ القديم ولا سيما تواريخ الدول المصرية : يبدأ الدور بفاتح عظيم ثم يضيف الفاتح العظيم فينازعه الحكم أفراد القادة الغالبون ، ثم يضعف هؤلاء القادة ويستسلم أبناؤهم للترف والصغائر فتثور عليهم العامة وتتولى الأمر الحكومة الشعبية ، ثم يسطو عليهم مغير جديد فيبدأ الدور الأول مرة أخرى... وهكذا دواليك عصاراً بعد عصر فى سجلات القراعنة ومن جاورهم من المشاركة والمغاربة .

فإذا صح هذا فهو مختلف مما نحن فيه اليوم . لأن الحكومة الشعبية كانت فى التاريخ القديم فترة منفردة تقع فى إحدى الدول ثم لا تكون الدول المحيطة بها مجارية لها فى تلك الفترة ، بل ربما كانت فى بداية الدور الأول — دور الفاتح العظيم — فتحدث الغارات من ثم وتتجدد الأدوار . أما اليوم فالحكومة الشعبية حركة عامة ومبدأ مشترك وليس بالفترة المنفردة ولا بالدور المقصور على بعض الحكومات !

لم تفشل الديمقراطية

لم تفشل الديمقراطية ولا ظهر إلى الآن من آثارها وعلاماتها إلا ما يدل على نجاحها وثباتها وانها ستكون أساساً للحكم في المستقبل تُبنى عليه قواعد الحكومات ويرجع اليه في اصلاح كل ما يحتاج منها إلى الاصلاح

أما تلك الأسباب المصطنعة التي ألمنا بها فأكثر من يتعلق بها ويعمل لترويجها هم أنصار الحكم المطلق والرجعة إلى الاستبداد القديم ، وهم أقل الناس حقاً في تجريح الديمقراطية بعد ماتيين من فشل حكمهم في بلاد كثيرة وأحوال مختلفة . فاذا بطل ايمان الناس بقداسة الديمقراطية — مجازاً أو حقاً — فمن المقرر المقطوع به أنهم لا يرجعون إلى الايمان بقداسة المستبدين وما يزيفونه من الدعاوى والجهالات ، واذا قيل ان الجماهير تنخدع للزعماء وتؤخذ بالمظاهر وتسمال إلى العقائد التي تُبث فيها بالايحاء والتكرار فهذه الأطوار لم تكن ملغاة في العصور الماضية ولا كان شأنها ضعيفاً في تصريف الأمن وقيادة الحكومات . وماذا كان يصنع المستبدون طوال العصور الماضية إلا أن يستعينوا على خداع الجماهير تارة بالخرافات والأوهام وتارة بالمظاهر والوجاهات والألقاب والأسماء وتارة أخرى بالعطايا والمواعيد إلى سائر ما هو معروف من أساليبهم في تمويه الأعمال وإخفاء الحقائق والتحويل على الفرائز والشهوات . ولو أحصيت الجروب التي أريقَت فيها دماء الألوف من المحاربين والمسالين خداعاً للشعوب وتمليقها لها ، أو لو

أحصيت الأرواح البريئة التي أزهرتها أعداء الحرية والمعرفة ، أولو أخصيت الثورات والقلقل التي شجرت بين الحكام والرعايا من أجل المظاهر والأسماء والمنازعات الصبائية والدعاوى الفارغة ، أولو أخصيت الدسائس والجرائم التي انغمس فيها طلاب الخطوة وأعوان الطفيلان لكان في بعض ذلك شاهد على حقيقة من تنفعهم غفلة الجماهير ومن يضرهم انتباهها ، وأن تلك الغفلة لم تدم كما دامت في عهود المستبدين ، ولم تعد أحدا كما أفادتهم ، ولم يحذروا شيئا قط كما حذروا يقظتها ولا رغبوا في شيء قط كما رغبوا في بقائها واستطالتها . . . وإنما الفرق بين الاستبداد والديمقراطية أن المجال يتسع في هذه لأقوال شتى تنكشف الحقيقة من بينها ، ولكنه لا يتسع في عهد الاستبداد لكل قائل ولا يصعب فيه التواطؤ على النش والكتمان

ومن الأسباب المصطنعة أن "تقد الديمقراطية يرضى غرور تلك الفئة التي تحب أن تتعالى عن « الشعبيات » لما في ذلك من الامتياز والادعاء ، ويرسل على الديمقراطية السنة الثائرة والفضولين ومن لا ينظرون إلى عواقب الكلام ومنها أنه المستبدون الطامعون في رجعة الحكم القديم يسعون سعيهم سرا وجهرا لتشويه كل نظام غير نظامهم وتآليب الناقمين على الحكم الحديث ، ولا بد في كل حكم من راضين وناقمين

ومنها أننا في زمن تتوالى فيه المخترعات ويسألون فيه أبداً عن أحدث الآراء وأغرب الأخبار . فإذا مضت خمسون سنة على الناس وهم يمدحون الديمقراطية فالنذى يفاجئهم بمد ذلك بنقدها لا يعدم له سامعين بين طلاب الزى الطريف في كل مجال

فأنت ترى أن نقد الديمقراطية يصادف من العناية أضعاف ما تستوجبه الأسباب الحقيقية التي لا دخل فيها للوم والفرص والفضول . وأما الأسباب

الصناعية فما هي وما مبلغ ما تميزه ؟ هي أشياء لا تميز لأجد أن يحكم بفشل الديمقراطية ولا بأنها في طريق القتل القريب .

على أننا اذا قدرنا أن السنة القديمة تتكرر اليوم كما تكررت في دولات
الفرانجة وجيرانهم فكل ما يستخرج من هذه النظرية أن الحكم قد تعذر على
الطغاة والقادة لعجزهم واضمحلالهم فصار الامر الى الشعوب تحكم نفسها الى حين .
ويبقى علينا أن نسأل انفسنا متمجبين : هل يعقل اليوم أن هذه الحرية الشعبية
التي وصلنا اليها ان هي إلا فترة موقوتة جاء بها وباء عام أصاب الطغاة والنبلاء
في مقدراتهم على الحكم دون الكافة والأوساط ؟ وهل تعود بعد زوال هذا الوباء
الى عهد يكون فيه لنا طغاة مقدسون وملوك مستبدون عصيانهم حرمان من
ملكوت الله ؟.. لقد كانت الديمقراطية بالأمس حكومة الشعب وكان الشعب هو
العامه . أما ديمقراطيتنا فليس نصيب العامة فيها الاجزاء من سلطان الأمة ، وهي
كلٌ شامل يدخل فيه السوق والسراة والامراء

انتهى الفصلان من رسالة الحكم المطلق في القرن العشرين
ويوم كتب هذان الفصلان كان هتلر يوالى دعوته ويوحى بكتابه النازي لم
يكن يقرأ أحد ، وكان بينه وبين ولاية الحكم أربع سنوات ، وبين اضرام الحرب
الحاضرة إحدى عشرة سنة . فاذا كان قد أقنع الناس بشيء في هذه الفترة
فقد أقنعهم بخطر الاستبداد على العالم ، وأراهم أن المستبد حيث كان إنما يسخر
الحضارة في خدمة المهجحة ، وإنما ينكص بالخاضعين له من قومه ومن الأقوام
الأخرى أحقابا الى الوراء

الفوارق بين الديمقراطية والنازية

في التقدم

إن النازيين ينكرون التقدم ويدعون أن المضاهاة بين ماضى الانسان وحاضره فى عناصر الأخلاق تدل على الدوران فى حيز واحد ، ولاتدل على التقدم خطوة بعد خطوة ، أو الارتقاء درجة فوق درجة

وهذا بحث يطول ولا يُقضى بنا الى طائل فيما نحن بصدده . فحسبنا أن التهذيب جائز مشاهد فى طبائع الحيوان ، وأن تقدم الانسان فى علومه وصناعاته وآرائه محسوس لا يخفى الفرق الشاسع بين حاضره وماضيه

ولنضرب مثلاً واحداً على امكان التهذيب فى طبائع الحيوان يغنينا عن أمثلة كثيرة ، وهو مثل الكلب الذى كان فى توحشه أخوف ما يُخاف على الأطفال والطيور وصغار الغنم ، فأصبح الآن حامياً أميناً لها يدفع عنها المخاوف ويرعاها وهو جائع محروم

أما التقدم فى علوم الانسان وصناعاته وآرائه وأحواله الملازمة للعلوم والصناعات فهو أظهر من أن يحتاج الى تمثيل

* * *

ومقاييس التقدم كثيرة يقع فيها الاختلاف والاختلال : فاذا قسنا التقدم بالسعادة فقد تناح السعادة للحقير ويحرمها العظيم ، وإذا قسناه بالنفى فقد ينفى

الجاهل ويفتقر العالم ، وإذا قسناه بالعلم فقد تعلم الأمم المضمحلة الشائخة وتجهل الأمم الوثيقة الفتيمة

الإمقياسا واحدا لا يقع فيه الاختلاف والاختلال ، وهو مقياس "المسؤولية" واحتمال التبعة

فانك لا تضاهي بين رجلين أو أمتين إلا وجدت أن الأفضل منهما هو صاحب النصيب الأوفى من المسؤولية ، وصاحب القدرة الراجعة على النهوض بتبعاته والاضطلاع بحقوقه وواجباته

ولا اختلاف في هذا المقياس كلما قست به الفارق بين الطفل القاصر والرجل الرشيد ، أو بين الهمجي والمدني ، أو بين المجنون والعاقل ، أو بين الجاهل والعالم ، أو بين العبد والسيد ، أو بين العاجز والقادر ، أو بين كل مفضول وكل فاضل على اختلاف أوجه التفضيل

فاحتمال التبعات هو مناط التقدم المستطاع

والنازية تهدم هذا الخلق من أساسه ، لأنها تقضى على الحرية والتصرف والاختيار ، وليس من المعقول أن تحاسب إنسانا على التبعات وهو مسلوب الحرية مأمور ، فيما يأخذ وفيما يدع ، من مطالب عيشه وواجباته نحو قومه وقد ركزت القرائح في ألمانيا منذ تولاهما النازيون . فلم يظهر فيها نابغة في العلم والفن والحكمة ، ولم يؤثر عنها ابتكار مفيد في الثقافة العالية ، وهذا هي الأمة التي امتلأ تاريخها بأعلام الأدب والبحث والاختراع

ولقد شكوا هذا الركود وزراؤهم وقادتهم وكرروا الشكوى مرات . . . فكتب الدكتور سيروب Syrup رئيس مصلحة العمل في شهر مارس من سنة ١٩٣٨ يقول : « إن الجيل الجديد من رجال العلم ناقص في جامعاتنا . ولا شك أن بناء الدولة والثروة معا يستلزم وشيكاً أن ينشأ المهندسون والكيميون وعلماء طبقات الأرض والطبيعيون والأطباء »

وربما خطر لبعضهم أن النازيين لا يكثرثون لذلك النقص ما استطاعوا
إخراج الضباط والجنود وتزويدهم بالسلاح

ولكن الواقع غير ذلك . فان التعليم الفنى لازم اليوم للضباط والجنود لزومه
للمهندسين والصناع . وقد كتب المايجور التوماس فى صحيفة فرانكفورتر زيتنغ
يقول : « ان الاستاذ زيميك Zemeck مدير المتحف الجسرماتى فى ميونيخ قد
أشار فى آخر اجتماع لمكتب الريخ الاقتصادى إشارة خاصة الى هبوط طبقة
التعليم العالى بين الناشئة الالمانية ، ولا مناص لى من موافقته فى رأيه . اذ الخطر
عظيم فيما أرى على قوة دفاعنا اذا انحصر نطاق التربية الذهنية وضاق أفق
التفكير ، من جراء فرط الاهتمام بالتربية البدنية .

ومتى بلغ الأمر أن يلحظه قادة الفرق والآلوية فى جنودهم المدعويين للخدمة
هما لاجدال فيه أنه يدل على ضعف مائل فى نظام تعليمنا الآن »
وقد تخرج من المدارس العليا فى سنة ١٩٣٧ ثمانية عشر ألف طالب فالتحق
منهم عشرة آلاف بخدمة الجيش وانقطعوا عن حياة الدرس والاستبحار فى العلوم^(١)
ولم يظهر أن الآخرين وجدوا متسعاً لهم فى هذه الحياة



وسواء شكّا القادة النازيون أو لم يشكوا ذلك النقص المطرد فهو نقص
لا يستغرب من جيل مفتون بالمواكب والصفوف ، مشغول بالكثنة والطريق عن
المكتبة والمعمل ، مشغوف بما يرضى الخواص الحيوانية دون ما يرضى الفكر والروح
ومتى نظرنا الى المبادئ التى يقوم عليها ببيان النازية لم نجد بينها مبدأ واحداً
يستدعى التقدم وراء آداب الحيوان

(١) هتلر والمانيا لمؤلفه هنريخ هاوذر Hitler Versus Germany

فالطاعة العمياء هى طاعة السرب والتطيع ، وحركة الضفوف هى حركة الطيور والنمل ، والزعامة « الغريزية » أعرق فى الحيوانية من زعامة الارتياح والاختيار ، بل حتى التضحية العمياء لها مرجع الى غريزة الحيوان ، وليست هى من فضائل البصيرة والضمير

وما من عبث ولا مصادفة كان تقدم العلوم والصناعات فى العصر الحديث أعظم وأوسع من تقدمها فى جميع العصور

فمنذ نشأت الديمقراطية نشأت حرية البحث وحرية الكشف وحرية الابتداع . ولا عجب أن يخترع الناس فى مائة وخمسين سنة أضعاف ما اخترعوه فى مائة وخمسين ألف سنة ، لأن الاختراع وليد التصرف والاختيار ، وهما نبات يزكو فى عهد الحرية ولا يزكو فى عهود القسر والتسخير

الاضواء :

والأخلاق « أولا » لا تفهم بمعزل عن المشيئة والاختيار ، فاننا لا نعرف آلة ذات خلق . وإنما تبدأ الأخلاق حين يبدأ الإدراك والتكليف

وأنت نستطيع أن نقيم على ابنك حارساً يلزمه فلا ينسى واجبا ولا يهمل برذيلة ، ولكنك لا تربيته بهذه الحراسة ، ولا تجعل له روحا ولا تميزا كتمييز العقلاء بين ما ينتهى عنه وما ينتحيه

وكذلك تربي الأمة هذه التربية فلا تنتفع بما ربيت فيها من عادة التسليم والاستسلام ، بل تقتل فيها فضيلة الاستقلال وتهيؤها للذل والخنوع ، وربما كان ذلكا وهى تشكو السيد وتلبه أشرف لها وأجدى عليها من الذل لسيد تهتف له وتحببه

وكثيرا ما نسمع التشهير والتجريس بالقضائح أو الرشاوى التى تنكشف فى الأمم الديمقراطية ويتخذها المستبدون دليلا على فساد أصيل فى النظام الديمقراطى والحكام الديمقراطيين

ويحق لأبواق الاستبداد أن تطنب فى ذلك التشهير وذلك التجريس لو كانت الرشاوى والسرقات تتمتع فى دولة المستبدين ولا تحدث إلا فى دولة الديمقراطيين . بيد أن الواقع الذى لا جدال فيه ان سرقات الطغاة المستبدين فى جيل واحد تربي على سرقات الديمقراطيين فى جميع الأجيال

وإنما يجسر الناس على اتهام السارق فى عهد الحرية ولا يجسرون على اتهامه فى عهد الطغاة ، أو يجسر منهم من لا يبالي بالمصير فيلقى جزاءه من حيث ينجو السارق بما سرق ، وذلك أخرى أن يحسب للديمقراطية من المزايا ولا يحسب عليها من العيوب

وما يزعم أحد أن « النظام الديمقراطى » يقتلع الرذائل من الطبائع البشرية ويتركها وليس فيها إلا الفضائل والحسنات

فهذا ما ليس يزعمه زاعم فى نظام من أنظمة الحكم كيفما كان ، وغاية ما هنالك أن الديمقراطية تكشف رذائل الحكم ولا تحميها كما تحميها سطوة المستبدين ، وهذا وحده غنيمة جديرة بالذب عنها والحرص عليها

على أن الأموال التى أنفقها هتلر فى تشييد قصوره السحرية وتنظيم حراسته الشخصية ، والأموال التى فرضها على كل قارئ المانى ثمناً لكتابته تارة وثمناً لصحفه تارة أخرى ، لتبلغن أضعاف ما اختلس حاكم ديمقراطى أو عدة حكام ديمقراطيين فى عمر طويل ، وهو مع ذلك معدود فى عرفهم من أمثلة النزاهة والعفاف !

ولا يخفى أن الحرية ليست بأرخص من المال ، وأن جميع الحكام المستبدين

يسلبون الحرية ، وليس جميع الحكام الديمقراطيين يسلبون الأموال
كذلك لا يخفى أن القتل جريمة أقبح من السرقة وأوّل منها ، وهو شيء
يقترفه الحاكم المستبد حيث شاء

قتل في المانيا ألوف من الناس ولم تحفل الحكومة بأثبات الذنب على واحد
منهم ولو بعد نفاذ العقاب ، مع سهولة الأثبات لمن يقبض على أعنة الدواوين بغير
رقيب

وإنما رخصت الأرواح وشاعت الغفلة فأمكن هذا حيث يحسبون اختلاس
الأموال من المستحيلات

ومنذ خمس سنوات قتل المستشار النمساوي دلقوس فكتب النازيون يومئذ
يقولون إنه شهيد الماركسيين ، وقال فون باين سفيرهم في فينيا « إن حكومة الريخ
تنعى الجريمة وتأسف لوقوعها »

وما هو إلا أن سقطت النمسا في أيدي النازيين حتى احتفلوا بتكريم ذكرى
القتلة وقام رودلف هس بنادى علانية « بأننا نذكرهم في اليوم الذي سيق فيه
هؤلاء الثلاثة عشرة من نخبة الزملاء إلى الموت المين على المشائق الزرية ، وأن
أطيانهم لتمشى في مقدمة الصفوف حيث مشى في الدنيا جموع النازيين »

فهذا العدوان الوضع على حياة رجل لا ذنب له عندهم إلا الأمانة لاستقلال
بلاده ، وهذا الرياء القبيح في انكار الجريمة ثم الاشادة بفاعليها ، وهذه الرذائل
التي تتكرر في حبس شوشنيج والتككيل بامثاله من رؤساء الأمم المغلوبة — من
الذي قال انها دون السرقة في شناعتها ووصمة عارها ؟ ومنذ متى كان المستبدين
حق الصولة على الضمير الانساني فلا يأفف إلا بما يريدونه على الأتقة منه ، ولا
يثنى على الخلق الجميل إلا إذا أسروه بالثناء ؟

إن فساد الأخلاق في حكومات الاستبداد لما يمكن اثباته بالأرقام . ففي

المانيا النازية مئات الالوف من الجواسيس والرقباء ، وكل جاسوس من هؤلاء فهو رمز للرياء والجبن والخوف واهدار الحقوق ، وإلى جانب هذا الجيش من الجواسيس والرقباء جيش مثله من الدعاة والمقرظين عملهم في الحياة أن يكذبوا على أبناء وطنهم ويخدعهم بالباطل والنفاق . وكل هذا — كل هذا لا يساوى فضائح ستافسكي وأمثاله من عيوب الحكومات الديمقراطية؟ ... شامت العقول أن كان هذا حكما على الأخلاق ، فكيف وفضائح ستافسكي شائعة مع رذائل التجسس والدعوة الكاذبة لا يحجبها إلا الجبن والتهديد ؟

وأشع من هذا أنهم يمسخون الأذواق فيسؤلون لها أن تستمرى هذه الرذائل كأنها حسنات وطيبات . فمن الأمثلة التي ينصبونها للعجائب مثل الابن الذي يشى بآبيه وأولياء أمره ويتجسس عليهم لرؤسائه النازيين... فيشوبون هذا الممين الطاهر — معين الحنان والاخلاص — بشائبة مسممة لا تبقّى في النفس الانسانية على موضع للأمان

* * *

ثم تسرى ظلمات هذه الأخلاق المنكوسة إلى دخائل العقول فتغشى عليها بظلمات فوق ظلمات . لأن العقل الذي يتعود أن يرى للمسألة وجها واحدا لا وجه غيره يتمطل فيه التفكير ولا يفهم حجة الآخرين ، ثم يتعود أن يتلقى الأفكار كما تصاغ له لا كما يصوغها هو بعد تقليبها على جميع الفروض والاحتمالات ، ولا يقتصر هذا العيب الفاسد على المحكومين بل يسبقهم إلى الحاكين الذين لا يسمعون اعتراضا ولا يصبرون على اعتراض . ومن جرائم ذلك ولا شك أنهم يتعننون فلا يدبرون أسماعهم إلى حجج خصومهم ولا يعرفون من حل المشكلات إلا أن يقوموا المعارضين في أوطانهم ويشهروا السلاح على سائر الأوطان

من المشكلات

وعلى ذكر المشكلات وحلها نقول ان الآخذين بالظواهر يتوهمون أن النظم « الدكتاتورية » أصلح النظم الحكومىة لعلاج المشكلات العويصة وحل العقدة المؤرّبة فى زمن وجيز

وهذا صحيح إذا نحن أخذنا بالظواهر ولم نعتقب الحلول والعلاجات إلى جرائرها المحتموة ونهاياتها التى لا يحيد عنها

أما إذا نحن تجاوزنا الظواهر إلى ما رءاها فالنظم الدكتاتورية فى الواقع تدارى المشكلات ولا تمحوها ، أو هى فى أكثر الأوقات تحل مشكلة واحدة وتخلق إلى جانبها مشكلات عديدة . كما فعلت فى مشكلة البطالة قيل لسكاتب انجليزى : لابطالة فى ألمانيا !

قال نعم . ولا فى سجن دارتمور . . .

ومعنى ذلك أن علاج البطالة على الطريقة الألمانية النازية مستطاع فى كل مكان يرضى مكانه أن يعيشوا فى بلادهم عيشة السجناء فى دارتمور وجلية الأمر أن النازيين عالجوا البطالة « بتشغيل » العاطلين جنودا فى الجيش ، ورقباء فى ديوان الجاسوسية ، وعمالا فى مصانع السلاح والذخيرة ، ونزلاء فى معسكرات الاعتقال ، وأجراء بانصاف أجور وارباع أجور وكل علاج من هذه العلاجات يؤدى إلى كارثة مطبقة تهون إلى جانبها . كارثة البطالة

لأن استنفاد ثروة الأمة فى المدافع والدبابات وما إليها يضيّع المال بغير عوض ويؤدى إلى رخص العملة وضمف القدرة على الشراء . فما يُشترى فى هذه الحالة بمشرة قروش لا يساوى ما يُشترى فى الأحوال الطبيعية بقرشين

ولأن اتفاق الملايين على السلاح يلجئ الحكومة إلى ارهاق الرعية من أصحاب الأموال والموظفين والعمال بالضرائب الثقيلة والخصوم المتعددة بأسماء شتى . فيحسب الأجر على صاحبه خمسة قروش مثلاً وهو لا يقبض منه أكثر من ثلث ما حسبه

ولأن « تشغيل » المصانع بالسلاح والذخيرة لابد أن يقف أو يدوم . فإن وقف فهناك صدمة الركود المفاجئ و كارثة البطالة من جديد ، وان دام فهناك دوام الكساد ورخص العملة وضرورة البحث عن مصرف للسلاح في القتال والتخريب

وليس في وسع حكومة أن تخلق جو الحرب بتجيش الجيوش وتكديس السلاح وتهيج الخواطر وتجويع الناس دون أن تصطدم بالحرب طائفة أو كارهة ، ومحتاجة إليها أو زاهدة فيها ، ففى أسيرة مسخرة وليست بحرة قادرة على التدبير والتقدير ، وهى كالذابة المسحوبة من لجامها إلى حيث تشاء أو لاتشاء ، وليست كالرجل الذى يضع قدميه حيث تبصر عيناه

* * *

ومثل آخر مشكلة التجارة

فالنازيون يحاولون هذه المشكلة بالترقيع والتلفيق والخداع والاحتياىل ، فلايلبثون قليلا حتى يجدوا أنفسهم بين ضرورات القوة العمياء

يعرضون على الأمم أسعاراً أكبر من الأسعار التى تبيعها محاصيلها الزراعية ثم يعرضون عليها مصنوعات حربية بأرخص من أثمانها فى البلاد الأخرى ، مقايضةً ومبادلة . لأنهم لا يشترون بالنقد الحاضر ثم يبيعون المحاصيل الزراعية بأقل من الأسعار التى اشتروها بها ، ويماطلون فى تسليم المصنوعات بدلا منها ، ليرفعوا أثمانها

ولما كانت الأمم التي تعاملهم مضطرة إلى استيفاء ديونها فهي تعود فتقبل كل
ثمن ، كما يقبل الدائن كل ما يستطيع الوصول اليه من أمتعة المدين الماثل
وتنمضى فترة وجيزة فتعلم الأمم التي تعاملهم أنها خسرت عملاءها ، لأن
عملاءها يشترون محصولاتها من النازيين بأرخص من الأثمان التي تباع بها في
أسواقها الوطنية

وهنا يرى النازيون أنهم مستهدفون لقطع الماملات ، عاجزون عن إطالتها
والاستمرار عليها بغير التهديد والارهاب ، والقتال كرة أخرى
هذه أمثلة من « العلاجات » النازية

وهي أشبه بعلاج الشعوذة والطلاسم منها بعلاج الطب والجراحة العلمية
والشعوذة قد يخدع مريضه فترة من الزمن ويثبته أنه خير له من الطبيب
وخير من الجراح^١

والطبيب أو الجراح قد يفشلان في بعض الأمراض ويبدو للمريض أنه أخطأ
في الركون اليهما وقلة الركون الى السحرة والشعوذين
ولكن الطب طب والشعوذة شعوذة على كل حال
ومتى عرف الطب علاجه فذلك هو العلاج الصحيح الذي يقاس عليه
ويطمأن اليه

أما إذا بقي العلاج الطبى مجهولا فليس ذلك بحجة على صلاح الشعوذة
والتدجيل ، ولو نجحا الى حين

وهكذا مشكلة البطالة مثلا في البلاد الديمقراطية ، فان هذه البلاد لم تحسم
دائها حتى الساعة ، ولا تزال تعالجها بالاعانات تارة وإنشاء أعمال الاصلاح
والتعمير تارة أخرى ، الى ما شابه ذلك من المسكنات واللطفات . ولكنها
مسكنات الطب وليست بمسكنات الشعوذة ، ثم هي حيرة سليمة المغبة ، وليست
بدواء كاذب يخلق الى جانبه عدة أو دواء

ومن الواضح أن مشكلة كمشكلة البطالة التي ترجع الى أسبابها العالمية لن يتأتى أن تحلها أمة واحدة في داخل حدودها ، ولن تعالج يوما بمزحل عن علاج الكساد العالمي واختلال المبادلات التجارية

فإذا شعرت الأمم بهذه الضرورة ودفعها الشعور بها الى ابتغاء الوسيلة الناجعة بالتعاون فيما بينها فذلك خيرٌ للعالم وخيرٌ لكل أمة على حدة من الجرعة القاتلة التي تودى بالليل والصحيح

ومتى رأى الطبيب من واجبه أن يترك بنية المريض تعمل عملها وتدبر مقاومتها فعليه أن يظل طبيباً يفعل ما يوحى به إليه طبعه ، وليس عليه أن يلبس للناس لبوس المشعوذ الدجال

* * *

النظام

والنظام هو « نخر » النازيين لأنهم يعمدون على الديمقراطية اختلاف الآراء وصعوبة الاتفاق على قرار ، و ببطء الانجاز بعد الاتفاق عليه

والقول الصواب هنا أن تقارن بين أحسن الديكتاتوريات وأحسن الديمقراطيات ، كما تقارن بين أسوأ الحكومات من الجانبين . فلا نفرض النظام الدكتاتورى كما يكون فى « مثله الأعلى » ونفرض النظام الديمقراطى كما يكون فى أقبح الأشكال والأوضاع

وما لاشك فيه بعد هذه المقارنة أن أفضل حكومة ديمقراطية خير من أفضل حكومة دكتاتورية . وأن الدكتاتور الرديء شر من الديمقراطية الرديئة على أسوأ ماتكون

والنظام بغير « انتظام » تقيضة لا يقبلها العقل المستقيم . فما هى وسيلة انتظام

الدكتاتورية حاكماً معصوماً بعد حاكم معصوم ، وخلفاً صالحاً بعد سلف صالح ؟
لا وسيلة على الإطلاق

ولكن الديمقراطية الصالحة تعقبها ديمقراطية صالحة ان لم تكن أصلح منها ،
لأن مرجع صلاحها الى الشعب قبل حاكمه

أما اذا كان الفساد من الشعب نفسه فهو فاسد مع الشورى وفساد مع
الاستبداد ، وقد يكون المستبد غيباً سفاحاً كما يكون الحكام الديمقراطيون عجزاً
أو مختلسين

وما الحيلة في فساد المستبد الجائر ، وكيف السبيل الى تبديل حكمه ؟
لا سبيل غير الثورة والقوضى

أما الديمقراطية فباب التبديل فيها مفتوح بغير ثورات وبغير سفك دماء
على أن الحاكم المستبد إنما يصلح من جانب ويفسد من جوانب شتى ،
فيعطى الأمة نظاماً ان أعطاه ، ويسلب منها حرية الرأي وكرامة الاستقلال
والارادة حيناً ظهر وكيفما كان

والديمقراطية بعد لا تعني بالمواقف المصيبة التي لا بد فيها من إطلاق أيدي
الحاكمين . لأنها تطلق أيدي الحاكمين في هذه المواقف بنظام مقرر معروف ،
ليس كله استبداداً لأن أساسه تفويض الأمة . وليس كله حرية لأن الحرية فيه
محدودة حيث تقام لها الحدود . وربما تطلت من سرعة العمل في أيام الحروب
دروساً تنفعها أيام السلام . فتأتي السرعة من طريق التعليم والتمود لا من طريق
الأرغام والالزام

ففي الديمقراطية «احتياط» لأحوال الاستبداد ، وليس في الاستبداد احتياط
لأحوال الديمقراطية ، اذ هو استثناء دائم ، ولن لايجرى إلا على حكم الاستثناء
وربما كان للاستبداد - إذا صلح - بعض حسنات المستثنى الذي يضمن

النازلون به نظافة الطعام وجودة الهواء وانتظام المواعيد بأعين الأطباء . فإذا
استشرى فسادهُ فهو حبس كحبس الحجاج لحرية فيه ولا ظل ولا طعام
أما الديمقراطية فهي بيتك الذي تعيش فيه وفق مرادك ، إذا صلح فهو خير
من المستشفى ، وإذا فسد فهو خير من حبس الحجاج . . . والناس مخلوقون للعيش
في البيوت لا في المستشفيات والسجون .

* * *

الصحة

ونحن نذكر المستشفى على سبيل المجاز والتثيل ولا نغني أن الصحة تتوافر
لرعايا الحكومات المستبدة كما تتوافر في المستشفيات
فن غير المعقول أن حكوماتٍ تجور على أقوات رعاياها وتعتمد على نظام
الجرايات في أوقات السلم لتنفق على السلاح والذخيرة تستطيع أن تكفل التغذية
النافعة لأولئك الرعايا المحرومين . وكل حكومة تتخذ شعارها «العدة ولا الزبدة»
كما تفعل الحكومة النازية فليس في وسعها أن توفّق بين نقص الأرزاق وتصحيح
الأجسام

وقد تعجب الناظر مواكب الألعاب الرياضية ومعارض الجيوش فيمخالها
عنوان الصحة الحسنة والأرزاق المكفولة لسواد الأمة ، ولكنه لا ينظر إلى ما
وراء ذلك نظرة قريبة حتى يتبين مكان الداء ويعرف الثمن القاصم الذي اشترت
به هذه المشاهد الجوفاء : موكب زمر وطبل واحد وراءه ألف أسرة تحرم الغذاء
والكساء ؛ ولولا هذا التويه الفاضل لوجدت منهما التكفاية وفوق الكفاية

ويقترن نقص الأرزاق بنقص الرعاية الطبية ، لأنصراف الأطباء إلى ملازمة
الفرق العسكرية ، أو لأنصراف الشبان عن دراسة الطب والاستبحار في العلوم

فتقل الرعاية الطبية وهي أخرى ما تكون بالمزيد ، لازدياد حاجة الناس اليها من جراء سوء التغذية وضعف الرعاية

وفي كتاب الدكتور مارتن جيمرت الألماني المسمى « يحیی الجوع »^(١) بيانات واحصاءات مستمدة من مصادر النازي الرسمية تدل على مبلغ انتشار الأمراض والعلل بين الناشئة الألمانية من أثر المبدأ القائل « العدة ولا الزبدة »

أودعوا السمن واصنعوا المدفع Guns before Butter

فإصابات الحمى الترمزية في سنة ١٩٣٣ كانت ٧٩٨٣٠ فأصبحت ١١٧٥٤٤ بعد أربع سنوات

وإصابات الدفتيريا في سنة ١٩٣٣ كانت ٧٧٣٤٠ فأصبحت ١٤٦٧٣٣ بعد أربع سنوات .

وفي دورتمند خمسة وخمسون في المائة من الأطفال مصابون ببلين العظام ، ولا يزيد عدد الأطفال المعافين من أعراضه في ميونيخ على خمسة وثلاثين في الألف ؟

وجاء في التقرير الطبي عن الجامعات سنة ١٩٣٩ « ان مقابلة الأحوال في السنوات الأربع الماضية تدل على هبوط في مستوى الصحة بين الشبان . فان زيادة المصابين بمرض القلب في السنة الماضية مزعجة غاية الازعاج وعدد الطلاب الذين لا يصلحون للانتظام في سلك الفرق الرياضية قد تضاعف في السنتين الماضيتين ، وكان عدد الطلاب الذين لا يقدرّون على المشقات البدنية في سنة ١٩٣٥ أقل من عشرين في المائة ، فأوشك أن يبلغ الحسنيين في المائة الآن » .

وانتشار الأمراض بين العمال أكثر وأعزل . وقد حرّمت الأم تشغيل الأطفال في بعض المعامل إلا المانيا النازية ، فانها — لحاجتها إلى الصناعات الأجر

{1 Heil Hunger by Dr Martin Gumpert

القليل — قد أوجبت على الأطفال أن يعملوا من العاشرة ، وارتفعت نسبة الناشئين الذين يعملون في وادي الرور بين الرابعة عشرة والعشرين من ٨٥٥ في كل عشرة آلاف (سنة ١٩٣٢) إلى ١٧٧٨ بعد ذلك بخمس سنوات .

ويشيع النازيون انهم يروضون الناشئين على فرح القوة والفرح بالحياة . ولكن المقارنة بين حوادث الانتحار في المانيا وحوادث الانتحار في البلدان الأوربية الأخرى لا تنبيء عن فرح بالحياة بل فرح بالموت . فان عدد المنتحرين في المانيا وحدها يكاد يساوى عددهم في أرجاء القارة الأوربية بأجمعها .

وكذلك زاد عدد الموتى ثمانين ألفا كل سنة في ألمانيا الجديدة ، وكان معظم الزيادة في الأعمار ما بين الأولى والخامسة عشرة ، وما بين العشرين والخامسة والأربعين ، أى في سن الطفولة و سن الشباب : سن الفرح بالحياة

وهذه نتيجة بدهية لا غرابة فيها مع نقص التغذية وإرهاق الأجسام بالعمل وكبت النفوس واستفزاز الأعصاب

النربية

وتربية العقول أضرت في ظل النازيين من تربية الأجسام

لأنهم يتعمدون تعويج الرؤس ويجردونها من ملكة التفكير المستقيم فلا ترى الدنيا على حقيقتها بل تراها كما تحب الحكومه أن يروها ويثابروا على رؤيتها : يصبغون التاريخ والجغرافيا للطفل بالصبغة التي تساعد على ترويضه واقتياده ، ويفرسون فيه الأحقاد التي يضرمونها بالفضب والشر كما أجبوا أن يضرموها ، ويخلقون له وجودا عجيبا لا مجد فيه ولا حق ولا فضيلة لغير الآريين المزعومين ، ويفقدونه للملكة الصحيحة التي يختبر بها حقائق الأمم والرجال ، فلا يرى الأشياء

ولا يتصور المعاني الا بعد تحريفها وتشويهها كما ترى الأشباح في المرايا المعقوفة ،
واطرأدها أمامه على نسق واحد لا ينفي أنه زائغ مضلل وأن تكفيره وشيك أن
ينحونه متى لمح شعاعا واحدا من الضوء في عالم الرؤية القويمة والنظر السليم
ويستولون على الطفل من السادسة فيقلدونه خنجراً صغيراً ويطعمونه على
الشر والنقمة يسمونها الجدد والنخوة الآرية ، وينحيل اليهم أنهم بهذا وأشباهه
يقرعون الدنيا بجيل مشاكس متنمر لا حيلة لها فيه إلا أن تستكين له أو تقضى
على كل قوة في يديه . وذلك في وهمهم مستحيل لشيخوخة الدنيا واضمحلالها ،
وآية الشيخوخة والاضمحلال عندهم ان الدنيا لا تألف الصراوة بالشر ولا تنفى
بالتقتل والقتال

فتلاميذهم على غرار تلاميذ الحسن بن الصباح الذي كان ينحيل إلى أتباعه
أنهم في نعيم مقيم ماداموا في طاعته ورضاه ، وأما يقود تلاميذه بتخدير الحشيش
وهم يقودونهم بما يشبه الحشيش من الأوهام والأضاليل
وهؤلاء التلاميذ هم الذين يترنمون بصيحتهم على الحرية : « أيتها الحرية !
انتي أبصق على وجهك ! » . . . وكلمة أبصق هي ألطف تعبير لما يقولون في ذلك
النشيد

البيئة

ولعل الفاصل المبين بين الديمقراطية والنازية هو فاصل البيئة التي تعيش
فيها كل منهما

فليس أول على سلامة الديمقراطية من أن قيامها في الأمة دليل على مزايا
كثيرة في تلك الأمة ، أو دليل على أن الأمة في معيشة طيبة ومعاملة حسنة ،

وانها ذات أخلاق لا ضرر من اطلاق الحرية لأصحابها ، وأطوار لاتعدو
طوقها ولا تستعصى عليها

وليس أدل على وخامة الدكتاتورية من أن قيامها فى الأمة دليل على شذوذ
فى معيشتها أو على خوف من بعض الاخطار المحدقة بكيانها ، كما يعترف
الحاكمون بأمرهم كلما أعوزهم أن يسوغوا قيامهم فى شعب من الشعوب
فالبيئة الديمقراطية كالأرض الآمنة القريرة ، والبيئة الدكتاتورية كالصخر
الصحى أو كالخضر الذى لا يعاش فيه بغير رقابة وتضييق

ولم يعرف التاريخ قط أن ديمقراطية حاربت ديمقراطية على مبادئها ، وإنما
تتحارب مثلاً حكومة اسبرطة العسكرية وحكومة اثينا الدستورية ، أو تتحارب
ولايات الشمال فى أمريكا وولايات الجنوب ، لأن الشمال يطلب الحرية للسود
والجنوب يطلب لهم التسخير والاستعباد

أو يتحارب نابليون بونابرت وبريطانيا العظمى ، أو بسمارك ونابليون
الثالث ، أو اليابان وروسيا القيصرية

وحتم على النازية وما شاكلها أن تكون بيئة حرب تنفر من السلم كما تنفر
البنية من السم الذى يتلفها ويقضى عليها . فان « الزعيم » لا ينجذع الناس عن
عقولهم وحرىاتهم إلا بما يزلفه لهم من بواعث الهياج وسورة الشعور وشهوة
البغضاء وتعاقب الحوادث بالضجة والصليل . فان لم يتعهدهم بهذه المثيرات فتر
عندهم وباخ وآذن نجمة بالأفول

وهو مع هذا يتعاطفهم بروعة التقديس والتأليه ومظهر القدرة التى تأمر
فتطاع ، وتريد فلا يحال بينها وبين ما تريد . فان وقف بين جيرانه ونظرائه
موقف المساوم الذى يأخذ ويعطى ويتقدم ويتراجع صغرى أعينهم وضاع بينهم

وأوشكوا أن يفتعلوا عليه وينتقموا لذلتهم الماضية مما أسبغوا عليه من الهول
والتهويل . فهو يشل يديه عن عمل الساسة كل يوم يلبس فيه حالة التقديس
والتأليه : فأما أن يرسل الصواعق من سماء جو بيتير ، وأما أن يهبط إلى
الأرض مع الهابطين

فسلام الدنيا إذا حكمتها الديمقراطية مفهوم لأنها تقوم على التفاهم ولا تحصر
الرأى فى يدى انسان واحد . ولكنه غير مفهوم والدنيا تحكمها الدكتاتورية ، بل
غير مفهوم وفى الدنيا دكتاتورية واحدة على مذهب التقديس والتأليه ، تقناً
من يوم ظهورها تقمع سلاح العدوان وتنشئ أبناءها على تمجيده واصطفائه
دون سائر الخطط وسائر الحلول

ومن الملائم أن نستحضر فى اخلاذنا قبل ختام هذه المقارنة ان تفضيلنا
الديموقراطية يؤدى إلى تميمها فى كل أمة ، وان تفضيلنا النازية أو الدكتاتورية
لا يؤدى إلى مثل هذا التعميم ، لأن النازيين يعتبرون مذهبهم مزية جنسية
يستأهلها صفوة الخلق من أبناء الشمال ولا يستأهلها الجنوبيون ولا المغلوبون ،
وآخر ما يفكرون فيه إذا انتصروا أن يتركوا الشعوب الصغيرة للمستبددين من
عشيرتها ، والزعماء المقدسين من أبناء جلدتها ، ولكنهم يدينونها بشرعية السف
التي لا تؤمن بتقديس ولا بحق مصون لحاكم أو محكوم من الضعفاء

ويمحسن بنا كذلك أن نستحضر فى أخلاذنا أن الديمقراطية لم تنته من
التطور ولم تتحجر على وضعها الذى هى عليه فى هذه الايام . فهى نظام يتقدم مع
تقدم الشعوب ، وتزول تقائمه كلما زالت تقائص الناس ، ولا أمل من الناحية
الآخري فى ارتقاء الدكتاتورية طبقة بعد طبقة وسيدا بعد سيد . لأنها راجعة إلى

القفرات والنوادر ، منوطة بالآحاد المتفرقين ، معرضة للهدم والتخريب بعد كل بناء وتعمير

قال الامام الشيخ محمد عبده : « لا يصلح الشرق إلا بمستبد عادل »
نعم . ولم يفسد الشرق إلا بالمستبدين الظالمين ، ولم ينهض نهضته المرجوة
في القرن العشرين إلا بنفحة من الحرية الديمقراطية سرت اليه . وقد جرب
حظه في الاستبداد طويلا فليجرب حظه في الحرية ، وليجعلها اليوم قضيته
الكبرى ، فهي في الحق قضيته التي ينتصر فيها فينجزو من ظلم أبنائه وظلم الغرباء



اوتو شتراسر

الفصل الخامس

قضية الغد

قضية الفرد

ولعلها كانت أحجى أن تكون قضية أمس أو أمس الأول ، لو كانت « السياسة » تمشى فى طليعة الشعوب ولم تكن تمشى وراءها بخطوات وقد قيل إن الناسا يتخلفون عن عصورهم ثلاثين سنة لأنهم يقتبسون أفكارهم الحديثة فى زمن ويتولون الحسك فى زمن آخر ، ولأنهم يلبثون إلى أن يمر « الصف الأخير » من « محافظى الشعوب » ثم يمروا وراءه ليجتنبوا مشقة الابتداء والاقتحام ، وبأمنوا مغبة «الرجة الثورية» التى تصاحب دعوات الإصلاح وليتها ثلاثون سنة !

فأنها على ما ترى مائة أو مائة وخمسون ، وكأننا لا نزال الآن فى أوائل القرن التاسع عشر من حيث سياسة العالم وفض المشكلات بين الشعوب والحكومات ماذا كان يحدث لو أن الدول جميعا — كبيرها وصغيرها — أجمعت على انذار هتلر بالحرب لو أنه رفض خطة التفاهم فى المشكلة البولونية وأبى إلا خطة الارغام ؟

كان ينثني عن الحرب ولاجدال وكانت كل دولة من هذه الدول تخدم مصلحتها هى قبل أن تخدم مصلحة العالم ... لأن خمس دول على الأقل كانت تأمن على حوزتها من غارة هتلر ، وان كانت بولونيا وحدها هى التى اقردت بالتهديد فى بداية النزاع

فلماذا لم تصنع الدول ذلك ؟

لم تصنعه لأنها تعمل فى السياسة الدولية كما كانوا يعملون قبل مائة سنة ،
وهم يومئذ على صواب

فبعد الحروب الدينية والحروب التى نشبت بين الأسر المالكة من جراء
الخلاف على الوراثة رشدت الأمم بعض الرشاد فاجتنبت الحروب « العاطفية »
والنزوات الحماسية وانبتت « المصلحة » وحدها فى إدارة علاقاتها الخارجية ، فلا
تعاذى ولا تصادق من أجل مصالح الأمم الأخرى ولو كانت تجاورها أو تماثلها ،
ولاتظن أن حدثا من الأحداث يعنىها مادام يجرى من وراء حدودها
وجعلت شعارها كلمتين اثنتين : الكلمة الأولى « مصلحتي » . . . والكلمة
الثانية « لا يمتنني ! »

وصمدت على ذلك فى جميع الأزمات الدولية ، ولا سيما أزمات الحروب

* * *

إلا أن العالم قد تغير ، وقام بعد العالم فى القرن التاسع عشر عالم
متشابك متماسك لا تنفصل فيه أمة عن أمة ، ولا نظراً فيه المشكلة الدولية إلا
سرت آثارها إلى أبعد الأمم وأقربها على السواء
قيام حكومة النازي فى المانيا كان مسألة المانية داخلية على رأى الساسة
« الحصفاء » من المدرسة العتيقة

ولكن ألم يكن كذلك مسألة داخلية بولونية ؟ ألم يكن مسألة داخلية
بلجيكية ومسألة داخلية نرويجية وإنجليزية وفرنسية وتركية ومصرية ؟ ألم يكن
مسألة داخلية فى جميع الأمم التى اضطرت من جراء قيام النازيين إلى اتفاق مالم
تكن تنفق ، وتدير مالم تكن تدبر ، واتخاذ مالم تكن تتخذ من الحيلة ،

وفرض ما لم تكن تفرض من الضرائب ، وانتداب من لم تكن تفكر في انتدابهم
من الوزراء والساسة والسفراء !

أكل هذا لا يكفي لاعتبار المسألة الداخلية في أمة مسألة داخلية في الأمم
الأخرى ؟

بلى . إنه لكاف وأكثر من كاف

ولكنّ النازيين أغاروا على بولونيا ومن ورأها أمم شتى تنتظر وتحسب
أنها تسلم بالانتظار ، وتبتمد وتحسب أنها تأمن بالابتعاد

فلم تنقض أسابيع حتى فهمت كل واحدة منها أنها أخطأت في حق نفسها
وأخطأت في حق غيرها ، ولم تعد أحدا غير المعتدى عليها وعلى غيرها

فلا هي سلكت طريق الروءة ، ولا هي سلكت طريق السلامة . . .
وبئست السياسة التي تحيد عن هذين الطريقين لتمهد يديها طريق المعتدين عليها

انتهى في السياسة الدولية عهد « مصلحتي » وعهد شثوني وكفى !

وأصبحت المصلحة الآن في التوحيد بين المصلحة الوطنية والمصلحة العالمية ،
فلا تنفرد أمة في سياستها إلا على نية من نيتين : العدوان على غيرها أو التعرض
لعدوان المعتدين

فاذا أبت أمة من الأمم إلا أن تفرغ جهودها كلها للسطوة العسكرية وأن
تشبع نفوس أبنائها كلهم بتنازع البغي والعدوان ، فإذا يبقى للأمم الأخرى
بإزاء هذا الخطر الذي يهددها واحدة بعد واحدة ؟

لا يبقى لتلك الأمم إلا أن تعمل كل منها منفردة فتستمد وحدها لدراء
الخطر عنها ، وهي الخاسرة بما يضيع عليها من الأموال والجهود وعلى أبنائها من
الحقوق والحريات

هذا أو تعمل الأمم مجتمعات وتقلع عن سياسة «مصاصي» ، «ولا يعني»
لأنها تقيض المصاحبة والمروءة والسداد

وفي هذه الحالة يكفيها ربع الاستعداد الذي كانت مضطرة اليه لو أنها عملت
على انفراد

لأن دولاراً عشراً تبذل ربع مجهودها ومالمسا أقوى من دولة واحدة تبذل
كل ما عندها من مجهود ومال

فـهـذه «الخطه العالميه» أقل نفقة وأقرب إلى السلامه ، وأشبه بالسكرم
والمروءه ، ولا عائق يعوق الأمم عن المضي فيها إلا البلاده والغباء

ومتى ثبت لزوم الخطه وثبت إمكانها ، وثبتت فوائدها فهي في انتظار
«الاداة» التي تصلح لتنفيذها ، أو هي في انتظار «واسطه الاتصال» بين
الحكومات

وليست هذه الواسطه المرجوة — بن الضرورية اللازمه — بالطريق المقطوع
فالتعاون الدولي قد أخرج بعد اليوم ضروره و «عقلا» ولم يعد كما كان
قبل اليوم حلما من الأحلام أو عاطفه من عواطف التخيلين
وصداقات الدول لا ينبغي أن تقوم غدا على أساس غير أساس الاشتراك في
العدوان أو الاشتراك في دفع العدوان
والاتفاق على دفع العدوان أيسر من الاتفاق على العدوان ، لأن المعتدين
يتغالبون ويتنازعون ، ولا يعضون في الوفاق الى نهاية الطريق
وتلك قضيه الغد

وتلك هي عبره الحرب الحاضره ، إن كانت لها عبره على الاطلاق

فلهذه الحرب أغراضها التي لامناص من تحقيقها

ولانفى تلك الأغراض التى يملئها الساسة ويؤمنون ، أولا يؤمنون ، أنهم
يعملون لها وينتهون اليها

ولسكننا نفى الاغراض التى تتجه اليها الحوادث وتوجه اليها الساسة فى
تيارها الجارف الذى لايسلس عنانه لأحد ، وإن خيل الى كثيرين أنهم قابضون
عليه ، مستوون فى الركاب

وكل حادث عظيم من حوادث الدنيا فله نتائجها اللازمة اللازمة اذا شئنا أن
نتجنب كلمة المقاصد

فالحرب الماضية انتهت بزيادة الأمم المستقلة فى أوروبا وأفريقيا وآسيا ،
وبدخول التحكيم الدولى فى دور جديد من أدواره الكثيرة ، وبفشل النزعات
المادية فى تجارب الأمم والأفراد . فقد فشلت تجربة الماركسية فى روسيا بعد أن
أتيحت لها فرصة لا نظير لها ، وفشلت تجربة الخلاعة والانطلاق من ضوابط
الآداب والأخلاق ، فأحس كل خليم مستخف بتلك الضوابط أن النفس التى
لاضابط لها نفس متفككة خاوية ، وأنها من أجل ذلك خليفة أن تهالك
وتستخذي فى إبان سرورها وانتشائها ، كأنها تنفر من ضعفها وتغترز من خواها .
فرجعت النفوس تتمرد على التمرد ، وتمثل طريقها الى الايمان والثل العليا
واذا قصرنا القول على الجانب السيامى فقد تحقق شطر من أغراض الحرب
الماضية وهو تقرير المصير فى أمم كثيرة ، وبقي شطر فى انتظار التحقيق وهو
انصاف الاقوام الصغيرة أو الاقليات ، واتمام التعاون « عملا » بين الحكومات
فما هى أغراض الحزب الحاضرة ؟

أولى من سؤالنا عن أغراضها أن نسأل عن أسبابها

فاذا سألنا عن تلك الأسباب ظهر لنا الماركسيون والماديون بأسبابهم التى
لا يعرفون . غيرها ، وخلاصتها المضحكة أن الدول قد انفتت ألوف الألوف من

ربوات الدنانير للوصول الى عشر معشار هذا المقدار، وهى لا تثق من هذا المكسب كما وثقت كل الثقة من ذلك الخسار

والماركسيون أو الماديون أول من يجهل أن « الدينار » ليس بشيء فى ذاته، وأنه لا يصبح شيئاً إلا حين يمثل حاجات النفوس والأجسام ، ومنها الغلب والزهو وإرضاء الأوهام والخيالات

وقد أحصيت أسباب شتى للحرب الحاضرة غير أسباب الماركسيين والماديين وهى الخوف من الحرب واتخاذ الحيلة لها ، وفقدان المثل العليا والأصول الاخلاقية التى لا استقرار للنفوس مع فقدانها ، والتفاوت بين الامم فى طبقات الحضارة ونظم الاجتماع . فان التفاوت يمنع التعامل بقسطاس واحد ، ومتى تعددت أساليب المعاملة صعب التوفيق ونجمت أسباب الخلاف

إلا أن هذه الاسباب جميعاً تنطوى فى السبب الأكبر الذى تتلاقى عنده ، ولا قبل لنا باستيعابها فى تفصيلها إلا اذا استوعبناه فى جملته ، ثم رددناها اليه ذلك السبب الأكبر هو افتراق الطريقتين بين الماضى والمستقبل ، فان العالم اليوم حائر بين ماضيه ومصيره ، فلا هو قد فرغ من الماضى بته ولا هو قد وصل الى تقرير المستقبل وتوطيده والاتفاق عليه

ماض لا رجعة له ، ومستقبل لم يأت بعد ، وقد آذن فى عصرنا بالظهور : فى الماضى كانت السياسة تقوم على أساس المصبيات وتكثر منها استطاعت لتعتر بناصرها : بين عصبية وطن وعصبية جنس وعصبية لفة وعصبية دين ، وعصبية موقع ومصالحة

وفى المستقبل يضيق العالم بهذه المصبيات ، لأنه يتسع ويتقارب بمواصلاته، وكلما اتسع وتقارب اشتبكت مصالحه ومشاربه وتعذر على الامة أن تنعزل فيه ، واستحال أن يحكمه قوى واحد وأن يتفق على تقسيمه أقوياء متحاربون ،

واستحال أن يُهمل فيه شأن الضعفاء ، فلا غنى فيه عن التفاهم والتعاون ، وأن
ينسحق فيه القوى الذى لا يأخذ خصومه الأقوياء والضعفاء بغير السلاح
فلا مناص إذن فى النقد المنظور من قيام السياسة على أساس العلاقات
العالمية المشتركة ، حتى فى الأمور التى كانت تستأثر بها كل دولة وتأبى أشد الأبناء
أن تشاركها الدول الأخرى فى كثير أو قليل منها ، كالسلسلة والجيش والسياسة
الخارجية ، والمصطلحات الاجتماعية
فهذه المسائل كانت معدودة فى شريعة المعصيات القديمة عنوان السيادة
القومية التى يستقل بها كل قوم عن سائر الأقوام
فأصبحنا فى مسألة العملة نرى كثيرا من الأمم ترتبط بنظام واحد وترجع
إلى ثقة واحدة ، ولا تملك أمة واحدة أن تستقل بعملتها عن سائر الأمم
وأصبحنا فى مسألة الجيش نرى فرنسا تشير على إنجلترا بنظام التجنيد فتقبل
إشارتها ، ونرى أسطولا فرنسيا بقيادة إنجلترا ، وجيشا إنجليزيا بقيادة فرنسيين ،
ونرى نحن المصريين اننا نقبل الجيوش الأجنبية فى أرضنا ونعتبر إقامتها بيننا أثناء
الحرب تنفيذا لاتفاق محمود مرغوب فيه
وأصبحنا فى السياسة الخارجية نرى المذكرة الواحدة تكتب وتدرس فى
دواوين أمم كثيرة قبل انفاذها ، ونرى اللجان « المختلطة » تحمل محل الوزراء
المنفردين فى كل دولة
وبلغ من اشتراك اللجان ومجالس الحرب فى جميع الشؤون أنها لم تترك عملا
واحدا تنفرد به السيادة القومية على النحو القديم
فهذا عالم جديد ، وهذه أحوال جديدة ، وهذه طلائع المستقبل لا بد أن
تبلغ تمامها ، ولما تبلغه بعد
ومن ثمة هذا التثقل ، وهذه المحاولات ، وهذه التجارب ، تارة فى ميادين

السياسة وتارة في ميادين التجارة ، وتارة في ميادين القتال

وما من عبث ولا مصادفة قد انقسم المسكران المتقاتلان اليوم هذا الانقسام
ممسكر ألمانيا وأصحابها الظاهرين والمستترين ، وممسكر بريطانيا العظمى ومن
معها من الحلفاء والأصدقاء

بل هما يمثلان في انقسامهما عالم العصبية من جهة ، وعالم المشاركة العالمية
من جهة أخرى

فها هي ذى المانيا تحمل راية العصبية الجنسية باسم الآرية أو باسم الأقوام
الشمالية ، وفي صفها أو من خلفها روسيا الشيوعية وهي التي تحمل راية التعصب
للطبقة العاملة وتسميها سيادة الصعاليك

وها هي ذى بريطانيا العظمى تحمل راية المشاركة العالمية وتقوم على التساند
بين شعوب كثيرة داخل الامبراطورية وخارجها ، قد اتصلت كلها بالمحالفات
والمعاهدات والساتير التي تساعد على المعاونة ولا تمنع الاستقلال ولا تجور على
الحقوق الوطنية ، فليست كندا ولا استراليا ولا أفريقيا الجنوبية أقل استقلالاً
في اعلان الحرب من انجلترا نفسها . . . أما خارج الأمبراطورية فهناك فرنسا
وتركيا ومصر على اختلاف الأجناس واللغات والعقائد تتعاون وتتفق في الغاية
اتفاق الأنداد ، الذين لا ينوون البنى على أحد من الأحرار ، باسم تعظيم جنس
حاضر أو إحياء دولة غابرة

ففي أحد المسكرين نموذج صغير للعالم البائد عالم العصبية والعداوات
والمشاكسات ، وقوامه جماعة النازيين

وفي المسكر المقابل له نموذج صغير للعالم المقبل عالم التعاون على تحقيق المشاركة
الدينيوية في غير تعطيل للسيادة القومية ، وقوامه جماعة الحلفاء
وبين هذين النموذجين ، أو هذين المسكرين ، سر الحرب العظيم الذي تندمج

فيه الأسرار كافة، وسببها الأكبر الذى تنفرع منه الأسباب النفسية والفكرية والاجتماعية والتجارية قاطبة . وتلك هى قضية الند التى نترقب الفصل فيها بعد الحرب الحاضرة ، ولا يعنى الفصل فيها أحدا من بنى الانسان كما يعنى الأمم المزلاء

* * *

ومن التقرير بالآمال أن نتخيل أن المشاركة العالمية حاصلة فى بكرة المدنة بعد الحرب الحاضرة ، وان الدول سترمى السلاح بيد وتقيم حق العالم باليد الأخرى . فالعافية درجات كما يقولون فى حكمة العامة ، وأمثال هذه الآمال الكبار لاتسرع إلى التمام فى اللحظات القصار ، وحسبنا أن نعرف اتجاه آمالنا وأن نتوخاه فى أعمالنا فنطمئن إذن إلى كل خطوة نخطوها ، ونزغ عن عقولنا حيرة السالك فى مفازة لا معلم فى أرضها ولا قطب فى سمائها . وثوب إلى الايمان فى السياسة ، فنصيب صواب المؤمنين ونخطئ خطأ المؤمنين ، ولا نقذف بأنفسنا فى تيار الحوادث يجرنا إلى حيث شاء ، ويمضى بنا من حيث لاندري إلى حيث لاندري . كأننا خشبة من حطام لادفة لها ولا شراع

ليست هذه الحرب نهاية الحروب ، وليس اللهم أن تنتهى الحرب بعد أمد قريب أو بعيد

وانما المهم ان تفصل بين بطولة الحرب واجرامها بفصل يميزه الناس كما يميزون. موت الشرطى فى سبيل الحق من موت اللص على مشنقة القصاص ، وأن تكون للعالم شريعة يدين بها الخارجين عليه كما كانت لكل أمة شريعة تدين بها من يخرج عليها

وقد يمضى زمن قبل أن يُشلق رئيس أمة باغية جزاء له على اضرار الحرب فى سبيل شهواته وخيالاته ، ولكنه إذا أصبح فى أعين الناس مستحقا للشنق

فوصول الجبل إلى عنقه وتقديره عن الوصول اليه سيان في حكم الآداب والأخلاق

وستبقى القوة والضعف بعد الحرب الحاضرة ، وتبقى بعد جميع الحروب المقبلة ، سواء نشبت في سبيل الفتوح والمغامرات أو نشبت في سبيل العدل والأمان

فلن يأتى في تاريخ العالم يوم تصبح فيه القوة هى الضعف ويصبح فيه الضعف هو القوة : ذلك الغاء لمعنى الكلمات فضلا عن الغائه لحقائق الأشياء ولكن القوة ضروب .

فاللص الذى يقطع الطريق ويزهق فرائسه المنهزمين قوى يعتمد على قوته . والسيد السرى الذى يطعم فى حق الضعيف فيبذل المال فى إرضاء المحامين والشهود وتضليل القضاء وتقض الشريعة قوى يعتمد على قوته

إلا أننا لانعرف عاقلا على الرغم من هذا يقول : الغوا القضاء وأبيحوا قطع الطريق لأن القوى والضعيف لايتساويان ، أو ينكر أن نصوص الشريعة وانظمة القضاء مكسبه انسانى يفار عليه المظلوم وان لم يبلغ منه مايروم

فن قال ان الحرب الحاضرة تسوي بين القوى والضعيف فهو خادع أو مخدوع ، ولكنها إذا استطاعت فى عالم السياسة الدولية أن تفرق بين قوة اللص الخارج على الجماعة وقوة السرى المعز بمنزلته فى أمتة فقد — استطاعت الشيء الكثير ، وتركت بقية للمستقبل عسى أن تتحقق فى زمن يسير

كيف تتأدى الحرب الحاضرة إلى هذه الغاية ؟
الرأى عندى أبداً هو أن العقيدة سابقة للنظام كما أن الوظيفة سابقة للعضو
فى اصطلاح علماء الاحياء

فهل وجد في الدنيا شيء يسمى « الحق العالمى » وشيء يسمى « الجريمة العالمية » ؟

هل ينظر العالم إلى من يزجج سلامه ويستنهين بقرات الآداب فيه نظره إلى مجرم مأفون أو نظره إلى بطل جليل ؟
ذلك هو السؤال !

فإذا كان « الحق العالمى » قد وُجد بيننا ، بل إذا كانت الرغبة في وجوده قد غلبت على نفوسنا ، فالنظام الذى يتولى الانفاذ والاجراء بالمرتبة الثانية بعد هذه المرتبة الأولى !

والذى أعتقد جازما لا أشك فيه ان تقرير الحق العالمى واجب ، وإننا اليوم في مقام المشرع الذى يريد أن يقرر بالنصوص حقوقا مرغوبا فيها وجرائم مغضوبا عليها ، وإننا في أوتها وفي فرصتها الكبرى ، فينبغى أن نضن بها على الضياع

ويأتى بعد ذلك دور « النظام » الذى يتكفل بالانفاذ والاجراء ، فإذا عسى أن يكون هذا النظام ؟

إن الفروض والمقترحات في هذا الباب لا تقتصر على المثاليين والخياليين ، فان أناسا من المسؤولين في السياسة كالسيو بريان قد عرضوا على سيم وعشرين دولة أن يفكروا في تأسيس « اتحاد » كالاتحاد الأمريكى أو السويسرى أو الأسترالى على نحو من الأنحاء ، قبل نشوب الحرب الحاضرة بعشر سنوات

وقد سبقه ولحق به مفكرون من الأدباء والحكماء ذهبوا إلى توحيد الوزارات وتوحيد المجالس النيابية وتقسيم الكرامى فيها بين الأعضاء على قواعد يؤثرونها ويحسبونها وافية بالقصد قابلة للانفاذ

ويطلب على الظن أن إنشاء هذا الاتحاد غير مبسور وغير لازم في الجبل

الذى نحن فيه ، لأن الاتفاق على أساس الانتخاب عسير . فهل نعتد في الانتخاب على العدد ؟ أو نعتد فيه على طبقة الحضارة ؟ لا هذا ولا ذاك مما يسهل الاتفاق عليه

إلا أن الاتجاه مع ذلك مرسوم
والخطوات الأولى في هذا الاتجاه تغرى بخطوات تالية لاتُخشى عاقبة
المضى فيها

وأسهل من إنشاء الحكومة العالمية فيما نرى توجيه الجهود إلى إنشاء سوق عالمية للخامات ، وسوق عالمية للمصنوعات ، وأن يكون الاصدار والايراد بين هذه وتلك بمقدار متفق عليه ، على مثال الاتفاق الذى تلاحظه الدول فى زرع الحبوب والأغشاب التى تدخل فى سموم المخدرات

وليس من الضروري أن يتوحد مكان هذه السوق أو تتوحد مصادر التصدير والتوريد . إذ يكفي أن يتوحد مكتب التسجيل والاحصاء حيث كان الانتاج والتوزيع ، ليعرف الطالب من أين يطلب والبائع لمن يبيع . وخلق العالم الذى تتصل فيه شرايين الأثير والكهرباء بين تليفون وتلغراف ومذياع أن يهدما كان عصيا . من هذا المطلب قبل سنين

ولا يخلو من الطرافة أو من الأهمية أن نشير هنا إلى اقتراح الزعيم الألماني الذى يرشحه الكثيرون لرئاسة الحكومة الديمقراطية فى ألمانيا بعد هزيمة هتلر وسقوط نظامه ، ونعني به أوتو شتراسر Otto Strasser شقيق جريجور شتراسر ومساعدته فى إنشاء حزب النازى بأقاليم ألمانيا الشمالية ، وقد كان جريجور صديقا لهتلر وكان هتلر أباً لولديه التوأمين فى العمد . ثم انفصلا . فأرسل إليه هتلر نقران أعوانه فأخذوه من بيته وهو بين زوجته وأبنائه وقتلوه ركلا بالأقدام

لكنّ هتلر لم يسترح من أوتو كما استراح من جريجور ، ولا يزال يخشاه
ويتهمه بكل مكيدة تصيبه أو تصيب نظامه
ورأى « أوتو شتراسر » فى علاج مشكلة التجارة العالمية وما تنطوى عليه
من مشكلة للمستعمرات أن تؤلف لها شركة كبرى تدور فيها الأعمال على أساس
المعاملات المالية التى لا تحتاج إلى مداخله من الساسة أو الجيوش
ورأيه الذى أبداه لمكافحة الحرب قبل بضع سنوات أن تنصف الدول
المانيا وتتضى على سيطرة بروسيا قضاءً لا تقوم لها من بعده قائمة ، وعنده أن
تقويض بروسيا لا يتأتى بغير تقويض السادة البروسيين الذين يحتكرون الضياع
الواسعة ويعيشون فيها عيشه الطغاة ولا يأذنون لحكومة فى المانيا أن تستقر وتمهداً
فى أماكنها ما لم تتم على أركان الطفيان والعتو والعدوان
وفى هذا رأى هو ولا شك مصيب ومخلص لوطنه وللعالم .. فما تأتى للصائب
لألمانيا ولا للامم المبتلاة بطغيانها إلا من قبل أولئك « السادة » البروسيين

* * *

على أن التفكير فى حرب الدول لا يبنى عن التفكير فى حرب الطبقات ، إذ
ربما نجحت الحرب الدولية من جرائر النزاع بين طبقة وطبقة فى أمة واحدة ،
أو أمم عديدة

والرأى اليقين فى هذا الصدد أن حرب الطبقات لن تهدأ بتغليب طبقة ولا
باستنزاف طبقة ، سواء كانت هى طبقة الأغنياء أو طبقة الصغار ، وإنما تهدأ
بالتعاون القومي والتنافس الشريف ، وتبقى الطبقات باقية ، ما بقيت الحياة ، إذ
ليس السر الكامن وراءها سر « النقود » كما فهم كارل ماركس وأشياعه ، ولكنه
هو سر الحياة الذى يقضى بتعدد القيم وتعدد المساعي وتمدد الكفاءات والأذواق
واللبنات

وخير ما تعالج به مشكلتها أن تتوسع الأمم في نظام « الجماعات التعاونية » فلا يستفيد « رأس المال » شيئاً إلا كان مردّه إلى المشترين ، وأن تتوسع في نظام المشاركة بين العامل وأصحاب العمل فيصبح للعامل نصيب في ربح عمله ، وترجع الدولة إلى مافاض من ربح يتجاوز المعقول فتأخذ منه حصة للضريبة التي تفيد الجماعة كلها ، وتعين الفقراء منها قبل الأغنياء

لا نقول إننا وفيما الكلام في الإصلاح السياسى أو الإصلاح الاجتماعى بما قدمناه ، فليست توفية الكلام في ذلك من مطالب هذا الكتاب ولا نقول إن حلاً من الحلول السياسية والاجتماعية كائنا ما كان سيفض مشكلة الحياة بين الأمم والأفراد . فمشكلة الحياة لا تقض ، ومطالبها لا تنتهى ، وقصاراها أن

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة مابقى
فان الحياة التى لا تواجه كل يوم كشفاً جديداً وتسعى كل يوم إلى مجهول
جديد لهى حياة قراء جدباء لا تستحق أن تعاش

ولكننا نقول إننا أشرنا إلى وجهة الهداية ، وإننا إذا مضينا فى هذه الوجهة على هداها فقد بلغنا شوطنا ، وأبرأنا ذمة أمسنا إلى غدنا ، ولم نكن — نحن أبناء العصر الحاضر — سداً يعوق طريق العصر المقبل ، أو غيبها ينحرف به عن مسراه

اجتمع مجلس النواب المصرى فى بداية دور انعقاده بعد اتفاق ميونيخ بنحو شهرين ، ودارت فيه - لمناسبة الرد على خطاب العرش - مناقشات عدة عن علاقة مصر بالحالة الدولية فى أوربا وغيرها من الأمم الأجنبية ، وكنت مقررا للجنة الرد على خطاب العرش ، فأجبت على الملاحظات التى أبديت فى هذا الصدد بما يلى :^(١)

... « سمعنا كلاما متعددًا عن مادة الطوارئ فى المعاهدة وما عسى أن نجبرنا إليه من مشكلات لا شأن لنا بها . فن المتفق عليه - ولا شك - بين جميع المصريين أن مصر لا ينبغي أن تدخل حربا يمكنها اجتنابها . ولكن ماهى هذه الحرب التى يمكننا اجتنابها ؟ ... »

أخشى يا حضرات النواب المحترمين أن يفهم من هذا أننا نقيس الأخطار من حيث قربها أو بعدها بالمقياس الجغرافى . . . أو بمقياس الأيام والساعات ! . . . فالفرق عظيم جدا بين منشأ الحادثة وبين النتائج التى تؤدى إليها ، ومثال ذلك قريب إلينا من الحرب العظمى . فبلدة سيراغيفو بعيدة كل البعد من الولايات المتحدة ، بعيدة كل البعد من اليابان ، ولكن حادثة واحدة وقع فيها كان كافيا لأن يزوج بكتلتا الدولتين فى حرب يظهر لأول وهلة أنه ليس بينهما وبينهما شأن كبير . أما نحن فقد وصلت إلينا قلبت تاريخنا وغيّرت نظام الحكم عندنا

(١) مضبطة الجلسة الثالثة عشرة (٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٨)

وأنشأت لنا تاريخاً آخر غير ما كان يسير اليه مجرى الحوادث لو لم تقع هذه
المأساة في سيراغيفو ، وهذا مثل بسيط يمكن أن يتكرر في كل حادث

« قيل ان أعداء بريطانيا العظمى كثير ، وهذا صحيح . ولكن يجب أن
نذكر أن أعداء بريطانيا العظمى لا يحاربونها ليحتلوا لندن ولا لينتزعوا ليفربول
ولكنهم يحاربونها ليحتلوا مصر وأشباه مصر . فالخطر متجه اليينا على كل حال ،
وإذا اتفردنا باخطارنا فليس معنى ذلك أنها تنقص بل لعلها تزيد ، ولست أعنى
بهذا إلا أن نعرف الحقيقة على جليتها لأن من يتوهم أن الخطر بعيد وهو قريب
منه يوشك أن يقع فيه »

وبعد كلام عن ميناء اسكندرية وقناة السويس قلت في الرد على بعض
حضرات الأعضاء ممن يرون الحد من الحرية الفردية .

« يريد . . . أن ينفى الفرد في المجموع أو في الدولة ، ولا يجوز أن أفهم
من ذلك أنه يريد إقامة حكم نازي أو فاشيستي في مصر ، ولكن يجوز لي أن
أقول إن فناء الفرد في الدولة شيء لا تعرفه الديمقراطية

« فالديمقراطية تعطي الفرد أقصى ما يستطيع من الحقوق ، ومعلوم أن
الغرض الأكبر من التقدم الانساني هو حرية الفرد قبل كل شيء ، وان التفاضل
بين أمة وأخرى إنما هو في الأمة التي يتمتع فيها الفرد بحقوق الأحرار ، وليس في
مصر من يرى فرقا بين رجل يستعبده أحد من قومه سواء كان زعيما أو غير زعيم
وبين رجل يستعبده حاكم أجنبي . هذا وهذا سواء عندنا على كل حال . لأننا
نريد أن نكون أحرارا إزاء كل حاكم سواء كان وطنيا أو أجنبيا
ثم قلت :

« ان القوة العسكرية يا حضرات النواب المحترمين ليست هي مقياس
الحضارة لأنها قد تكون ضرورية للوصول إلى غرض معلوم أو موقوت ، ولم يقل

أحد من الناس أنها هي مقياس الحضارة ، أو أن ترقى الجنس الانسانى انما كان بمقدار كفاءة الأمة فى انشاء الجيوش . فأتيلا وهو لا كـو مثلاً كان لهما جيش يعتبر من أقوى جيوش العالم . انما مقياس الرقى والتقدم الانسانى هو شىء واحد : وهو الانتاج العقلى ونبوغ العلماء والمفكرين والفنانين والمثقفين

فلنرجع إلى حالة البلاد التى أخذت بالنظام الدكتاتورى لنرى حالتها من ناحية الانتاج العقلى . أقول مع الأسف أن كل أمة أخذت بهذا النظام ضاعت فيها الحرية الفردية فركد فيها الانتاج العقلى ركوداً تاماً ولم يظهر فيها فى السنوات العشر الأخيرة عالم أو نابغ أو كاتب مشهور

« لقد اعترفت صحيفة (دوتشى الجين زيتونج) كبرى صحف المانيا التى تعد من مفاخرها أن حالة الثقافة فى الوقت الحاضر حالة محزنة ، وإنهم يأسفون على القرن التاسع عشر الذى لم تخل فيه سنة من أثر قيم تجاوب به أنحاء العالم » ووقف المهرتار فى مؤتمر الثقافة فى نورمبرج منذ سنة واحدة وأعلن أن ألمانيا لا تزال تعوزها العبقريات الفذة التى تعبر عن شعور الجماع . لم حدث ذلك ؟ يجب أن نبحث عن السبب لا أن نوازن بين تقدم الشعب فى البلاد المختلفة . فالسبب أن فناء الفرد فى المجموع ينفى المواهب العليا ، وإذا استمر هذا خافياً سنة أو سنتين فلا بد من ظهوره فى المستقبل ، لاسيما عند ما يتجاوز الغرض الموقوت الذى أنشئ هذا النظام من أجله

« وإذا كان مثل هذا الضغط على الحرية الفردية قد أصاب بلاداً لها سبق التقدم فى العلوم والمخترعات فماذا يصيبنا منه هنا ونحن لا تزال فى أول شوطنا ؟ أظن أن الكارثة ستكون عظيمة ، وسنأس من مستقبلنا ولا نبغى شيئاً فى مقابلة ما جناه أولئك الحكام من الضغط على الحرية الفردية . ومع ذلك من منا يشك فى أن المانيا مثلاً لو استطاعت أن تكون مثل إنجلترا فى ديمقراطيتها ما كانت

تلبجاً إلى الحكم الدكتاتورى ؟ إنها لو استطاعت أن تكون قوية كأنجلترا لما فعلت ذلك . فهى واقعة فى حكم الضرورة القاسية ، والاضطرار لا يتخذ مقياساً لمجرى الحياة العامة . ثم من أين لنا إذا انشأنا دكتاتورية أن تكون مثل ألمانيا ؟ لماذا تقابل أنفسنا بألمانيا وانجلترا ولا تقابل أنفسنا بمن هم أمثالنا ؟ لماذا لا نقول أن ديكاتاتوريتنا فى هذه الحالة تصبح كالدكتاتورية فى دول أمريكا الجنوبية ؟ ولماذا لا نقول إنها تكون مجالاً للنهب والسلب واظهار أخط الشهوات ؟ إن المعروف عن معظم الدكتاتورين أنهم لا يطمعون فى مال ، فمعروف عن هتلر وموسوليني وستالين أنهم يعملون بلا أجر . فمن أين لنا الا يقيض الله لنا فى مصر لصاً باسم دكتاتور »

* * *

هذا الخطاب الذى ألقى فى مجلس النواب قبل الحرب الحاضرة بتسعة شهور يلخص جملة الآراء التى وردت فى هذا الكتاب

ولم يتغير الموقف بعد قيام الحرب الأوربية الحاضرة ، بل اقترب من الظهور والتوكيد كما تقترب الصورة التى كانت بعيدة ثم أخذت تتدأى وتعرض للضياء ففصر لا تستهدف للطوارئ والأخطار وحدها فى الحرب الحاضرة أو فى الأزمات الدولية التى تليها ، ولكنها تستهدف لها مع غيرها

ولهذا كان من السداد والانصاف ألا تنوء وحدها بأعباء الدفاع عن نفسها والاستعداد للطوارئ والأخطار التى قد تكتنفها وتكتنف غيرها وهى لو أرادت ذلك لما أطاقته ولا أطاقات بعضه

لأنها تحتاج إلى مئات الألوف من الجند يحمون حدودها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ويحرسون مواقعها الأخرى فى إبان السلم . وتحتاج إلى أضعافهم فى إبان

الطوارئ والحرب الواقعة ، و إلى أسطول ضخيم يحرس تجارتها في البحار القريبة ،
و إلى مصانع للسلاح مستوفاة كل الاستيفاء على اتصال دائم بينها وبين موارد
المعادن والخامات

وما دام الخطر على مصر لا يصيبها وحدها فمن الظلم أن تنوء وحدها بدفعه
في جميع الحالات

حسبها أن تقوى على دفعه حتى توافيها قوة حلفائها ، ثم تكون قادرة
على المساهمة بالنصيب النافع في ترجيح الكفتين ، ولا تظل عالة على كواهل
الأصدقاء ، مهمة في حساب الأعداء

ولست مصر بدعا في هذه السنة . لأنها السنة التي تجري عليها الدول كبيرها
وصغيرها . فلا تنفرد واحدة منها في ميدان السياسة أو الحرب كأننا ما كان حظها
من العدد والعدة والثراء

فلا بد لمصر من صف تقف فيه

فأى الصفين أكرم لها وأصون لمصيرها وأدنى إلى مقدرها ؟

أندخل صفا يشترك داخلوه في العدوان ؟

أو صفا يشترك داخلوه في دفع العدوان أيا كان السبب : للشعب أو للضرورة
أو لحب الحرية والسلام ؟

أما أن تدخل صفا تشترك فيه مع المعتدين فلا حاجة لها به ولا إمكان ولا
أمان : لأنها لم تتطلع قط إلى بلد تعتدي عليه ، ولن تأمن أن يعتدي عليها من
يخرجون للعدوان على الناس ، وهي في طليعة المقصودين المهددين

فليس لمصر مكان أكرم من تأييد الديمقراطية ومبادئ التفاهم بين الشعوب
والإيمان بقداسة المواثيق والعهود

ومن كرامة مصر أن تخرج الديمقراطية من الحرب الحاضرة قويةً قادرة على
الثبات في ميادين السياسة العالمية ، لأننا عائدون لآمالنا الى القلائل والمطامع والعجز
عن التعمير والى اتفاق الأموال فيما يضيع ولا يفيد اذا بقيت الدول الباغية قادرة
على التهديد والارهاب ، غير هيابة ولا مترددة أمام بأس الخصوم
ذلك أكرم الطريقين وأسلم الخيرتين . بل هي الخيرة الوحيدة التي يملكها
العقل وهو حر طليق

أما المعبرة لنا نحن المصريين من موضوع هذا الكتاب الأول وهو تقويم هتلر
ووزن مزاياه بالميزان الوحيد الفارق بين الانسانية والوحشية فهي اجتناب الغلو في
استمظالم أعماله وأعمال أمثاله ؛ لأن استعظام القدرة على مثل تلك الاعمال قد
يسوق الى الاعجاب الخاطيء ؛ والاعجاب الخاطيء قد يسوق الى قبول ما يستنكر
ولا يحمل بضائر الاحرار

وعبرة أخرى هي اليقظة للدعوات التي من قبيل الدعوة الهتلرية كلما ظهر
لها مروجون في السياسة المصرية . فقد يخطر على البال أن الهوادة مع هؤلاء
المروجين لن تضرنا عاجلا ولا آجلا لأن الخطر الكبير لن يأتي الا من رأس كبير
أو طبيعة غلاية أو رجل نادر بين عظماء الرجال . فاذا عرفنا حقيقة هتلر وعرفنا
أن رجلا متهم العقل متهم الضمير مقسم الرأي والهوى بين الجنون والاجرام
أملت له الظروف والمصادفات فصنع ما صنع واقترف ما اقترف لم ننتظر بمن يحملون
عود الثقاب حتى يتاح لهم مخزن البارود المستور ، ولم نجعل الجذر رهينا بالحريق
دون عود الثقاب ، أو بكبار الرجال من ذى الملكات العليا دون الأوساط ومن
هم أقل من الأوساط . فان الشر لم يقدركم المكان الذي يتبوأه الشرير ، وان المكان

الذى يتبوأه الشرير لقد ترفعه اليه المصادفات ولا يشترط فى كل حال أن ترفعه اليه
عظمة واقتدار

والعبرة الكبرى فوق كل عبرة وبعد كل عبرة هى أن نصصح مقاييسنا
للحوادث والرجال. فان الانسان يطلب جودة النظر لأنها جودة النظر ، قبل أن
يطلبها لما تجزيه من نفع أو وقاية ، ولا يزال يطلبها ويحرص عليها ولو استغنى
عن المنافع والوقايات

كلمة ختام

نختم هذه الصفحات وهتلر ماضٍ في مغامرته الجديدة التي يقامر فيها بأرواح الملايين وهو لا يبالي مصير ضحاياه

ونعني بمغامرته الجديدة هجومه المنيف على شمال فرنسا من طريق هولندا وبلجيكا وامارة لكسمبرج ، وفاقا لخطه عسكرية عجيبة . . . يعتمد فيها كليا قول جورينج على الوحي والآراء الثورية ولا يعتمد على أصول الحرب الممهودة ولا على آراء الخبراء من العسكريين .

وكل « وحي » يدعيه هتلر فأنما هو في حقيقته تجربة فجائية قوامها المعارف المشتتة ، والقامرة الجاحمة ، والاعتماد على الخيانة والتقصير في موضع من المواضع وربما كانت خيانه الآخرين أقوى الدعائم التي يعتمد عليها في مغامراته ، لأن هذا المخلوق الموكوس لم يثق قط بفضيلة من فضائل الانسان بعض ثقته التي لا حد لها بالسفالة الانسانية والغفلة الانسانية . ومن هنا تلك الدعوة التي يستغفل بها الناس وتلك الأموال التي يشتري بها ضمائر الناس . بل تلك الضراوة الوحشية التي يثيرها في نفوس أتباعه بالتحريض والتلقين ، ولاتعد من الشجاعة أونبل الأخلاق لانها انتكاس إلى غرائز السباع . . . إلا إذا عُدَّت ضراوة السباع ضربا من الخلق النبيل

أما المعارف المشتتة هنا فهي خطة الكونت شليفن ، وخطة جورينج المعدلة

لها بعض التعديل ، وتقريرات الضباط الذين شهدوا الفتنة الأسبانية وغارة الترويج
نخطة الكونت شليفن هى الخطة التى وضعها هذا القائد الكبير يوم إن قام
برئاسة أركان الحرب فى روسيا من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٩٠٦ وبنائها على طريقة
هانيبال فى معركة كانيا Cannae حيث هجم هجومه العنيف بكل ما عنده
من الفرسان على جناح العدو ثم اغرى الجناح الآخر منه بالتقدم إلى حيث استهدف
للتطويق السريع .

وكان شليفن ينوى توجيه ثلاثة أرباع الجيش الألمانى — أى توجيه ثلاث
وخمسين فرقة من اثنتين وسبعين — فى جناحه الأيمن إلى حدود هولنده وبلجيكا
ثم الأرض الفرنسية على الشاطئ إلى العاصمة الفرنسية ، وأن يزود هذا الجناح
الأيمن بأكبر ماعدن الألمان من المدافع الضخام التى استكثروا منها كل الاستكثار .
فلا تنفضي ، على تقديره ، ستة أسابيع حتى تنفض هذه القوة الجانحة على باريس .
وقد أوشكت خطته أن تنفذ فى الحرب الماضية لولا ان القائدين مولتكة
الصغير وفون كلوك خالفها فى عدة أمور ، فأهملا الهجوم على هولنده وأضعفا
الجناح الأيمن بما سحبا من فيالقه القوية لتعزيز الجيش الألمانى فى الشرق
وتعزيز الجناح الأيسر فى اللورين . ثم وقع الخطأ فى الزحف إلى الجنوب فلم يجر
على النحو الذى قدره صاحب الخطة من الامراع والاحكام .

وليث الألمان يتغنون بهذه الخطة ويعتقدون أنها صالحة للتنفيذ فى تجربة
أخرى ، لأن الفشل الذى أصابها إنما عرض لها من خطأ الآخرين وليس من خطأ
فيها أو فى القواعد التى قامت عليها .

وقد ذكرها هتلر فى كتابه فقال ما فحواه ان فى الحرب يتلخص فى مفاجأة العدو
الأكبر بالعدد الأكبر ، والاستبسال فى الهجوم عليه .

ثم عدّل جورينج خطة شليفن بتعديل الأسلحة لا بتعديل القواعد والطريقة . فاعتمد على الدبابات والمركبات المصفحة والطائرات بدلا من الاعتماد على الأسلحة القديمة التي كان عليها المعزل كله في أوائل القرن العشرين . وسميت خطة جورينج بخطة كانيا Cannae الثالثة لأنه نظر فيها كما نظر شليفن من قبله إلى أساليب هانيبال^(١) .

أما التقارير الحديثة التي كتبها الضباط والخبراء الذين شهدوا الفتنة الأسبانية والغارة على النرويج فأكثر ما تدور على أساليب الفصائل المتفرقة في الجبال وأساليب الجنود التي تهبط بالمظلات الواقية وتعيث وراء الخطوط لتعطيل المواصلات وإغلاق السكان وإزعاج المقاتلين من وراء الصفوف .

وهذا كله لم يكن ليغني شيئا لولا دسائس الجيوش الخامسة أو جيوش الجواسيس والدعاة المستترين الذين يكلفون الخزانة النازية ملايين الجنيهات في كل سنة وينبثون في البلاد المعتدى عليها لينتفضوا عليها في أخرج الأوقات . فلو لا التقصير في نصف القناطر على نهر الموز مثلا لانتهت هذه الخطط جميعا قبل أن توغل في دور الابتداء .

وقد وقع تقصير ، ولا شك ، في عدة الدفاع لا نعلم الآن ما حقيقته ومن المسؤولون عنه ، ولعل الحكومة الفرنسية تكشف النقاب عنه قريبا كما وعد المسيو بول رينو رئيس الوزراء .

إلا أن الأمر فيما عدا هذا التقصير ليس من السهولة والبساطة بحيث يبدو للمتعجلين والمستغربين والناصحين وأيديهم في الماء للعاملين وأيديهم في النار !

(١) كتاب هتلر على أوروبا لمؤلفه ارنست هنري .

Hitler over Europe by Ernest Henré

فهم يسألون : لم لم يتخذ الحلفاء كل حيلهم في الثغرة الضعيفة على حدودهم
مادامت للهجوم خطط معروفة وتقديرات لاتعزب عن البال ، ولا سيما بال القواد
المحنكين ؟

وهو سؤال يبدو وجيبا عصيّ الجواب لولا أن سائله قد غفلوا عن كثير من
الحقائق التي لا تقل في ثبوتها وبدايتها عن خطط الهجوم في تقديرات النازيين
فأول ما هنالك أن وجود خطة حربية في دولة من الدول لا يستلزم وقوع
الاختيار عليها في اللحظة الأخيرة ، ولا أن تنفذ بجملة تفصيلاتها عند وقوع
الاختيار عليها

فقد يلجأ أركان الحرب إلى خطة أخرى يفضلونها على جميع الخطط المرسومة ،
وقد يلجأون إلى الخطة بعينها مع التعديل في بعض أجزائها كما فعل مولتكه
وكلوك في الحرب الماضية

ولا يجب أن ننسى أن النازيين يستبيحون العدوان على حيد
البلدان المستقلة كهنلندة وبلجيكا ولكسمبورج والدنمرك والنرويج ولا
يستبيحه الديمقراطيون في حربهم مع النازيين وإلا أسقطوا حجتهم وألقوا
قضيتهم بقضية المعتدين ، ومهما يقل القائلون في الحجج الأدبية فهي شيء يكسب
به الديمقراطيون ويخسر به النازيون ، وقد يكون له النفع أكبر النفع عند النظر
في شروط السلام ومغارم التعويض

ومتى كان النازيون متروكين أحرارا في تدبير خطط العدوان وأوقات
العدوان وفرائس العدوان - ففي وسعهم أن يوجهوا ثلاثة أرباع جيشهم إلى حيث
شاءوا حين يشاءون . وليس في وسع الحلفاء أن يضعوا ثلاثة أرباع جيشهم في كل
مكان وفي كل حين . ولعالمهم اذ يختارون نقطة الدفاع مصيبيين أو مخطئين أن
ينبهوا أعداءهم إلى تعديل ما اعتزموه في الوقت الأخير

هذا إلى أن هتلر يستطيع أن يجازف بأرواح الألوف ومئات الألوف من جنوده وهو لا يبالي بالمصير، لأنه غير مسؤول ولا متحرج كما هو دأب المفامرين والمقامرين . أما القادة المسؤولون فهم أبعد ما يكونون عن المجازفة بالأرواح والنجاة من الحساب . وليس من أساليبهم أن يطرحوا كل ما عندهم على مائدة القمار في سبيل الغنى الكامل أو في سبيل الإفلاس

ويضاف إلى هذا وذلك مزية أخرى لاحيلة للحلفاء فيها : وهي وحدة القيادة عند الألمان وتفرقها عند الهولنديين والبلجيكيين والفرنسيين والانجليز . فطالما تمب الساسة الانجليز والفرنسيون وهم يقترحون على الأمم الصغيرة أن تعاوئهم ويعاونوها في تحضير خطط الدفاع وهي تعتم بمالحيدة وتحسب أنها عصمة تغنيها عن الحلفاء والأعوان . فلما هجم الألمان على هولنده وبلجيكا كانوا يعرفون مواقعهم وغاياتهم جملة وتفصيلاً وكان على الحلفاء أن يصلوا أولاً إلى الميادين ثم ينظروا في توجيه الجيوش المختلفة هنا وهنا على حسب الطوارئ من مقتضيات كل ساعة وكل حركة ، ومنها أهواء رؤساء البلاد

وتلك مزية تحسب للنازيين في ميزان الحرب ، وإن كانت تحسب للحلفاء في ميزان السياسة والقانون

ومزية أخرى لا تقل عن هذه المزية هي ارتجال الخطط التي لا يعمل عليها أصحاب الأصول والقواعد المرعية في الحروب . فهذه البهلوانيات من حركات المظلات الواقية وفصائل الدراجات الموعلة من وراء الخطوط لمب غير مأمون وإن بدا نجاحه بمد المفاجأة الأولى أو بمد مفاجآت كثيرة . وإذا كان جورينج قد خشي من عقباه واسرع إلى التبرؤ من تبعاته في صيغة الشهادة لزعيمه فالأحرى بقواد الحلفاء وهم لا يستوحون الخطط العسكرية من عالم الغيب أن يحاروا عند المباغتة كما يحار اللاعب للتدرب مع اللاعب الذي يخالف جميع الاصول ، وأن

يتريشوا هنية قبل أن يتمودوا طريقة هذا اللاعب في نقل الورق أو تنسيق
الاحجار

تلك هي بعض المصاعب التي يعانيها المقاتلون الديمقراطيون ولا يعانيها المقاتلون
النازيون

ولا بد للحرية من مصاعب ، ولا بد لها من ثمن غال
فليس لإنسان أن يجمع الزيتين ، وأن يكون مستبدا وحرآ في نزعة واحدة ...
ولا أن يأكل حلوة الحرية بغير نار

ونحن نكتب هذه السطور والرحى تدور ولا يعلم أحد أين يرتقي الباب
وأين ترتقي القشور

غير أن الرجاء فيما نعتد معلق برجحان الروية على المجازفات ، وغلبة
القدرة الصابرة على القدرة اليأسة التي تفرغ رجاءها كله في الهجمة الأولى . ثم
يقعد بها الأعياء ويستعصي عليها الثبات

وهجمة هتلر دليل على هذا الاستيئاس وعلى أنه يضيق ذرعا بالحصار ولا
يقوى على مواجهة الشتاء

وهذا ما قدرناه من بداية الحرب فقلنا إن هتلر لا يصبر عليها ولا يثابر فيها
شتاءين متواليين ، إلا وهو منهوك مضطر في نهاية الشوط إلى التسليم

ولولا ذلك لما جازف بهذه الهجمة ولو كان على رجاء في نجاحها ، فإن احتمال
الفشل فيها بانما ما بلغ من الضعف لخليق أن يحسن له الانتظار لو كان يطيقه ويقوى
عليه

وتلك علامة خير

وعلاوة الخير الكبرى أن تقشل هذه الهجمة فيتاح للدفاعيين عزل الفرق

النازية بين الشرق والغرب وتعريض من وصلوا منها الى الشاطئ لنييران البر والبحر والهواء . مع اقطاعهم عن المدد والتموين واتصال جيوش الحلفاء فى الميادين والفرنسية ، بعد تفرغهم لها وجلانهم عن الساحة البلجيكية

وأن حبوط هذه التجربة النازية هو أصدق نذير بحبوط الدولة النازية وإن تطل الأيام ... ولعلها لاتطول

أبى الله لهذا العالم الذى أعبى الفاتحين من جبابرة التاريخ أن تحكمه عصابة من المفامرين والأفاقين ، وأن يترد الى جاهلية جهلاء لآحرمات فيها ولا حقوق

ذلك مالا يكون ، وهيهات أن يكون

فلا أحلامهم مفلحة ، ولا آمال الانسانية مخففة ، ولا كلمة الحرية منسية ،

ولا قضيتها فى موازين القدر دون قضية الهمجية

وكل آت قريب ؟

عَبَّاسُ مُحَمَّدٍ
العَقَّاسُ

فلاسفة الحكم في العصر الحديث

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

هذه عجالة في مذاهب الحكم التي تشيع في القرن العشرين وقد صدق من قال : « لكل زمان دولة ورجال » ويصدق مثله من يقول إن لكل دولة مذهباً في الحكم وفلاسفة يسجلون ذلك المذهب أو يروجونه ، ولعل هذه المذاهب دليل محسوس على خطأ الذين يقولون ببقاء نظام الحكم على حال واحدة لا يتبدل منها غير الاسماء والعناوين ، فإن التطور في مهام الحكومة وفي نظر المحكومين إليها يتجلى في عرض مذاهب الحكم منذ وجدت للحكم فلسفة إلى أن ترددت مذاهبه التي تشيع بيننا اليوم في القرن العشرين .

وقد تطور الحكم قبل ظهور المذاهب الفلسفية التي تشرح قواعده ونظرياته ، وانتقل الناس من تأليه الملوك إلى الايمان بولايتهم الملك من عند الله ، إلى الفصل بين السلطان الالهي والسلطان الانساني قبل انتشار الفلسفة السياسية وقبل انتشار الفلسفة على الاجمال ، وكانت الأديان الكتابية الثلاثة آية بالغة من آيات هذا التطور البعيد ، فكتاب العهد القديم سجل لزعامة النبي وزعامة القاضي وزعامة الملك مع الجمع بين الحكم والقداسة الدينية في حين والفصل بينهما بعد ذلك الحين ، وخطبة السيد المسيح على الجبل دستور كامل للانسان الصالح الذي ترنضيه المسيحية السمحة في كل مجتمع وفي ظل جميع الحكومات ، والدين

الاسلامي قد فصل مذهبه في الشورى والمساواة واحترام الاجماع وسؤال اهل الذكر تفصيلا يتناول أصول الحكومة ويوافق تطورها مع الزمن ، وكانت هذه الأديان حجة لطلب الاصلاح والكف من طغيان الانسان في جميع العصور .

ونود في هذه المقدمة الموجزة أن نربط حلقات السلسلة من العصور القديمة إلى العصر الحديث ، لأن الحلقات التي صيغت في القرن العشرين أو شاعت خلاله لم تكن لتضاع من معدنها هذا لولا ما تقدمها من حلقات الحكم القديم والفلاسفة الأولين ، وغني عن القول أن هذا البيان لن يكون إلا تلخيصاً مجملاً غاية الاجمال على القدر الذي يكفي هنا للتمهيد المطلوب .

تفلسف حكماء اليونان في مسألة الحكم كما تفلسفوا في سائر المسائل التي عرضت لعقل الانسان في الزمن القديم ، وأعانهم على فلسفتهم أنهم جاءوا بعد فترة من التجارب الحكومية في أثينا وسبرطة كفيلة بأن تمد الفيلسوف بالزاد الضروري للمقارنة والمقابلة بين هذه التجارب المتوالية ، ويضاف إليها ما عرفوه من صراعهم مع دولة فارس ومن صلاتهم الودية مع الدولة المصرية ، فكان القرن الرابع قبل الميلاد فترة صالحة للتعقيب على تجارب الحكم وأنواعه في عدة أقطار أجنبية أو وطنية تتفق في الوطن وتختلف بالمعيشة والعادات ، كما يختلف الأثينيون والسبرطيون .

وقبل أن يصبح مذهب الحكم في اليونان فلسفة كان قد أصبح من الملاحظات الواقعية التي يدونها المؤرخون ، فكتب هيرودوت قبل مولد أفلاطون يقول في المساواة : « إنه من الواضح جيدا في هذه الحادثة ومثيلاتها المتعددة أن المساواة شيء عظيم . فقد كان الأثينيون ولا فضل لهم على من جاورهم في الشجاعة أيام خضوعهم للطغاة ، فما هو إلا أن نفصوا عنهم نيرهم حتى تقدموا إلى الرعيل الأول بين الجميع ، وتبين من هذا أنهم رضوا بالهزيمة حين كانوا مقهورين يعملون للسيد المسلط عليهم ، فلما ملكوا زمامهم حرص كل منهم على أن يبذل غاية ما في وسعه لنفسه » .

ولو أن هيرودوت قد امتد به الأجل حقبة قصيرة لاستطاع أن يزيد على دليله هذا دليلا جديدا على فضيلة الحرية ، وهي ارتقاء الفكر ونبوغ الفلاسفة الذين

يلقون أنوارهم على المسألة بحذاقها ويتناولون قواعد الحكم وحقوق المحكومين على وجوهها المتقابلة كما تناولها أفلاطون وتناولها من بعده تلميذه أرسطو ومريدوه .

فهذان الفيلسوفان قد تقابلا في مذاهب الحكم كما تقابلا في غيرها من المذاهب العملية والعلمية ، وكانا كالقطبين المتقابلين للدائرة الواحدة ، فكل منهما طرف يكشف محاسن رأيه ومآخذ الرأي الذي يعارضه ، وتتم الدائرة على سعتها بهذين القطبين المتقابلين .

كان أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م) يعظم شأن الدولة بالقياس إلى الحرية الفردية ، فالقوانين لا توضع لتمكين الفرد من فعل ما يشاء ، ولكنها توضع لهدايته إلى فعل أحسن ما يستطيع ، ولا ضير من إكراهه على صلاح أمره إذا كان في حاجة إلى الهداية والاصلاح ، وأكثر الناس في حاجة دائمة إليهما يجوز في تربيتهما ما يجوز في تربية القصر والأطفال .

وواضح من هذا أن الحاكم في مذهب أفلاطون بمثابة الأب والمعلم وليس قصاره أنه خادم مصالح المحكومين ، ولهذا يوصي بإسناد الحكم إلى الحكماء والعلماء ، ويوصي إلى جانب ذلك بتجريدتهم من روابط الأسرة وشواغل الثروة تنزيها لهم عن الفتنة والمحابة ، ولا حرج على ولاية الحكم من استخدام الأساطير والخرافات واختراع قصص البطولة والأعاجيب لترويض الرعية على الخضوع لما فيه نفعها ورشادها ، فهذه في مذهبه « أكاذيب نبيلة » لا غنى عنها في إقناع الدهماء ، ولا يلبثون أن يعرفوها ويعرفوا أعذار من استخدموها متى ارتفعت عنهم غشاوة الجهل والخرافة .

وينظر الفاشيون والاشتراكيون معا إلى أفلاطون كأنه رائد سابق للفاشية والاشتراكية ، فيرضى عنه الفاشيون لأنه بكل الأمر إلى الولاية والزعماء ، ويعظم شأن الدولة والحكومة ، ويرضى عنه الاشتراكيون لأنه يحرم الملكية على الولاية ويسمح باشتراك الجمهور في الملك الواحد ويجعل للنساء حق الحكم مع الرجال ويفرض عليهن واجب الدفاع معهم . ويسوق الفاشيون والاشتراكيون كلمات

له وردت في كتاب الجمهورية تعزز ما يقررونه لتأييد آرائهم ونقد آراء خصومهم . ومنها قول بعض المحاورين في كتاب الجمهورية : « إن العدل مصلحة الأقوى » وإن الرجل العظيم في حل من إرضاء عظمته بالسيطرة على من دونه ، وإن الوازع الأخلاقي رياء ونفاق ما لم يكن ضرورة من ضرورات البيئة ، وغير ذلك من دعاوى الحوار التي تقال كما يقال الرد عليها ، ولا تعبر كلها عن رأي أفلاطون .

ولا شك في ميل أفلاطون إلى حصر السلطان في الأيدي القليلة وإعراضه عن إطلاق حقوق الحكم لجميع المحكومين ، بيد أن الشراح الذين يستندون إليه في تسويغ الاستبداد يخطئون تفسيره وقد يتعمدون تحويله عن معناه ، لأنه شديد الإنكار لحكم القوة شديد الإعجاب بحكم الرضا والاقناع ، وتفرقة الكبرى بين الملك والطاغية أن الملك يهتم بحب رعاياه وأن الطاغية يفرض عليهم طاعته غير مبال منهم بشعور بعد شعورهم بالرهبة والولاء . وقد فاضل أفلاطون بين حكومة الفرد بغير قانون وحكومة الخاصة بغير قانون وحكومة الدهماء بغير قانون ، فقال إن حكومة الدهماء هي أفضل هذه الحكومات وإن شروطها أهون من شروط الحكومة الفردية المطلقة وشروط الحكومة التي يحتكرها الخاصة مع إطلاقها واستبدادها ، إذ كان فساد المستبد يشمل كل من عداه وتمتد أوهاق ظلمه إلى جميع الطبقات ، وإنما يسوء حكم الدهماء حين يشرعون له القوانين لأنهم يجهلون أصولها ويولون أمرها غير أهلها ويسيتون التشريع كما يسيتون التنفيذ ، وليس كذلك الخاصة المقيدون بالشرعية كما يتفق عليها من يفقهونها ويحسنون الرقابة عليها .

وقد توزع مذهب أفلاطون حديثا بين أناس متفرقين يدعي كل منهم أنه قادر على تطهير نظامه من النقائص التي احتاط لها الفيلسوف في زمانه ، والواقع أنه مذهب مفروغ من استحالة تطبيقه ، فالمناقشة في نظرياته تسلس لمن يريد لها دون أن يجبسها الواقع عند حد محدود .

إلى الطرف المقابل لهذا الطرف يتجه أرسطو لتلميذ أفلاطون الأول الذي لقبه الأقدمون بالمعلم الأول .

فالحكم عنده وظيفة خبرة يتدرب عليها ذووها وليس وظيفة فلسفة وحكمة ، وهو يقسم الحكومات إلى ثلاثة أنواع : هي حكومة الفرد وحكومة الأعيان وحكومة الشعب أو الديمقراطية ، ولكل منها آفة تمسخها وترجح سيئاتها على حسناتها ، فإذا مسخت حكومة الفرد غلب الهوى في نفس حاكم واحد على مصلحته ومصلحة الرعية كلها ، وإذا مسخت حكومة الأعيان فهو الاحتكار الذي يسخر الأكثرين من المحكومين للأقلين من الحاكمين ، وإذا مسخت الحكومة الديمقراطية فتلك هي فوضى السوق والدهماء .

وليس عدد الحاكمين هو الفرق الجوهرى بين الحكومات الثلاث ، ولكن الفرق الجوهرى هو الفرق بينها في حقوق المواطن ، وخيرها ما تكفل لجميع المواطنين بالمساواة في الحرية ، وهذه المساواة هي التي تبطل القول بأن الحرية هي أن يفعل كل إنسان ما يشاء . فلو جاز لكل أن يفعل ما يشاء لجاز له أن يعتدي على غيره فتبطل المساواة ، وإذا تساوت حريتهم جميعاً فهذه هي الحرية في حدود القانون ، وذلك هو القانون الذي يوضع لجميع الرعايا ولا يوضع لطبقة منها دون طبقة .

وإذا تكلم أرسطو عن المواطنين وحقوقهم فإنما يتكلم عن الأحرار ويستثني الأرقاء ، فالمواطن من شترك في تسيير الدولة برأيه أو بعمله ، ولم يكن للأرقاء على عهد أرسطو شيء من المشاركة في الحقوق السياسية .

والتفرقة بين الحكومتين الصالحة والفاصلة عند أرسطو هي أصدق تفرقة قال بها الفلاسفة حتى اليوم . فالحكومة صالحة متى عملت لمنفعة المحكومين ، وفاصلة متى عملت لمنفعة الحاكمين . مثلها مثل كل أداة توضع لغاية ، ولا تؤدي الحكومة غايتها إذا كانت لا تنفع رعاياها .

وليس من رأي أرسطو أن « خير » الناس هم الحكام ، فمعنى هذا أن الذين لا يتولون الحكم أشرار ، أو معناه أن أخياراً قلائل يستأثرون وحدهم بحقوق جميع

الأخيار .

وليس من رأيه أن الحكم حق للثروة ، فمعنى ذلك جمع الثروة والسلطة في أيدي قليلة .

وليس من رأيه أن الكثرة تباشر الحكم بجميع آحادها فتلك استحالة لا تتحقق في الواقع ، ويكفي من الكثرة أن تكون مكفية المؤنة راضية عن معيشتها .
واشتراط الرضا من جانب الأكثرين ضمان لإخلاص الحكومة في خدمتهم .
ووفرة الناس ، في رأي أرسطو ، كوفرة الماء التي تعصمه أن يأجن ويتعفن كما يتعفن الماء القليل بأقل شائبة .

وقد وجد أرسطو أن توزيع مهام الحكم ضمان آخر لمنع التفرد بالسيطرة الحكومية ، فتنقسم الحكومة بين الاستشارة والإدارة والقضاء ، وتنشأ من تخصيص الحكام لكل قسم من هذه الأقسام طائفة خيرة بما تتولاها ، وقيام الحكم على القواعد الديمقراطية يمنع أن تنحصر هذه الطوائف في كبار السادة والأغنياء ، ويمنع أن تنحدر إلى السفلة والجهلاء ، فسيبيلها أن تؤول إلى طبقة وسطى لا تستبد استبداد الأعلياء ولا تسف في أعمالها وأخلاقها إسفاف الأدنياء .

ويعارض أرسطو أستاذه في شيوع الملكية كما يعارضه في احتكار السلطة ، فقد بحث شيوع الأرض وتقسيم الغلة ، وبحث شيوع الغلة وتقسيم الأرض ، وبحث شيوع الأرض والغلة معاً ، فخلص من هذه البحوث إلى ضرر الشيوع في هذه الحالات جميعاً ، لأنه باب النزاع وسوء الاستغلال ، وأضمن منه للسلم أن تباح الملكية مع تقريب المسافة بين الأغنياء والفقراء .

بهذين المذهبين - مذهب أرسطو وأستاذه - تمت لأثينا رسالتها العظيمة في فلسفة الحكومة ، وهي أوفى رسالة فلسفية كانت مستطاعة قبل عصر الميلاد .

وتأتي رسالة روما بعد رسالة أثينا ، وهي رسالة عملية يقل فيها نصيب الدراسات الفلسفية . ومع استثناء القوانين المسطورة لم يبق من تراث روما في

فلسفة الحكم غير كتابين لخطيبها الأكبر شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق . م) وهما كتاب الجمهورية De Republica وكتاب القوانين De Lagibus عرفت روما ضروب الحكم جميعاً مع تعدد أنواع الحكام وتعدد أنواع المحكومين : عرفت الملك والجمهورية والقنصلية وحكم الدكتاتور العادل والدكتاتور الظالم ورقابة الشيوخ الأعيان ورقابة الوكلاء الشعبيين ، وعرفت الحكم الذي يقوم على حقوق العلية والحكم الذي يقوم على حقوق العلية والعامة ، والحكم الذي يستثنى منه الأرقاء والحكم الذي يقبلون فيه بعض القبول ، وتركت يتجاربها العملية رسالة عامرة بالنماذج والتعديلات لا يستغنى عنها باحث من الدارسين لنظم الحكومة في جميع الأوضاع وبين جميع الأقسام .

أما رسالتها الفلسفية فهي كما تقدم محصورة في كتابي الخطيب الكبير : وجانب الاقتباس فيها من المدرسة الأثينية أكبر من جانب الاستقلال بالرأي والابتكار ، ولعل إيمان شيشرون بالنظريات هو الذي جنى عليه فجعله يصير في أثناء ولايته للحكومة على توخي الغايات التي لا تدرك وسوم الشيوخ والأعيان ما لا طاقة لهم به من النزاهة والاعتدال ، فكان الموت جزاءه على هذه النزعة المثالية التي لا تقبل التطبيق .

نقل شيشرون عن الفيلسوف اليوناني زينوقراط Xenocrates أنه سئل : ماذا استفاد منك تلاميذك ؟ فقال : إنهم استفادوا أنهم بمحض اختيارهم يعملون ما توجبه القوانين على الآخرين .

يقول شيشرون : « إنه من رأي أعقل الحكماء أن القانون لا يرجع في أصوله إلى فكر إنساني ولا إلى عمل أمة من الأمم ولكنه شيء خالد يحكم الكون كله بما يوحيه من أوامره ونواهيه » ، وإن أفضل المجتمعات هو المجتمع الذي يوافق إلهام الطبيعة ولا يعطل هذا الإلهام بزيغان المطامع والشهوات .

وينكر شيشرون قول أفلاطون إن ذوي الاستعداد لفهم الشريعة جد قليلين بين البشر ، ففي اعتقاده على عكس ذلك أنه ما من إنسان إلا وهو قادر على فهم الشريعة كما توحىها الطبيعة ، وإن القانون الطبيعي يقضي بالمساواة بين البشر في

هذا الاعتبار ، وإنه عند عصيان هذا القانون الطبيعي يقع من الناس الاجترار على نصوص الشرائع المسطورة .

ويقول على لسان سيبو وهو يلخص حجج الديمقراطية : « إنهم يقررون انه ليس من الانصاف أن تدان الديمقراطية على عمومها لأن الجماهرة الجاحمة من سواد الناس لها عيوبها ، وإن الناس ما داموا متناسقين يخضعون كل شيء لسلامتهم وحريتهم فلا حكومة أنأى عن خطر الثورة وأمكن استقرارا من حكومتهم . اي من الحكومة الديمقراطية » .

ويمضي سيبو قائلا : « وعلى الجملة لا يعتبر أنصار الديمقراطية أن الحكومات الاخرى جديرة باسم الحكومة ، فهاي مثلا أطلق اسم المالك الذي هو ألقى الاسماء برب الارباب على مخلوق بشري متلف على السيادة والاستيثار بالغلبة كأنه في سوقه للرعية يدفع أمامه قطيعا من العبيد ؟ أليس الاخرى بي أن أطلق عليه اسم الطاغية ؟ . . »

والعجب في هذه الديمقراطية الغالية وهذا القانون الطبيعي أن تتمخض عنهما الدولة الرومانية التي كانت رسالتها في العالم « صناعة » القوانين . . ! فقد أصاب من قال إن شيشرون كان رائداً للثورة الفرنسية والثورة الامريكية قبل ألف وسبعمئة سنة ، وإنه بهذه الاقوال عن القانون الطبيعي وعموم المساواة بين البشر كان زميلا لجان جاك روسو ظهر في العصر الغابر قبل الاوان .

مضى من القرن الاول قبل الميلاد عصر شيشرون ، إلى القرن الخامس عشر بعد الميلاد عصر ماكيافي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) أكثر من خمسة عشر قرنا لم ينبغ فيها من فلاسفة الحكم من يستحق أن يذكر غير ثلاثة ، اثنان منهم حبران جليلان من أحبار الكنيسة وعلمان بارزان من أعلام الفكر وهما القديس أوغسطين والقديس توما الاكويني ، والثالث هو جون أوف سلسبوري القس الشاعر الفيلسوف الذي عاصر الملك هنري الثاني في إبان الخلاف على الدين والسياسة .

ولد القديس أوغسطين في منتصف القرن الرابع (٣٥٤ - ٤٣٠) وألف كتابه

عن مدينة الله تفنيدا لقول القائلين إن روما آمنت بالارباب الوثنية فعاشت في القوة والرخاء عدة قرون ، وآمنت بإله الدين المسيحي فعجل إليها البوار بعد قرن أو قرنين ، وقد استغرق تأليفه ثلاث عشرة سنة في أوقات متقطعة فكثرت فيه النقائص كما كثر فيه الاستطراد من موضوعات الحكم والسياسة إلى موضوعات الفقه واللاهوت ، ويتحدث القديس أوغسطين عن مدينة الله كأنها مدينتان إحداهما في السماء والأخرى على الأرض ، وهو لا يعني بمدينة السماء سلطان الكنيسة ولا يعني بمدينة الأرض سلطان الملوك والأمراء ، ولكنه يعني بهما مدينتين مثاليتين بينهما الله والصالحون من عباده بالتقوى وعمل الخير والزهدي في الملذات والشهوات وقضاء الحياة في رعاية أوامر الله واجتناب نواهيها ، وتتعقد الصلة بين أبناء المدينة بأن يحبوا الله ويجب بعضهم بعضاً في الله ، ويضرب الشراح المثل لهذه الصلة الروحية بالصلة التي يشعر بها قراء الكتاب الواحد إذ يعجبون بمؤلفه ويستروحون جمال فكره وبلاغة كلامه ، فالأمم التي تشترك في حب الله وتمجيد آياته هي أمة واحدة في مدينة الله .

وأهم المبادئ السياسية التي اشتمل عليها كتاب القديس أوغسطين هي :
(١) أن اقتناء الأملاك وجمع الكنوز هو شهوة من شهوات النفس البشرية الخاطئة وليس شريعة من شرائع الله ، وأن أفضل المجتمعات ما كانت خيرات الله فيه مباحة لجميع عباده يأخذون منها بمقدار ما يحتاجونه في لوازم الحياة و (٢) أن المستقبل للوحدة الإنسانية التي تؤلف بين المؤمنين في حب الله و (٣) أن الأمل الأكبر للجماعة الإنسانية هو « السلام » وهو في حكمة القديس أوغسطين مرادف لكمال الروح وكمال الالفة بين البشر ، وليست غايته اجتناب الحرب وكفى . إذ لا سلام بغير إخوان كما أنه لا حرب بغير أعداء و (٤) أن الرق ثمرة الخطيئة والخطيئة هي السبب الأول لخضوع الإنسان للإنسان ، ولعل كبرياء السيد عقاب له وضراعة العبد غفران وتكفير و (٥) أن خضوع المؤمنين لأصحاب السلطان الدنيوي واجب في حدود الأمور الدنيوية ، فإذا تجاوزها أصحاب ذلك السلطان فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق و (٦) أن الناس في مدينة الأرض حجاج إلى مدينة السماء أقربهم إليها من هانت عليه النعمة الأرضية في سبيل

النعمة الساموية الابدية .

وتعاقبت القرون إلى القرن الثاني عشر الذي عاش فيه جون أوف سلسبوري (١١٢٠ - ١١٨٠) صاحب كتاب دليل الحاكم الذي اخترع له اسم بوليكراتيكاس Policraticus واسترعب فيه الكلام على واجبات الحاكم وواجبات الرعية وشروط الحكومة المطاعة ، وأهم آرائه أن الفضيلة هي غاية الحياة وأن هذه الغاية لا تدرك بغير حرية ، وقد ضرب المثل للحرية المطلوبة بكلام من يدعى فيليب philip في مواجهة مجلس الشيوخ الروماني حيث نعى عليهم جمودهم وتراخيهم فلم يغضبوا لتبكيته وقال له الشيخ الذي نهض ليخرجه : « لا عليك أن تسلم نفسك إلي فإنني لست بالشيخ صاحب السلطان في نظرك » .

وقد أوجب فيه على الملك أن يعمل بالقانون ، وفرق فيه بين الراعي ، والحارس الأجير ، واللص ، في تربية القطيع : فالراعي يعمل بخلوص نية وصدق رغبة ، والحارس يعمل لحساب غيره طمعا في الأجر وخوفا من العقاب ، واللص لا يبالي من القطيع إلا أن يلتهم ما استطاع التهامه ويخفي فعلته عن أنظار مطارديه .

وانقضت حقبة في اقتباس القوانين من بقايا الدولة الرومانية ساعدت خلالها النظريات التي أشرنا إلى بعضها في تلخيص مذهب شيشرون ، كالقانون الطبيعي وحق المساواة . وشاع معها تعريف القانون بأنه مجموعة العرف والعادة التي اصططلحت عليها الشعوب وتولى رؤساؤها القيام على تنفيذها بالنيابة عنها ، ووافق هذا الاعتقاد غرضا من سادة أوربة لميلهم إلى الاستقلال بالسلطة الدنيوية عن السلطة البابوية ، وظهر في تلك العصور الاولى من يقول كما قال مانيجول أوف لاتنباخ في القرن الحادي عشر : « لا احد يملك أن يجعل نفسه امبراطورا أو ملكا ، وإنما هو الشعب الذي يرفع إنسانا فوق نفسه ليحكمه ويدبر شؤونه على أصول الحكم الصالح ، معطيا كل ذي حق حقه ، متوليا من يتقي

بحراسته ومن يعتدي بنقمته ، وقائما بالقسط بين الجميع » .

وظهر في القرن الثالث عشر من يقول كما قال براكوتون الفقيه الإنجليزي : « لا ينبغي للملك أن يعلو على مكانه أحد ، إلا أن يعلوه سلطان الله والقانون . لان القوانين هي التي تنصب الملك ، وعليه أن يمد القانون بالقوة والنفاذ . . إذ لا ملك حيث لا قانون » .

بين هذه التمهيدات المختصرة نبغ الفيلسوف الديني الكبير توماس الإكويني (١٢٢٥-١٢٧٤) ونظر إليها وإلى كتب الفلسفة جميعاً في مذهبه السياسي الذي شرحه أثناء تعليقه على كتاب السياسة لأرسطو وعاد إليه في رسالة لم يتممها سهاها « ولاية الأمراء » .

والكون كله في مذهب القديس توما حكومة ذات درجات Hierachy يستوي الإله على عرشها الأعلى ، وأهم آرائه أن الحكومات الدنيوية ينبغي أن تتوجه بطلب المشورة إلى آباء الكنيسة ، لان الإنسان في هذه الحياة يسعى إلى غايتين : إحداهما روحية والأخرى جسدية ، وليست سعادته الجسدية هي الغاية القصوى بل هي وسيلة لتحقيق غايته العليا وهي سعادة الروح . فالكنيسة التي تشرف على أمر روحه أولى بالتقديم من الحكومة الدنيوية التي تشرف على أمر جسده ، ومن حق حكومة الدنيا أن تطاع في كل شيء تتساوى فيه طاعة المرؤوس والرئيس . أما إذا فرض الرئيس على مرؤوسه ما لا يقبله هو ولا يلتزمه فلا طاعة للحكومة الدنيوية ولا حرج على مرؤوسه عن عصيانه والثورة عليه . وقد توصف حكومة القديس توما بأنها مزيج من الفردية والانتخابية ، لانه يشير باشتراك الشعب في انتخاب الملك والنبلاء ، ليتم امتياز الممتازين وأمان الضعفاء منبغي الاقوياء ، ومساك الوفاق بين الجميع هو القانون الطبيعي الذي لا يخفى على أحد ، وهو يحول الرعية أن تقاوم راعيها أو تكف عن الطاعة إذا أقحم عليها قانونا لا يطابق ذلك القانون .

ثم جاء عصر ماكياڤلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) وهو الرجل الذي أصبح اسمه علما على سياسة الغش والغيلة والقسوة والدسيسة والتاس النجاح بكل وسيلة ، وتعود شهرته الى ما اشتهر من وصاياه في كتابه الموسوم « بالأمير » .

أما الحقيقة فهي كما قال في رسالة منه إلى بعض ثقاته « إن كتاب الأمير نزغة هوى » ، ولم يكن الرجل كاذبا فيما وصف به هذا الكتاب ، فكل ما فيه من الجذ أنه طمح إلى توحيد إيطاليا كما توحدت فرنسا وأسبانيا ، ورأى أمامه طائفة من شرار الأمراء يتنازعون فيما بينهم ولا أمل في توحيد وطنه مع بقائهم ، فمن أراحهم من طريق الوحدة بما وسعه من وسيلة فلا جناح عليه .

على أن مذهب ماكياڤلي الصحيح مفصل في تعليقاته على كتب ليفي العشرة وملحوظ فيما بين السطور من كتاب الأمير ، فهو يقرر ان الاستناد إلى الشعب أضمن لصيانة الحرية من الاستناد إلى الاعيان والنبلاء الذين يتكلمون على ما ورثوه ولا يزالون يطمعون في زيادته بالعسف والحجر على المحرومين ، وأن وفاء الشعوب أوثق من وفاء الامراء ، وأن الملك الحق من يحبه رعاياه ويهابونه لا من يرتاب فيه رعاياه ويمقتونه ، وأن الدكتاتور الذي يخشى خطره على الحرية هو الدكتاتور الذي يغتصب القوة ولا يستمدّها من رعيته ، فإذا انطلقت يده في الحكم باختيار الرعية كما كان يحدث في الدولة الرومانية القديمة فهو قمين أن يبلغ قومه من المجد والرخاء ما لا يبلغونه في ظل القوة المفاجئة . وعبرة التاريخ الروماني في رأي ماكياڤلي أن الجمهورية تصلح ما بقيت قوية متوازنة الاركان لا تبغي فيها طبقة على طبقة ، فإذا هي تضعضعت وأذنت بالزوال فالدكتاتور الذي تقدم وصفه خير حاكم يتعهد الوطن في تلك الحالة . ومساك الحكمة السياسية في كتاب الأمير وفي التعليقات على التاريخ الروماني هو « أن سلامة الدولة مقدمة على كل مصلحة أو شريعة ، فإذا وجبت وقايتها من غائلة تهدد سلامتها فلا محل للمبحث في النصوص والفتاوى ولا حرج من اتخاذ كل وسيلة لدفع الغائلة عنها ، ولا يصعب على ولاة الامر مع هذا أن يسوغوا عملهم للشعب بما يقنعه لاستدامة إيمانه بالشريعة وقوانين الاخلاق .

والمثل الاعلى للحكومة في مذهب ماكياڤلي هي الحكومة التي تسقط أمراء

الاقطاع ، وتنهض بالطبقة الوسطى ، وتؤمن الشعب على حريته ومعيشته ، وتنضوي إلى حاكم قوي يمزج بين دهاء الثعالب وجرأة الاسود ، ويلتف به رعاياه عن حب ومهابة وثقة لا عن خوف وخنوع واستسلام .

وفيما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر دخلت نظريات السياسة في دور جديد يدور على محورين : محور القوانين الطبيعية أو الحقوق الطبيعية التي تقدم ذكرها ، ومحور الخلاف على حق الكنيسة وحق الدولة وأيهما أحق بالاتباع عند احتدام النزاع بين السلطين .

وأدى استقلال الملوك عن الكنيسة واضمحلال نفوذ النبلاء والفرسان أصحاب الإقطاع إلى استقلال الاوطان والدعوة إلى حقوق الوطن وحقوق الامة ، فتركزت الحقوق السياسية رويدا رويدا في الشعب وبرزت على طليعته طبقة الوسطى ، وهي أقدر طبقاته بعد اضمحلال السادة الأعلى من النبلاء والفرسان « الإقطاعيين » .

هذه النظريات عن الحقوق الطبيعية وحق الكنيسة وحق الدولة وحق الشعب لم تنزل تترأى على درجات متعددة ووجهات متعارضة في بحوث الفلاسفة الذين كتبوا عن فلسفة الحكم من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر .

فأقدمهم جان بودان الفرنسي (Jean Bodin 1530 - 1596) يشرح نظرياته في ستة مجلدات يسميها « الكتب الستة في الدولة » ، ويقرر فيها أن الاسرة والملكية (أي الامتلاك) هما أساس المجتمع ، وأن النظام الملكي المقيد هو أصلح الانظمة الحكومية ، وأن صاحب السيادة متى بويع بها حرم على الرعية نقض ولائه كائنما كان اعتذارها لنقضه ، وتفرقة بين السيادة الشرعية والسلطة القائمة بالقوة أن السلطة القائمة بالقوة قد تحفظ النظام ولكنها لا تحفظ القانون وهو السند الوحيد الذي يقوم عليه حق الطاعة والولاء . ولهذا الكاتب حوار أجراه بين يهودي ومسلم ومسيحي تابع لكنيسة روما ومسيحي من أنصار لوثر وأبيقوري وموحد بالله غير متدين بدين فأنتهى منه على ترك الجدل في العقائد الدينية والتلاقي بينهم

جميعاً على سباحة في أمور هذه الحياة الدنيوية .

وتوماس هوبز الإنجليزي Thomas Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩) قد حضر الثورة التي قادها كرومويل وكان معلماً للملك شارل الثاني ، وبني فلسفة الحكم على ما استخلصه من القوانين الطبيعية في زعمه ، وفحواه أن الفعل ورد الفعل هما مدار كل حركة في الطبيعة ، وأن تدافع الناس في المجتمع هو مدار السياسة ، وأن العامل الأكبر في نفس الإنسان هو حفظ ذاته ، ومن أجل حفظ الذات يطلب القوة ويطمع في الغلبة على غيره . فمن هنا كانت الحالة الطبيعية بين الناس حالة حرب لا أمان فيها لأحد على نفسه ، وهذه هي الحالة التي تضطربهم أن يسلموا مقادهم إلى الدولة لحماية بعضهم من بعض وتمكينهم جميعاً من استخدام حقوقهم الطبيعية التي يتعذر عليهم استخدامها بغير دولة حاكمة ، وهذا التسليم منهم أبدي لا رجعة فيه ، إذ كانت الرجعة فيه نكسة إلى فوضى الهمجية التي لجأوا منها إلى سيادة الدولة فلا يجوز استرداد هذه السيادة ممن تولاها ، ولا يحق لأحد من الرعايا أن يعترض عليه ، فإن إرادته قانون وقانونه هو مناط الاخلاق ، ولا قيمة لعهد لا يحميه سيف ، فلن تصل العهود إلى مدى أبعد من حد السيف الذي يرعاه ، ومتى عجز صاحب السيادة عن حيطة الرعية وتغليب سلطان الشريعة فذلك هو الحد الذي تنتهي إليه سيادته ويستدعي الرعية إلى تسليم هذه السيادة لغيره .

ويأتي جون لوك الإنجليزي Jhon Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤) عقب هوبز بجيل واحد فينقض مذهبه في الحرب الطبيعية ويقيم في مكانها طبيعة الاجتماع والتضامن الاجتماعي ، ويعتبر ولاية الحكم وكالة عن الأمة تحاسب عليها ، فلا تصلح سياسة الأمم إلا بمحاسبة الرعية لولاتها واعتبار الحكومة مسؤولة أمام شعبها ، وينقض لوك مذهب هوبز في نشأة القانون كما ينقض مذهبه في السلطة الحكومية ، فالأخلاق هي التي توجد القانون وليس القانون هو موجدتها قبل وجودها ، ولا حد لحرية الإنسان في عمله ولا في ملكه إلا الحد الذي يكفل لغيره حقوقاً مثل حقوقه ، وخير الحكومات عنده هي الحكومة التي تنفصل فيها السلطات وتجري على النظم الدستورية ، ووظيفتها الكبرى هي حماية الحرية

وحاية الملك والثروة .

ويلى جون لوك فى التاريخ البارون دي مونتسكيو الفرنسى Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥) صاحب كتاب روح القوانين ، ومذهب قائم على تفسير القوانين بعوامل الاقليم وأثرها فى معيشة السكان وعاداتهم ، ويحسب مونتسكيو من تلاميذ المدرسة الانجليزية فى تفضيل الملكية الدستورية ، مع التوسط بين المحافظة والتطرف فى الحقوق النيابية .

ويلى مونتسكيو جان جاك روسو الفيلسوف السويسري الفرنسى Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) وكان معاصرا للفيلسوف الانجليزى دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) Hume رائد المدرسة الحديثة التى تعزو أعمال المجتمعات إلى دوافع لدرنية لا تخضع للتعقل فى جميع الاحوال ، وأن رابطة الاجتماع نفسها عاطفية وليست بعقلية ، فليس هناك تعاقد معقول بين أبناء المجتمع ولكنهم يتعاطفون ويتنافرون بالحس والشعور ، وما من حكومة تدوم ما لم تكن مستندة إلى التقاليد التى تواضع عليها الناس ، ولو خرجت هذه التقاليد على المعقول .

وروسو يقتبس من هيوم فى هذه الناحية ويناقش نظرية العقد الاجتماعى على أساس هذه الفلسفة ، ويجعل شعاره « عودا إلى الطبيعة » لأن الفطرة أهدى من العقل وأجدى على صاحبها ، وأولى الناس بالاحترام عنده هم البسطاء الطبيعيون وهم كثرة الناس ، ولهم فوق ذلك حق الاحترام على اعتبار أن الناس جميعاً سواء بغير فارق فى « الطبيعة » بين أبناء الطبقات المختلفة ، فكثرة العدد إذن هي المرجح للطبقة الدنيا مع تساوي الطبائع بين أبناء الطبقات ، فالناس طيبون فطرة ما لم تفسدهم الاسباب الصناعية ، وإرادتهم التى يسميها « الارادة العامة » هي قوام القانون والاخلاق .

وقد تعاقب الكتاب بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر على مبدأ واحد وهو مبدأ « السيادة الشعبية » والحكم النيابي ، فإذا كانت لبعضهم رسالة خاصة ففي مقدمة هؤلاء بنتام Bentham (١٧٤٨ - ١٨٣٢) وجون ستيوارت ميل Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣) أعظم الفلاسفة المحدثين الذين

اشتهروا بالنفعيين Utilitarianists لانهم يردون أعمال الانسان جميعا إلى طلب السرور والمنفعة . فإن رسالتهم هذه قد كان لها شأن في تركيب كثير من الفلسفات التي تنظر في التربية والاصلاح الاجتماعي من ناحيتي الاخلاق والسياسة ، ويغلو جون ستورات ميل في تقديس حرية الفرد حتى ليقول إن النوع الانساني لو خالفه فرد واحد لما كان حقهم قاطبة في إبداء رأيهم أصح من حق الفرد الواحد في إبداء رأيه ، ومع هذا الغلو في تقديس الحرية الفردية ، وذلك المذهب في تحليل الاعمال الانسانية بالمنفعة - يرى ميل أن جمهرة السواد تنشئ منفعتها الظاهرة ولا تنشئ منفعتها الحقيقية ، ولهذا يحسن أن تتبع في الانتخابات طريقة نسبية ترشح للحكم من هم أهل له بالعقل الراجح والخلق المتين والدراية المستمدة من الثقافة والمراة .

ثم ظهر في النصف الأخير من القرن التاسع عشر مذهب المادية الثنائية لصاحبه كارل ماركس Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) وفردريك إنجلز Engels (١٨٢٠ - ١٨٩٥) وهو مذهب له شطران : شطر في فلسفة ما وراء الطبيعة وشرط في فلسفة الاقتصاد والسياسة .
ففيما وراء الطبيعة تقرر المادية الثنائية ان المادة يتولد منها ضدها ثم يتولد منها تركيب واحد لا يلبث ان يخرج من ضده ، وتطبيق هذا المذهب على المجتمع الانساني يدل على أن نظام المشاعية الاول قد خرج منه ضده وهو نظام الاقطاع ثم خرج من هذا ضده وهو نظام الطبقة الحضرية أو الطبقة الوسطى التي عرفت بالبرجوازية ، وأن هذه البرجوازية تخلي مكانها لنظام رأس المال ثم يتبعه النظام الذي يستولي فيه العمال على الحكم فتقطع الاسباب التي أنشأت الطبقات الاجتماعية ، لأنها قائمة على استغلال بعض الناس لبعض فلا محل للطبقات مع بطلان الاستغلال .

اما الفلسفة الاقتصادية فمحصولها أن الانتاج الاقتصادي هو أصل كل سلطة وأصل كل عرف وعادة ، وأن الطبقة التي تسلم زمام الانتاج الاقتصادي هي التي تضع القوانين والآداب التي تخدم مصالحها ، وسيأتي اليوم الذي يقلس في نظام رأس المال لما فيه من التناقض المتأصل في تكوينه ، فيؤول زمام الانتاج الى العاملين الذين يديرون الآلات المنتجة ، وتسفر الفترة التي تنقضي في

« الدكتاتورية الشيوعية » عن حكومة عالمية لا سيد فيها ولا مسود ولا مالك فيها ولا أجير .

ولم يبين كارل ماركس ولا أصحابه : لماذا تكون كل طبقة ضدا لما قبلها ولا تكون مختلفة منها مجرد اختلاف ، ولم يبين كذلك كيف يساس المجتمع بعد الدكتاتورية الشيوعية وكيف يمتنع التبديل والتعديل في النظام المياسي ما دام للنوع الانساني بقاء على هذه الغبراء .

بعد هؤلاء الفلاسفة الاقدمين والمحدثين لم يظهر من فلاسفة الحكم من يعرف له مذهب مذكور غير هذه النخبة التي لخصنا نماذج آرائها في هذه الرسالة ، وقد أغفلنا بالبداهة أصحاب مذهب الفوضى لان مذهبهم في فلسفة الحكم هو إلغاء جميع الحكومات .

ومزية الفلاسفة المحدثين على الفلاسفة السابقين أنهم قد وضعوا مذاهبهم مستفيدين من جميع المذاهب ومن جميع التجارب ، ومستفيدين معها من كشف العلم الحديث في طبائع النفس البشرية آحاداً وجماعات ، ومن كشف العلوم الاجتماعية والاقتصادية التي كانت مجهولة قبل بضعة أجيال .

وإذا أردنا أن نجمل الفارق بين القدامى والمحدثين في مدارس الفلسفة الحكومية فالفارق الواضح بينهم أن الاولين أكثر اقتراحاً وأكثر تعويلاً على عمل العقل في الحياة الإنسانية وأشد من لاحقهم تعلقاً بالمجتمعات المثالية التي تسمى بالطوبيات Utopias وأن المحدثين يقل في فلسفتهم الاقتراح والتعويل على عمل العقل ، ويكثر وصف الواقع والتعويل على الدوافع النفسية .

وسيرى القارئ أنهم جميعاً يخطئون وأنهم جميعاً يصيبون ، وأن مسألة الحكم مسألة تنتقل بها الحلول من عصر إلى عصر في الغيب المجهول . . والعلم بمواطن الخطأ والصواب منها أفضل وأسلم من الجهل بها على كل حال .

جورج سوريل ١٨٤٧ - ١٩٢٢

George Sorel

كان جورج سوريل من المعمرين كمعظم زملائه من فلاسفة الحكم في العصر الحديث ، فامتدت حياته من سنة ١٨٤٧ - إلى سنة ١٩٢٢ ووقعت في خلال هذا العمر حرب السبعين وتأسست الدولة الألمانية وتداولت فرنسا أنواع مختلفة من الحكومات ، ثم نشبت الحرب العالمية الاولى وقامت بعدها حكومة شيوعية في بلاد روسيا القيصرية . فاستطاع سوريل أن يقرن بين مشاهدة الوقائع ومطالعة التواريخ ومذاهب السياسة التي كانت في إبان رواجها حوالي الزمن الذي بلغ فيه سن العمل والتفكير ، فبنى مذهبه على ما استخلصه من المشاهدة والمطالعة ، وكان يقول إنه يطالع ليمسح من ذهنه بعض ما تعلمه في صباه ، فهو يطالع لnesia بعض القديم كما يطالع لتحصيل بعض الجديد . ويعتبر سوريل أستاذاً لكثير من الكتاب في فلسفة الحكم والسياسة ، ومنهم باريتو وميشل اللذان كتبنا عنهما في هذه الرسالة ، وكان موسولينى يقول : « إن الذي جعلني أنا ما أنا لست مدينا به لنتيشه ولا لوليام جيمس ، بل لسوريل » ومن عجائب الخصائص التي امتاز بها سوريل أنه يصلح أن يكون أستاذاً

لأناس يخالف بعضهم بعضا مخالفة النقيض . . لأنه في طوية نفسه محافظ متمرد ، ويتوقف على فهم هذه الطبيعة فيه فهم كل ما آمن به وكل ما أنكره من المعتقدات والأخلاق .

كان فرنسيا من النورمانديين ، فيه ما فيهم من طبيعة الجذ والمحافظة ، فهو لا يتمرد لأنه يحب الإفلات من الواجبات والمأثورات ، بل يتمرد لأنه يقدم الواجبات والمأثورات ويشمئز من التبذل والاباحة والانطلاق مع الشهوات والصغائر ، ولعل استقامته في حياته الزوجية مثل فريد بين الاكثرين من دعاة الثورة وأنصار التجديد .

ويمكننا أن نعرف الطريق التي تنفتح أمام هذا الثائر المتمرد إذا عرفنا الآراء التي كانت طاغية في زمانه على الافكار ، فهناك نزعة تمرد أمام كل رأي طغى على سائر الآراء ، ومن ثم كانت ثورة سوريل على مذهب داروين وعلى تقديس العلم والعقل وعلى عصمة الحياة النيابية ، وثورته على الشيوعية الماركسية كذلك .

ولد سوريل في شربورج وتعلم في مدارسها ثم تخرج من مدرسة الصناعات والفنون بباريس واشتغل بهندسة الطرق والقناطر إلى أن بلغ الخامسة والأربعين وحصل باجتهاده وأمانته على وسام فرقة الشرف ، ثم ثقلت على نفسه آفات الفساد والاختلاس فترك الهندسة وعول على الدعوة إلى إصلاح المجتمع من حيث يقدر له الصلاح .

وران على ضميره شعور الاشمئزاز فملكته فكرة الانهيار والتداعي ، فراح يكتب عن تداعي العالم الحديث كما يكتب عن تداعي العالم القديم ، وليس أكثر في كتاباته من كلمات الانحلال والانحطاط والخراب مقترنة بوصف النظم الاجتماعية التي وجب في عهده أن تنهدم أو تزال كما تزال الانقاض .

واتفق أنه تصدى للسياسة والفرنسيون خاصة يتحدثون عن آخره الزمن Fin de siècle لاقترب نهاية القرن التاسع عشر ، كأنما هم يتحدثون عن اقتراب يوم القيامة ! فوافقت هذه النغمة شعوره بانحلال كل شيء وحاجة كل شيء إلى إعادة البناء .

وقد أسلفنا أن الافكار الطاغية في كل زمن من الأزمان تدلنا على الوجهة التي تنفتح بطبيعتها أمام المتمرد في ذلك الزمن .

ولهذا تمرد سوريل - كما أسلفنا - على مذهب داروين وعلى تقديس العلم والعقل وعلى عصمة الحياة النيابية ، كما تمرد على الشيوعية الماركسية .

ففي أواخر القرن التاسع عشر بلغ مذهب داروين أوجه من الشيع بين المفكرين فاستهوى إليه الباحثين والمتكلمين في المجالس عن محدثات العلوم ، وكان المذهب كما شاع يومئذ يقوم على نظرية تنازع البقاء ونظرية التقدم والارتقاء ، وهو خطأ في ترجمة كلمة التطور وقع فيه القراء الاوربيون كما وقع فيه قراء المشرق في أوائل عهدهم بهذه النظريات ، لان التقدم Progress لا يلزم من القول بتطور الحياة وتطور الاشياء على العموم .

أنكر سوريل كلتا النظريتين . فقال بتنازع القوة والسيادة بدلا من تنازع البقاء ، وقال بالدورات التاريخية بدلا من التقدم المطرد في أدوار التاريخ ، وقد رجع في الايمان بإرادة القوة إلى نيتشه ورجع في القول بالدورات إلى فيكو Vico الذي يقول بنكسة الحضارة إلى البربرية وتجدد الحضارة كرة أخرى من غمرة البربرية دواليك على طول الزمن إلى غير انتهاء .

وكان العلم الحديث قد أرسل معاوله لهدم كل معتقد قديم ووقر في أذهان بعض أنصاره أنه قادر على تفسير كل سر من أسرار الطبيعة والنفس البشرية ، وقادر على إصلاح كل عيب من عيوب الاجتماع .

وبدأ رد الفعل على هذه الدعوى في إبان الوقت الذي تحول فيه سوريل من الهندسة إلى السياسة ، فثار على دعوى العلم بل ثار على العقلين الذين يعالجون مسائل الاخلاق ومشكلات الاجتماع كأنما هي كلها قضايا عقلية تخضع للمنطق والتعليل ، ووافقت ثورته هذه ظهور مذهب برجسون القائل بدفعة الحياة وظهور مذهب وليام جيمس القائل بأن « العمل الواقع » هو مقياس الحقيقة ، وامترج المذهبان في رأي سوريل فأنحى على الفلاسفة الاقدمين والمحدثين الذين حسبوا أن الاقتناع كاف للإصلاح وأن الاخلاق منوطة بتعريفات العقول والعلوم ، وعد من عيوب المجتمع « البرجوازي » أو مجتمع الطبقة الوسطى أنه يعتمد على الإقناع في جميع الامور ، ولا يلتفت إلى الفضائل الحيوية وبواعث العمل من أهواق السرائر والطباع .

وكفر سوريل بالاحزاب البرلمانية جميعاً ، وطوى لبه على إيمان لا يتزعزع

بإستحالة الإصلاح والانقاذ على يد حزب من هذه الاحزاب ، وزاده إيماناً بذلك أنه خاض معركة الدفاع عن الضابط دريفوس فلم يلبث أن لمس بنفسه كيف يعرض المسخ لكل حركة نبيلة في معتبرك السياسة ومنازعات الاحزاب ، وأيقن أن الجمهور الغالب بين سواد الناس لا ينساق لدعوات النبل والاريجية ولا تجدي مخاطبته بهذه الدعوات على اي نحو من الانحاء ، وإنما تجدي الدعوة إلى الاريجية النبيلة إذا خوطبت بها نخبة مختارة من المطبوعين على الإقدام والمفاداة ، وخرج من تعقبيه على تواريخ النهضة جميعاً بفكرة لازمه طوال حياته ، وهي أن نهضات الاديان والحضارة كانت على الدوام من عمل نخبة قليلة elite تفرض مشيئتها على الكثرة الكبرى فتتقاد لها كما يتقاد القطيع لرائده أو لرأعيه .

واشترك سوريل في السياسة العالمية أيام الدعوة إلى السلام وفض المشكلات بالتحكيم والزئام ، فنفرت نفسه من هذه الدعوة لانه اعتقد أن آفة الانسانية في زمانه هي الاستكانة إلى الدعة ، والركون إلى الرغد والرخاء ، وتهيب الإقدام على أخطار البطولة والفداء ، وهي الأخطار التي لا غنى عنها لاستنقاذ المجتمع البشري من الإسفاف والابتذال والنهوض به إلى المثل العليا وعظائم الطموح والآمال الجسام .

ولا يكتف سوريل أن آراءه هذه في مجملها تنم على التشاؤم وأنها صريحة في السخط والنقمة ، بل هو يجهر بتفضيل التشاؤم على التفاؤل ويزعم أن المتفائلين لا يعملون شيئاً لأنهم يتخيلون أن الحوادث تجري في مجرى الصلاح والأمل بغير حاجة إلى جهود المصلحين وذوي الآمال البعيدة ، وقد غلا في تشاؤمه أحياناً من غباء الجماهير التي يريد إصلاحها كما قدمنا ، وكان طوال حياته من أنصار الكاتب المعروف لقراء العربية جوستاف لوبون الذي يقرر أن الجماهير تبعد السادة ولا تبرح على استعداد للإقبال على « قيصر » يروعها بقوته وجبروته ، ولم يكن هو يكره أن تلتف الجماهير حول « قيصر » يلهب حماسها ويستنهضها لغايتها ، ولهذا جنح فترة من الزمن (١٩١٢) إلى حزب اليمين المتطرف الذي اشتهر باسم « أكسيون فرانسيز » Action Française لانه الحزب الذي يؤمن بالعمل والقوة ويقدم النظام على الحرية وينكر المجالس النيابية في صورتها

الحاضرة ، ومن الواجب أولاً في عرف سوريل أن تنصرف الجماهير عن لفظ الديمقراطية وتلتف حول راية واحدة ، ثم تسعى بها النخبة المختارة إلى غايتها المنشودة .

أما هذه الغاية المنشودة فهي موضع الافتراق بينه وبين أصحاب المذاهب الأخرى . فهو مع إقباله على مذهب كارل ماركس في أوائل شبابه يخالفه كل المخالفة في جدوى المساعي السياسية والاعتماد على الحكومة ، وهو كذلك يخالف الاشتراكيين النيابيين ويعتقد أن حكومتهم إذا قبضوا على زمام الدولة لن تختلف عن حكومات النبلاء أو الطبقة الوسطى .

إلا أنه - مع مخالفته لكارل ماركس - يدين بقوة العوامل الاقتصادية ويستند إليها في اختيار الحركة التي تؤدي إلى الإصلاح . فلا بد من التعويل على طبقة اقتصادية لإنشاء المجتمع الجديد ، ولن تكون هذه الطبقة بالبداية طبقة العلية لأنها هي التي فسدت وجنت بفسادها على المجتمعات الحاضرة ، ولن تكون هي الطبقة الوسطى لأن أوساط الناس يتحرون الأمثلة العليا التي يتحراها علية الناس ولا يجدون في شؤون معاشهم موضعاً لفكرة جديدة يجرون وراءها لتقويض مجتمع وإقامة مجتمع في مكانه . فلم يبق إلا سواد الدهماء من الاجراء والمعوزين للنهوض بأمانة الرسالة الجديدة وراء هذه « النخبة المختارة » .

وعلياً أن نذكر دائماً إغراض سوريل عن التفصيلات العلمية والبرامج المعقولة التي يتوخاها الطوبويون إذ يتوهمون أنهم مطلعون سلفاً على كل خطوة من خطواتها في الحاضر والمستقبل . فأمثال هذه البرامج لا تقدم ولا تؤخر في حوادث التاريخ ، ولا يبلغ من أثرها أن تستجيش نفوس الجماهير وتلهب فيها الحماسة والنخوة وترتفع بها إلى التفدية والاستشهاد .

إنما اللازم في هذه الحالة خرافة أو أسطورة أو أمثلة أو فكرة ساحرة ، ولا يلزم عند عرض هذه الفكرة إلا أن تروق السامعين بصيغتها وتلقي في روعهم أنها قابلة للإنجاز في جملتها ، ومهمة النخبة المختارة هي تأكيد هذه الفكرة بالتكرار والتعزيز والعمل الذي لا يحجم عن العنف إذا اقتضاه .

ويسمى سوريل هذه الفكرة « Myth » وهي في اللغات الأوروبية تقابل الخرافة والاسطورة كما تقابل الشخص المتخيل أو المثالة التي يتمثلها من ينظر إليها ولا

يكاد يتبينها ، وقد اخترنا لها كلمة الامثولة لانها وسط بين معنى الفكرة ومعنى الخرافة . فإن سوريل لا يبلغ بمعنى الكلمة أن تكون فكرة قابلة للدرس والبرهان ، ولا يبلغ بها أن تكون خرافة يعلم السامع لها انها خرافة لا تثبت في عالم الواقع ، وقد قال في تعريفها إنها لا تقبل التنفيذ لانها مشروع عمل ومحاوله ، فكل ما يقال عنها إذا أخفقت أنها لم تتحقق اليوم وسوف تتحقق في المحاولة التالية .

والامثولة التي اختارها سوريل لتكوين الجاهير حول الرأية هي « إضراب عظيم » تحفز نقابات العمال والصناع لإعلانه في وقت من الاوقات ، ولا ضير في تصويره لهم في صورة الواقع القريب .

وفحوى الامثولة أن تعرض الطبقة الفقيرة عن الانتخابات وتنصرف بجهودها كلها إلى تنظيم النقابات وإعدادها ليوم « الإضراب الاعظم » متى تم لها أن تقبض على أزمة الإنتاج في المجتمع كله ، ويومئذ تضرب عن العمل وتشل حركة الطبقة العليا والطبقة الوسطى وتبرم أمرها في إدارة المرافق العامة وتوزيع مطالب المعيشة بالمبادلة والمقايسة أو بأسلوب المعاملة الذي تملية الضرورة في حينها .

أيمكن هذا ؟

في رأي سوريل أنه يمكن ، ولكنه يرى أيضا أن المهم هو فعل « الامثولة » في نفوس المتمثلين به لا إمكان وقوعها بجميع أجزائها ، وقد يقع الإضراب الاعظم أو لا يقع على طول الزمن ، ولكنه ينفع في بلوغ غرضه ويؤدي إلى نتيجة تهدي إلى ما بعدها .

فالاماني التي أذاعها الحكيم الايطالي « ماتسيني » بين قومه كانت كأضغاث الاحلام في رأي النقاد « المعقولين » . . ولكن إيطاليا الحديثة لم تكن لتصبح شيئاً مذكوراً في العالم الاوربي لولا تلك الاماني والاحلام .

وجنود نابليون بوناپرت كانوا يقدمون على « الاستشهاد » إيماناً بمجد البطولة ومجد الدولة ، وهم يعيشون ويموتون في فاقة لا ينفعهم فيها هذا المجد ولا ذاك . وبعد فمن ذا الذي يسوغ له أن يدعي الجزم بما يكون أو لا يكون من أطوار الجماعات البشرية في المستقبل البعيد ؟

إن العقائد الكبرى قد انتشرت بين أتباعها لانها ملأت قلوبهم بالثقة وعمرت

صدورهم بالامل ووافقت منهم دخيلة السخط على ما هم فيه ، ولم تنتشر لانهم عرضوا وعودها على موازين الاحتمال فرجحت عندهم كفة الإمكان . . ويقول سوريل إن الدين الذي يوضح كل عقيدة بالعقل والبرهان يضعف ويتزعزع وإن الدين الذي يترك للغيب المجهول محلا من الضمير يقوى ويستقر ، وبهذا يعلل غلبة الكثرة على اللوثرية في الديانة المسيحية .

يقول : إن البدعة الحديثة التي جاء بها القرن التاسع عشر قد خيلت إلى جماعات المتعلمين أن العلم التجريبي قادر على شق الحجب والنفاذ إلى غياهب المستقبل : « ولأن الفلكيين سجلوا جداول القمر ترى المتعلمين يتوهمون أن غاية العلم كله هي استطلاع المجهول بدقائقه وخفائيه ، ولأن فرييه Verrier قد استطاع أن يوصل إلى موقع السيار نبتون الذي لم يكن مرثيا قط وكان فرض وجوده مفيدا في تعليل الاضطراب على السيارات المرئية - ترى المتعلمين يتوهمون أن العلم قادر على إصلاح عيوب المجتمع والائلاء إلى الخطط التي تزيل المساوىء من هذه الدنيا ، ومن الجائز أن نعتبر أن هذا هو تصور الطبقة الوسطى للعلم وأنه على التحقيق يطابق الفزعة الفكرية التي هيمنت على رؤوس أصحاب الاموال حين رأوا أنهم - مع عجزهم عن الإحاطة بشؤون مصانعهم - يجدون على الدوام المخترع الالهي الذي يخرجهم من ورطاتهم ، وكأنما كان « علم الطبقة الوسطى » طاحونا تخرج لنا حلولا لجميع المشكلات التي نلقاها في طريقنا ، فليس العلم إذن وسيلة من وسائل إتقان المعرفة ، بل هو حيلة لتحصيل بعض المنافع المطلوبة » .

وكذلك يتقي سوريل اعتراض العلماء والباحثين المحللين على فكرته العزيزة التي ساهم بها في حركة الثورة النقابية ، وهي الإضراب الاعظم . ونقول إنه ساهم بها في الحركة النقابية لأن الحركة النقابية في ذاتها كانت قائمة منتشرة قبل انتائه إليها ، ولكنه برز فيها لأنه اشتهر بتوكيد أمثلة الإضراب الاعظم وساعد على تدعيم الحركة النقابية بنظريات الفلسفة وعلم الاجتماع ، وقد أراح نفسه وأراح أصحابه من مؤونة المناقشة والجدل حول هذه الامثلة ، فتقرر لديه أن العلم مخطيء في ادعائه الإحاطة بما ينجم عن التبشير بالإضراب الاعظم ، ولكن المبشرين به غير مخطئين لانهم على يقين من إنجاز شيء على سنة الاعظم ، ، ولكن المبشرين به غير مخطئين لانهم على يقين من إنجاز شيء على سنة

العمل والتغير التي حلت في اعتقاده محل سنة التقدم والارتقاء .
وقد أسلفنا أن الرجل صالح لأن يتلمذ عليه المتفوق والمتناقضون ، ولعل
طبيعة الحركة النقابية نفسها ترشحها للالتقاء بكثير من المذاهب على فرط ما بينها
من التناقض والافتراق .

فهي تلتقي بالفوضوية لأنها تنكر الحكومة وتنفي عن برنامجها استخدام الجند
والشرطة في مجتمعها الذي تسوده بعد نجاحها ، وتصر على أنها إذا بلغت من القوة
أن تستخدم الجند والشرطة فقد بلغت من القوة ما يكفي لإدارة المجتمع بالنقابات
دون غيرها .

وهي تلتقي بالشيوعية لأنها تؤلب الاجراء والفقراء وتعتبر الحرب بين الطبقات
أصلا من أصول الاطوار الاجتماعية .

وهي تلتقي بأحزاب اليمين المتطرفة لأنها تحارب الديمقراطية والحكومة النيابية
وتكمل الامر إلى النخبة الممتازة دون الكثرة المغيرة .

بل هي تلتقي بالمصلحين السياسيين من رجال الكنيسة الذين يقترحون الحكومة
التعاونية Corporative State لحل مشكلة الطبقات ، فإن التعاون يقوم في بدء
الامر على نقابات .

ولا يرى أحد من المطلعين على مساعي الدعاة الاجتماعيين والسياسيين - ما ظهر
منها وما بطن - أن الحركة النقابية تتقدم في العالم وتؤذن بالامتداد والاتساع ،
فربما كان أهم سبب للهتاف باسمها أن النقاد نسبوا نجاح الفاشية الإيطالية
والنازية الألمانية إليها ، وزعموا أن موسوليني طبق نظام النقابات في مجلسه النيابي
تنفيذاً لآراء سوريل الذي أعلن غير مرة أنه من تلاميذه !

بيد أنه « نجاح معكوس » أن ينتهي إنكار الحكومة إلى تركيز السلطان كله في
أيدي الحكومة ، فربما كان القول بإفلاس النقابية لهذا السبب أصبح من القول
بنجاحها لاجله ، ولا سيما بعد انهيار الفاشية والنازية وبعد تجربتهما في الدولتين
على أوسع نطاق .

والظاهر أن « النقابية » مبتلاة بداء أصيل يتعذر شفاؤه ، إذ هي تصاب مما يبدو
أنه موطن القوة فيها . فعلة فشلها لاصقة بعلة رواجها لا تنفصل عنها
إن من شواهد القوة - في الظاهر - أن تلتقي المذهب بعدة مذاهب تتناقض فيما

بينها كما تتناقض الفوضوية والشيوعية أو الفاشية والحكومة الدينية ، ولكن هذا بعينه هو مكن الضعف في المذهب حيث التقى وحيث افترق ، إذ هو يتشعب ويتوزع ولا يصيب قوته كلها في اتجاه واحد ، فله من يؤيدونه من جهة محاربون مستميتون في حربه من جهة أخرى ، كلما وصل إلى الفعل الحاسم والتنفيذ الأخير .

وإذا جاز الأخذ بالأرقام المسجلة في أسانيد المصانع وأسانيد الهيئات الثورية فهذه الأرقام تدل على تناقض النقابيين في جميع البقاع التي ظهروا فيها ، وكأنما يطرد النقص في عددهم ورواج دعوتهم في كل قطر تقدمت فيه الصناعة والحكومة النيابية . فهم على حظ من الرواج في أمم أمريكا اللاتينية وكانوا على حظ من الرواج في أسبانيا الجمهورية ولكنهم يتأخرون ولا يتقدمون بين صناعات الولايات المتحدة والجزر البريطانية .

ففي الولايات المتحدة نشأت طائفة من العمال على غرار النقابات الفرنسية وسميت هناك « باسم عمال الدنيا الصناعيين » وهي الطائفة التي يشار إليها بحروف (i . w . w) اختصاراً لاسم Industrial Workers of the World ولكنها لم تلبث أن عكفت على نفسها وانعزلت عن صفوف الحركة العمالية في أنحاء الولايات من أقصاها إلى أقصاها ، فبقي فيها الطارئون المهاجرون وقيل على سبيل الفكاهة إن عمال أمريكا طبقتان : طبقة أرستقراطية وهي التي اشتملت على المحنكين الاصلاء وطبقة عامية وهي التي اشتملت على هؤلاء الطارئين الغرباء ، وقد أصاب الفرع الكندي والفرع الاسترالي ما أصاب زملاءهم في الولايات .

أما الجزر البريطانية فالذين بقوا من عمالها خارج النقابات التي تدين بالجهود البرلمانية لا يزالون في الوقت نفسه خارج النقابات الثورية التي تنكر البرلمان والحكومة ، وقد اتخذوا لهم عنواناً آخر باسم الاشتراكية النقابية Guild Socialism وخالفوا النقابيين الثوريين في إنكار الحكومة معلنين أن بقاء الحكومات لا يضير « المصنع » إذا اشتغل بإدارته على الأصول الاقتصادية .

وسوريل نفسه قد ختم حياته وهو على يأس من النقابيين الثوريين فاعتزلهم واعتزلوه ، وشيعته الصحافة الشيوعية الرسمية بأوصاف لا ترضي تلاميذه من

قبيل : « الرجعي والبرجوازي والفوضي والبرودوني - نسبة الى برودون Proudhon - » ذاكرة له فقط أنه كان يعمل على إضرام الثورة ما استطاع .
ولم يكن الرجل ذا وجهين باختياره ، ولكنه كان على الرغم منه ذا وجوه شتى يلاقي بها أقصى اليسار وأقصى اليمين ، فأدركه حظ من تعددت وجوهه ، فلم يكن وجيها عند هؤلاء ولا هؤلاء .

باريتو

Pareto

١٨٤٨ - ١٩٢٣

ثلفريدو فردريكو داماسو باريتو هو وريث أسرة إيطالية نبيلة ، كان أبوه من أنصار « ملتيني » إمام الوطنية الإيطالية وأقام زمنا في فرنسا فتجنس بالجنسية الفرنسية وقضى حياته منتصرا للمبادئ السياسية المتطرفة ، وولد له ابنه « باريتو » صاحب المذهب الذي نحن بصدده في باريس حيث نشأ وتعلم وتخرج من مدارسها ومدارس تورين .

وقد خلف باريتو أباه في هندسة السكة الحديد الإيطالية ، ثم اشتغل بهندسة المناجم وعكف في أثناء ذلك على مذاهب الفلسفة الحديثة وأهمها في إبان نشأته مذهب أوجست كونت إمام المدرسة الوضعية ، وقد خرج من دراساته وتجاربه مناقضا لرأي أبيه في إيمانه بمبادئ الحرية المتطرفة ، فكان من أنصار حرية التجارة ولكنه كان يشعر بخيبة الأمل من جراء إخفاق الحكم الديمقراطي في بلاده وفي بعض الأمم الأوروبية الأخرى ، ولما أعياه تقرير مذهب في الاقتصاد وفي السياسة بين أبناء وطنه تحفز للهجرة منه ولبي أول دعوة وصلت إليه من سويسرة لتعليم الاقتصاد السياسي بجامعة لوزان ، وهناك توفر على بحوث الاقتصاد ثم على التوسع في دروس الحكم واستخلاص القواعد التي تقوم عليها النظم الحكومية ،

وانتهى منها بالرأي المفصل الذي شرحه في كتابه الضخم المترجم إلى اللغة الإنجليزية باسم العقل والمجتمع Mind and Society ويعتبر باريثو أعلم هذه الزمرة من فلاسفة الحكم في العصر الحديث ، فهو على علمه بالرياضة صاحب نظريات وتعريفات في علم الاقتصاد عن القيمة والدخل والطلب ورأس المال والسعر يعول عليها الاقتصاديون ويحلها الموافقون لها والمتشككون فيها محل الاعتبار ، وكتابه الذي تقدم ذكره أوفى الكتب مراجع من أمهات التواريخ والثقافات الغابرة والحاضرة ، وأحفلها بالاسانيد والأمثلة والقرائن التي عني بتقسيمها وتبويبها على نهج المناطقة والعلماء التجريبيين ، فهو في مجلداته الأربعة الضخام أوفى كتب الفلسفة السياسية التي وضعها الاقدمون أو المحدثون إلى اليوم .

ومع شغف الرجل بوضع القوانين وتسمية النظريات لم تغرر به الثقة إلى الجزم بعصمة القوانين التي تتعلق بأطوار المجتمعات الإنسانية . ففي وسعك أن تقول إن التاريخ يكرر نفسه كما في وسعك أن تقول إنه لم يكرر نفسه قط على حسب الواجهة التي أنت ناظر إليها ، فإذا نظرت إلى جوهر العوامل التاريخية فهناك تكرار لا شك فيه ، وإذا نظرت إلى العوارض الظاهرة فليست هناك عارضة تشبه غيرها كما تشبه النسخة من الكتاب نسخة أخرى ، ومن كلامه في تقديم نظرياته : « إن القوانين التي تسمى بقوانين العرض والطلب لا يمكن أن تستخلص من الإحصاءات وفاقا للمقادير والأثمان التي ترصد لبضاعة ما مجلوبة إلى السوق . فإذا قال الاقتصاديون إن زيادة العرض تؤدي إلى هبوط الثمن فهم يقررون قانونا عن حالة مثالية ينذر أن تشاهد في عالم الواقع ، ويجب أن نلاحظ في تطبيق نظريات الاقتصاد أنه من الوهم أن نعتقد أننا أقرب إلى الواقع حين نبدأ بقانون العرض والطلب مما نكون حين البدء بقانون الاستعمال والمنفعة الذي ذهب إليه الاقتصاديون الأولون أو قانون هامش المنفعة أو الندرة أو المحدودية وغيرها من قوانين الاقتصاديين المتأخرين ، ومهما نصنع فنحن في النهاية راجعون إلى التجريدات العامة ولا يسعنا أن نصنع غير ذلك » .

فلا محيص إذن من التفرقة بين القوانين التي يثبتها التطبيق طردا وعكسا كقانون الجاذبية في الفلك مثلا وبين القوانين التي تبنى على حشد الأمثلة والمقارنات

وتلجئنا إلى الخوض في كثير من المشابهات والمفارقات ، ثم تؤخذ الحقائق فيها بالتغليب في غيبة ما هو أولى منها بالاعتماد عليه . وأصدق منها في تفسير العدد الأكبر من الوقائع والاطوار .

بذلك الاطلاع ، وبهذا التحفظ ، تقدم « باريتو » إلى شرح نظريته المستفيضة في نظم الحكومة ، وهذه خلاصة منها كأوجز ما يمكن أن تلخص ألوف الصفحات في بضعة صفحات صغار .

أول ما يقرره باريتو أن أعمال الإنسان لا تقتزن كلها بالتعقل ولا بمعرفة الاسباب ولا تكون الاسباب التي تعزى إليها هي الاسباب التي توحىها ، ولا سيما الأعمال التي تدور عليها سياسة المجتمعات .

فهناك أعمال عقلية أو منطقية ، وهي الاعمال التي لها غايات معلومة ووسائل مرسومة ، كالمنضدة يصنعها النجار ، والكتاب يصنفه المؤلف ، والقصر يشيده البناء ، والصورة ينقشها الرسام .

وهناك أعمال لا تخضع للتعقل ولا يتابعها التعقل إلى نهاياتها ، ومنها السعي إلى الامثلة العليا ، أو أحلام السعادة الابدية ، أو الانظمة المثالية في المجتمعات ، أو ما شاكلها من المطالب التي لا تتضح غاياتها ولا تتفق العقول على وسائلها . ونحن في الاصطلاح نسمي الاعمال الاولى بالمنطقية ونسمي الاعمال الثانية باللدنية أو الغريزية ، ونفضل اللدنية لان الغريزة قد تتصل كثيرا بالمعقولات . ولهذا الاعمال جميعاً من النفس البشرية مصدران : مصدر الجذور ومصدر المشتقات .

فالجذور قلما تتغير من زمن إلى زمن ، والمشتقات هي التي تتغير بالاسماء والتعابير الكلامية والفنية ، ويكثر تغييرها عندما يزول نظام من أنظمة الحكم ويخلفه نظام آخر ، فلا بد لكل نظام من مشتقاته ومصطلحاته ، مع بقاء الجذور في الغالب على ما كانت عليه .

والجذور على الدوام هي المصدر الأكبر للاحداث السياسية ، فإنما المشتقات تفسيرات لا يهم كثيراً أن تتفق أو تختلف ، مادامت الجذور هي الاساس المكين . لهذا يتفق في التاريخ أن تعترف الامم بغاية واحدة ودين واحد ولكنها تتناحر فيما

بينها كأنها متشعبة المقاصد متناقضة الآمال ، لان مقاصدها وآمالها هي المشتقات العرضية ومن ورائها الجذور الكامنة على الدوام بغير تبديل . وكذلك يتفق أن تتفرق الامم شعارا ومقصدا وتجتمع في صف واحد أمام عدو واحد ، لان حركاتها تصدر من جذورها ، وجذورها على وفاق عند انقسام الاصدقاء والاعداء .

وقد عرض باريتو ألوف الحوادث والصروف التاريخية والدوافع النفسية ثم ردها جميعا إلى ستة أنواع من الجذور .

النوع الاول سليقة التوفيق Combination وهي السليقة التي توحى إلى الإنسان أن يوفق بين كيانه وبين مؤثرات الكون الذي يعيش فيه ، ويصدر عنها السحر والاعتقاد في بعض النجوم أو الارقام أو الطوالع والبخوت ، كما يصدر منها ربط الوقائع العلمية وربط المشروعات الكبرى وكل محاولة لتقرير مركز الإنسان بين ما يحيط به من المؤثرات والآثار .

والنوع الثاني سليقة المثابرة والصيانة Group Persistences وهي الكفيلة بحفظ تلك التوفيقات والغيرة عليها والدفاع عنها ، وإليها ترجع المحافظة على تقاليد الاسرة والامة وضروب العقائد والعادات .

والنوع الثالث سليقة التعبير بالكلام والعمل ، وإليها يرجع الاعراب عن شكايات المجتمع ومقترحات الإصلاح والنقمة من خروج بعض الناس على التوفيقات والتقاليد والاجتهاد في ردهم إلى ما يعتبره العرف سواء السبيل .

والنوع الرابع سليقة العلاقات الاجتماعية ، وإليها يرجع عرف الناس في صلات بعضهم ببعض آحادا وأسرا وطوائف وطبقات وهي سليقة وثيقة الارتباط بالنعين الاولين .

والنوع الخامس سليقة السلامة وهي تتعلق بفرد فرد من آحاد المجتمع ، ثم هي سليقة يحكمها العرف والعادات ، ولاجلها يتشبث كل عضو من أعضاء المجتمع بسلامة حوزته ويعقد الصلة بينها وبين معالم الحياة الاجتماعية خشية ما يصيبه في سلامته من جراء المساس بتلك المعالم ، عدا ما يساوره من الغيرة على معالم الاجتماع بغير نظر إلى سلامته « الشخصية » .

والنوع السادس سليقة الجنس ، والمقصود بها عرف السليقة الجنسية لا مجرد

الرغبة المتبادلة بين الجنسين ، وعن هذه السليقة تصدر الطواطم الاجتماعية والمحظورات وقضايا الاخلاق وما يصح أن يسمى بالعقد النفسية في الجماعات والآحاد وخرافات الحمل والولادة وخصائص الذكور والإناث والابناء والبنات .

تتجمع هذه الجذور - متحلة أو منفصلة - في أساس كل حركة سياسية تشمل المجتمع في حالتي المحافظة أو التجديد ، وهي كما تقدم لا تتغير من جيل إلى جيل إلا في صورتها وتعبيراتها الظاهرة وهي المشتقات والفروع .

وقد أحصى باريثو هذه المشتقات فأدخلها في أربعة أنواع : أولها هو مرجع الحكم الاجتماعية والقواعد السياسية التي يتخذها الناس قضايا مسلمة يرددونها أحيانا بغير بحث عميق في معانيها ، وقد تكون صحيحة أو غير صحيحة ، وقد تكون صحيحة في أوقات وغير صحيحة في أوقات أخرى ، ولكن المهم هو سريانها في العرف لا مقدار ما يتحرراه القائلون بها من الصحة والتحقيق ، ومن أمثلتها قولهم : « في الثاني السلامة وفي العجلة الندامة » و « الظلم مرتعه وخيم » و « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » و « الناس أكفأ أبوهم آدم وأمهم حواء » و « صوت الشعب من صوت الله » و « الإحسان منجاة من السوء » و « رأيان أفضل من واحد ورأي الثلاثة لا يخطئ » و « خير لك أن تصاب مظلوما من أن تصيب ظالما » ومانحا هذا النحو من حكم الاخلاق الاجتماعية التي يستشهد بها في المواقف السياسية ، وأقواها وأنفذها ما كان موجزا يسهل تكريره على صيغة واحدة .

والنوع الثاني من المشتقات هو الذي يوحى إلى النفس الاطمئنان إلى المصادر والأسانيد التي تستمد من أقوال المشهورين الموصوفين بالثقات ، فما قيل قد بما يتلقاه الخلف بالتسليم ولو لم يكن هناك برهان في الحاضر أو الماضي على صدقه ونجاح المعتمدين عليه .

والنوع الثالث هو المبادئ التي يحسن وقعها في الشعور أو توافق المقررات الشائعة في زمن من الأزمان ، وبهذا النوع من المشتقات يتمكن الدعاة من ترويع أقوالهم بما يسمونه « إرادة الشعب » أو « المصلحة العامة » أو « حرمة الوطن » أو

« حقوق الإنسان » أو « التضامن الاجتماعي » وما إليها من العبارات التي يصحبها شعور مبهم بالموافقة والحماسة .

ورابع الأنواع هو المجازات والكنائيات التي تختلط فيها الواقع بالتخيل والتقرير بالتشبيه والتمثيل .

وهذه المشتقات جميعاً يطرأ عليها التغيير بين نظام ونظام من سلسلة الأنظمة الحكومية المتعددة ، والداعون إلى النظم الجديدة يعنون باستبدال مشتقات جديدة بالمشتقات القديمة التي يخشون أن تصدمهم وتعرقل حركاتهم كلما هجموا على تراث غابر طالت مدته وتسلسل إلى الوعي الباطن في نفوس الجماهير ، ويعينهم في معظم الأحوال على تغيير المشتقات أن تترن بالنظم الحكومية التي تتابع سخط الرعية عليها وما زالوا يتبرمون بها حتى فقدوا الثقة بقول دعائها أو سثموا وكرهوا ترادها ولو لم يفهموا بطلانها . إلا أن المشتقات الجديدة لن تخرج عن كونها صورا وتعبيرات لتلك الجذور الخالدة التي كمنت في الطبيعة البشرية ولازمتها على تعاقب الحكام والحكومات .

ويسأل السائلون : لماذا تحدث الثورات وتتجدد الحكومات إذا كانت تقوم دائماً على الجذور الكامنة في الطبيعة البشرية .

وجواب باريتو عن ذلك في كلمات معدودات هو قانون « تناوب الصفوة الممتازة لمقاليذ الحكم بين الأجيال المتوالية » .

فمن الخطأ أن نتخيل أن الجماعة البشرية تظل على حالة واحدة لأنها لا تخرج عن طبيعتها البشرية .

فالجماعة البشرية خليط من الأنساب والأجناس والأمزجة والمدارك والمنافع والصناعات ، وقد تكون شروط بقائها معروفة بالنسبة إلى الجماعات الأجنبية التي تزارحها ، ولكن الشروط الداخلية لا تستقر على حال ولا تطرد على نسق واحد بين جميع الأجيال .

فشرط البقاء في معترك الأمم يتلخص في المناعة والقوة ، وبغير مناعة ولا قوة لا

أمان على الدولة من الضياع أو الخضوع لمن ينازعونها .

أما شروط البقاء للمجتمع في حياته الداخلية فهي متقلبة متجددة ، وفقا للتقلب والتجدد في تركيب عناصره وزيادة بعضها ونقص بعضها ، ونشاط فئة منها وانقباض فئة غيرها .

وقد كان من السهل أن نتوهم مصلحة واحدة للمجتمع الصغير في الأزمنة الغابرة ، وأن نتوهم أن كل مواطن في ذلك المجتمع يعمل مع إخوانه في اتجاه واحد هو الاتجاه القومي الشامل للمواطنين أجمعين .

أما المجتمعات الحديثة فربما كانت لبعض أبنائها مصلحة تناقض مصلحتها في أشد الأزمات التي تهدد كيائها ، كما يحدث في إبان الحروب من التناقض بين أنصار التضخم والغلاء وأنصار الحرب على العموم وبين سواد الرعية الذين يقع عليهم عبء الغلاء وعبء القتال .

ففي مجتمعات كهذه تتصارع القوى وتتدافع المطامع ولا ينقطع التنافس على مراكز الحكم بين ذوي الحول والحيلة وهم لا يصعدون إليها جميعا في كل آونة ، بل يحدث على الدوام أن يكون هناك أناس مقصون عن الحكم وهم قادرون عليه ولا يقلون قدرة عليه عمن تولوه بالحول أو بالحيلة .

وفي كل مجتمع فئات من العسكريين ورجال الدين وكبار الأغنياء والمفكرين والمغامرين والمحتالين على قلة أو كثرة في العدد ، وعلى رجاحة أو نقص في المزايا الخلقية والعقلية ومن صفوة هؤلاء كلهم تتألف الحكومة وتستتثر بسلطان الحكم حتى تفقد مزاياها الأولى وتضعف عن حماية سلطانها فتخلفها على المهمل أو على العجل صفوة أخرى يصيبها مع الزمن ما أصاب سابقتها .

والأمثلة التاريخية التي يرى باريتو أنها تعزز رأيه تستغرق المئات من الصفحات ، وقد تلخص في مثل عام يغني عن الإسهاب في السرد والتفصيل

فئة من الأقوياء يثبون إلى مراكز الحكم في حقبة مؤاتية ، يستعينون بعوان من الدهاة واصحاب الحيلة على توطيده وحل مشكلاته ، ويضعف الأقوياء كلما

استسلموا للطمانينة والمعيشة الرتيبة ، ويتهاون الدهاة كلما جازت الحيلة واستقرت عليها العقائد والعادات فلا يكلفون أنفسهم عناء التدبير والتفكير ، ومع ضعف الأقوياء والدهاة يسوء الحكم وتضطرب الحال وتتشعب مصالح الأشياء والخصوم ويتطلع إلى الحكم طراز آخر من الأقوياء والدهاة طال بهم التربص وانتظار الفرصة ، فما هي إلا أن تسنح لهم حتى يشبوا وبثبهم ويعيدوا تمثيل الدور السابق كرة أخرى .

وبين الجذور الستة التي لخصناها فيما تقدم نوعان يرشحهما باريثولوجيا الحيلة في جميع الأدوار ، وهما النوع الأول الذي يشتغل بالتوفيق من سحرة وكهان ومفكرين وذوي احتيال وتصرف ويسميه كما ساهم مكيا في بالثعالب ، والنوع الثاني الذي يشتغل بالمتابعة والصيانة ويركن إلى القوة والاقدام والطبع الغيور ويسميه مثله بالأسود ، ولا خوف على الحكم ما دام له حماة من ذوي الحول والحيلة ، ولكنه شرط لا يتوافر على توالي الزمن ، فلا يسلم المقتدر بحوله أو بحيلته من جرائر التواكل والاهمال ، ومن دأب أصحاب الحيلة أن يفقدوا الصفات العسكرية ، ومن دأب أصحاب الحول ان يفقدوا صفات الدهاء والمداورة ، وبمرصد لهم أناس يزيدهم التطلع همة ويزيدهم الأمل بأسا وشدة ، لا يقلون عنهم قدرة وقد يزيدون عليهم ، فتسنع لهم الفرصة لا محالة بعد انتظار يطول أو يقصر ولكنه لا يدوم إلى غير انتهاء .

« وهب أمة من الأمم لها صفوة حاكمة من النوع الأول الذي يشتمل على أوفر العناصر في الرعاية قاطبة حظاً من الحنكة والذكاء . ففي هذه الحالة تنجرد الرعاية على الأغلب الأعم من هذه المزية ويضعف أملها في الانتصار على الصفوة الحاكمة ما دام المرجع إلى الذكاء والحصافة . . غير أن المعهود على الأغلب الأعم أيضاً أن أصحاب الحيلة والذكاء يفقدون الميل شيئاً فشيئاً إلى استخدام العنف والقوة والعكس بالعكس في أمر أصحاب العنف والقوة ، ومن ثم يؤدي تركيز الذكاء في الأولين إلى تركيز العنف والاقدام في الآخرين ، ويختل التوازن بين الفريقين مع الاستمرار ، لأن أحدهما زاد حظه من الحيلة ونقص حظه من الجرأة والاقدام والثاني زاد حظه من الجرأة والاقدام ونقص حظه من الحيلة ، فإذا حصل مصادفة

أن ذوي الاقدام وجدوا لهم زعما يحسن الاحتياي وتصريف الامور - وقد ظهر من المصادفات المتكررة في التاريخ أنهم لا يعدمون هذا الزعيم من بين الطائفة المتذمرة في صفوف الدهاة أنفسهم - فيومئذ يتهيا لهم كل ما يلزمهم لاقضاء الحاكمين عن الحكم ، وهي الدورة التي لا عداد لتكرارها منذ فجر التاريخ إلى أوقاتنا الحاضرة .

تلك صورة تقريبية تتكرر على مدى الزمن ، بيد أنها لا تتكرر على هذا الشكل دون غيره ، بل تبدل أشكالها ويثبت منها شيء واحد من وراء تلك الأشكال المتبدلة فلا تفتا صفوة تعلو وصفوة تهبط بالحول وبالحيلة على أساليب شتى ، تتراوح بين أسلوب سبرطة العسكرية وأسلوب أثينا الفلسفية ، وفي كل منها مزيج من السطوة والحصافة .

ويستخدم باريتو بعض مشتقاته أو مصطلحاته لتطبيقه على علم السياسة كالحكمة التي يقابلها عندنا قول القائلين « إن الناس على دين ملوكهم » .

فإنه يقرر أن الآداب والأخلاق في كل مجتمع هي آداب الصفوة وأخلاقها ، وأن الرعايا يتشبهون بحكامهم إن لم يماثلوهم طبعاً وعادة واستعداداً للتخلق بالأخلاق الاجتماعية ، ولا يزال المجتمع في أمان ما دام المحكومون يدينون بالآداب والعقائد التي يعلنها الحاكمون ويحافظون عليها ، وقد يؤمن الرعايا بوصايا المسيحية التي تحرم القتل والسرقة والكذب وتحث على الإيثار والرحمة ويقعون في تلك الأوزار ويتعدد بينهم من يعصون أوامر الدين وينتهكون وصاياه ، فلا يكون العصيان خطراً على النظام القائم كخطر الشك في وجوب تلك الأوامر والوصايا . إذ ليس العصيان هدماً للأساس الذي يستقر عليه النظام ، وإنما الكفر به هو الذي يهدم النظام ويعرضه للتصدع والانهيار .

ولا خطر على المجتمع من الذين يتشاءمون بوقائع الأخلاق فيسخرون ممن يشيد بالفضيلة وينكرون أن الصدق ينجي صاحبه والكذب يوقعه في المهالك كما يقال على ألسنة الوعاظ والمرشدين ، فإن هذا التشاؤم يحمل أحياناً محمل الغيرة

على الصدق والسخط على الكذب والثناء لمن يصابون في سبيل الحق والفضيلة ،
ولعل في ذلك متنفسا للساخطين وبابا من أبواب الحضر على إصلاح العيوب
والتحريض على الأئمين .

وإنما الخطر على المجتمع ممن يسقطون تلك الفضائل والواجبات إيماننا بسقوطها
ودعوة إلى عقيدة غير العقيدة التي توجبها ، فهذه هي علامة الخطر والتصدع في
البنية الاجتماعية ولن تتماسك بنية تتزلزل فيها قواعد الأخلاق .

وقد ينجم في الآمة مصلحون ومجددون يخيل إليهم ان جلاء الحقيقة عن بعض
الخرافات كاف لازالة الآفات الاجتماعية وتقويم النظم والحكومات ، ويجوز أن
يصيبوا كما يجوز أن يخطئوا والمجتمع على صواب . غير أنهم يخطئون حتما إذا خيل
إليهم أن الجهل وحده هو العامل الذي يحول بين الناس وبين التصرف المنطقي
المعقول ، فهناك عوامل غير الجهل تبقى مسيطرة على أعمال الناس ولو زالت من
عقولهم جميع الخرافات والأباطيل ، ولم يعهد قط في مجتمع مضى أن الناس خلوا
من جهالة أو خرافة وصمدوا على التفكير المنطقي في شؤون السياسة ، ولا يظن
قياسا على هذا أنهم يخلون يوما من الجهالات والخرافات مهما يتقدم بهم العلم
وتتكشف أمامهم مجهولات الكون والطبيعة البشرية .

وذهابا مع هذا الظن - بل نكاد نقول مع هذا اليقين - ينحى باريتو على من
يخلقون الأديان المنطقية في زعمهم ويحسبون أنهم يعوضون بها الناس عن أديانهم
التي ألفوها ، فليس أشد من إنحائه على جماعة المتدينين الذين يسمون أنفسهم
بالإنسانيين Humanitarians ويتوهمون أنهم يصلحون الضمائر بدين يخلقون
قداسته بتدبيرهم ، فإنه - على تقدير باريتو - دين لا يحسب للمجهول حسابه ،
وهو الجانب العميق الذي لا يتجاهله دين من الأديان .

وبعد فما هو النظام الذي يزكيه باريتو ويوطئ له بمذهبه المستفيض الذي
اضطلع بجهود الجبابرة لشرحه وتدوينه ؟

إنه لا يتشيع لنظام على نظام ، ولا يلقي بالا إلى فروق الأسماء والقواعد الشائعة
أو ما يسميه المشتقات ويرى أنها فروع تقتلع أحيانا ولا تقتلع معها الجذور

جايتانو موسكا

١٨٥٨ - ١٩٤١

ولد هذا الفيلسوف السياسي في نحو منتصف القرن التاسع عشر ، وتوفي في نحو منتصف القرن العشرين ، فلو أنه اكتفى بما حدث في مدى حياته من وقائع السياسة وخطوبها لاستطاع أن يتزود من هذه المادة الزاخرة ما يدعم به مذهباً كاملاً في أطوار الدول والحكومات .

ولد في صقلية وهي مهد الوحدة الإيطالية ومعرض التاريخ الحافل بآثار الدول وغرائب العادات الاجتماعية من أقدم العصور .

ونشأ وهو يستمع الى قصص القتال بين الدولة الدينية المقدسة والدولة المدنية المستقلة ، وتلقى في صباه أقاصيص الرواة عن غريبالدي وفكتور عمانويل وهي من أعجب الأقاصيص عن العلاقة بين القائد « الدكتاتور » والملك المختار ، ثم شهد القارة الأوربية وهي تنتقل من نظام إلى نظام من أنظمة الحكم على اختلافها بين ملكية مطلقة وملكبة مقيدة وبين جمهورية وإمبراطورية ، وبين انتخابية تضيق فيها حقوق التصويت إلى انتخابية تتسع فيها هذه الحقوق غاية مداها من الاتساع .

وعاصر فرنسا وهي تتحول من جمهورية إلى إمبراطورية ثم من إمبراطورية إلى جمهورية كرة أخرى ، وشهد قيام الدولة الجرمانية الموحدة كما شهد قيام غيرها من الدول الصغيرة في أوربة الشرقية ، ولم تمض في حياته فترة دون أن يسمع نبأ من أنباء الثورات أو الفتوح ، وامتد به العمر حتى حضر الحرب العالمية الأولى وأحاط بكل ما تلاها من أسباب القلاقل أو أسباب قيام الحكومات وتنازعها وانهارها ، وتم في أيام نضجه تطبيق ثلاثة من المذاهب السياسية في نطاق واسع بين أمم مختلفة الأجناس والثقافات ، فطبق المذهب الشيوعي في روسيا وطبق المذهب الفاشي في إيطاليا وطبق المذهب النازي في ألمانيا ، وطبق مذهب أخرى تمتزج فيها هذه المذاهب على درجات من الامتزاج في غير بلاد السلافيين والتيتوتون واللاتين ، وعاش إلى ما بعد نشوب الحرب العالمية الثانية فكانت تلخيصا شاملا لكل ما عالجته من المشكلات القومية والعالمية ، وأكدت له من آرائه ما كان محتاجا إلى تأكيد .

وقد جنحت به سليقته إلى دراسة العلوم السياسية من جوانبها التاريخية أو الفكرية ، فاطلع على تواريخ الأمم والحضارات في المشرق والمغرب ، وإن تاريخ الدولة الرومانية وحده لكاف لاستخلاص عبر السياسة في كل صورة وكل زمن ، ولكنه أضاف إلى العلم الراسخ بتفصيلات هذا التاريخ علما يضارعه بتواريخ الدول الشرقية من الصين إلى الهند إلى فارس إلى بين النهرين إلى مصر إلى بلاد العرب إلى ما استحدثت بعد هذه الدول العظام من الدويلات والولايات . ثم كان عمله أن يلقي الدروس في هذه الموضوعات على طلاب الجامعات الإيطالية ، فتهيات له المادة الكافية لتقرير مذهب في السياسة مدعوم بالشواهد والآسانيد والتجارب والبحوث ، أيا كان رأي المطلعين عليه من الموافقة أو الاعتراض .

ولم يبلغ موسكا الرابعة والعشرين حتى تمت عناصر مذهبه في ذهنه وأوشكت أن تنعقد على صورتها الأخيرة لولا بعض التنقيح الذي ترادفت به الحوادث في بقية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فلما أصدر كتابه المسمى « عناصر العلم السياسي » (سنة ١٩٢٣) كان بمثابة رسالته الأخيرة في هذا العلم

غير محتاجة إلى إضافة جديدة في لباب الموضوع .

ومن الواضح أن موسكا قد أتم تقرير مذهبه قبل قيام الحكومة الفاشية في بلاده على يد موسوليني وأصحابه ، فلم يكن مضطرا إلى صوغ المذهب على الأسلوب الذي يتقي به غضب الحاكم المستبد بعد السيطرة على حرية القلم واللسان ، بل جاءت الحكومة الفاشية مؤيدة لبعض فروضه وتقديراته ، ومنها أن الدولة الملكية قد يقوم فيها حاكم ذو سلطان إلى جانب الملك الذي يتولى الملك بالوراثة ، ويسمى تارة بـمين (Major Domo) وتارة بالصدر الأعظم وتارة برئيس الوزارة ، وكان توزيع السلطان بين فكتور عمانويل الثالث وموسوليني مثلاً من أمثلة الازدواج على هذه الصورة بين الملك والدوتشي كما سمي زعيم الفاشيين .

إلا أن موسكا لم يكن من أصحاب الخطوة الكبرى في الحكومة الفاشية ، لأنه على نقده للتوسع في حقوق الانتخاب لم يكن من أنصار الحكومة المطلقة ولم يكن من رؤية أن الحاكم المستبد أقدر على الإصلاح من الحكومات البرلمانية ، بل عنده أن تمثيل الشعب على صورة من الصور لازم لكف الحاكم عن الطغيان وتجديد العناصر التي تتولى الحكم من حين إلى حين ، وليس هذا الرأي مما يرضاه الحاكم بأمره في الدول الفاشية وما جرى على نظامها ، ولهذا كان موسكا مرضيا عنه محذورا منه في وقت واحد ، وقصارى ما بلغه من مناصب الدولة أنه تولى وكالة المستعمرات زمناً ثم دخل مجلس الشيوخ عضواً معينا مدى الحياة .

وقبل أن نمضي في تلخيص مذهب موسكا نحب أن نقرر بدءاً ما قرره هو في أسلوب جازم حازم لا موارد فيه عن عاقبة المذاهب السياسية التي يحسن بالباحث أن يفكر فيها ، فمهما يكن من صلاح المذهب لتدبير شؤون الأمم فلا محل في هذه الدنيا للحكومة المثالية أول « طوبى » الفلاسفة الأقدمين والمحدثين الذين يمنون الناس جنة النعيم إذا عملوا بأرائهم في الحكم والسياسة . فهذه « الطوبى » خارجة عند موسكا من كل حساب ، وتوكيد هذه الحقيقة عنده لازم كل اللزوم لتبديد غشاوة الجهل والخداع عن أبصار العاملين في ولاية الأمور . فلن يشهد الناس « طوبى » على هذه الأرض وإن طالت الأزمان والأزال ، ولن يأتي على أبناء آدم يوم يعمهم فيه العدل المطلق، على يد وال من الولاة أو نظام من

النظم كائنا ما كان ، وغاية ما في الأمر أنه حكم أعدل من حكم ونظام أسلم من نظام .

قال في كتابه الذي ترجم الى اللغة الانجليزية باسم « الطبقة الحاكمة » The Ruling Class : « ان الطوبيات خطيرة شديدة اذا استطاعت ان تجذب اليها طائفة جمة من ذوي الازهان والفضائل الخلقية يصرفون جهود العقل والنفس الى تحقيق غاية لن تتحقق آخر الزمان ، ولن يكون تحقيقها المزعوم عند ادعاء حصوله الا تغليباً لشر العناصر وشقاء لأطبيها وأكرمها وخيبة رجاء . وقد اعلن ادموند بيرك قبل اكثر من مائة سنة ان اية دعوة سياسية تفرض امكان البطولات والفضائل التي تعلو على طاقة البشر لن تسفر في النهاية الا عن رذيلة وفساد . »

وموسكا يابى أن يرجع باطوار الشعوب وصروف الحوادث إلى عامل واحد أو عوامل شتى مرسومة على نهج واحد . فهو لا يعتمد كل الاعتماد على فعل السلالة أو فعل الجو والاقليم أو فعل العوامل الاقتصادية وما يسمونه بنظام الانتاج والاستغلال . فهذه جميعاً قد تفعل فعلها على اشتراك واختلاط في كل بقعة وفي كل قبيل ، ولكنها لا تنفرد بالأثر الفعال في جميع الأحوال .

فإذا قيل إن الفضل في قيام الدولة او الحضارة ينحصر في مزايا السلالات فالتاريخ يثبت لنا قيام الدول والحضارات بين سلالات كثيرة كالطورانية والآرية والسامية وسلالة الأمريكيين الأصلاء في أواسط الدنيا الجديدة ، وكثيراً ما يحدث التغير من الركود إلى النشاط ومن النشاط إلى الركود في أقل من قرن واحد لا يتغير فيه تركيب السلالة أو تركيب بنية الاحاد الذين تتألف منهم الأمة . وقد يحدث أن تسيطر على الدولة طبقة من النبلاء بالنسب والوراثة ولكنها تسود بالصفات التي تكسبها من التربية والعادة ، لأن الخبرة بأساليب الحكم شيء لا ينتقل في الدم وليست خصائص الدم مما يتحول في مدى سنوات . وقد ثور الرعايا على حكامها ولم تتغير سلالة هؤلاء في آماط طوال من عصور التاريخ ، وإنما تغيرت التربية

والعادة كما حدث بين نبلاء صقلية ورعاياهم أو كما حدث بين فرسان الأقطاع في القرون الوسطى وأتباعهم في مختلف البيئات . فالسيد القديم كان يستبد بسلطانه ولكنه مقبول محبوب لأن عقائده وأوامره هي العقائد والأوامر التي يدين بها العامة من حوله ، ولكنه يتغير بالتربية في العصور الحديثة فيصبح « جنتلمانا » بين السوق فلا يألفهم ولا يألفونه ولا يزال باب الشقاق مفتوحا بينه وبين عماله وفلاحيه .

أما خصائص الجو والإقليم فلا خلاف على تأثيرها في نشأة الدولة أو نشأة الحضارة وإنما الخلاف على حصر التأثير فيها دون غيرها . وقد أولع بعض المؤرخين بتسجيل القوانين الإقليمية وهي في حقيقتها مصادفات لا تستحق أن تسمى بالقوانين المرعية في سنن الطبيعة . ومثال ذلك أنك تستطيع أن تضع على هذا المثال قانونا تقول فيه إن الأنهار تجري دائما من الجنوب إلى الشمال لأنك تبني حكمك على خريطة ألمانيا أو سيبيريا ، وما هي إلا مصادفة وافقت مواقع الجبال والبحار في تلك الأقطار ، وقد تتكرر المصادفات من قبيلها في تلك القوانين التي يقررون بها انتشار الحضارات من الشرق إلى الغرب أو من الجنوب إلى الشمال . وقد قيل إن حكومات الاستبداد تنشأ في البلاد الحارة وإن الحكومات الحرة تنشأ في البلاد الباردة أو القريبة إلى البرودة ، ولكن حـ الاستبداد طال واستطال في روسيا التي يبلغ فيها البرد غاية اشتداده ، والحرية وجدت إلى الجنوب حيث لا تنساقط الثلوج ولا يشتد نفح الهواء ، وربما اختلف السكان في المواقع مثلات السنين ، وبينهم شيء من تقارب الشعور والتفكير لا نراه في سكان الموقع الواحد . فالمسلم الفارسي آري والمسلم العربي سامي والمسلم التركي طوراني ولكنك قد تراهم في استعدادهم للتفاهم بينهم أقرب الأمر من أبناء الجنس الواحد في البقعة الواحدة ، وقد ينعكس الأمر بعض الأحيان فيطل القول بانحصار التأثير في الثقافة أو انحصاره في طبائع السلالة والإقليم .

والخطأ في القول بانحصار العوامل السياسية في الإنتاج ونظام الاقتصاد كالخطأ في القول بانحصارها في مزايا السلالة أو خصائص الإقليم . فاليونان الأقدمون قد تحولوا من حكم الفرد إلى الحكم النيابي دون أن يطرأ على نظام الانتاج في بلادهم أقل تغيير ، وكل ما حدث أن الفوز في الحرب لم يبق محصورا في اقتناء

العربات بل أضيف إليه ركوب الخيل والقتال بسلاح المشاة ، وقد كانت العربات والمهارة في توجيهها حكرًا للأغنياء فزال هذا الحكر بعد تطور أساليب القتال ، ومثل هذا حدث في عصر الأقطاع بعد اختراع المدفع وتهديده لمعاقل النبلاء والفرسان ، فتغير نظام الإنتاج تبعاً لهذا ولم يكن نظام الانتاج هو سبب التغيير . وقد دالت الدولة الرومانية وانتشرت الديانة المسيحية وهما حادثان من أجل الحوادث في تاريخ بني الانسان ، فإذا رجعت إلى نظام الانتاج قبل حدوثهما وبعد أن حدثا فعلاً لم تجد فيه تغييراً في مجمل الأحوال ، وإذا كان قد حدث فيه بعض التغيير الطفيف فقد حدث مثله من قبل ولم ينته إلى تلك النتيجة من تداعي دولة عريقة وشيوع دين جديد .

والذين يعلقون الأمل كله على نظام الانتاج ومحسبون أن تعديله كفيلاً بتعديل الطبيعة البشرية في صميمها لا يأتون بشيء جديد في تعلقهم بهذا الخيال ، فقدما كان « لكتانتوس » - Lactantius - يقول قبل اعتبار المسيحية ديناً رسمياً للدولة في عهد قسطنطين إن الناس « لو آمنوا بالآله الحق لانقضى في الأرض زمن المنازعات والحروب ، وتآلف الناس جميعاً بألفة المحبة لأنهم ينظرون بعضهم إلى بعض نظرة الأخ إلى أخيه ، فلا يسعى أحدهم للتخلص من جاره ولا يزال كل منهم قانعاً بقليله ، فلا غش ولا اختلاس ولا سرقة فما أسعد حال الانسان يومئذ ! وأي عصر ذهبي يطلع على الدنيا بفجره السعيد في ذلك الزمان » . وهذه الوعود بعينها يجددها ببيل Bebel الاشتراكي الألماني حيث يقول : « إننا لو غيرنا الأحوال الاجتماعية وفقاً للغايات التي تتجه إليها الاشتراكية لانتبهنا الى تبديل حاسم في الطبيعة البشرية » .

ومثله دي جورمونت الفرنسي De Gourmont حيث يقول في بعض فصوله : « لو أتيج لنا إزالة القوانين بته لأصبح ارتقاء المتفوقين الممتازين هو القانون الوحيد ، وأصبح حكمهم المطلق المشروع غير منازع فيه . فالحكم المطلق لازم لكبح البلهاء ، والإنسان الذي لا ذهن له عراض » .

ويعقب موسكا على هذه الأمنية « الفوضوية » فيقول إنه يقبلها كل القبول مع وضع كلمة الأقوياء في موضع المتفوقين الممتازين وكلمة الضعفاء في موضع البلهاء . فالعيوب التي تعاب بها طبيعة البشر لا ينتزعها نظام الحكم البشري

كيف كان .

وقد عرض موسكا لتقسيم أنواع الحكومات من عصر الفلسفة اليونانية إلى العصر الحديث . فارسطو يقسم الحكومات إلى ملكية وارشقراطية وديمقراطية وتنطوي القرون الوسطى بتقسيماتها الدينية أو التقليدية ، ثم يزعم العلماء المحدثون أنهم وصلوا إلى استقصاء التاريخ الانساني كله فجمعوا أطواره - كما فعل أوجست كونت - في ثلاثة أدوار : دينية وفلسفية ووضعية ، تقابلها الدولة العسكرية فالدولة الاقطاعية فالدولة الصناعية ، ثم يختصر هربرت سبنسر هذا التقسيم إلى قسمين : أحدهما العسكري والآخر الصناعي ، ويقرن الأول بالاستبداد والحجر على التجارة ، ويقرن الثاني بالحرية وإجراء المعاملات بحري الصفقات التجارية بالتعاقد والاتفاق والتوكيل .

ولا يعترض موسكا على هذه التقسيمات ولا على التقسيمات التي من قبيلها كتقسيم الحكومات إلى جمهورية ودكتاتورية وملكبة مقيدة أو ملكبة مطلقة ، فهي صادقة في الدلالة على بعض الفروق وينبغي أن تقبل على هذا الاعتبار ، ولكنها لا تغني عن التماس الوحدة المتكررة في جميع هذه الأنواع ، ولا تحسم الفروق بينها كل الحسم في جميع الأحوال .

فالشبه بين بعض الجمهوريات وبعض الملكيات أقرب من الشبه بين جمهورية وجمهورية أو ملكية وملكبة ، وتقسيم الدول إلى عسكرية وصناعية لا يغنينا عن توجيه البحث الأصل إلى الطبقة الحاكمة في كل من هذين النظامين . والعبرة كلها بالطبقة الحاكمة في جميع الأحوال . وهنا نصل إلى حجر الزاوية في مذهب الفيلسوف الذي بوأه مكانه بين فلاسفة الحكم الأقدمين والمحدثين .

فمهما يكن نوع الحكومة ، وفي أي بلد تحكم ، وبدي عنوان تشتهر فالظاهرة المتكررة دائما في جميع الدول هي أن الحكم مهمة تنحصر في أيد قليلة جدا بالنسبة إلى الجمهور المحكوم .

هذه هي الظاهرة التي تكررت في جميع الدول ، وستظل كما يعتقد موسكا متكررة إلى آخر الزمان ، لأنها ثبتت بالتجربة والاستقرار وبالاختلال الممكن دون

غيره عند تقليب المسألة على جميع الوجوه .
ولا فرق في هذه الظاهرة بين حكومة الدكتاتور وحكومات الأمم النيابية التي
يعم فيها حق الانتخابات إلى أوسع حدود التعميم .
فمن الوهم أن يفهم من « حكومة الفرد » أنها حكومة يديرها فرد واحد ، لأن
الفرد الواحد لا يستطيع إدارة الآلة الحكومية ولا كسب النفوذ في المجتمع ما لم
تؤيده « طبقة حاكمة » تلتف به وتحقق إرادتها بتحقيق إرادته .
ومن الوهم أيضاً أن يفهم من كلمة الحكومة النيابية أن الكثرة الغالبة هي التي
تدير دفة الحكومة بالأصالة أو بالنيابة ، فليس بالصحيح أن يقال إن الناخبين
اتفقوا على اختيار نائب عنهم ، وإنما الصحيح أن قلة صغيرة جعلتهم ينتخبونه
وتمكنك بوسائلها المنظمة من تحويل أصوات الناخبين إليه ، وهذه القلة الصغيرة
هي « لجنة الإدارة » في الحزب الظافر بأكثر الأصوات ، ولا حيلة لعشرات
الآلوف المتفرقين أمام مائة أو نحو المائة يتفقون في الغرض والحركة ونشر الدغوة ،
ويحكمون تديرهم بالمرانة الخاصة على أعمال الانتخاب .
ويحدث كثيراً أن تكون الطبقة الحاكمة في الحزب الدستوري أو النيابي أقل
عدداً من الطبقة الحاكمة التي تحيط بالدكتاتور أو الحاكم بأمره ، وأن يكون نفوذ
النيابيين أقوى وأصعب مقاومة من نفوذ المستبدين .
ومن هذه الطبقة الحاكمة يتألف سلك الموظفين أو « البيروقراطية » وهي التي
تطلع على دخائل الأمور وتستأثر بالخبرة في الدواوين ، فلا يسهل على الحكومة
أن تستغني عن خبرتها واقتدارها على معالجة الأعمال .
ولكل طبقة حاكمة صيغة أو جملة من الصيغ تقرر بها سلطانها وتجعلها شعاراً لها
في إقناع رعاياها ، ولا يلزم أن تكون موافقة للمنطق والمعقول ، كصيغة الحكم
بالحق الإلهي أو سيادة الأمة أو « الحرية والإخاء والمساواة » أو الزعامة المقدسة أو
رسالة الدولة أو الحرية الفردية أو التاميم وما شاكلها من الصيغ التي تبدل مع
الطبقة الحاكمة على حسب الأمم والأوقات .
وتبقى الطبقة الحاكمة ما دامت مالكة لصفات القيادة وكفايات الولاية العامة ،
وليس من الضروري أن تكون هذه الصفات والكفايات مطابقة لفضائل الطيبة
والصدق والإخلاص ولكنها لا يمكن أن تخلو من مزايا الحصافة والجد والحنكة

وبعد النظر والبداهة الموفقة في تصريف الأمور .
وخير الطبقات الحاكمة هي الطبقات التي تخدم المصلحة العامة ولا تجوز فيها
المطامع الشخصية على المصالح الكبرى .
ولكن هذا « الخير » لا يأتي من فرض القوانين وتبوين النصوص وتنقيح
الدساتير ، فإن الدستور قد يبقى بجوهره خلال عهدين متناقضين كما بقي دستور
قُيَّار على عهد الجمهورية وعهد الدولة النازية ، وإنما يتحقق الخير في الطبقة
الحاكمة بفضل القوى الاجتماعية والحصانة الشرعية ، وهما - في فلسفة موسكا -
اصطلاحان يحتاجان إلى تفسير وجيز .
ففي كل أمة من الأمم قوى اجتماعية متعددة تدخل في بنية المجتمع بمقادير
متساوية أو متفاوتة ، ومنها قوة العقيدة وقوة الرأي وقوة العرف والقوة العسكرية
والقوة الصناعية والقوة الزراعية والقوة التجارية وقوة العمل وغير ذلك من القوى
التي تشتمل كل أمة على نصيب منها .
أما الحصانة الشرعية فهي الحصانة التي تستمد من قدرة هذه القوى على مقاومة
المطامع الشخصية التي قد يعمل لها رجال الحكم ورؤساء الدولة .
فإذا كانت هذه القوى متوازنة متكافئة فالحصانة الشرعية وافية والطغيان متعذر
ومصلحة الحاكم في إجراء العدالة أكبر من مصلحته في مطاوعة المآرب
الشخصية .
وإذا طغى بعضها على سائر القوى فهناك يختل التوازن وتضطرب الأمور
ويتربص فريق من الأمة بفريق .
ولا تقع الثورات العسكرية - في رأي موسكا - لأن بعض القادة يتمردون
وبعضهم لا يتمردون . فمهما يكن من نزوع بعض القادة إلى التمرد فهم لا
يستطيعونه إذا كانت القوى الاجتماعية التي تتوطد عليها دعائم المجتمع ممثلة في
الجيش بقادته وضباطه وجنوده ، وإنما تقع الثورات أو الانقلابات العسكرية
لاختلال التوازن بين القوى الاجتماعية واستطاعة قوة منها أن تسيطر على الجيش
والحكومة مع السيطرة على المجتمع بغلبة النفوذ .
فالتبقة الحاكمة تحسن أو تسوء على حسب القوى الاجتماعية والحصانة الشرعية
لا على حسب القوانين والنصوص ، ومن أفضل الأسباب لضمان التوازن بين

القوى الاجتماعية أن تشتمل الأمة على طبقة وسطى تمنح الاصطدام بين الغنى الفاحش والفقير المدقع وتفتح الباب لتقدم الطبقة الفقيرة كما تفتح الباب لتجدد الطبقة الحاكمة وتناوب السلطان بين المقتدرين عليه ، كلما انتهت مهمة طائفة منهم خلفتها طائفة أخرى تناسب الأوضاع الاجتماعية التي تتعاقب مع الأيام ولهذا يفضل موسكا أن تتولى شؤون الأمم حكومات نيابية ، لأن الحصانة الشرعية أوفر في الحكومات التي تتسع للمعارضة ، ولأن السيادة إذا احتكرتها فئة من الناس أو شكت أن تفسد وتستقيم ولا تحسب حساب المعارضة والانتقاد . ويحاول موسكا أن يطبق قوانين الطبيعة على المجتمع في هذه الظاهرة ، فيقول : إن الجو تتنازعه خاصتان : خاصة الميل إلى الركود بحكم القصور الذاتي وخاصة الميل إلى الحركة بحكم الاختلاف في توزيع الحرارة ، وهكذا يحدث في المجتمع حين تسعى فئة من الناس إلى احتكار السلطان في « دائرة مقفلة » وحين تهب « الرياح الاجتماعية » مع اختلاف توزيع الثروة والنفوذ . وسلك الوظائف في الدولة يتجدد - كما يقول موسكا - على طريقتين : من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى . ففي الحكومات المطلقة يستأثر الحاكمون بالوظائف ويؤثرون بها أنفسهم وذويهم ، وفي الحكومات النيابية يتسع المجال لصعود طائفة بعد طائفة إلى سلك الوظائف أو البيروقراطية ، وذلك أسلم وأجدي من الاستئثار والاحتكار .

ومن خلاصة مذهب موسكا يبدو أنه لا يفرط في التفاؤل بمصير الحرية الديمقراطية ، وهو كذلك لا يحسن الظن بأحلام الحالمين الذين يتخيلون أن أبناء آدم متحولون غداً إلى طهارة كطهارة الملائكة وعدالة كعدالة السماء الموعودة ، إلا أنه لا يفرط في التشاؤم كما أنه لا يفرط في التفاؤل ، وجملة أمره في هذا الباب أنه يفرق بين الأخلاق الأدبية المثالية وبين الأخلاق السياسية الواقعية . فالإشعار بحب الخير وسلامة الجانب فضائل ماثورة محبوبة على السنة الناس وفي كتب الأخلاق ، ولكن الصفات التي ترشح أصحابها للبروز في عالم السياسة لا تتفق على الدوام مع تلك الفضائل الماثورة . بل يغلب على صفات السياسة النافذة أن تنحرف عن النمط السوي عند دعاة الفضيلة والمحبة . فالرجل الذي يقيس آماله

بحقوقه ويوازن بين وسائله وغاياته ويسالم الناس ويجب أن يسلموه قلما يقدم على عمل رائع في ميدان الحياة العامة ، وإنما يتاح الرجحان في هذا الميدان للذين تغلب فيهم طبيعة الرئوب والاندفاع على طبيعة الانصاف والاتزان ، ومن هؤلاء ينبغ طلاب الإصلاح كما ينبغ طلاب السيطرة ، وكلهم في عرف العقلاء المسالمين أناس « غير معقولين » وغير معتمدين على العقل في كسب الثقة أو كسب المكانة ، بل جل اعتمادهم على التأثير واستجاشة الحس والخيال . ومن نصيب الآمال في غير طائل أن ننتظر من الناس أن يعملوا ما يعقل ويوافق المنطق على الدوام . فإن ميدان السياسة مفتوح للدوافع المعقولة وغير المعقولة ، وينبغي أن يعول الناس في كبح القوة الطاغية على القوة الرادعة ، فلا يصد القوة إلا القوة ولا يفل الحديد إلا الحديد ، وهذا الذي يعنيه موسكا بإعداد القوى الاجتماعية في الأمة لضمان الحصانة الشرعية ، فتعدل الطبقة الحاكمة عن الطغيان لأنها تعلم أن مصلحتها في العدل أوفر من مصلحتها في الجور على حقوق المحكومين .

روبرت ميشل

Robert Michels

١٨٧٦ - ١٩٣٦

يعتبر ميشل حجة بين كتاب الاجتماع والسياسة في دراسة النازية والفاشية دراسة علمية ، فقد مكنته نشأته بألمانيا ومقامه بإيطاليا من التغلغل في أعماق الحركتين والنفاذ إلى ما وراء الظواهر من كل حركة ، فتوفر على بحث الأحوال العامة التي سبقت قيام موسوليني وهتلر في إيطاليا وألمانيا وراقب تنظيم الهيئات التي توسلت بالقوة وبالحيلة إلى القبض على زمام الحكم في الأمتين ، وأمعن في تقصي الدخائل والعوارض التي فعلت فعلها في بواطن تلك الهيئات ومن حولها ، واستعان على ذلك بالصبر الطويل الذي أثر عن علماء الألمان في دراساتهم المستفيضة ، فمن قبلوا أحكامه ونظرياته ومن رفضوها لا يختلفون على حقيقة واحدة : وهي أن مبادئه وأسانيده كافية وفوق الكافية ، وإنما يعرض لها النقد من التفسير والاستنتاج .

وميشل وصاحبه باريتو وسوريل متفقون على قواعد الرأي في حقيقة الحكومة الديمقراطية ، ولكن ميشل مختص بدراسة المنظمات والهيئات على أنواعها ولا سيما الأحزاب السياسية في نشأتها وتكوينها وأعمالها خارج المجالس النيابية وداخلها ، وخلاصة رأيه أن تكوين الفئات والطوائف في المجتمع البشري ضرورة عامة ،

وأن الأمة والنادي الخاص يتشابهان في قانون واحد يعمل عمله في كل جماعة بشرية مع اختلاف العدد والطبقة والغاية .

يقول ميشل إن الأحزاب المحافظة وأحزاب الأحرار والعمال جميعاً تدعي في العصر الحديث أنها تعمل بإرادة الأمة ، ومنها ما يعتقد أن جمهور الأمة لا يحسن الحكم على القضايا العامة ، إلا أنه - بطبيعة الحال - لن يتوجه إلى أصحاب الأصوات التي توصله إلى الحكم ليقول لهم إنه يستجملهم ويستغفلهم ويعمل بإرادته لا بإرادتهم ، ولهذا شاعت في العصر الحديث فكرة « الإرادة القومية » مقترنة بتفسير معنى الديمقراطية ، وليست هي نتيجة تفكير ولا دليلاً على الإيمان بها في ضمائر الداعين إليها .

قال إن الدولة البونابرتية نفسها قامت على مبدأ الاستفتاء والاختيار الحر المنزه عن التخويف والاغراء ، وهي في جوهرها كالدولة التي قامت على دعوى الحق الإلهي من قبلها ولو أن أنصار الحق الإلهي طلبوا الاستفتاء على هذا النحو لما أعياهم أن يصلوا إلى الفتوى التي تعلق بها الدولة البونابرتية .

ورأى ميشل أن الحكم الديمقراطي أحسن ما في الإمكان بالقياس إلى أنواع الحكم القائم على الدعاوى الأخرى ، لأنه في جملته أسلم عاقبة من غيره لا لأن دعوى الحكم بإرادة الأمة أصبح في الواقع من دعاوى الحكام السابقين . فلا الأمة ولا الجماعات البشرية على إطلاقها قادرة على تصوير رأيها وإملاء إرادتها في جلائل الأمور وصغائرها .

وقد يتوهم بعضهم أن الجماعات البشرية الأولى التي لا تعدو سكان المدينة الواحدة كانت أقدر على تطبيق الديمقراطية من الأمم الكبرى التي تبلغ الملايين ، غير أنه وهم عاجل لا يثبت على المراجعة ولا ينخدع به من يعرف طبائع الجماهير في اجتماعها .

فالمعروف اليوم من دراسة الأطوار النفسية للجماعات والأحاد أن رأي الجمهور ساعة الاجتماع لا يمثل آراء الأحاد المشتركين فيه وهم متفرقون ينظر كل منهم في الأمر على حدة ويقلب وجوهه على تبصر وروية ، وأن آراء الجمهور كثيراً ما تسفر عن الإجماع بالصياح والجلبة دون إصغاء إلى أصوات المخالفين إن كان بينه مغالغون . فإذا كثرت المخالفون - لاختلاف الزعماء - فالاجتماع صائر إلى الفوضى

والشغب فلا يفهم منه رأي محدود .

ومعظم المسائل التي تباشرها الحكومات تدخل في اختصاص الفنيين وتحتاج إلى التثبت من البيانات والأرقام ، فإذا عرضت على جمهور من العارفين أو غير العارفين في ساعة الاجتماع فلا بد من إحالتها إلى فئة خاصة ثبت فيها برأيها ، فيقبلها الجمهور على علاقتها أو يقع الاختلاف عليها فيتغلب المتغلب بالمؤثرات « الجماعية » التي يرجح فيها الصخب على الحجة وترجح فيها الخطابة على الإقناع ، ويجدي فيها التمهيد بالمناورة والمداورة ما لا يجديه الرأي الخالص من شوائب التمهيد والترويج .

هذا عن الجماعات التي تتلاقى في مكان واحد كما كانت تتلاقى جماعات النخبين في المدن القديمة ، وهي على هذا لا تمثل المدينة كلها لاستثناء بعض سكانها من حقوق الانتخاب .

أما جماعات الأمم الكبيرة فالمسلم أنها لا تتلاقى في مكان واحد ولو قصرت الاجتماع على وكلاء الانتخابات ، فلا مناص من التفويض والتوكيل .
ويطيل ميشل في شرح الإجراءات المعقدة التي تسبق ترشيح المرشح ولا حيلة للنخبين في مراقبتها ولا في تعديلها ، فيخلص منها إلى وصف الانتخابات بأنها اضطراب إلى الاختيار .

ولا يؤمن ميشل بما يسمى السيادة بالتوكيل أو التفويض ، فإذا صح أن الأمم قد انتخبت وكلاءها بمحض اختيارها ، فليس بالصحيح أن السيادة تبقى بعد ذلك في أيديها ! لأن وكلاءها يستطيعون أن يوجهوها من حين إلى حين ، وهي لا تستطيع توجيههم في كل حين .

وقبل أن يصل التوجيه إلى الأمة ينبغي أن ننظر إلى أساليب التوجيه في داخل الهيئة السياسية بين رؤسائها وأعضائها .

فالجماعة بطبيعتها كسلى لا تنتزع من نفسها القوة على الإنشاء والابتداء في جميع الظروف .

ولهذا يحدث دائماً في النادي الصغير - كما يحدث في الجماعة الكبيرة - أن يبحث المجتمعون عن رئيس يكلون إليه تصريف الأعمال الضرورية لبقاء النادي والجماعة .

والذي جرت به العادة في هذه الأحوال ان يظفر بالانتخاب من يفرغ للعمل ويحرص عليه ويدأب على طلبه ، وقد يقع عليه تفضيل أصحابه وزملائه للسبب ونقيضه ، فيفضلونه لاتقاء بأسه كما يفضلونه لأمنهم من جانبه واطمئنانهم إلى سلامته ، ويفضلونه لرجحانه كما يفضلونه لقلة منافسته وقلة منافسيه ، ويندر أن تكون هذه الصفات أكرم الصفات التي تصلح عليها رئاسة الرؤساء .

وقد لوحظ أن الرئيس يبقى في رئاسته متى وصل إليها ، فيعيد الأعضاء انتخابه كسلا من عناء البحث والاختيار وفرض المنازعات وإغضاب هذا لارضاء ذاك ، أو يعاد انتخابه لما اتخذته هو من الحيلة وتذرع به من الذرائع التي تخيل إليهم أنه عامل مهم لا غنى عن عمله ، أو أن التجديد أسلم على الأقل من ابتداء التجربة من جديد .

يجري هذا في الانتخاب لرئاسة الأندية والجماعات القليلة التي من قبيلها ، ويجري مثله على التقريب في انتخاب الرئيس للهيئات السياسية والأحزاب الكبيرة التي تتناوب الحكم مع غيرها أو تنفرد به فترة طويلة بغير مزاحمة . فمتى ظفر الرئيس بالرئاسة جعل همه الأول أن يحيط نفسه ببطانة من أخصائه يقون ببقائه ويذهبون بذهابه ، فيشرف معهم على خزانة الهيئة وجدول الانتساب إليها ومجلس تاديبها وأداة نشر الدعوة لها ولحكومتها ، وبهذا يامن المزاحمة ويتيسر له أن يقضي عليها في مهدها ، لأنه يملك أسباب التخلص من المزاحم قبل أن ينجح هذا في تأليب القوى للتخلص من رئاسته ، ويلجأ الرؤساء عادة في بعض المواقف إلى إرهاب الجماعة بإعلان العزم على الاستقالة تهديداً لها وقسراً على طاعتهم والتسليم بما يفرضونه عليها ، وهم لا يلجأون إلى هذا التهديد حين يعلمون أن الاستغناء عنهم ميسور وأن أنصارهم المتكفلين بتأييدهم قليلون ، ولكنهم يلجأون إليه كلما علموا أنه ضربة مربة للجماعة محيرة لها بين من يتنازعونها ولا سيما حين ينجح الرئيس وبطانته في تهوين خطب المنافسين الأقوياء وإضعاف كل من تحوم الشبهة حوله منهم ، قبل أن يستفحل خطبه . ومتى توطد مكان الرئيس وبطانته على هذا النحو ففي وسعه أن يفرض مرشحيه للمجالس النيابية على الحزب كله قبل إعلان ترشيحهم للناخبين ، فإذا هم مرشحو رئيس واحد تؤيده بطانته ولا تأمن أن تشق عليه عصا الطاعة ، واسمهم

أمام الناخبين « مرشحوا الحزب ونواب الأمة » .

يقول ميشل إن جريان الانتخاب على هذا النمط بين المحافظين مفهوم لأنهم يشكون كل الشك في كفاءة الجمهور لولاية الأحكام ، وإنه كذلك مفهوم بين الأحرار لأنهم يعتبرون الجمهور ضرورة لا محيد عنها ، ولكن العجيب فيه أنه يجري على هذا النمط أو أشد منه بين طوائف العمال التي ارتهنت مصالحها كلها بحقوق النيابة وتوزيع هذه الحقوق بين صفوفها على سنة المساواة التي لا تسمح باحتكار الرئاسة . فالواقع أن انتخابات النقابات العمالية تسفر عن احتكار للرئاسة لا يقل عن احتكارها في لجان المحافظين والأحرار إن لم يكن أشد منه وأطول أمداً ، وأن الظافر بالرئاسة يندر أن يستحقها بإخلاصه للقضية وقدرته على الدفاع عنها ، فالغالب أن الظافرين بها يستحقونها بالتهجم والاقتحام والتهويل على المنافسين الأئمة ، ثم يحتفظون بها متى وصلوا إليها آمنين المراحة بل آمنين الانتقاد .

وإذا انهزم رئيس من كبار الرؤساء مرة فإمّا يتهزم لأن المنتصر عليه قد هيات له الظروف أن يغلبه بهذه الوسائل لا أنه انتصر عليه بوسائل خير منها ، فالقاعدة واحدة والمطبقون لها متعددون .

والأستاذ ميشل شديد الثقة بنظرياته هذه حتى ليرتقي بها إلى درجة القانون - بل القانون الحديدي - الذي لا فكاك من حلقاته المقفلة ، ويسميه القانون الحديدي لولاية الخاصة : *The Iron Law of Oligarchy* فلا يتأتى حكم في البلاد الديمقراطية أو في سواها لغير فئة خاصة توافق زمانها . فمن فئة الفرسان إلى فئة النبلاء إلى فئة أصحاب الأموال إلى فئة الخبراء والصناع ، إلى فئات من قبيلها يبرزها كل حكم على مقتضى الزمن بغير خلاف في جوهر القانون ، وهو أن الجماهير تسلم مقادها لأحاد معدودين .

هذه النظرية أو هذا القانون الحديدي قد شاع في بيئات البحث الاجتماعي ودوائر الفلسفة السياسية ، فكان له أثران : أحدهما ارتداد بعض المفكرين عن الديمقراطية والآخر قبول الديمقراطية على علاتها لأنها أقرب إلى الإنصاف والإصلاح من النظم الأخرى .

والأستاذ ميشل - على فرط إيمانه بقانونه الحديدي - هو أحد هؤلاء الفلاسفة

الذين رأوا هذا الرأي في حقيقة الحكم الديمقراطي فلم يتحولوا عنه إلى غيره ، وحجتهم في ذلك أن المهم هو نتيجة الديمقراطية لا أقوال الدعاة في تفسيرها . فقد يكون صحيحاً أن الناس لا يتساوون ، وقد يكون صحيحاً أن الأمة لا تحكم نفسها بإجماع آرائها أو إجماع كثرتها ، ولكن لا شك مع هذا وذلك في نتيجة الديمقراطية ما دامت مستمسكة بهذا الوصف وهذا العنوان ، وتلك النتيجة هي حسابان الحساب للعديد الأكبر من الرعايا في سياسة الحكومة ، ومهما ينخدع الرعايا بالوعود والأكاذيب فلا بد على الأقل من إرضائهم بتوفير أوقاتهم واجتناب شبهاتهم ، وهذه مزية للحكومة باسم الأمة كائن ما كان عدد الرؤساء المستأثرين فيها بالرأي والسلطان .

غير أن تلاميذ ميشل - ممن كانوا يتشيعون لأراء كارل ماركس - قد أثرت فيهم نظريته أو قانونه الحديدي أبلغ الاثر في وزنهم للمبادئ الماركسية ، ومنهم الكاتب البولوني الذي يكتب اليوم في الولايات المتحدة باسم ماكس نوماد Max Nomad وينشر آراءه عن تناوب السيادة ومظهره في البلاد الروسية . فهو في كلامه عن المتمردين والمرتدين يقرر أن النظام الشيوعي وضع السلطة الحكومية كلها في أيدي الموظفين ورؤساء المصانع وأنشأ طبقة حاكمة تستغل الطبقة العاملة ولا تفكر في النزول لها عن سلطتها ، ويكاد يردد المثل العربي القائل : ما أشبه الليلة بالبارحة ! فالفكرون الشيوعيون وطائفة الأدباء والصحفيين هم كهنة هذا النظام الذين يقدسون طبقته الحاكمة كما كان كهان القرون الوسطى يقدسون الامراء والملوك بحق السماء ، والسادة الموظفون هم المستغلون الجدد في مكان المستغلين من أصحاب رؤوس الاموال ، والاجراء هم بغير تبديل إلا أن يكون تبديل الحجر بحرية العمل وحرية الإضراب .

قال : « إن التجربة السوفيتية قد أثبتت أن إمكان الاستغلال في ظل الاشتراكية لا يقل عن إمكانه في ظل أية حكومة سابقة . . وإن المرء اذا استرسل في النبوءة ففي الوسع أن يخمن أن الصورة العالمية المقبلة لاستغلال الانسان للإنسان كما تومى إليها الاساليب الروسية في امتلاك الدولة لجميع المرافق واختلاف دخول العاملين - سوف يكون قصارها من التغيير تحمل عنوان الاشتراكية » .

فقد ظهر أن الاشتراكية تهتم بمسألة الاستيلاء على أداة الإنتاج ولا تهتم بمسألة التوزيع . مع أن التوزيع الذي يمنع الاستغلال هو المقصود من كل حركة اشتراكية ، ولكن هذا « المقصود » هو الذي لم يكن ولا يكون .

جيمس برنهام

James Burnham

تتسع المسافة بين النظرية السياسية وتطبيقاتها العملية في بلاد العالم القديم ، ولكن هذه المسافة تضيق كثيراً أو قليلاً في البلاد الأمريكية ، فإن النظريات فيها شيء أكثر من مجرد الاقتراح أو الأمنية ، فهي إما برنامج يطبقه الداعون إليه في نطاقهم المحدود ويحاولون تطبيقه على الاثر في نطاق قومي واسع ، وإما وصف لحالة واقعة يلخصها الواصفون في قالب المبادئ والنظريات .

وربما نشأ تقدير النظريات على هذا النحو في البلاد الأمريكية من حداثة التجربة السياسية في تلك البلاد وموافقة الزمن الذي تأسست فيه حكوماتها هناك للزمن الذي تداول فيه العلماء الاوروبيون أحدث النظريات في القرن الثامن عشر .

فقد كانت هذه النظريات في حكم الحقائق المقررة عند تأسيس الجمهورية الأمريكية الاولى ، فضمنها آباء الجمهورية دستورهم وبياناتهم التي قدموا بها لذلك الدستور ، وعملوا بمبادئ فصل السلطات والحق الطبيعي وحقوق الإنسان وسيادة الامة وتحريم « الضريبة بغير نيابة رقيية » كأنهم ينفذون أوامر الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأصبح من اليسير منذ قيام الحكم على هذا الاساس أن توضع النظريات موضع التنفيذ السريع أو أن يتلقاها الناس كأنها تلخيص الشؤون الواقعة التي يجري بها العمل فعلاً في دوائر السياسة والمال .

ومنذ تأسيس الدولة الامريكية لم تخل بلادها من أصحاب دعوات دينية أو سياسية يطبقونها في نطاقهم المحدود ، وفي هذا الزمن الذي نعيش فيه حاول القصاص الشيوعي ابتون سنكلير أن يطبق الشيوعية في مستعمرة يسكنها من يدينون برأيه ، وأصدر الفيلسوف الفاشي لورنس دنيس كتابه عن « دوافع الحرب والانتقال » وهو يؤكد فيه أنه يتتبع الواقع الذي سيتم وقوعه بجميع تفصيلاته في أعوام قليلة ، فهو لا يدعو إلى ثورة ولا انقلاب ولكنه يرى بوادر انقلاب يسميه « بانقلاب القصر » أخذ في التام منذ أعوام ؛ وقد اختار له اسم « انقلاب القصر » تشبيها له بالحركات التي كانت تقع في قصور الملك حيث يذهب أمير ويجيء أمير دون أن يدعو الامر إلى تحريض على الثورة أو سفك للدماء ، وهكذا يعتقد لورنس دنيس أن الحكم في الولايات المتحدة صائر إلى السيطرة الفاشية بغير حاجة إلى هدم بنيان أو زعزعة أركان ، إلا أن يسجل الواقع ما أبرمه الواقع ويعترف الناس بما قد عرفوه فعلا ولم ينكروه .

وأهم النظريات السياسية التي ظهرت في الولايات المتحدة حديثاً نظرية يعتقد صاحبها أنها من هذا القبيل ، أي أنها وصف للوقائع الحاصلة ونبوءة عن الوقائع التي تحصل تباعاً وتطرّد في طريق الحصول ، وهذه هي نظرية الانقلاب الفني R. M. التي يدعو إليها جيمس برنهام في كتبه ورسائله وأحاديثه ، ومنها كتاب بهذا الاسم وكتاب عن المكيفلين وكتاب عن الصراع على العالم وكتاب عن هزيمة الشيوعية المقبلة ، وهي من أشهر الكتب السياسية التي يتداولها اليوم من يعنون بفلسفة السياسة من الامريكيين والاوربيين .

جيمس برنهام صاحب هذه النظرية هو أصغر الفلاسفة السياسيين سنّاً وأحدثهم رأياً ، ولا يزال الساعة في مقتبل العمر يوالي تثبيت رأيه أو تثبيت القول بأنه هو الواقع المقرر الغني عن إطالة العناء في التقرير والإثبات .

ولد في شيكاغو سنة (١٩٠٥) وتعلم في أمريكا وإنجلترا وأعجبته الشيوعية الماركسية في مبدأ الامر فبشر بها واشترك في مساعيها ، وجاء زمن من الازمان كان معدوداً فيه من أقوى أنصار تروتسكي بين الشبان الامريكيين المتعلمين ، ثم قادته دراسته العلمية والاجتماعية إلى الشك في مبادئ الشيوعية ومبادئ الاشتراكية على

إطلاقها والايان بأن نظام رأس المال ونظام الشيوعية كلاهما غير صالح للبقاء في الاحوال الإنسانية التي تمخض عنها العصر الاخير .

وقد ظل عضواً عاملاً في القسم الفلسفي بجامعة نيويورك منذ سنة ١٩٣٣ ، واشتغل خلال هذه السنين بالحركة الشيوعية في دوائر الصحافة وتقابات العمال ، وما زالت آراؤه تتطور مع الدراسة والخبرة حتى انتهى إلى الجزم برفض الشيوعية على سنة ماركس ولنين وعلى سنة ستالين وتروتسكي ، ثم الجزم بأن الشيوعية ورأس المال معاً صائران إلى الزوال ، وأن نظاماً جديداً سيخلفهما عما قريب ، ليستقر به سلطان الطبقة التي تقبض الآن على أزمة الإنتاج وهي طبقة المديرين الفنيين .

يقول برنهام إن العالم سيرى عهداً بغير « نظام رأس المال » كما رأى من قبل عهداً لم يكن فيها لهذا النظام وجود .

ويستدل على اقتراب أجل هذا النظام بدلائل كثيرة ملموسة في أحوال العالم الحاضرة : منها بطالة الملايين من العمال والصناع مما يثبت أن نظام رأس المال قد فشل وأخفق في تدبير الثروة الإنسانية أو تدبير القوى الإنسانية المعطلة بين يديه .

ومنها عجز رأس المال عن توظيف ماله في الجهات التي تعود استغلالها على أسلوب المستعمرين في القرن التاسع عشر .

ومنها تزعزع القواعد الفكرية والاقتصادية التي كانت لازمة أو كانت مصاحبة لدولة رأس المال . فقد كان إطلاق الأعمال لازماً لأصحاب رؤوس الأموال تمكيناً لهم من إرسال أموالهم في التجارة والصناعة بغير رقابة من الحكومة ، وكان مذهب « دعه في طريقه » Laissez Faire هو شعار الدولة كلها لانه أنسب شعار للسياسة والاقتصاد في إبان سلطان رأس المال .

ومنها نشوء طبقة أخرى تستولي على آلة الصناعة والاقتصاد غير الطبقة التي يتألف منها أصحاب رؤوس الأموال .

ومنها عجز هذا النظام عن حل النقائص التي تواجهه كل يوم ولا تزال مواجهة له بطبيعة تكوينه وتكوين المجتمعات الحديثة ، وأقوى علامات هذا العجز أن تضطر

الحكومات إلى تقييد الإنتاج والإشراف على تنظيم المرافق العامة والحد من الأرباح وإحلال نظام « الرسم والتقدير » Planning محل نظام الإباحة والإطلاق .

لكن زوال رأس المال لا يفيد في رأي برنهام أن الشيوعية الماركسية أو الاشتراكية على العموم هي البديل الوحيد من ذلك النظام الزائل .

فسيزول رأس المال ولا تحل محله الشيوعية ولا الاشتراكية التي تتلخص جميعاً في دعوة واحدة : وهي إقامة مجتمع بغير طبقات .

إن القول باتقضاء رأس المال شيء والقول بأن الشيوعية البديل الوحيد الذي يخلفه شيء آخر . فليس في بؤادر الأحوال ولا في التجارب القومية أو العالمية ما يشير إلى اتجاه الحضارة الإنسانية في هذه الوجهة ، وقد تشير التجارب على عكس ذلك إلى اتجاه مناقض لذلك الاتجاه .

فالاهداف التي ترمي إليها الشيوعية كما هو معلوم - هي إنشاء مجتمع عالمي بغير طبقات يسيطر عليه العمال .

والتجربة الكبرى التي حصلت في روسيا قد أسفرت عن طبقة حاكمة جديدة تستأثر بالنصيب الاوفر من أرباح الايدي العاملة ، ويتبين من الإحصاءات المعول عليها أن نحو أحد عشر في المائة من السكان يستولون على خمسين في المائة من موارد الدولة ، وهي نسبة أعلى من نسبة الأرباح التي تستولي عليها الطبقة العليا في الولايات المتحدة . إذ لا يستولي العشر الأعلى من السكان في الولايات المتحدة على أكثر من خمسة وثلاثين في المائة من مواردها .

ولم يحدث قط حتى الساعة أن الطبقة العاملة سيطرت على مصنع واحد في البلاد الروسية من أقصاها إلى أقصاها ، وهذه حالة يعترف بها الزعماء من عهد لينين ولا يرون لهم محيصاً عنها في تطبيقاتها العملية ، فهم يعترفون اليوم بأن سيطرة العمال على الصناعة وموارد الإنتاج إن هي إلا « صيحة حرب » تجمع الصفوف ليس إلا

وتظل كذلك فترة من الزمن لا يدركون منتهاها ، بل يعترفون - وعلى رأسهم لنين - بأن الكلمة العليا في المصنع ينبغي أن تترك للمدير الذي يحكم فيه بأمره ولا يتأتى أن تدار أداة الصناعة بغير هذه « الدكتاتورية » المطلقة .

وقد اختل حساب كارل ماركس في مسألة من أهم المسائل التي بنى عليها تقديراته ونبوءاته وهي مسألة القضاء على أصحاب الاموال باستيلاء العمال على المصانع وإدارتها لحسابهم ، واستيلاء الجند على الاسلحة واستخدامها في مقاومة القادة والرؤساء .

فقبل مائة سنة - في أيام كارل ماركس - كانت الآلات الصناعية من البساطة بحيث يستطيع أن تدار بأيدي العمال ، وكانت الاسلحة على مثل هذه البساطة بالقياس إلى خبرة الجندي وذكااته . أما اليوم فقد أصبحت خبرة المهندس لازمة كل اللزوم لتناول الادوات الدقيقة وتحصيل العلم الضروري لتنظيمها في جملة حركاتها ، وأصبحت الخبرة الفنية التي يتدرب عليها المهندس العسكري أعظم وأدق من أن تسلم مقادها للجندي أو للثائر الذي لم يتدرب على استخدام الاسلحة المختلفة بالاساليب الفنية .

ومن هنا نشأت طبقة غير طبقة أصحاب الاموال وغير طبقة الصناع والعمال تشرف على أدوات الإنتاج ولا يتأتى الاستغناء عنها في المجتمع القائم على الصناعات الكبرى .

وهذه هي طبقة المديرين الفنيين Managers الذين حذقوا أسرار الصناعة أو حذقوا أساليب تنظيمها وتصريفها وترويج مصنوعات ، وهم بين مهندس وعالم طبيعي وخبير بتسيير العمل في المكاتب أو نشر الدعوة أو استطلاع حاجات الجماهير وأهوائها المهيمنة على أشكال السلع وأغراضها ، فلا غنى لمجتمع من المجتمعات عن هذه الطبقة في العصر الحديث ، لأنها تسيطر تمام السيطرة على أدوات الإنتاج ومحدثات الاختراع التي يتعذر استخدامها عاماً بعد عام على غير الخبير المختص بالهندسة أو بالصناعة أو بالتدبير والتنظيم .

ومن الواجب تصحيح الخطأ الذي يسبق إلى بعض الاوهام كلما قيل إن طبقة من

الطبقات قد أجلت غيرها من مراكز النفوذ في مجتمع من المجتمعات .

فإذا قال المؤرخ إن طبقة أصحاب الاموال والمصانع قد أجلت فرسان الاقطاع عن مراكز نفوذهم واستولت عليها فهو لا يعني بالبداهة أن هذه الطبقة قد جمعت صفوفها وزحفت على الفرسان في معاقلهم فأخذت عليهم موثقاً بالطاعة والتسليم .

وإذا قيل اليوم إن طبقة المديرين تزحزح أصحاب الاموال عن مراكز نفوذهم فليس المقصود بذلك أنها تغلبهم في مصارعة أو حومة قتال ولو من قبيل المجاز ، وإنما المقصود بهذه العبارات أن المجتمع قد أصبح ولا غنى له عن رأي هذه الطبقة في تصريح المرافق العامة ، ولا حاجة بعد ذلك إلى تنازع النفوذ بسلاح غير سلاح الواقع الذي لا حيلة فيه للغالب ولا للمغلوب .

يقول برتهم إن العلامات النفسية أحق شيء أن يسمى علامات الساعة في هذه الشؤون .

فنحن إذا التفتنا إلى أية طائفة من علية القوم في زماننا هذا وجدنا عوارض الحيرة والشك وفقدان الثقة بادية عليها شائعة في خطواتها ومساعدتها ، وما من قطب من أقطاب المصارف والشركات وما إليها ترى عليه اليوم أمارات النظر إلى المستقبل في صدق وهمة واطمئنان إلى مصائر الامور كما يتمخض عنها الغد المجهول . إلا طبقة واحدة من هذه العلية المختارة ، وهي طبقة المديرين الفنيين وخبراء الصناعة وما إليها ، فإنهم مطمئنون إلى أعمالهم مؤمنون - من حيث يشعرون أو لا يشعرون - بأنها هي الاعمال التي لا غنى عنها في عاجل ولا آجل ، وأنها لا تتوقف على رضا أصحاب الاموال ولا على رضا الصناع والعمال .

ومن الإحصاءات التي يعول عليها برتهم يثبت لديه أن أصحاب الاموال قد أوشكوا أن ينفضوا أيديهم عن العمل المباشر في المصانع والشركات ، وأنهم تركوها للمديرين والخبراء يعالجون مشكلاتها بما يعين لهم من مطالب الساعة ، وقنعوا بحضور الجلسات السنوية أو الدورية في مجالس الإدارة التي تقصر مهمتها على المراجعة العامة ، وقد تكون مراجعة اسمية في معظم الأحيان .

وسيمعن أصحاب الاموال في التخلي ويمعن المديرون في التمكن ، ويمعن المجتمع

في تنظيم مطالب المعيشة ومطالب التجارة إلى أن يصبح تشهير المال في الارباح الفردية صورة لا حقيقة لها في الحياة الاقتصادية ، وتدار المصانع والمتاجر على حساب المرافق العامة التي ترسمها الدولة ، فلا يملك أصحاب الاموال شيئاً من الحرية في التثمين والاستغلال .

ويسأل برنهام : ما هو مصير الديمقراطية مع النظام الجديد ؟ فيسرع في الجواب إلى التفرقة بين الحرية الشعبية والديمقراطية ، ويسلم أن النظام الذي يسمح به نظام « الطبقة الفنية » يكتنفه بعض الغموض ، ولكنه يرى أنه يقترب بالحرية على وجه جديد ، لان الديمقراطية في رأيه مقترنة بنظام رأس المال ، وليست الديمقراطية مرادفة لمعنى « حق الحرية » حيثما استمتع به الإنسان في الحال والاستقبال .

وفي تقدير برنهام أن نصيب الشعب من الحرية في النظام الجديد لا يقل عن نصيبه منها في ظل الديمقراطية ، فما كانت الديمقراطية قط حكماً شعبياً إذا أريد بالحكم الشعبي أن يختار كل فرد من أفراد الشعب حكامه ووكلاءه ، ورأي برنهام كراي موسكا في قيام جميع الحكومات على قاعدة واحدة وهي قاعدة « القلة تحكم الكثرة » على الدوام سواء جرى الحكم على أساس الانتخاب أو على غير أساس الانتخاب ، وغاية ما يحدث بعد مصير الحكم إلى الطبقة الفنية أن الصيغ والعناوين التي يترنم بها الشعب ويتخذها شعاراً له في السياسة تتغير وتتجدد على نحو آخر ، فتحل قداسة الدولة أو الامة أو السلالة محل قداسة الحرية الفردية ، وتحل الجهود المشتركة محل الحوافز الشخصية ، وتحل كلمات النظام والرسم والترتيب محل كلمات العمل المطلق والرخص الحرة وما إليها ، ويستغني الناس عن الحرية التي كانت لازمة في ظل الديمقراطية فلا يطلبونها ، وفرق بين الاستغناء عن حرية من الحريات وبين فقدانها أو تقيدها بسلطان القانون .

والظاهر من الطور الصناعي الذي انتهى إليه العالم في العصر الحاضر أن مسألة الانتاج قد أصبحت مسألة عالمية لا يتسنى على الإطلاق تنظيمها وتعميم النفع منها مع كثرة الحدود بين الامم وكثرة المكوس والعوائق التي تعترض الإنتاج العالمي من

جراء تعدد الحكومات وتعدد الخطط الاقتصادية . فلا بد إذن من نظام عالمي أو من حكومة عالمية ؛ وهذه هي النتيجة المحتومة للتنظيم الفني الذي يكفل المنفعة العظمى من تدبير الصناعة وتصريف المصنوعات والتوفيق بين مقادير الخامات ومطالب الاسواق .

فهل من الميسور تأسيس حكومة عالمية تتولى تدبير شؤون الأمم جميعاً وتجمع أعنة السيادة كلها في أقل عدد مستطاع من الأيدي والرؤوس ؟

إن الحوائل دون هذا الغرض كثيرة ، ومنها اختلاف الآجاس والتقاليد الوطنية وصعوبة الاعتماد على جيش واحد لتوطيد سلطان الدولة العالمية ، ولكن برنهام يعتقد أن تدبير الأمر مستطاع بالاتفاق بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ريثما تنهيا الأحوال التي تسمح بتوحيد الحكم أو توحيد القواعد الاقتصادية بين أمم العالم ، وما دام هذا هو المصير الذي لا محيد عنه فسوف تنجم الحيلة من هنا أو هناك لتوجيه الخطى إلى هذه الوجهة ما بقي للحضارة حظ من البقاء .

ويعرّض برنهام على التمييز بين مذاهب الدعوة ومذاهب البحث والاستقراء في مسائل السياسة .

فمذاهب الدعوة يراد بها الإقناع باختيار نظام معين ، ومذاهب البحث والاستقراء تلتزم أمانة العلم فيما تقرره وتأخذ نفسها بوصف ما هو واقع أو ما سيقع بالقياس إلى التجارب الماضية والحاضرة .

ومذهب برنهام - في اعتقاده - من المذاهب العلمية التي يراد بها تقرير الواقع ولا يراد بها التبشير والتأثير على الجماهير وهو يسوق الأمثلة على صحة استقرائه من قيام النظام الشيوعي في روسيا وقيام النظام النازي في ألمانيا وقيام التوزيع الجديد New Deal في الولايات المتحدة وقيام خطط الرسم والتنظيم في شؤون الصناعة والتجارة في العالم كله منذ نشوب الحرب العالمية إلى اللحظة الحاضرة .

فكل هذه التجارب - كما يراها برنهام - هي عوارض التحول إلى حكم الطبقة الفنية أو إلى الطور الجديد من أطوار الحكم والسياسة .

فليس مذهب كارل ماركس هو الذي يطبق في روسيا بل هو نظام الطبقة الفنية ، وليست فلسفة النازية هي التي نفذت في ألمانيا على عهد هتلر ولكنها هي المحاولة في طريق الحكم الفني مع القضاء على نظام رأس المال ، وليس التوزيع الجديد في الولايات المتحدة برنامجاً مرتبطاً بشخص الرئيس روزفلت كما خيل إلى بعض نقاده ولكنه هو حكم الضرورة الذي أوجب عليه أن يلجأ إلى « توزيعه الجديد » ويوجب الاستمرار فيه على من خلفوه وسيخلفونه .

ومتى تداعى نظام رأس المال فتلك علامة على التطور الطبيعي الذي لا يرجع إلى الوراء ، وسينقضي عهد الشيوعية في روسيا وفي غيرها فلا يلزم من زواله أن تعود الامم إلى نظام رأس المال كما كانت قبل التجربة الشيوعية ، وإنما تبطل التجربة الشيوعية لتعقبها ولاية المديرين الفنيين حيثما وجدت الصناعة الكبرى ، فإن لم توجد فالبلاد التي تخلو منها تظل معلقة بدولاب من دوليب الامم الصناعية الكبرى إلى أن تتألك قواها وتتمكن من الوقوف على قدميها .

هذه هي النتيجة العملية التي فصلها برنهام في كتبه المتعددة وأهمها هو كتابه الذي ألفه في أوائل أيام الحرب العالمية وسماه الانقلاب الفني Managerial Revolution ، ففي هذا الكتاب خلاصة مذهبه كله بتفصيل كاف لبيان مواطن القوة والنقص فيه . إلا أنه أضاف إليه بعض الحواشي والتعليقات في خلال كلامه عن فلاسفة الحكم الذين ساهم بالمكيافيليين لانهم جميعاً يجعلون للحكم صورتين مختلف الظاهرة منها عن الباطنة ، ولا تنطبق الدعوى فيها على الحقيقة الواقعة .

ففي ختام هذا الكتاب يوجه برنهام ثلاثة أسئلة وهي : هل يمكن الوصول إلى مقررات علمية في شؤون السياسة ؟ وهل يتيسر تعويد الجماهير أن تتصرف في أعمالها السياسية وفاقاً للعلم أو لمقتضيات المعقول ؟ وهل يتيسر للحاكمين اتباع قواعد العلم في حكم الرعايا ؟

وجوابه عن السؤال الاول « نعم » لان استقصاء الوقائع والمقابلة بينها وردها إلى أهم أسبابها المتواترة واستخلاص النتائج منها هو كل ما يلزم لإنشاء « علم السياسة » والوصول إلى المقررات العلمية في مسائلها ولو على وجه التقريب ، وهذه المباحث كلها ميسورة لمن يعكف على دراستها وللمن يتابعون درسها لنقد عيوب الدراسات

الاولى منها .

أما جوابه عن السؤال الثاني فهو نفي هذا الاحتمال لان الدرس العملي لا يتاح للالوف والملايين في حالات الطلب والغضب والتشيع والتعصب وما شابه هذه الحالات التي لا تخلو منها جمهرة الرعايا في وقت من الاوقات .

وقد أجاب عن السؤال الثالث بترجيح إيجابه ، لان توزيع العمل بين العلماء والفنيين يتيح لهم أن يعتمدوا على طائفة منهم يتفرغ للبحث وتلك المعلومات الكافية للتقدير الصحيح ، ولا سيما التقدير الذي تدار على أساسه مصانع ومعامل توازن بين ما تطلبه وبين ما هو مطلوب منها في مختلف المواسم والمناسبات .

ولعل الطبقة الفنية التي تشرف على أدوات الإنتاج ستتولى الحكم وهي أقدر على صد الاغنياء وكبح الجباهير من حكومات رأس المال . لان الاغنياء هم الذين يسيطرون على تلك الحكومات وجمهرة العمال قادرة على تهديدهم في مصالحهم بالإضراب والاعتصاب والهجوم على المصانع أملا في إدارتها لحسابهم كما يمنهم زعماء الشيوعيين ، وهذا خلاف ما يجري عليه العمل في حكومات الفنيين ، لانهم لا يملكون شيئا غير الخبرة التي لا ينتزعها منهم المهددون من الفريقين .

على أن الذين يقرون برئهم على اعتقاده في « علم السياسة » يخالفونه في سهولة التطبيق الصحيح ، والمهم في السياسة هو التطبيق .

فردريك أوجست فون هاييك

Friedrich August Von Hayek

١٨٩٩

تعتبر مدرسة الحريين مدرسة إنجليزية في نشأتها وتدعيمها وكثرة أتباعها ، ولا يستثنى بعضهم مذهب « هوبس » الفيلسوف من مذاهب هذه المدرسة وهو الداعي إلى تزويد الحكومة بالسيطرة القوية ، لانه - مع ميله إلى تعزيز سيطرة الحكم - يقرر أن الحكم كله قائم على تراخي المحكومين واتفاقهم على تنصيب الحاكم ، منعاً لعدوان بعضهم على بعض وضماناً من الخوف الذي يساور ضعفاءهم من أقويائهم إذا ارتفعت عنهم سطوة الهيئة الحاكمة .

ويتفق فلاسفة الاقتصاد السياسي وفلاسفة الحكم على مذهب الحريين ، فالمدرسة الإنجليزية - مدرسة آدم سميث - تلخص آراءها الاقتصادية في إرسال المعاملات بغير قيد وتتخذ شعارها عبارة « دعة في سبيله » على اعتقاد أن سنن الاخذ والعطاء والعرض والطلب خير كفيل بتنظيم المعاملات في الاسواق الداخلية والاسواق الخارجية على السواء .

ويجاريها فلاسفة الحكم من جون ملتون إلى جون ستيورات ميل إلى اللورد أكتون إلى هربرت سبنسر إلى برتراند رسل في العصر الحاضر ، وخلاصة آرائهم جميعاً أن « الحرية الفردية » غرض مطلوب لذاته وليست وسيلة نتوسل بها إلى غرض آخر ، وأن مهمة الحكومة مقصورة على كفالة هذه الحرية الفردية فلا حق لها في استخدام شيء من السيطرة وراء هذه الغاية .

على أننا اخترنا الاستاذ هاييك لتمثيل هذه المدرسة لان كلامه فيها أقرب إلى البحث المجرد الذي لا يصدر عن تقليد من التقاليد القومية ، فليس هو من صميم الانجليز ولا من الذين تعلموا في المدارس الإنجليزية ، ولكنه ولد في النمسا وتعلم فيها وفي الولايات المتحدة وانتقل بعد ذلك إلى إنجلترا حيث يقينم الآن ويشغل بالتعليم في جامعاتها . وقد أصبح له صوت مسموع في ميدان الثقافة والسياسة وشاعت آراؤه على أثر نشرة لكتابه المسمى « بالطريق إلى الرق » ويعني الكتاب أنه لا يكتفي بترديد المبادئ الاولى التي أيد بها الحريون مذهبهم لاختلاف الاحوال بين القرن الماضي والقرن الحاضر ، فإن مبادئ الحريين الاولى قد لوحظ فيها تفنيد حجج المحافظين الذين كانوا يميلون إلى تقييد الواردات وزيادة المكوس واحتكار الاسواق ، أما مبادئ الحريين في العصر الحاضر فالملحوظ فيها تفنيد القائلين باستيلاء الدولة على المرافق العامة وتعميم نظام التأمين على المنشآت القومية الكبرى ، وقد ساعد على إقحام هذه المبادئ في البيئة الإنجليزية عوامل جديدة لم تكن معهودة في القرن الثامن عشر ، ومنها مشكلة البطالة وتكاثر حزب العمال والاضطرار إلى تقييد التجارة وتنظيم الإنتاج في الحرب العالمية الاولى وفي الحرب العالمية الثانية ، وتزاحم الدول على الاسواق واعتماد أصحاب المصانع والشركات على مساعي حكوماتهم عند الحكومات الاخرى .

فمذهب الحريين كما يعرض الآن مذهب جديد في أسبابه ومناقشاته وإن كان قديماً في أصوله وغاياته ، ويبدو من ذبوع كتاب الاستاذ هاييك أن أنصاره والمستعدين للاقتناع به غير قليل بين قراء الإنجليزية ، فقد طبع ست مرات بعد طبعته الاولى ونشرت منه طبعة شعبية غير الطبعة الخاصة ، واعتبره الحريون

معبراً صادقاً عن آرائهم في الرد على أنصار التأميم والتعميم .

يعمد الاستاذ هاييك إلى الحجة الاولى من حجج المقيدين والمنظمين - وهي ضرورة التأميم في العصر الحاضر تبعاً لتقدم الصناعة - فينفىها كل النفي ويستند في نفىها إلى بيانات لجنة الاقتصاد القومي الامريكية التي درست مسألة التركيز الاقتصادي وسجلت نتائج بحثها في تقرير واف قدمته إلى الكونجرس منذ عشر سنين (١٩٤١) .

وفحوى حجة المقيدين والمنظمين أن تقدم الصناعة في العصر الحاضر لا بد أن يفضي إلى نتيجة من اثنتين : إما احتكار الاسواق في أيد قليلة ، أو سيطرة الحكومة على المصانع والاسواق ، لان تقدم الصناعة يجعل في مقدور المصانع الكبيرة ان تقضي على المنافسة بقلّة التكاليف وجودة البضاعة ورخص الأسعار ، فإذا تركت الحكومة حبل المصانع الكبرى على غاربها فالنتيجة المحتومة هي الاحتكار والقضاء على صغار الصناع والتجار .

والاستاذ هاييك يقول إن شيئاً من ذلك لم يثبت من بحوث المختصين ، فلا جودة الصناعة ثابتة للمصانع الكبرى ولا سيطرة الحكومة ضرورية لتنظيم الصناعات .

ويختصر الطريق فيقول إن السيطرة الحكومية بدأت في ألمانيا منذ ثلاثين سنة حيث لم تبلغ الصناعة غايتها من التقدم وتأخرت في إنجلترا التي سبقت الامم الاوربية في هذا المضمار . والمعروف أن أصحاب المصانع هم الذين يسعون إلى تقرير نظام التقييد والتنظيم ويبدلون في هذا السبيل غاية ما يستطيعون من وساطة وتأثير . فلو أن الامر كان حتماً مقضياً لا محيد عنه لاراحوا أنفسهم من المساعي الحثيثة في هذا السبيل .

وليس قصارى الاعتراض على التقييد والتنظيم أنه عمل لا تقضي به الضرورة في الظروف العامة ، وإنما يعترض عليه الحريون لانه سياسة ضارة بالصناعة نفسها وضارة بالاخلاق والآداب وضارة بقضية السلام في العالم .

فقد كان تقدم الصناعة والاختراع مقترناً بحرية المعاملة وفتح باب المنافسة لمن

يشاء ، ولن يطرد هذا التقدم إذا بطلت المنافسة ووكل الامر إلى رقابة الموظفين الذين يعملون لغيرهم ولا يعملون لانفسهم .

ومتى استقر الرأي على تفويض الحكومات في شؤون الإنتاج والاقتصاد فمن لوازم هذا التفويض أن يسمح لها مقدماً بالتخاذ كل « إجراء » يستدعيه التنفيذ في حينه ولا يتأتى أن يحسب له حسابه قبل ذلك الحين ، ومؤدى ذلك ذهاب حكم القانون الذي يتعارف عليه الناس قبل تنفيذه ، وإيكال الامور كلها إلى تقديرات المنفذين على حسب كل ظرف من الظروف .

يقول الاستاذ إن خبر وسيلة لحسن العمل هي إقناع العاملين بصوابه وحسن جدواه ، وليس من الممكن إقناع الناس قاطبة بخطة من الخطط السياسية أو الاقتصادية تطبق عليهم في جميع الاحوال ، فينتهي الامر بإحلال الدعوة والتبشير محل التعقل والإقناع ، ويتعارف الساسة والرعايا على الخداع والتضليل للتوفيق بين الدعوة وبين أمزجة الناس وآرائهم ، وتنشطر الامة إلى فريق مع النظام وفريق خارج عليه محتاج إلى الإكراه أو إلى التثمين لإدخاله في سلك ذلك النظام ، ومن هذا الانقسام تنشأ رذيلة الاستبداد التي تقصر الحقوق القومية على من يشايعون السلطان القائم ، ومتى كانت الحكومة هي صاحبة العمل وصاحبة السلعة فالذي يخالفها يقاطع موارد الرزق ويتعرض للجوع والانتقام على يد القانون .

ويناقش الاستاذ أقوال القائلين إن الآفة في الدولة المستبدة هي آفة الحاكمين بأمرهم لا آفة النظام نفسه ، وإن البلاد الألمانية والإيطالية لو أسندت إلى حكام غير هتلر وموسوليني ومن معها لما ساءت فيها الامور كما ساءت ولا تعرض السلم في العالم للخطر كما تعرض له من جراء خطل الرجلين ومن على شاكلتهما من الاشرار أو الإمعات ، ولا أفضي الخطر فعلاً إلى وقوع الحرب واتصال القلاقل في العالم بعد هزيمة المعتدين .

يناقش الاستاذ أقوال هؤلاء ويخرج منها على نقيض ما زعموه : وهو أن الآفة في النظام حيث كان وليست الآفة في آحاد معدودين يبرزون بالمصادفة والاتفاق في بلد دون بلد وزمان دون زمان .

إن الدكتاتور - الحاكم بأمره - يصعد إلى عرش جبروته بتأييد جمهرة من الأمة يستمد منها القدرة المطلقة على قمع معارضيه وفرض الطاعة العميلة على جميع المحكومين ، وهي تخوله الأمر المطلق لأنها تتقبل « نظرية واحدة » في شؤون السياسة .

ومن القواعد المقررة أن الإنسان كلما اترقى في العلم والفهم بلغ مرتبة الاستقلال بالرأي والاستقلال بالخلق ، فلا يتسنى اجماع كثرة غالبية من هؤلاء المستقلين فيها وبغير تعقيب عليها .

فالجمهرة التي تؤيد الدكتاتور هي بطبيعتها جمهرة مسفة في طبقة الفكر والخلق ، تهون عليها حريتها وتهون عليها حرية غيرها . ولا تشعر بفقدان الحرية ، لأن الذي يشعر بفقدانها هو الذي يقدر على استقلال الرأي فيشعر بالحجر عليه .

ولا يخفى أن الحاكم بأمره يتعلل على المجالس النيابية لأنه يتهمها بتضييع الوقت في المناقشات ويرغب في سرعة الإنجاز ومضله العزيمة عند البت في جلائل الأمور ، فإذا رسخت قدمه في مكانه فليس من المعقول أن يطبق المعارضة ممن حوله ولا أن يحتمل المشاركة وهو قادر على التفرد برأيه ، فلا يلبث أن يحيط عرشه بمن يذعنون له خوفاً واستسلاماً أو عجزاً عن مقابلة الرأي بالرأي والدليل بالدليل . ولن تطول هذه الحالة حتى تقضي على عناصر التفكير والاستقلال فيمن يقبضون على أزمة الدولة ويذرون معه أداة الحكومة .

ولما كانت جمهرة المحكومين لاتساس بالرأي والروية فلا غنى للحاكم المستبد عن سياستها بإثارة العواطف وتحريض نوازع البغضاء والحماسة على « العدو المزعوم » الذي يخترعه لها إن لم يكن له وجود في مخيلتها . وقد كان « اليهودي » هو العدو المختار لشعب ألمانيا ، وكان الكولاك أو مالك الأرض هو العدو المختار لشعب روسيا ، وكانت إنجلترا تارة وحكومات « رأس المال » تارة أخرى هي العدو المختار في السياسة الخارجية ، وعلى الدكتاتور - متى استثار حفاظ البغض في نفوس رعاياه - أن يسمح لها بافتراس ضحاياها وأن يخلي بينها وبين أعدائها ،

ولها منه أيضاً أن تعينه على ضحاياه وأعدائه . . إذا انهم هم العدو المشترك الذي يقف في الطريق دون بلوغ العظمة المنشودة والمجد المأمول .

فحكم القسوة والإجرام وضيق الحظيرة وقلة الصبر على الآراء المخالفة طبيعه ملازمة للحكومة المستبدة ، وقد قيل إن الطغيان يفسد صاحبه وإن الطغيان المطلق فساد مطلق في جميع الاحوال ، فإذا اتفق مرة أن يتبوأ عرش الطغيان حاكم صالح فلا أمان عليه من عدوى الفساد والانحدار .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن الحكومات انما تسيطر على المصانع والسلع لتتولى هي أعمال التجارة مع الأمم الأخرى على أساس القوة والغلبة ، فتصطدم القوة بالقوة ويقع الاحتكاك الذي يخشى منه على السلام العالمي ، ويلتفت العالم بعد الخراب الجائع الذي ابتلي به من جراء المنازعات والحروب فإذا هو قد أضاع من الزمن بتلك السرعة المزعومة أضعاف ما يضيع عليه في المناقشات الحرة ، فضلاً عن خسائر الأرواح والأموال .

ويعتقد الحريون أن تجارب التقييد والتنظيم محاولات مخففة تؤول في النهاية إلى الاعتراف بالمنافسة الحرة في نضاقها الصالح الذي لا يجاريها فيه نظام آخر . فهي محاولات غير ممكنة كما أنها غير ضرورية . فليس في الدنيا إنسان ولا جملة من الناس يملكون المعلومات والوسائل الكافية لإخراج كل سلعة بالقدر اللازم في الآونة اللازمة ، وإنما يتكفل التنظيم بناحية وتتكفل المنافسة الحرة بناحية أخرى ، وتقلب الاحوال في الاسواق أبداً على حسب الطلب والمحصول وكثرة هذه السلعة وقلة تلك وتغير الافواق والحاجات بما لا يدخل يوماً في حساب ولا تدبير .

ويطول شرح الآراء والاسباب التي يبنون عليها نظرياتهم في حكمهم على عاقبة التقييد والتنظيم ، سواء منه ما يطبق في ميدان الاقتصاد القومي أو في ميدان المبادلات العالمية .

وقد جمع الأستاذ هاييك طائفة من بحوث علماء الاقتصاد في الأمم الأوروبية كالاستاذ بيرسون الهولندي والاستاذ لدنچ ثون ميز النمساوي والأستاذ جورج

هالم الالماني والاساذ بوريس برتركاس الرومي وقدم لها في مجموعة باللغة الانجليزية نشرت باسم « تنظيم الاقصاد الجماعي » Collectivist Economic Planning فاتفقت اقوالهم جميعاً على رأي واحد أسفرت عنه التجارب الجماعية في كل أسة بغير استثناء روسيا الشيوعية ، وخلاصة هذا الرأي أن الإنتاج الجماعي مستحيل بغير تقدير « ثمن » للسلع يتوقف على نسبة الحاجات المعيشية بعضها إلى بعض ولا ينسر التحكم في تقديره بحال من الاحوال .

وما معنى تقدير « الثمن » الذي يرتفع ويهبط من حين إلى حين ؟ معناه الموجز أن ضبط مقادير السلع بالتحكم والإملاء السابق غير مستطاع ، وأن الحرية الاقتصادية على نحو ما تغلب على أوامر التحكم والإملاء .

والاستاذ بيرسون الهولندي يعرض في بحثه عن مشكلة « القيمة » لتوزيع الدخل في بلاد الصناعة المقيدة فيتساءل : هل يوزع الدخل بتقدير عمل العامل أو يوزع الدخل بغير نظر إلى عمله ؟ فإذا تفاضى ولاة الامر عن عمل العامل فلا صناعة ، وإذا دخل تقدير العمل في الحساب فهناك التفاوت بين الدخل المتعددة ، وإذا تكفلت الدولة بتشغيل كل عامل فلا بد من وقت يقل فيه الطلب أو تقل فيه الخامات أو تختلف فيه النسب والمقادير فيتعرض فريق من عمل بعض الصناعات لركود الحركة أو البطالة وتصل إليهم الاجور من قبيل الإعانة والإحسان ، وتشابه الصناعات المؤتممة والصناعات الحرة في علاج البطالة على هذا الاسلوب .

ويتساءل أيضا : هل تتغير عادات الكسل والتواكل وإدمان السكر والطمع والإجحاف في الرؤساء والمرؤوسين اذا كان نظام التقيد والتأميم متوقفا على صلاح الاخلاق ؟ وإذا كانت هذه العادات تتغير فما الحاجة إلى قلب النظام الاجتماعي من حال إلى حال والناس يستريحون في ظل كل نظام حيثما عدل الكسلان عن الكسل وعدل السكير عن السكر وعدل المجحف عن الإجحاف ؟ وظاهر من هذه الآراء أن الاستاذ بيرسون وزملاءه من الحريين يرجعون بأسباب الفقر إلى عادات الإنسان وأخلاقه كيفما كان النظام وكيفما كانت أساليب الإنتاج .



والتنظيم العالمي مشكلة أعضل من مشكلة التنظيم القومي وتوزيع الدخل بين العاملين في الامة الواحدة . فمن الذي ينهض بعبء رأس المال في الصفقات الدولية ؟

تريد هولندية أن ترسل إلى جاوة بضائع مصنوعة في مقابلة صفقة من الارز والبن . فهناك ثلاث طرق لإجراء هذه المبادلة : إحداها أن يصل الارز والبن إلى هولندية ويؤدي ثمنه بعد وصوله أو بعد وصوله واستنفاد بعضه ، والاخرى أن تصل البضائع المصنوعة إلى جاوة ويؤدي ثمنها بعد وصولها واستنفاد بعضها ، أو يرسل كل من الطرفين مبادلته وتلتقيان في منتصف الطريق . فجاوة هي التي تنهض بعبء رأس المال في الحالة الاولى ، وهولندية هي التي تنهض به في الحالة الثانية ، وكلتاها تنهضان بالعبء في الحالة الثالثة .

ثم يتساءل الاستاذ بيرسون قائلاً : ما العمل في الامم التي لا تملك رأس المال حاضراً وتتسلف عليه في انتظار موسم من المواسم ؟ فهناك أمم لا يحضرها رأس المال كل ساعة وهناك أمم يحضرها الوفرة منه دائماً ولا يضيرها أن ترجىء الحصول على ثمنه في مقابلة شيء من الربح المنتظر ، وهناك أمم تنقص نصيبها من مادة لتتم نصيبها من مادة اخرى ، وقد يعظم الطلب في العالم على مادة زراعية على حسب المواسم التي تختلف من سنة إلى سنة ثم يقل الطلب على تلك المادة يعينها في نهاية ذلك الموسم ، وتداول المواد والاثمان والصفقات العاجلة أو الآجلة يجري الآن على السنن التجارية والاقتصادية في أعمال المصارف والبيوت التجارية . فكيف يحل التنظيم العالمي محل هذه الطريقة ؟ وعلى أي سنة يجري تقدير الاثمان وتقدير ما تؤديه كل أمة في كل حالة ؟

وبخلاصة ما يتوافق عليه الاقتصاديون الحريون في مشكلة التنظيم العالمي أنها تحتاج إلى تدبير أصحاب الحيلة الناجحة وتدبير أصحاب الكفاءة الضرورية لتنفيذها وتدبير أصحاب المهمة والامانة إذا توافرت الكفاءة . فمن الذي يضمن تدبير ذلك كله في وقت واحد وعلى حساب المفاجآت التي لا تدخل في حساب ؟

وكلهم يتسألون : ما الحاجة إلى قلب نظام الدنيا إذا فرضنا أن الدنيا ستتحول فيما بين ليلة ونهار إلى فردوس كفرديوس الملائكة الأبرار ؟ ويتسألون أيضا : ربما وجدنا الرجال الذين يصبرون على الشظف من أجل تمجيد صناعتهم الوطنية . ولكن أين هم الرجال الذين يصبرون على الشدة ويقاومون المحنة من أجل سكان مجهولين في جزيرة مجهولة يسمعون بها كرقعة ملونة على خريطة الكرة الأرضية ؟

كذلك تستطيع الحكومة القومية أن تقنع بعض رعاياها بالتحول من زراعة إلى زراعة باسم الحمية الوطنية وعلى اعتقاد أن المنفعة تؤول إلى إخوانهم في الوطن الواحد . ولكن كيف تقنع الناس في كل موسم بخطة جديدة تصدر من الهيئة العالمية التي تشرف على تنظيم الموارد والمصادر ؟ ومن أين تأتي القوة العسكرية التي تكره المخالفين والعصاة على الطاعة ؟ وكيف يرضى أبناء إقليم من الاقاليم بإهدار مصالحهم كلما قر في أخلاذهم أنهم ضحية لمطامع الدول الغنية ؟

إنه على الحملة تنظيم غير ضروري وغير ممكن ، ويزيد على ذلك أناس من الاقتصاديين المؤمنين بمحاسن المنافسة الحرة فيقولون إنه ضار بالافراد وبالامم وبالانسانية على عمومها . ففي ظل المنافسة الحرة التي تكفل بها نظام رأس المال نشأت حرية الفكر وحرية الضمير وحرية المعاملة واتسعت حقوق العمال وارتفعت أجورهم وتهيأت لهم ولاية الحكم في أمم كثيرة وتبين بالإحصاء أن دخل الفرد قد تضاعف من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين بحسبان ما يقدر على شرائه لا بحسبان ما يقبضه من العملة وتبين بالإحصاء كذلك أن دخل العامل في روسيا الشيوعية يزيد بقليل على ربع الدخل المتوسط بين عمال الولايات المتحدة ، وهذا مع الفارق البعيد بينهما في الحرية وفرص التقدم ، ومع الفارق البعيد بين مخاطر الحياة قبل القرن الثامن عشر في الدنيا عامة وضمانات الحياة المختلفة بعد قيام رأس المال . فقلت المجاعات والابوة وقلت ضحايا الجهل والخرافة ، وخطأ بنو الإنسان في قرن واحد خطوة أوسع وأجدى عليهم من خطواتهم في عشرات القرون .

ومساوئ النظام حقيقة لا ينكرها أحد . ولكننا لا نقابل نظاماً معروفاً المساوئ بنظام خلا من جميع المساوئ . فما من نظام في الحاضر والمستقبل يخلو

من مساوئه التي تعاب عليه . وإنما المقارنة بين مساوئ نظام ومساوئ نظام يلغيه ويعفي على محاسنه ولا ينبغي أن ننسى أن من المساوئ ما هو لصيق بعيوب الإنسانية ولا أمل في تغييره حتى تتبدل طبائع الإنسان .

إنما الوجه أن نحسب الحسنات مع السيئات ، فلماذا ينسون الحسنات حين يذكرون السيئات ؟ ولماذا يعالجون نظام المنافسة الحرة بهدمه ولا يعالجونه بإصلاح سيئاته ؟ فالسيارات مثلاً لها مخاطرها وتكاليفها وأضرارها وضحاياها ، وما من أحد يقول بإلغاء صناعة السيارات من أجل تلك الأضرار ، بل يقولون جميعاً بتحسين معاملتها وتوسيع طرقها ومد مسافاتها ، ويحتملون العيوب من أجل الحسنات ، ثم ينظرون في إصلاح العيوب حيثما استطاع الإصلاح .

والنتيجة من مذهب الحريين الحديث والقديم معاً هي « أولاً » أن التقييد غير لازم و« ثانياً » أنه غير مستطاع و« ثالثاً » أنه غير مأمون العاقبة على المصالح والحريات و« رابعاً » أن نظام المنافسة الحرة كفيل بإصلاح عيوبه مع الزمن على حسب مقتضيات الأحوال .

وقد يسبق إلى الخاطر مما تقدم أن الحريين المحدثين يتابعون الحريين الأقدمين في رفض التقييد بته وإطلاق الحرية للمنافسة الصناعية والتجارية بغير استثناء ، وأنهم يعودون إلى شعار الحريين الأول الذي فحواه : « دعه لسبيله » أو « دعه في سبيله » Laissaz Faire كما وضعه الساسة والاقتصاديون في القرن التاسع عشر بغير تنقيح .

إلا أن الحريين المحدثين لا ينحون هذا النحو ولا يرفضون التقييد والتنظيم كل الرفض في جميع الأحوال .

إنما يرفضون شيئاً واحداً وهو التقييد الذي يبنيه أصحابه على نظريات فلسفية قابلة للخلاف ويفرضونها على المجتمعات كأنها وحي مبرم لا تبدل لكلماته ولا يطاق الخلاف عليه .

إنما يرفضون الحجر على المستقبل إلى آخر الزمان ذهاباً مع معلومات تتغير في كل عصر وقد تنقلب من النقيض إلى النقيض ، أو هم يرفضون التقييد الذي هو

حجر على مساعي الارزاق وحجر في الوقت نفسه على العقائد والافكار وإكراه للعقول على أن تفهم كما يفهم فريق من الناس ، وللايدي على أن تعمل كما يسوقونهم من الآن إلى غير انتهاء .

فهذا هو التقييد الذي يرفضه الحريون المحدثون ، ولكنهم لا يرفضون إشراف الدولة على المرافق التي لا يستقل بها فرد أو جملة أفراد ، ولا يرفضون التقييد الذي توجيه المصالح والظروف حسب الحاجة المتجددة ، وقد يبيع في عام ما يحظره في عام ويخضع في الإباحة والحظر للرقابة العامة التي تصونه عن فساد الاحتكار وفساد الطغيان وفساد التعسف بالاهواء والنزوات .

واسم الحريين كاف لبيان لباب المذهب بحذافيره . . فالحرية الفردية أو حرية الضمير الإنساني هي الغاية القصوى التي تخدمها كل غاية ، وتحسين العيوب مع بقاء الحرية أمل مشروع يجاري سنة الحياة التي تقوم على الخطأ والتجربة والإصلاح ، ولكن ذهاب الحرية خسارة محققة بغير عوض مضمون ، لانه مقدمة لذهاب المصلحة الفردية والمصلحة القومية ، ومن وراء ذلك ذهاب المصلحة الإنسانية وخسارة المادة والروح .

جراهام والاس

Graham Wallas

١٨٥٨ - ١٩٣٢

كاتب اجتماعي اشتغل بالتدريس وساهم في تأسيس الجمعية الفابية الاشتراكية وكان أحد الأعضاء في لجنة التحقيق التي ندبتها الحكومة الإنجليزية لبحث مسألة الوظائف والموظفين ، وألف كتابا قيمة في أصول السياسة والاجتماع : منها كتاب « الطبيعة البشرية في السياسة » وكتاب « تراثنا الاجتماعي » وكتاب « الهيئة الاجتماعية العظمى » وكتاب « الرأي الاجتماعي » ورسائل متنوعة تلور حول هذا الموضوع ، عدا بعض التراجم والتقارير .

وهذا الكاتب الالمعي طراز آخر غير الكتاب الذين أجملنا الكلام عليهم في هذه الرسالة ، فهو لا يتشيع لشكل خاص من أشكال الحكومة ولا يستخلص من عبر التاريخ محورا خاصا تلور عليه النظم الحكومية ، ولكنه يحاول أن ينشئ علما للسياسة يضارع علم الاقتصاد أو علم الاجتماع إن لم يبلغ في دقته مبلغ العلوم الطبيعية والرياضية ، ويهتدي في محاولته هذه بقول أرسطو إذ يقرر أن السياسة علم يدرس للعمل لا للمجرد الفهم والمعرفة ، فلا ينفعنا أن نرصد حركات الامم

في الماضي ونقيس عليها حركات الامم في المستقبل ونضبط القياس حتى لا يتخلل قيد شعرة في تقدير ما هو كائن وما سوف يكون . فإن علماء الفلك يتقنون الحساب الذي يترسمون به سير الكواكب في مداراتها وملتقى الشمس والاقمار في أوقاته ، ومواعيد الخسوف والكسوف بأيامها وساعاتها ودقائقها ، ولكنه علم لا يتيح لاحدهم أن يحول كوكبا عن مجراه أو يؤخر لحظة من موعد الخسوف والكسوف .

أما المقصود بعلم السياسة فهو الاحاطة بمجاريها والاقتدار على تعديلها وتخويرها والتأثير فيها ، ومثل هذا العلم لا يكمل في سنوات ولكنه قد يبدأ في ساعات وينتهي بعد حين إلى فائدة لا شك فيها ، ولوظل ناقصا مختلطا عدة سنين .

ورأى جراهام أن تكوين علم السياسة لا يستلزم أن يكون الإنسان معقولا في تصرفاته السياسية ، وهو على حق في ذلك . إذ ليست المراقبة العلمية وفقا على أعمال المتعلقين والمناطقة بل هي قد تتناول حركات الجماد كما تتناول حركات الإنسان في المجتمع السياسي معقولا وغير معقول . وصلق من قال إن المرء ليجتاج إلى كثير من التعقل ليعلم كم يخلو الإنسان السياسي من التعقل ، ولا سبيل إلى فهم السياسة ولا إلى وضع علم للسياسة مالم تكن هذه الحقيقة ماثلة أمام من يدرسونها .

وقد مات جراهام والاس ولما يفرغ من محاولاته في تقرير قواعد علمه ، فلا نريد في هذا الفصل أن نلخص محاولاته تلك أو نلخص المقررات التي عساه كان منتهيا إليها لو امتدت به أوقات الاستقرار والتقرير ، فغاية ما في الوسع أن نعرض هنا نماذج من الاغاليط التي طرحها على مشرخته وأن نلم بأمثلة من أساليبه في مناقشتها أو تفنيدها ، وهي باتفاق الآراء أساليب علمية منزهة عن الهوى السياسي والدوافع الشخصية .

عرض مثلا لقول القائلين إن العامل الاول الذي يحسب حسابه في تصرفات الإنسان السياسية هو حب المنفعة .

فبعد أن تسأل : هل يصلق الإنسان في تقدير منفعته دائما ؟ عاد يضرب المثل
لحالة إنسان عرف منفعته في صفقة من الصفقات فإذا بمعرفة المنفعة وحدها لا
تكفي لتحقيق غاية من الغايات .

اطلع ذلك الإنسان مثلا على نأ في صحيفة يدل على طريق منفعة من وراء
المساهمة في إحدى الشركات . . فليس هذا الاطلاع وحده كافيا لعمل ما . بل
ينبغي أن يتبعه النشاط اللازم للعمل والخبرة الصالحة لاستخدام ذلك النشاط ،
وإلا فالعلم بالمنفعة والجهل بها يستويان .

وعرض لرأي القائلين إن الإنسان خاضع لعاطفته في حركاته السياسية ، فقال
إن العاطفة الواحدة قد تكون خالصة أو تكون مشوبة فيختلف أثرها في
الحالتين .

فالرجل الذي يرى صديقاً مشوها يرحمه ويبكي لمصابه ، وهذه هي العاطفة
الإنسانية الخالصة .

غير أنه يصرع الناس ويشوهم إذا التقى بهم في ميدان القتال وقيل له إنهم
أعداء الوطن أو أعداء الدين ، فينسى الرحمة أمام الصرعى والمشوهمين وتحامره
الغبطة حين يعمل الصراع والتشويه في أولئك الأعداء ، وشوائب العاطفة مهمة
في هذه الحالة ، لا تقل في وجوب الاتهام بها عن العاطفة كما خلقت في بنية
الإنسان وهي خالصة من شوائبها .

وعرض لرأي القائلين إن نظام الحكومات الماضية والحاضرة قام على حق
الملكية ، فقال إن أصحاب هذا الرأي يخيل إليهم أن الإنسان يعمل عملا معقولا
حين يبسط يده على قطعة من الأرض ، وأن حرصه عليها معادل لانتفاعه منها .
على حين أن غريزة « الاحتجاز » تغرى الطفل بججز الأشياء التي لا تنفعه ولا
يعرف منفعتها ، وما من أحد إلا وهو ينفر من الشعور بالمشاع في حياته ويجب أن
ينفرد بحوزة خصوصية أو خلوة نفسية Privacy حيث كان في عزله واجتماعه ،
وقد لحظت بعض الاندية هذا الشعور فجعلت من أداها المرعية أن يقصر العضو
خطابه على معارفه من الأعضاء ، ولا يستبيح لنفسه أن يفتح بالحديث عضوا لم

يتعرف إليه وإن كانت الاندية قد نشأت في الحضارة الحديثة للتعارف والاجتماع .

وعرض لرأي القائلين إن الحكم النيابي الصالح يتحقق بالانتخاب النسبي الذي يفسح المجال لكل ناخب أن يعطي صوته وأن تكون لجملة الاصوات المتفرقة قوة برلمانية لا تخضع لتدبير الاحزاب والزعماء .

فكانت مناقشته لهذا الرأي أنه ترك المفاضلة بين قوانين الانتخاب ورجع إلى البحث في قيمة التصويت : فهل المهم هو إعطاء الصوت فقط ، أو المهم هو تكوين الصوت وما أدى إلى تكوينه من استقامة التفكير أو عوج التفكير ؟

وبحث في مزية المجلس الاعلى الذي يوازن المجلس الآخر ويصله عن الشطط أو الإخلال بسلامة الاداة الحكومية ، فكان من رأيه أن المجلسين معاً يضمنان الموازنة النافعة حيث يتولى وظائف الدولة « سلك » من الموظفين الدائمين لا ينقطع بانقطاع الصلة بين مجلس منتخب ومجلس منتخب يليه أو بانقطاع الصلة بين المجلس الاعلى والمجلس الادنى في مآزق النزاع . وأنكر أشد الإنكار أن ترجع الوزارة إلى النائب لاختيار الموظفين في دائرته الانتخابية ، وهو رأي يقول به بعض المتوسعين في حلود الهيئة التشريعية . فاستدل بتجاربه في لجنة التحقيق على وجوب العزل بين الاختصاصيين ، وروى عن بعض الثقات أنهم يتشلهمون لما يلحظونه من تسامح المجالس الحديثة في الخلط بين عمل الوزارة وعمل التشريع ، فمن شأن هذا الخلط أن يجعل المشرعين عالية على المنفذين ، وأن يصدف ذوي الكفاءات عن التقدم للانتخاب .

ومن المسائل التي ألم بها مسألة الاجتماعات التي تعقد لإقناع المستعمين ، فقال إن الذين يحضرون هذه الاجتماعات هم في الغالب مقتنعون بما سيقال فيها قبل حضورها ، وإنهم لم يحضروها إلا لأنهم من أنصار الخطيب وحزبه في دعوتهم السياسية .

ونقل من خطب البرنس بولوف السياسي الألماني المعروف في أواخر أيام آل هوهنزرن كلاماً يقول فيه عن تعميم حق التصويت : « لا اخال أن أحداً من غير الاشتراكيين المتعصين للنظريات قد بقي على تفديسه لفكرة التصويت العام

واعتبارها بمثابة الآيات المنزلة » ثم يقول البرنس عن نفسه : إنه من جانبه لا يرغب الاصنام ولا يصلق المنزلات السياسية . وإن السلامة والحرية في أمة من الأمم لا تتوقفان - كلا ولا جزءا - على شكل الدستور وأحكام قانون الانتخاب وألمع البرنس إلى كلمة للزعيم الاشتراكي الألماني « بيل » يقول فيها إنه يفضل النظم الإنجليزية على النظم الفرنسية . فعقب عليها قائلا : غير أن الانتخاب ، في إنجلترا ليس بالحق العام على سنة المساواة وليس بالانتخاب المباشر ، ثم راح يسأل : هل في وسع قائل أن يزعم أن مكلنبرج التي ليس فيها انتخاب عام على الإطلاق أسوأ في حكومتها من جزر هايتي التي تسمع العالم أخيرا بغرائب أخبارها على الرغم من انتخاباتها العامة ؟

وجواب الاستاذ جراهام على السياسي الألماني أنه على حق إذا كان المقصود بالانتخاب العام أن الذين يتساوون في الاصوات يتساوون في جميع الاعتبارات ، ولكنه يجهل معنى كلامه أو يتجاهله إذا كان الانتخاب العام مبنيا على « أن توسيع نطاق القوة السياسية عنصر هام من عناصر الحكومة الصالحة ، وأن هناك عناصر أخرى للحكومة الصالحة كالاستعداد القومي والتبعة الوزارية وما إليها » .

ومن أسئلة الاستاذ جراهام سؤال عن رضا المحكومين هل هو شرط من شروط الحكومة الصالحة ؟ وقد رجح أن العالم النفساني يجيب عن هذا السؤال بالنفي ، وأنه لو وجه في الزمن القديم إلى أفلاطون لاجاب عنه بالنفي كذلك ، لان العقل في رأيه لا يتصور أن يقوم الحكم على أساس متقلب كأهواء جمهرة الناس ، ويقتدي بأفلاطون في هذا الرأي مفكر حديث هو « ولز » صاحب كتاب « طوبى العصرية » الذي يتخيل فيه قيام ثورة من العلماء الممتازين تتسلم زمام الحكم وتمضي فيه على هدى العلم والاخلاق وإن سخط عليه الجهلاء ، فإنهم كثيرا ما يسخطون على ما ينفع ويفرحون بما يضر ويضر .

ولم يزعم جراهام أنه حل هذه المشكلة ، ولكنه قال انها عقدة جديرة بعقل كعقل بنتام يعود إلى الدنيا مستهديا في هذه المرة بدراسات النفسانيين والاجتماعيين المحدثين ، ولا يقتبس هداه من فنيون وهلقسيوس .



من هذه الامثلة نعرف نهج الاستاذ جراهام والاس في محاولاته ، ونعرف المدي الذي وصل إليه من تقرير قواعد علمه . . فهو كالمهندس الذي يجس أعواد الخشب وحجارة البناء خشبة خشبة وحجرا حجرا ليدل على المادة التي تصلح لبناء البيت المقترح ، أو بناء « علم السياسة » كما بنيت علوم الطبيعة أو علوم الاجتماع والاقتصاد .

وفي اعتقاده أن مجرد الابتداء بتطبيق العلم على السياسة يرينا وجه الخطأ في كلام الذين يتحدثون عن « الديمقراطية المثالي » كأنه لا يعمل لغرض قط غير المصلحة العامة ولا يخطيء أبداً في فهم هذه المصلحة . . فنحن لا نسمع بعالم « بيولوجي » يتكلم عن الحي المثالي الذي لا يجوع ولا يمرض ولا يشكو نقصاً في تركيب أعضائه ، فلماذا يبقى بيننا من يتحدثون بالمثالية في تصرف المجتمعات والآحاد ؟ ولماذا ننادي في أخطئه المخطئين الذين يردون تصرف الإنسان السياسي إلى باعث نفساني واحد أو يقيمونه على فرض عقلي واحد وهو مزيج من شتى البواعث والفروض ؟

إن علم السياسة مطلوب لضمان السلامة في المجتمعات الإنسانية ، وليكن مثل العالم السياسي كممثل الصانع الخبير الذي يتحرى في تركيب الآلة السليمة أن يكون الشطط في استعمالها محسوباً له حسابه في صميم جهازها ، فتتقي الانفجار إذا زاد الوقود أو زادت السرعة أو أدير فيها مفتاح غير المفتاح الذي ينبغي أن يدار .

فليس من الضروري أن نتقن علم الآلات لتركيب آلة مثالية يمتنع عليها الخلل وتأبى المزيد من التحسين ، بل يكفي من العلم بها ما نحتاج به لعيوبها جهد ما تنيسر الحيلة ، ويكفي كذلك من العلم بالسياسة ما يؤدي بنا إلى مثل هذه النتيجة .

والمفهوم من مجمل أقوال الاستاذ جراهام أن استحالة التعقل في جميع التصرفات الإنسانية لا يحول دون الترقى في علاج الشؤون السياسية ، فإذا كانت الغلبة

للشعور في تصرف الإنسان فالشعور نفسه قد يتهاى لقبول الآراء الصالحة حسب معلومات « الشاعر » واتساع مجال إدراكه ، وقد يكون أثر الحقيقة من الحقائق أبعد مدى من نتائجها الحسية . كما اثر كشف أمريكا في تصحيح أوهام الناس عن الكرة الارضية وصورة الكون كله ومركز الإنسان فيه قبل أن تستفاد من ذلك الكشف نتائج الحسية التي تتعلق بترقية الملاحة والتجارة ، وجمع الملاحظات الصادقة عن طبائع الجماعات وبواعث العمل السياسي فيها وهي مجتمعة وبواعث العمل في أحادها وهم متفرقون - علم مطلوب كما تطلب العلوم ، ومحاولة طيبة لإلقاء النور على دوافع الساسة ودوافع المسوسين وحسب الناس من تقدم في هذا السبيل أن يخرجوا بالسياسة من الظلام إلى النور .

تعقيب

أول ما يبادر إلى ذهن القارئ من مراجعة المذاهب المتقدمة دفعة واحدة أنها تنقسم بينها الصواب والخطأ على حصص متفاوتة فليس بينها مذهب ينفرد بالصواب كله ولا مذهب ينفرد بالخطأ كله . وهي على تناقضها من ناحية يتم بعضها بعضا من ناحية أخرى ، بحيث يحتاج السياسي الحصيف إلى الأخذ بحصة من كل منها ليهتدي بها جميعا في سياسته العامة .

وتكاد تتفق كلها على استحالة « الطوبى » الموعودة التي تتعلق بها أحلام طلاب السعادة ويحسبوننها نهاية الشقاء وبداية النعيم المقيم في هذه الدنيا . فمهما تبدل النظم وتغير الحكومات فلن تنقطع أسباب الشكوى من الحياة الإنسانية ، ولعل ارتقاء الناس في معارج هذه الحياة يبعث من نفوسهم أسبابا للشكوى لم يشعروا بها في عهود الجهل والقلّة ، فإن الشكوى تأتي من الشعور بالكمال كما تأتي من الشعور بالنقص ، وتأتي من حرية التعبير كما تأتي من فقدان الحرية ، بل لعل الارتقاء أدنى إلى الشكوى من الركود والجمود ، ولعل الحرية أدعى إلى التذمر من القسر والخوف .

وعبث أن يقال إن نظاما من نظم الحكم أو الإنتاج يختم التباوت بين الناس ويبطل دواعي الأمر والطاعة بين جماهير الحكام والرعايا . فقد عهد الناس دائما

أن القوة تجلب الثروة كما عهدوا أن الثروة تجلب القوة . وسيظل التفاوت بينهم في البأس والذكاء والهمة والحيلة والجمال بابا من أبواب الاختلاف في حظوظ الجاه والسيادة ، وما من حيلة قط تقضي على دواعي التفاوت بين بني آدم وحواء ، فإننا نرى الخيل يباع واحد منها بجنيهاً ولا يباع واحد منها بأقل من عشرات الألوف وأخلق ببني الإنسان أن يتمتع التشابه بينهم إذا امتنع التشابه بين الدواب والحيوان الأدنى .

وفي الحياة ظلم وحرمان ، ولكنهما لا يرجعان إلى طائفة دون طائفة ولا إلى خليفة دون خليفة ، وقد يكون الظلام من الأسفل كما يكون من الأعلى ، وصديق المعري حيث قال :
ظلم الحماة في الدنيا وإن حسبت

في الصالحات كظلم الصقر والبازي

فليس على الناس عالة على سفلتهم ولا سفلة الناس عالة على عليتهم ، وليس هناك على سمرديون ولا سفلة سمرديون ومن قال إن طائفة تعمل وطائفة تغصب فقد ظلم الواقع وانحرف عن الحقيقة الوسطى ، ولا اعتدال قط في أمر من الأمور مع انحراف .

فالعاملون بأيديهم يعيشون اليوم بمخترعات العاملين برؤوسهم وقرائحهم ، ولولا هذه المخترعات لهلك العاملون بالأيدي جوعاً لنسبة الصناعات وقلة الأعمال .

والعاملون برؤوسهم وقرائحهم ما كانوا ليخترعوا جديداً لو كانت المعيشة منذ القدم وقفاً على حاجات الضرورة ، ولم تكن فيها تلك المعيشة الغالية التي تخري بتشييد القصور وتسيير السفن والتنقيب عن الجواهر والعكوف على فنون الملاحة والسبك والحفر والنسج وفضول الزينة ومناعم الفراغ .

ومن هو العالة على الآخرين ؟ ملايين من الخلق تستفيد الأقوات ولا تعطى الإنسانية شيئاً من تراث الفكر وقيم الأخلاق ؟ أو ألوف من الخلق يجدون فوق الكفاية فيرتفعون بالمعيشة من الضرورات إلى مطالب الكماليات ؟

وَمَنْ مِنَ النَّاسِ ظَالِمٌ وَمِنْهُمْ مَظْلُومٌ ؟ مَصْلُحُونَ يَفْتَحُونَ آفَاقَ الْمَعْرِفَةِ
وَالْفَضِيلَةِ وَالْجَمَالِ أَوْ سُودٌ لَا يَزَالُونَ يَنْصَرُونَ كُلَّ دَجَالٍ عَلَى كُلِّ مَصْلَحٍ وَيَعِينُونَ
كُلَّ طَاغِيَةٍ عَلَى طُلَابِ الْحَقِّ وَالْإِنْصَافِ ؟

كلهم إن رجعنا إلى الحقيقة عالة وكلهم عامل ، أو كلهم ظالم وكلهم مظلوم ،
وصدق المعري مرة أخرى حيث قال :
الناس للناس من بلو ومن حضر

بعض لبعض وإن لم يشعروا خدّم

ولكّما تقسمت الحظوظ وتوزعت الأعمال تبينت حاجة فريق من الناس إلى
فريق ، واستحال اكتفاء أحد منهم بما عنده . فليس انقسام الحظوظ وسيلة
للاستقلال أحد عن أحد بل هو على الدوام سبب جديد لتحويل كل منهم على
سواه .

فلن يستقيم عمار الكون على فئة واحدة ، ولن يرجع عماره يوماً إلى علة
واحدة ، وعلامة الخطأ الذي لا شك فيه أن نفس هذا الكون الواسع بتفسير
واحد أو ندعمه بدعامة منفردة . إذ لا نهاية لعوامل العمار ولا للمؤثرات التي
تنجم عنها هذه الآثار .

فالذين يقولون إن الإنسان يعمل لطلب السرور واتقاء الألم يجهلون الإنسان
ويجهلون بواعثه التي تحجب غاياته ، ومنها بواعث الطفل الذي يتحرك لينمو
وبواعث الرجل الرشيد الذي يتحرك لينمو كذلك ، وإن لم يكن نموه نمو أعضائه
وقامات .

والذين يقولون إن الإنسان يعمل لطلب المنفعة يجهلون أنه يقدم على الخسائر
وهو عالم بها ويهون عليه الموت ولا يهون عليه فوات أمل من الآمال .

والذين يقولون إن الإنسان يعمل ليعيش ينسون أن يسألوا أنفسهم : ترى لماذا
يجرّص على أن يعيش ؟

والذين يقولون إن الإنسان يعمل للمجد ينسون لماذا يعمل للمجد غيره ويترك

مجد نفسه في كثير من الاحيان ؟

والذين يقولون إن الإنسان يعمل للدنيا لا يذكرون من يعتزلون الدنيا وينزويون عنها .

فما استقامت الدنيا قط على فكرة واحدة ولا صلحت الحياة قط على علة واحدة ، ولا موجب للعناء في نقد المطالب والآراء إذا بدا عليها أنها تنقبض هذا الانقباض وتنحرف هذا الانحراف . فكل مذهب باطل إذا غفل القائلون به عن سعة الآفاق التي نعلمها وسعة الآفاق التي نجهلها ، وهي هنالك قائمة عاملة لا تغفل عنا إذا غفلنا عنها ، ولا تتخلى عن مجالها إذا عن لنا أن نخلي منها ذلك المجال .

ومهما يكن من تعدد المذاهب وتشعبها في رؤوس الحكماء فرأس الحكمة كلها في السياسة أن الامة الفاسدة لن تتولاها حكومة صالحة وأن الامة الصالحة لن تتولاها حكومة فاسدة .

وما هي الامة الصالحة ؟

ومن الوهم أن يظن أن الامة الصالحة لا تعدو أن تكون مجموعة أفراد صالحين ، فقد يصلح المرء فرداً ولا يصلح عضواً في أمة ، ولا تعتبر الامة صالحة إلا بفضائلها الاجتماعية التي يكسبها أبنائها بالمرانة الطويلة على الحياة السياسية .

فالصالح للمجتمع استعداد لا يكسبه الفرد بما تعلمه من المدارس والكتب ولكنه حاسة اجتماعية تتولد في الامة من مرانها على مزاولة الشؤون العامة أجيالاً متعاقبة حتى تصبح رعاية المصلحة العامة عادة في أبنائها يباشرونها عفواً الخاطر كأنهم لا يقصدها ولا يتكلفونها ، مثلهم في ذلك مثل الأعضاء التي تشترك في تغذية بنيتها وتوزيع غذائها بين أجزائها في غير كلفة ولا روية .

نعم ان علوم المدرسة والكتاب قد تقرب المرء إلى فهم هذه الحاسة الاجتماعية . بيد أنها لا تخلقها لسبب بديهي : وهو أن العادة الاجتماعية تتربى بالاشتراك مع المجتمع ولا تتربى بالفهم والسماع . وشواهد ذلك بينة من المقابلة بين الأمم التي

تساوت في انتشار التعليم ولم تتساو في التربية الاجتماعية او التربية السياسية ، فظاهر جدا من المقابلة بين هذه الامم أن المسألة مسألة تربية عامة مشتركة وليست مسألة فهم يستقل به كل متعلم من طريق المدرسة والكتاب .

فالامة الالمانية أمة متعلمة كثيرة المدارس والجامعات تروج فيها الكتب المبسطة والكتب المطولة ويندر فيها الاميون ولا يخلو فرع من فروع العلم من نابغة ألماني يسهم فيه برأي جديد أو تفسير مبتكر ، ولا بنائها ولح بالإحاطة والاستقصاء وتبويب المباحث وترتيبها تضرب به الامثال ولا تسبقها فيه أمة حديثة ، وقد كان ينبغي أن تكون قلوقة بين الامم في التربية السياسية لو كان مدار الامر على معارف المدرسة أو معارف المطالعة ، ولكنها مع هذا أقل في هذه الخصلة من أمم أخرى دونها في انتشار التعليم ووفرة الاطلاع ، إذ كانت أحوالها التاريخية حائلة بينها وبين المشاركة في حكم نفسها معودة لها أن تدين بنوع واحد من الحكم هو حكم السيطرة والطاعة ، ومرجع ذلك إلى وجودها في وسط القارة الاوربية هدفا للغزاة من الشرق والغرب والشمال والجنوب وعرضة للمنازعات بين أمرائها إذا هي استراحت من الغزوات الاجنبية .

فتعاقبت العصور وهي أشتات من الولايات المتفرقة تخضع كل ولاية منها لامير يحكمها على النظام العسكري ويترب منها طاعة المستسلم المعترف بضرورة هذه النظم العسكرية . فلم تتعود الوحدة القومية ولم تتدرب على مراقبة حكامها ولم تسر بينها عادات المشورة والمراجعة ولا الخبرة بترشيح من يسوسها في حدود هذه العادات وبرعاية من هدايتها ، فلا جرم سهل فيها وثوب المستبدين إلى مراكز السيطرة وتعذر فيها إسقاط مستبد من هؤلاء بغير كارثة تصدمه من خارج بلاده . ولولا طول العهد باستبداد الحاكم وخضوع الرعية لكانت أخرى بمن هم أفضل من هؤلاء الحكام .

ونكاد نقول إن نوع الحكومة لا يهم مادام المحكومون على قسط وافر من الحاسة السياسية عارفين بحقوقهم مقتدرين على أخذ الولاية باحترامها ، غير أن المبدأ القائل « بأن الحكم من الامة للامة » هو أصلح المبادئ لمجاراة هذه الحاسة السياسية في وجهتها . وهو المبدأ الذي يعطي المحكومين فرصة بعد فرصة لاختيار

لافضل من الساسة والأكفاء من القادة والولاة ورؤساء اللواوين .

وكما جاء في الاثر : « كما تكونوا يول عليكم » .

وكما قال الافوه الاودي :

تمضي الامور بأهل الرأي ما صلحت

فإن توالى فبالأشرار تنقاد

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهالهم سادوا

فهرست كتاب الحكم المطلق في القرن العشرين

الموضوع	الصفحة
هل فشلت الديمقراطية	١١
لم تفشل الديمقراطية	١٦
تمثيل الشعب	٢١
بلاد الدكتاتورية	
اسبانيا	٢٥
تركيا	٣١
ايطاليا	٣٦
موسوليني	٥٢
بسمارك	٥٧
نابليون بونابرت	٦١
خاتمة	٦٤

فهرست كتاب الصهيونية العالمية

الموضوع.....	الصفحة
بداة : العقاد والصهيونية.....	٧٣
١ - الصهيونية قبل الميلاد.....	٧٧
٢ - الصهيونية من الميلاد الى القرن التاسع عشر.....	٨٣
٣ - الصهيونية منذ وعد بلفور.....	٨٩
٤ - الصهيونية العالمية.....	٩٤
٥ - الصهيونية العالمية : جنايتهم على انفسهم.....	٩٨
٦ - الصهيونية العالمية : دعوى الاضطهاد.....	١٠٢
٧ - الصهيونية العالمية والنبوغ.....	١٠٧
٨ - الصهيونية العالمية وطوايرها الخامسة في ميادين السياسة والاقتصاد.....	١١١
٩ - الصهيونية العالمية وطوايرها الخامسة في ميادين الثقافة.....	١١٥
١٠ - الصهيونية العالمية وطوايرها الخامسة في المجالس النيابية.....	١١٩
١١ - الصهيونية العالمية وطوايرها الخامسة في السياسة الشرقية.....	١٢٣

الموضوع.....الصفحة

- ١٢ - الصهيونية العالمية : أساليبها في الوقت الحاضر (١) ١٢٨
- ١٣ - الصهيونية العالمية : أساليبها في العصر الحاضر (٢) ١٣٢
- ١٤ - الصهيونية العالمية : أساليبها في العصر الحاضر (٣) ١٣٦
- ١٥ - عصبية الصهيونية : في ميدان الثقافة والسياسة ١٤٠
- ١٦ - مصير الصهيونية العالمية والاسباب الدولية ١٥٢
- ١٧ - مصير الصهيونية العالمية ونفوذها المهدد ١٥٧
- ١٨ - مصير الصهيونية العالمية وبنيتها المتناقضة ١٦١
- ١٩ - مصير الصهيونية العالمية : في أعينهم ١٦٦
- ٢٠ - مصير الصهيونية العالمية : في أعين اصدقائهم ١٧٠
- ٢١ - مصير الصهيونية العالمية : ومقاطعة العرب ١٧٤
- ٢٢ - الاستعمار الصهيوني ١٧٨
- ٢٣ - الصهيونية والمستقبل ١٨٢
- ٢٤ - الصهيونية العالمية في الختام ١٨٦
- تعقيب : بروتوكولات حكماء صهيون ١٩١

فهرست كتاب النازية والأديان

الموضوع	الصفحة
النازية والأديان	١٩٩
النازية والأديان للنائب عباس محمود العقاد (١)	٢٠٥

فهرست كتاب هتلر في الميزان

الموضوع.....	الصفحة
مقدمة	٢٢٥
الفصل الاول - مخلوق الظروف والمصادفات	٢٢٩
تمهيد	٢٣١
مخلوق الظروف والمصادفات	٢٣٤
أفكاره وافكار غيره	٢٤٥
لا يخطيء !	٢٥١
لماذا اختاروه ؟	٢٥٥
سياسة هتلر	٢٦٣
الفصل الثاني - مطالب المانيا وشكاياتها	٢٦٩
مطالب ألمانيا وشكاياتها	٢٧١
نظرة اخرى في المطالب الالمانية	٢٧٧
فسحة العيش	٢٧٧
المستعمرات	٢٨١

الموضوع..... الصفحة

٢٨٥	دانزيج
٢٨٨	خلة المانية

٣٠١	الفصل الثالث - نفس هتلر
٣٠٣	نفس هتلر
٣٠٩	التربية والنشأة
٣١٨	شجاعته
٣٢٢	مبلغ صدقه
٣٢٦	غربة الاطوار
٣٣٤	كفاءته الذهنية
٣٤١	كفاءته الخطابية
٣٥٣	سياه
٣٦٠	اصحابه
٣٦٧	تلخيص

٣٧٧	الفصل الرابع - قضية اليوم
٣٧٩	قضية اليوم
٣٩١	بداية القضية
٣٩٣	هل فشلت الديمقراطية ؟
٤٠١	لم تفشل الديمقراطية
٤٠٤	الفوارق بين الديمقراطية والنازية - التقدم
٤٠٧	الفوارق بين الديمقراطية والنازية - الاخلاق
٤١١	الفوارق بين الديمقراطية والنازية - حل المشكلات
٤١٤	الفوارق بين الديمقراطية والنازية - النظام
٤١٦	الفوارق بين الديمقراطية والنازية الصحة

الموضوع.....	الصفحة
الفوارق بين الديمقراطية والنازية - التربية	٤١٨
الفوارق بين الديمقراطية والنازية البيئة	٤١٩
الفصل الخامس - قضية الغد	٤٢٥
قضية الغد	٤٢٧
مصر	٤٤١
كلمة الختام	٤٤٨

فهرست كتاب فلاسفة الحكم في العصر الحديث

٤٤٥	فلاسفة الحكم في العصر الحديث
٤٥٧	مقدمة
٤٧٤	جورج سوريل
٤٨٤	باريتو
٤٩٥	جايتا نوموسكا
٥٠٦	روبرت ميشل
٥١٣	جيمس برنهام
٥٢٣	فردريك اوجست فون هاييك
٥٣٤	جراهام والاس
٥٤١	تعقيب

الادارة العامة:

شارع مدام كوري - بناية حطب - مقابل اوتيل البريستول

ص.ب: ١١/٨٣٣٠ - بيروت - بريقاً: داكليان.

هاتف: ٨٦١٥٦٣/٨٦٠٧٩٢/٨٦٠١١٤ - مستودعات: ٨٦٠٣٤٨

تلكس: 23715 D.K.L. Att. Miss MAY. H. EL-ZEIN

فرع ثان: سد البوشرية - ستر فياض التجاري هاتف: ٨٨٣٥١١



دار الكتاب اللبناني

طباعة - نشر - توزيع

[illegible][illegible]

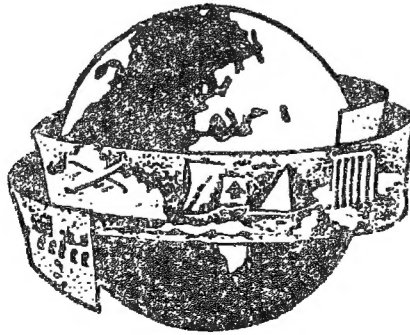


دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت: ٣٩٢٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي: (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧
صرب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - بريقيا: كتامصر

TELEX No: 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX: (202): 3924657 CAIRO - EGYPT



دار الكتاب اللبناني

طباعة - نشر - توزيع

شارع مدام كوريك - تجاه فندق بريستول

ت: ٨٦١٥٦٣ / ٨٦٠٧٩٢ - فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١١)

ص: ٨٣٣ / ١١ أو ١٣٥٣٥٢ - برفينا: دالكبان - بيروت - لبنان

TELEX No: DKL 23715 LE - ATT: MISS MAY. H. EL - ZEIN

FAX (9611) 351433 BEIRUT - LEBANON

**The Complete Works of
ĀBBAS MAHMOUD AL - ĀĀKAD**

Volume XIV

**DAR
AL-KITAB
ALLUBNANI**